

المملكة العربية السعودية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

المعهد العالي للدعوة الاسلامية

موقف الدعوة الاسلامية من التقدم المادي

رسالة ماجستير

اعدها

توفى جبر مصلح الكبيروني

اشرف

الدكتور عبد الحلیم منتصر

١٤٠٣ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحرّم لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد
الهداية والدرعاة والمصلحين سيدنا محمد وآله وصحبه ومن
تبعهم بإحسان الى يوم الدين
اسألك اللهم ان تخرجنني من ظلمات الوهم وتكرمني
بنور الفهم وان تفتح علي بمعرفة العلم وان تلهمني
شكر نعمك وتجعل عملي خالصا لوجهك .
انك سميع مجيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((المقدمة))

ان المسلم الغيور على دينه وعلى أمته الاسلامية لا بد أن تستثيره جملة قضايا معاصرة ، يقلب فيها فكره ، ويتساءل عن أفضل السبل للخروج بالدعوة الاسلامية الى نطاق واسع في الداخل والخارج لنشر كلمة الحق حتى تسمو ودحس الباطل حتى ينزوي .

ولقد أحسست منذ البداية أن حال الأمة الاسلامية وما تتردى فيه من ضعف يؤثر على مسار الدعوة الاسلامية ، وان التحقق بالقوة مع العودة الى الاسلام الصحيح من أبناء المسلمين سيؤدي الى انبثاق عهد جديد لصالح الدعوة الاسلامية واعتناق كثير من البشر لها .

وأول ما يلفت نظر المسلم هو حال الأمة الاسلامية في هذا العصر وما تتردى فيه من ضعف وهوان وعدم قدرة على امتلاك زمام أمرها أمام عالم لا يفهم غير لغة القوة ، يمتلك أمتي أنواع الاسلحة التي يسيطر بها على دول مستضعفة ، يستغل خيراتها ويستعبد أبناءها لتحقيق مآربه دون اعتبار لقيم خيرة في هذه الدنيا، ودون اعتبار لحق غيرهم في الحياة الحرة الكريمة . انه التعصب والعنصرية والانفلات من قانون السماء ، لا يدع لأهل القوة هؤلاء أن يضموا في اعتبارهم الجانب الانساني الاخلاقي .

وأمر آخر يشغل الذهن وهو حالة التأخر التي تعيشها الأمة الاسلامية في مختلف النواحي الاقتصادية والصحية والجهل المتفشى الى آخر كل ذلك من شروء ، وهذا يدفع الغيورين من أبناء هذه الأمة للتساؤل عن أفضل السبل للخروج من هذا المأزق الى حالة أخرى تتمتع فيها الأمة بكل متطلبات الحياة السعيدة ، وتحقيق لها الرقي الحضاري والتقدم العلمي .

لقد دفعت هذه الاوضاع كثيرا من المفكرين للبحث عن أفضل السبل للنهوض من جديد بهذه الأمة واستعادة مكانتها اللائقة بهاء خاصة وأن لها تجربة رائدة في هذا المجال ، يوم كانت أكبر قوة على الأرض تسعى لاعمار العالم ونشر الاسلام ودعوة الناس الى هذا الدين الذي يحقق لهم الخروج من عبودية البشر الى عبودية الله سبحانه وتعالى الذي فيه هزتهم وكرامتهم .

لقد بدأت هذه التساؤلات تلح بشكل كبير مع أول قدم للاستعمار الى الأرض الاسلامية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وقد اختلفت الآراء وكثرت الاجتهادات للخروج من مرحلة الضعف والتحقق بالقوة والتصنيع واستعادة الدور الحضارى .

وان ظروف العصر الحاضر الذي نعيش فيه يفرض علينا من جديد التفكير فى قضية التقدم المادى وامتلاك القوة لحماية العقيدة والدعوة والأمة . وسيبقى هذا التفكير الشغل الشاغل لقطاعات واسعة من المسلمين حتى يتحقق ذلك باذن الله .

وقبل الخوض فى هذا الموقف أحب أن أوضح باختصار أهم التيارات البارزة التى ظهرت لترسم طريق التقدم هذا ، وتتلخص فيما يلى :

التيار الأول : وهؤلاء من بهرتهم حضارة الغرب وتقدمهم الكاسح فى المجال العلمى مقارنة بحال الأمة الاسلامية من التخلف الشديد ، وقد اعجبوا بالغرب ايما اعجاب وطالبوا بالسير على طريق الغرب للتحقق بهذه القوة والخروج من مرحلة الضعف هذه .

والتيار الثانى : نقض كل ما جاء به الغرب واعتبره كفرا بعدا عن الله ، وآثر هذا الفريق الانطواء على نفسه حفاظا على دينه ومعتقداته ، وصيانة لهذا الدين من كل المستعذبات الفاسدة - على رأيهم - مهما كانت .

التيار الثالث : اتجه أصحاب هذا التيار الى الاسلام نفسه يستمد منه فكره ويستخرج النظرة الواهية من تعاليمه ، فأبان الموقف الاسلامي الحقيقي من العلم ومن التقدم الذي يهدف الى التحقق بالقوة والتمتع بالازدهار الحضاري . وهذا الفريق دعا الى التفريق بين العلم الصحيح وما خالطه من مذاهب فاسدة ، وبين هذا الفريق أن الدين الاسلامي هو أعظم سند لهذا العلم وأنه لا تعارض بين علم حقيقي ودين صحيح ، وأن هذا الدين يدعو الى العلم والى تقدم حقيقي بخدم البشرية ويسمى الى رقيها .

وهذا الفريق لا يسمى الى مجرد التوفيق بين حضارة الغرب ودعوة الاسلام ، انما انبثق من نظرتة السليمة الى الاسلام نفسه ودعوته الى التوجه الى الحياة واعمار الأرض وامتلاك كل الاسباب التي تكفل لهذا الدين ولهذه الأمة العزة والمنة والتقدم في طريق الخير .

ان الطريق الصحيح في نظرهم هو العودة الى الاسلام وفيهم فهما حقيقيا مع الاستعانة بالعلم الذي توجهه العقيدة لنا حضارة حقيقية خالدة .

وقد اتضح لي ان الدعوة الاسلامية نفسها بحاجة الى هذا التقدم من واقع ما يؤديه من خدمات متعددة الجوانب الى الدعوة الاسلامية ، حيث أن هذا التقدم يحقق القوة للامة صاحبة الدعوة وفي ذلك قوة للدعوة ، وهذا التقدم يسهل أمر نشر الدعوة الاسلامية الى انحاء العالم كله، وأنه من خلال العلم الصحيح نستطيع أن نرسم معالم الدعوة بأسس يفهمها العالم اليوم حيث أتاح هذا العلم فرصة ثمينة للدعوة لاثبات قضاياها على أسس علمية ، وفي ذلك خير للدعوة ان شاء الله . وقضية اخرى وهي أن الدين الذي ينسحب من الحياة ولا يعالج قضاياها دين ناقص ، وهذا ما لا يوجد في الدين الاسلامي . انه دعوة للحياة بكل أبعادها، يرسم طريقها السليم وصولا الى الحياة الاخرى ، ويعالج قضايا المسادة

كما يحالج قضايا الروح ، وفي ذلك تكامل في نظرة الاسلام . وهذا أمر مهم يجب
ايضاحه على المستوى العالمي، ورد المفترجات التي توجه للاسلام من هذه الزاوية .

من هنا كان اختياري لموضوع هذه الرسالة " موقف الدعوة الاسلامية من التقدم
المادى " .

لقد أحسست منذ البداية أن واجبي كسالم أن أضح موقف الاسلام والدعوة
الاسلامية من قضايا التقدم المادى ، وكان عليّ أن أتجه الى القرآن الكريم والسنة
المطهرة لتجلية هذه النظرة من التقدم المادى ، حتى أبرز الدافع العقيدى للأمة
الاسلامية للأخذ بوسائل النهضة الحديثة وإبراز أهميتها للأمة الاسلامية والدعوة
الى الله والوقوف في وجه الأعداء وحماية الأوطان . لأن السند العقيدى هو أهم
الأمر في التمسك بهذه النظرة واحيائها من جديد على ضوء هذه المادى، مع
الاستمدا لموقف المسلمين في سابق عهدهم حين كان الاسلام هو الموجب
الأول لحركتهم في هذا الكون .

ولكن بعد أن اخترت الفكرة في ذهني ، شعرت بوعورة الطريق وصعوبة
الموضوع ، ولكن احساسي العميق بأهمية هذه المسألة ، لم تترك لي المجال
بالتردد ، فعمدت العزم على مواصلة الطريق مهما كان الأمر ، خاصة وقد أمدني
الدكتور الشرف - جزاء الله خيرا - بالتشجيع المطلوب .

بدأت بمرحلة الاعداد حتى استقر الرأي على الصورة التي خرج بها هذا
البحث مع الأخذ بالاعتبار ما اقترحه مجلس المعهد من تعديل في خطة البحث
وجعله من بابين يشتغلان على جوانب التقدم المادى اضافة الى تعريفات وتمهيد
يتعلق بالنظرة العلمية في القرآن والسنة .

وقبل ذكر تفصيلات الموضوع أحب أن أوضح أنني قد ركزت في كل مرحلة

من المراحل على أمور ثلاثة انطبعت فقرات الموضوع بها وهي :

- ١- النظرة في القرآن الكريم والسنة المطهورة أولا في كل قضية معروضة، وإبراز هذا الاتجاه قدر المستطاع .
- ٢- التوجه ثانيا الى التاريخ الاسلامي لايضاح القضية في ضوء تطبيق هذه المبادئ .
- ٣- بيان حاجة الأمة الاسلامية الى جوانب التقدم المادي في الوقت الحاضر، مع الأخذ بكل المستجدات الحديثة مادامت نافعة وخادمة لدولة الاسلام ودعوته ، مع التمسك الشديد بالمعقيدة الاسلامية أولا ومساندة العلم ثانيا لتحقيق هذا التقدم على أتم وجه وأكمله .

بدأت أولا بتعريفات تتعلق بمفهوم التقدم المادي ومفهوم الدعوة أوضحت فيه مفهوم التقدم وتطوره عند الغرب ، ثم أهدت موقفا من هذا المفهوم وأن مفهومنا ليس متابعاً للمفهوم الغربي ، إنما نقصد به مجرد النهضة وامتلاك الصناعات والتقدم في المجالات العلمية دون ارتباط بالفلسفات الغربية .

ومفهوم الدعوة الاسلامية كذلك، بينت فيه مجالات الدعوة وأهدافها وحاجتنا الماسة في هذا العصر الى حمل الدعوة الى كل مكان في العالم .

والفقرة الثانية " النظرة العلمية في القرآن والسنة " جاءت تحت عنوان "تمهيد" بحثت فيه الناحية العلمية ، حيث العلم هو مفتاح التقدم المادي ، وقد جاء تحت هذا التمهيد خمس نقاط هي على التوالي :

- ١- مفهوم العلم في الاسلام حيث وضح لي أنه مفهوم شامل يشمل العلوم الدينية والدنيوية من واقع الفهم الواهي لرسالة هذا الدين وشموله ودعوته الى ممارسة الحياة بالشكل المطلوب في حدود ما رسمه الاسلام وشريعته .

٢- القرآن يحض على العلم ويكرم العلماء .

وهذا موقف لا خفاء فيه ، حيث أبان القرآن في مقاطع كثيرة دعوتيه الى العلم وحث المسلمين على سلوك طريق العلم لأنه سهل الى الوصول الى فهم هذا الدين وفهم قدرة الله وهدى صنعته في هذا الكون ، خاصة وأن دلائل توحيد الله منبثقة في آيات الكون كلها .

كذلك كرم الاسلام العلماء وأعلى شأنهم ورفع من قدرهم .

٣- المنهج التجريبي مستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

في هذه الفقرة أوضحت أن المنهج التجريبي هو منهج الاسلام أصيل كشف عنه القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم لأول مرة في تاريخ البشرية ، وذلك فهو ابتكار اسلامي لم يسبق اليه ، ولم يوجد عند أمة من الأمم التي ظهرت على مسرح التاريخ . وهنقدت مقارنة بين طريقتي القرآن وطريقة العلم الصحيح حيث بان التوافق التام بينهما .

٤- مناهج العلماء المسلمين وتأثرها بالقرآن والسنة .

لقد كان المنهج التجريبي هو منهج علماء المسلمين الذي استمدوه من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، حيث لم يكن عند اليونان وغيرهم من الأمم هذا المنهج بالشكل الذي وضع عند علمائنا .

٥- شهادات منصفية .

كان لا بد في وجه انكار الحقائق من ذكر طائفة من شهادات العلماء ونسبتهم المنهج التجريبي الى المسلمين ، وقد ذكرت بعض شهادات لعلماء لهم مكانتهم في أوروبا حيث موجة الانكار شديدة وموقف اكثرهم معروف من حيث لا يريدون نسبة أي فضل للمسلمين وينكرون تأثيرهم بالمسلمين أي باسم نهضتهم العلمية .

ثم يأتي بعد ذلك الباب الأول بعنوان : " الانسان وعلاقته بالكون المادى
كما بصورها الاسلام " .

فى الفصل الأول بينت مركز الانسان فى الكون المادى من خلال المنطق
القرآنى ، حيث هو خليفة وسيد وأن كل ما فى الكون موضوع لمنفعته ومسخر
لصلحته ولا استفادة منه .

وهذا التسخير لموجودات الكون أمر فى غاية الأهمية للانسان حيث تضمنه
فى الموضوع الصحيح للهدى فى عملية الاعمار التى يستلزمها متطلبات وجوده فى هذه
الأرض ، فذل الله له هذه الموجودات وسخرها ليستفيد منها ويحقق الخير
لنفسه وجماعته من خلال ذلك ، وهذا التسخير يخضع لسنن ثابتة لا تتبدل .
وكان لابد لهذا التسخير من عطل وجد واجتهاد ، ومن هنا كانت دعوة الاسلام
للعطل والهدى لاعمار العالم كما أراد الله سبحانه وتعالى . فكانت على هذا
قيمة العمل كبيرة فى ميزان الاسلام .

بعد ذلك يبدأ الفصل الثانى بعنوان " الاسلام ودعوة المسلمين الى معرفة
العلوم النافعة " .

وحتى تتكامل النظرة وتحقق الفائدة كان لابد من بحث العلوم الطبيعية
والكونية والتطبيقية لتلازم ذلك بصله الانسان بهذا الكون المادى ، لأنه لا يمكنه
القيام بواجبه نحو الاعمار بدون الاستعانة بهذه العلوم التى تستند موضوعاتها
وسننها من هذا الكون الذى خلقه الله وأودع فيه هذه السنن الثابتة - هذه
العلوم الخادمة للانسان نفسه والتى تقوده - ان سار على الطريق السليم -
الى معرفة القدرة الالهية وتعميق الايمان بالله سبحانه وتعالى .

ولكن خوفا من الاطالة اقتصرنا على ثلاثة فروع هى علم الفلك والرياضيات
والطب والصيدلة اتخذتها نماذج لبيان موقف الاسلام من العلوم النافعة جميعها ،

ثم ذكرت آثارها في التاريخ الاسلامي والاضافة المهدفة للمسلمين في هــــــــــــــ
المجالات ، وفي حاجتنا المعاصرة التي تدفعنا لا ستلاك هذه العلوم .

وجاء الفصل الثالث ليبحث في الموقف الحضاري لرسالة الاسلام وللمسلمين
في تزيخهم المجيد فكان بعنوان " المسلمون والحضارة " .

ذكرت فيه مفهوم الحضارة بشكل عام ثم ذكرت بعض الخصائص التي تميز الحضارة
الاسلامية عن غيرها من الحضارات السابقة واللاحقة . ثم عن الأثر الذي تركته
الحضارة الاسلامية في الحضارات العالمية وخاصة في الحضارة الأوروبية الحديثة
بمحيث امتد هذا الأثر الى شتى المجالات .

وفي نهاية هذا الفصل تطرقت الى الغزو الفكري وأبعاده في منطقتنا
الاسلامية والمخاطر التي تترتب عليه .

وجاء الباب الثاني ليربط قضية التقدم المادي بالدعوة الاسلامية ومدى ما تحققه
الدعوة من فوائد نتيجة لهذا التقدم المادي في مجالات متعددة .

وكان هذا الباب تحت عنوان : " بين الدعوة الاسلامية والتقدم المادي " .
وقسمت هذا الباب الى فصول ثلاثة :

في الفصل الاول : بحثت موقف الداعية المسلم من التقدم المادي ، وأنه موقف
الداعم لهذا التقدم ، ذلك لأن تعاليم الاسلام تدعو لهذا التقدم ضمن قيم
الاسلام واخلاقها وفي حدود تعاليم الشريعة الاسلامية السمحاء .

ثم أبحث سبل تحقيق التقدم المادي من خلال النظر الاسلامي
وارتباطه بالهدى والمعتقد حتى يبقى موصولا بالأهداف السامية ، ولا ينحرف
الى الأهواء حتى لا يقع فيما وقعت به الأمم الأخرى التي قادها التقدم
المادي بعيدا عن الدين الى ما نشاهد آثاره الآن .

ثم في القسم الأخير من هذا الفصل أوضحت أهمية العلم وكيف يقدم خدمة للدعوة الإسلامية من حيث اثبات قضايا الدين الإسلامي من خلال المنطق العلمي نفسه ، إلى جانب الاستعانة بهذا العلم وكشوفه لبهتان بعض الإعجاز القرآني فيما يتعلق بآيات الأنفس والآفاق .

وهذا في حد ذاته اثبات أن هذا القرآن من عند الله ، وفيه رد مباشر على مفتريات الأعداء من أنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه قضايا يجب أن يتوجه إليها الدعاة لبهتان أن الإسلام من عند الله .

وجاء الفصل الثاني ليعين أن التقدم المادي يوفر القوة اللازمة للأمة والدعوة في شتى مجالات الحياة في النواحي الاقتصادية من تصنيع وزراعة وتوفير غذاء وتجارة وصحة إلى آخر هذه القضايا التي تساعد الأمة في تحقيق تفوقها العسكري والاقتصادي والأمن الغذائي والصحي .

والفصل الأخير خصصته للكلام عن الوسائل التي قدمها التقدم المادي في مجال الاعلام والأجهزة الحديثة للطباعة والصحافة وغيرها من وسائل مواصلات حديثة التي ساهمت جميعها في نشر الدعوة وسهلت عمل الدعاة حيث قللت الجهد واختصرت الزمن ووسعت دائرة العمل إلى نطاق عالمي .

وهذه الوسائل إذا ما أحسن استغلالها ستقدم أكبر الدعم لصالح الدعوة وانتشارها على أوسع نطاق .

هذا ملخص سريع عن الرسالة وفصولها ، أرجو الله أن أكون قد وفقت في جمع هذه المادة وترتيبها بحيث تساهم مساهمة متوازنة في دفع المسلمين إلى العودة إلى الدين الإسلامي وممارسة دورهم في الحياة على أتم وجه .

والله نسأل أن يحقق الخير لأبنائنا هذه الأمة لتعود إلى مركز القيادة والتوجيه ولتكون خير أمة أخرجت للناس .

تعريفات

- مفهوم الدعوة الاسلامية
- مفهوم التقدم المادى

مفهوم الدعوة الإسلامية

الدعوة لغة

جاء في معاجم اللغة معان عدة لمادة دعا ، ومن مجموعها نخلص الى المعنى اللغوي لهذه الكلمة .

جاء في القاموس المحيط ما يلي :-

الدعاء : الرغبة الى الله تعالى ، دعا دعا ودعوى

وتداعوا عليه : تجمعا

ودعاءه : ساقه

والنبي داعى الله ويطلق على المؤذن

ودعوته زيدا : سمته

ادعى كذا : زعم أن له حقا أو باطلا

والدعوه : الحلف ، والدعاء الى الطعام (١) .

وجاء في لسان العرب ما يلي :

قال تعالى : " وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا " معناه داعيا الى توحيد الله وما يقرب منه .

والدعاة : قوم يدعون الى بيعة هدى أو ضلالة ، وأحدهم داع

ورجل داعية : اذا كان يدعو الناس الى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء فيه للمبالغة .

والنبي صلى الله عليه وسلم : داعى الامة الى توحيد الله وطاعته . قال تعالى :

مخبرا عن الجن الذين استمعوا القرآن وولوا الى قومهم منذرين : " قالوا

يا قومنا أجبوا داعى الله " . وفى الحديث " الخلافة فى قريش والحكم

فى الانصار والدعوة فى الحبشه " أراد بالدعوة الأذان (٢) .

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادى - نشر مؤسسة الحلبي ص ٣٢٨ ، المجلد الرابع .

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ٦ - مادة دعا .

وجاء في المعجم الوسيط ما يلي :

دعا الله : وجا منه الخير

ودعا الى الشيء : حثه على فعله

ويقال دعاه الى القتال والى الصلاة والى الدين والى المذهب :

حثه على اعتقاده

ودعاه : ساقه اليه

والداعية : الذي يدعو الى دين أو فكرة (الهاء للمبالغة)

والداعية : الدعوة الى مذهب أو رأى بالكتابة والخطابة ونحوها

الدعوة : ما يدعى اليه من طعام أو شراب . يقال : نحن نرى

دعوة فلان

ويقال كنا في دعوة فلان : أي في ضيافته (١) .

ومن مجموع ما ورد في المعاجم المذكورة أو في غيرها لم نذكره ، نخلص

الى أن المعنى الاصلى لهذه الكلمة : الدعاء والانتساب والعياح والتجمع

والنداء والزعم والسؤال والاستغاثة والحث والطلب .

فهى مطلق طلب حسي كطعام ، أو معنى كفكرة ، وهى محاولات

قوله أو فعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل .

الدعوة اصطلاحاً :

والدعوة بالمفهوم الاصطلاحى تستمد معناها من المعنى اللغوى ،

فهى دعوة الى بدعة أو دين ، دعوة الى بيعة هدى أو ضلالة .

ونقصد بالدعوة هنا الطلب الى خير وهدى ، والحث على

فكرة خيره ، وهذا الخير وهذا الهدى انما هو الدين الاسلامى الذى

جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو آخر الأديان السماوية وأفضلها .

(١) المعجم الوسيط - لمجموعة مراجعين - ابراهيم انيس ، عبد الحلوم منتصر ، عطية الصوالحي - محمد خلف الله احمد ، ج١ ط٢ ، مطابع

وإذا قلنا الدعوة الإسلامية ، فالمقصود إذن دعوة إلى دين الإسلام وذلك " بالانتساب إليه والحث عليه والنداء به ، والجهر بعبادته والسؤال الدؤوب عنه ، وجمع الناس كافة للالتفاف حوله ، والسير على طريقه القويم وهدية المستقيم" (١).

وهذا التعريف مستفاد من معاني الكلمة اللغوية مع تقييدها بالمراد الخاص وهو دين الإسلام . ونشير هنا إلى معنيين اصطلاحيين للدعوة (٢) ، فإذا قيل هذا من رجال الدعوة إلى الله فالمعنى للدعوة هنا هي النشر والتبليغ ، وإن قيل اتبعوا دعوة الله كان المراد بها الإسلام . وهي بمعنى النشر والتبليغ ، علم كسائر العلوم الإسلامية التي تشارك جميعها برسم طريق منهجي يكفل لهذا الدين الذيوع والانتشار . فهي " العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشرعية وأخلاق" (٣) .

وهي بهذا علم له قواعده وله موضوعه المتعلق بتعليم الدعوة كافة المحاولات الهادفة إلى تبليغ الإسلام . وهذه المحاولات متعددة منها قولية كالخطبة والدرس ، أو فعلية كالقدوة الحسنة ، والامتثال لدين الله سلوكا وعملا ، وهي فنية لأنها تراعى جانب التطبيق النظري ، وتلاحظ عمليات التأثير في نفسية المشاهد والمستمع ، وكل الأمور المتعلقة بكيفية التوصيل الجيد والتأثير الفعال .

والدعوة كذلك متعددة الجوانب لا تقتصر على ناحية واحدة من نواحي الإسلام ، فهي تخاطب العقل وتستحثه على التفكير ، وتطالبه بأعمال العقل حتى تكون القناعة قوية بما يدعى له . كذلك تتجه إلى العاطفة وتستثيرها ، وإلى الوجدان فتوقظه حتى يتم الانفعال ، والتأثير بما يشاهد وما يقاسم

(١) مرشد الدعاة - الشيخ محمد نمر الخطيب - دار المعرفة - بيروت ، ط ١ (٤٠١ هـ ص ٢٣)

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها - د . أحمد غلوس - دار الكتاب المصري واللبناني ١٣٩٩ هـ ص ١٠

(٣) المرجع السابق ص ١٠

وما يطرح من أدلة دالة على وجود الله وصحة الاسلام. وهي هادفة لأنها تركز كل هذه الجهود للوصول بالبلغين الى الدين الحق، واعتناقه، والاقناع به، وأنه الدين الصالح للدنيا والآخرة، ذلك الدين الذي جاء لم رسم الحياة السليمة للبشرية في هذا الكون في دنياها وآخرتها.

وقد رسم الله الطريق الأمثل للدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالحسنى. وهذه الامور يجب أن تكون دائما أمام الداعية ما ثلثة لا تفارقه في كل وسيلة يدعو اليها، حتى يتم البلاغ بالتأشير المطلوب وصولا الى الهدف المرسوم من الدعوة.

" ان الدعوة بمعنى النشر والبلاغ تحتم توضيح الاسلام، ونرى ضرورة فهم مزاياه وخصائصه بكافة الوسائل التي يتم النشر بها، ومن هنا فاننا نرى وجوب العناية بعلم الدعوة بهذا المفهوم، حتى يمكنه أن يساير التطور العلمي لوسائل الاعلان والدعاية، وليصير - بحق - علما متجددا على مستوى الناس وأفكارهم" (١).

أما التعريف الثاني للدعوة بمعنى الدين لا يراد منها الا الاسلام بتعاليمه فهي دعوة الله ذلك الدين الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيا من عند الله، وأركانه الايمان بالله ورسول الله والصلاة والزكاة والصوم والحج، وهو النظام الشامل لأمر الحياة.

وعلى ذلك فالدعوة تكون منصفة على العقيدة والشريعة معا، وما يتبعها من سلوك وأخلاق وعمل. وهذه هي أهم الامور في الدين. وليس معنى ذلك أن تترك الأمور الأخرى، بل علينا أن نتجه الى كل ناحية في الاسلام وأن نبين مضامينه وأثره في رقى الحياة وتقدمها، وقيامها على أسس صالحة تدعمها العقيدة والايمان. وعلينا أن نوضح مواقف الاسلام من كل قضايا العصر حتى نميز الخبيث من الطيب، حتى يتبع الحق ويجتنب الباطل.

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

فالدعوة لا ينصب اهتمامها على أمور معينه شكلية ، وهى ان فعلت ذلك
فقد انسحبت الى مساحات ضيقة ، بينما الاسلام يعالج أخطر القضايا
وأصغرها ، ولا يترك شاردة ولا واردة الا وله رأى فيها ويضعها فى
المكان المناسب لها .

ان قضية العقيدة ، واثبات وجود الله وقدرته ، وما يتبع ذلك
من ايمان بصدق الرسالة والايمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية
واليوم الآخر ، يجب أن تأخذ المكان الاول فى الدعوة الاسلامية ، خاصة
فى هذا العصر حيث موجة الالحاد عاتية ، ولا بد من تجديد كل الوسائل
الممكنة والمشروعة والاستعانة بالعلم الحديث ذاته لاثبات وجود الله ،
وبالتالى الرد المباشر على الملحدين المنكرين لوجود الله . لقد عالَج
الاسلام منذ أول ظهوره القضية الرئيسية التى كانت معتقدا للناس ، وهى
قضية الشرك ، واستطاع الرسول الكريم انهاء هذه القضية وحسمها بأكمل
صورة ، ومن واجبنا الآن أن نواجه قضية الالحاد عقيدة اللادينيين
الخطيرة ، وعلينا أن نستخدم الأدلة الدالة على وجوده سبحانه وتعالى
من واقع القرآن الكريم والسنة المطهرة مدعين أدلتنا بما توصل اليه
العلم نفسه من نتائج ثابتة فى مجال دراسة الكون وآياته الباهرات والدراسات
التى تتعلق بالانسان كذلك . والله سبحانه وتعالى يقول : " سنريهم آياتنا
فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " . (1)

وعلى المسلمين - تحقيقا لما ورد فى هذه الآية - أن يتجهوا لدراسة
آيات الله فى الكون وفى الأنفس حتى تتبين آيات الله وتكون دلالة على اعجاز
القرآن وصدق الرسالة . فدراسة هذا العلم وبيان أهميته فى هذا الشأن
يقع ضمن مسؤولية الدعوة الى الله لما له من دور فعال ضمن الوسائل الأخرى
الهادفة لحمل الناس على الاعتقاد بصحة هذا الدين عن اقتناع عميق ويقين
لا يقبل الشك .

وللعلم دور آخر في دعم قضايا الدعوة والأمة الإسلامية لما له من أهمية حيوية في الحياة ، ذلك العلم الذي يشارك في معالم النهضة الحديثة ، والذي لا تستغنى عنه أمة من الأمم اذا أرادت أن يكون لها دور فعال في الأرض حيث يوفر لها القوة والمنعة والحماية من خلال ما يتيح التقدم المادي للانسان من تقدم في جميع المجالات من صناعة وزراعة وقوة حربيته الى آخر ذلك . ومن هنا ننطلق في موضوعنا عن التقدم المادي وموقف الدعوة الإسلامية منه ، ذلك الموقف الداعم لهذا التقدم والذي يسير تحت قيادة مبادئ الدين ومن منطلقاته بحيث يوجه دائما الى طريق الصواب حتى لا يخرج عن حدود المصلحة البشرية ، لا كما نرى في الأمم التي تخلت عن قيادة الدين لها .

ونقطة مهمة هنا أيضا ، وهي التفريق بين العلم وبين فلسفة العلم وما قامت عليه من مذاهب ومعتقدات فسرت به الوجود أو أقامته دينيا لها بدل الدين الحق واتخذته معبودها ، اننا نفرق بين ذلك وبين العلم الصحيح القائم على اكتشاف سنن الله في الكون وفي الأنفس وفي كل مظاهر الحياة .

كذلك الشريعة من الاركان الرئيسية للدعوة ، وهي التكاليف الظاهرة المؤداه بالجوارح ، وهي أنواع متعددة وأعظمها العبادات التي رسم الله حدودها وبين دقائقها كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وتلك فروض عينيه واجبة الاداء على كل فرد . ومن قضايا الشريعة فروض الكفاية كالجهاد والعلم وأعمال الصناعة والزراعة وغيرها ، وهي واجبة على المجموع ان أداهها البعض سقطت عن الباقي وان تركها الجميع أثموا . ان ما عدا العقيدة والعبادات ، فان الشريعة قد وضعت لها الأصول الثابتة والكليات العامة . وتركت فروع التطبيق للناس ، لأن هذه الفروع تختلف باختلاف الزمان والمكان والبيئة وترسمها المدارس الفكرية المختلفة .

بقيت قضية الاخلاق والسلوك والتي تتشكل من واقع الايمان وممارسة
 أموره في الحياة . وقد جاء الاسلام بالأخلاق الفضلى ، وطالب المؤمنين
 أن يكون عملهم أخلاقيا ، ومبادئ العقيدة لاتقبل الا الخلق السليم ، لذا
 نهى تربي المؤمنين دائما على السلوك الأمثل في كل صغيرة وكبيرة . والرسول
 صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن . ووصفه الله بقوله " وانك لعلى خلق عظيم"
 هذه خلاصة أمور الدين التي يجب أن تنصب عليها الدعوة ونبدأ بالأهم ،
 لأن من قبل فكرة وجود الله والايمان به يسهل عليه قبول الأمور الأخرى ، خاصة
 وأن الدين الاسلامي تتوافق أحكامه مع العقل السليم فصحيح المنقول يوافق
 صريح المعقول كما يقول ابن تيمية .

ويلاحظ على التعريفين الاصطلاحيين للدعوة أنهما لا يعتمدان عن بعضهما
 البعض ، ان المصدر الذي يستقيان منه واحد وهو القرآن والسنة ، والموضوع
 الذي يراد تبليغه والدعوة اليه هو الاسلام بعقيدته وشريعته وسلوكه . والدعوة
 الناجحة هي الدعوة التي تستطيع استغلال الوسائل بطريقة سليمة والظروف
 المناسبة والفهم الدقيق لايصال الاسلام بالشكل الأمثل الى الناس . ونجاح
 الدعوة دليل الوعي القوى والفهم الصحيح للاسلام كدين ولوسائل تبليغه .
 فالمعنى على ذلك متقارب بين الاصطلاحيين .

فهذا الدين الذي تدور الدعوة حوله يشمل العقيدة والتشريع
 والاخلاق والقيم وأنواع السلوك ، والبشر بحاجة الى هذا الدين ككل ، وبدونه
 سيكونون أشقياء مهملين . والبشرية بحاجة الى كليات الاسلام والى جزئياته .
 فالانسان رغم تزوده بالعقل وتكريمه بالفكر والادراك الا أنه محتاج لهداية
 السماء . وواجبنا نشر هذا الدين بكل الوعي والفهم العميق ، ذلك الدين
 الصالح للبشرية كلها في معاشها ومعادها .

مفهوم التقدم المادى

التقدم لغة :

جاء فى لسان العرب فى مادة التقدم ما يلى :

يقال : قدم يقدم وتقدم يتقدم وأقدم يقدم واستقدم يستقدم بمعنى واحد .

ومقدمة كل شىء أوله

ومقدم كل شىء نقيض مؤخره

ومضى القوم التقدميه اذا تقدموا

واليقدميه والتقدميه معناهما التقدم

وقدمهم يقدمهم قدما وقدوما وقدمهم كلاهما صار أمامهم (١)

وجاء فى المعجم الوسيط :

المقدم من كل شىء : أوله

والمقدمه من كل شىء : أوله

وتقدم فلان : صار قداما

وتقدم اليه : تقرب منه

وتقدم القوم وتقدم عليهم : سبقهم فى الشرف أو الرتبة فصار قدامهم. (٢)

هذه المعانى اللغوية للكلمة تقدم لاتفيدنا كثيرا فى المعنى الاصطلاحى لمفهوم التقدم بالمعنى المعروف حاليا ، ونستشف من هذه المعاجم أن المعنى اللغوى للتقدم هو خطوة الى الامام . والسبب فى ذلك أن هذا المفهوم هو من المصطلحات المحدثه والذى تطور مفهومه فى العصر المتأخيرة .

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١ - الدار المصرية للتأليف والترجمة

(٢) المعجم الوسيط - لمجموعة مراجعين ، د . ابراهيم أنيس ،

د . عبد الحلیم منصر ، عطية الصوالحي ، محمد خلف الله احمد ،

ج ٢ ، ص ٢٢٠

المعنى الاصطلاحي

ان كلمة التقدم هي الترجمة العربية لكلمة * Progress * الفرنسية وقريناتها الانجليزية والألمانية^(١) . ويحسن بنا أن نستعرض مفهوم التقدم لمصطلح التقدم باختصار حتى نحدد ما المقصود به عندهم ، وبالتالي نوضح مقصودنا ، وذلك قبل المضي في فصول رسالتنا هذه حتى لا يذهب الظن بأننا نجرى حسب المفهوم الغربي ، وحتى يكون لنا مفهومنا الخاص واستقلالنا الفكري في طريق سيرتنا نحو بناء مجتمعنا المتحضر ونهضتنا الشاملة ضمن المفهوم الاسلامي .

ان تحديد المصطلحات وبيان المقصود منها شيء أساسي خاصة في عصرنا الحاضر حيث تزييف المصطلحات والتلاعب بها أمر خطير يودي الى البلبلة واختلاط المفاهيم . فلا بد من وعي صحيح لهذه القضية ، حتى تكون اللغة واضحة في مخاطبة الانسان المسلم ذي العقيدة السليمة ، وحتى تتحقق الفائدة من هذه الدراسة على أتم وجه ، ولكي لانحاط بسوء الفهم من وراء استعمالنا لمثل هذا المصطلح الحديث .

ترجع فكرة التقدم من حيث أصولها الاولى الى آراء "بيكون" وديكارت علميي النهضة العلمية في الغرب^(٢) . وازدادت الفكرة انتشارا في أواخر القرن السابع عشر ، وفي القرن الثامن عشر أخذت تسيطر على الفكر الاوروبي بصورة واضحة والذي يطلق عليه (عصر الانوار) أو (عصر التنوير)

وزاد في انتشار الفكرة ظهور الصراع الحاد بين أنصار القديم وأنصار الحديث من النقاد والأدباء ، فقد اضطر أنصار الحديث دافعا عن موقفهم الى اتهام دعاة القديم بأنهم قد وقعوا في وهم قياسي خاطيء ، وذلك حين نظروا الى من سبقهم من القدماء على أنهم أرجح عقلا بوصفهم أقدم عهدا ، ولكن الانسان

(١) معالم الشريعة الاسلامية - د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين ، ط ٢ ١٩٧٨ - ص ٢٩٠

(٢) في فلسفة الحضارة الاسلامية - د. نعت الشرفاوي - دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٢٣

كما يكبر سنا فتزداد حكمته مع الايام نضجا وأصاله ، فكذلك تضى الانسانية مع الزمن نحو التقدم . فاذا كان للقديم فضل السبق ، فان للاحق فضل الكمال (١) .

وقد ظهرت في منتصف القرن الثامن عشر طبقة من المثقفين الفرنسيين آمنست بالفكر والحرية والتقدم ، وهاجموا القديم في عنف دون توفير لشيء من الموروث . ومن هنا كان موقفهم من الدين على أساس أنه جزء من الموروث .

وكانت نظرة الكثير من العلماء في القرن الثامن عشر بأن الانسانية تتقدم في ميدان واحد على الأقل : وهو ميدان العلم الطبيعية والرياضية ، ثم فسي ميدان التطبيق العلمى لقواعد العلم المكتشفة . ثم استمرت نظرية التقدم فسي الانتشار وامتدت من مجال العلم الى مجالات أخرى من النشاط الانساني ، مثل السياسة والاجتماع والفن والفلسفة والتاريخ ، حتى أصبح للكلمة معان متعددة في القرن الثامن عشر (٢) .

وفي هذا القرن أصبحت فكرة التقدم أشبه بالقانون الذى يسير التاريخ ، حيث لم يعد معظم المؤرخين يقولون بالحركة الدائرية للتاريخ ، وانما بالخط المستقيم الصاعد من حسن الى أحسن دائما . ورغم ذلك فقد ظل بعض المؤرخين يتمسكون بالحركة الدائرية ، ومنهم المفكر الالمانى اشبنجلر فى كتابه " تدهور الغرب " أو غروب شمس ١٩١٨ - ١٩٢٢م ، الذى قال فيه ان حضارة الغرب جاوزت مرحلة الشباب والقوة ودخلت مرحلة التدهور والشيخوخة (٣) .

ارتبطت فكرة التقدم منذ نشأتها بالعلم ، وكانت دعوى أصحاب هذه النظرية مبنية على ما حققته البشرية من تقدم فى بعض العلوم ، وما ترتب على ذلك من كشف للمجهول ، وكان من نتائجه عصر التنوير بكل ما ارتبط به من تفاؤل وثقة فى المستقبل ورغبة فى السيطرة على الطبيعة ، واستعلاء على الماضى .

(١) المرجع السابق - نفس الصفحة .

(٢) الحضارة . د . حسين مؤنس - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب . الكويت . ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) المرجع السابق . ص ٣٣١ .

ولقد وصف أنصار هذه النظرية التقدم بأنه عملية تراكمية عبر الزمن ، فالمحدثون أكثر تقدماً من القدامى في العلوم والاختراعات ، ولذلك فليس ما يمرر الاعجاب غير المنطقي بالقدما* ، فان هذا الاعجاب - في رأيهم - يقف حجر عثره في طريق التقدم البشرى . فهم يرون أن الكمال البشرى غير محدود ، وأن تاريخ البشرية يمر في مسار تقدمي تتطور خلاله معرفة الانسان ، وتقترب شيئاً فشيئاً نحو الهدف النهائي للمجتمع البشرى وهو تحقيق الحرية والكمال والسيطرة التامة على الطبيعة.(١) وبذلك يكون قد انتهى مفهوم التقدم لدى الغرب الى مفهوم علمي - تكنولوجي خالص ، واعتقدوا أن طبيعة العقل وجوهسه معادلان للعلم ، والتقدم العلمى هو بالتالى مرادف للتقدم الانسانى*(٢) .

وامتد مفهوم التقدم ليشمل جوانب كثيرة من النشاط الانسانى ، فأصبح للكلمة معان متعددة ، منها ما يتصل بالفلسفة المذهبية ، ما جعل مفهوم التقدم يتخذ طابع نظرية شاملة في فلسفة التاريخ كما هو عند كارل ماركس وفرديريك انجلز وغيرهما . ومنها ما اتصل بفلسفة الاجتماع كما يمثلها أوجست كونت وجون استوارث مل ، وفي القرن العشرين وجدت لها أنصاراً عديدين من الماركسيين والبرجماتيين وأصحاب المذهب التجريبي*(٣) .

وارتبط مفهوم التقدم بمفهومين آخرين هما مفهوم التطور ومفهوم التفسير . أما التطور فهو وليد الفلسفة الداروينية بصورة خاصة(٤) ، ويتصل بالكائن الحي ، وهو تعديل بيولوجي فسيولوجي يختص بالكائنات الحية وفقاً لقانون الانتخاب الطبيعي . ولكن المتحمسين لفكرة التطور عمموا هذه النظرية على جميع جوانب الحياة ، واعتبروا أن التطور والتقدم متساويان على الرغم من الفارق بينهما حيث التقدم يختص بالفرد والمجتمع .

(١) مسيرة المجتمع د . عبد الجليل طاهر . بحث في نظرية التقدم الاجتماعى . المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ١٠٠-١٠٥ .

(٢) أسس التقدم عند مفكرى الاسلام . د . فهمى جدعان ط ١ ١٩٧٩ م . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ص ١٢

(٣) في فلسفة الحضارة الاسلامية ص ١٧٤

(٤) أسس التقدم . فهمى جدعان ص ١٢

كذلك ارتبط مفهوم التقدم بمفهوم التغير أو التحول الاجتماعى وهو مفهوم أقرب الى الواقع ، حيث تتحرك الجماعات البشرية وتتحوّل بمصرّف النظر عما اذا كان ذلك نحو الأحسن أو الأسوأ (١) . وكشفت الدراسات فى تغير المجتمعات حقيقة تأخر التطور الثقافى والفكرى والمعنوى عن التطور المادى ، مما نشأ عنه الاختلال فى الجانب الأخلاقى ، يشهد بذلك ما نراه فى هذا العصر من مظاهر الرذيلة واتساع نطاق الجريمة والمخدرات الى آخر هذه المظاهر .

أما النقد الذى وجه الى مفهوم التقدم فمتعدد الجوانب . فما انتهى اليه مفهوم التقدم لدى الغرب الى مفهوم علمى - تكنولوجى ، ومحاولتهم تفسير الحياة بناءً على ذلك ، قد أدى الى غياب الجانب الانسانى ، وبالتالى حصل الخلل المشاهد فى دنيا الغرب . وارتبط العلم والعلماء برغبات الساسة وصار يدور فى فلكهم ، مما نتج عن ذلك الحروب المدمرة وأبادة الشعوب بدلا من تحقيق الحياة الأفضل والأخذ بيد الانسانية وتخفيفها ويلاتها .

وهذا التقدم التكنولوجى ، الذى هو أكمل صورة من صور التقدم العلمى ، برغم ما وفره للحياة الانسانية من نعماء وسراء ، قد سلب الإنسان نفس الوقت نفسه المزية الوحيدة الحقيقية التى تتيح له الافادة مما أعطاه ، عندما صرفه صرفنا شديداً عن قيم الروح والدين . ولا مناص للإنسان من أمرين يتكاملان ولا يتعارضان : أحدهما طبيعته الروحية الاساسية التى لا يجوز له التفريط بها ، والا ضاع نفسه والآلة التى صنعها واستعد للهيمنة عليها ، والآخر الآلة نفسها التى ما تزال تفيده ، وتوفر رفاهيته برغم مساوئها ، وما كان للإنسان أن يعتبر تلك الآلة ألد أعدائه ، ولا أن يعدها سببا مباشرا أو غير مباشر فى انحلاله الخلقى والروحى . ولكن يتم التناسق بين هذين الأمرين ، ينبغى للإنسان أن يتخلّى عن توهمه القدرة ، بروحيته

(١) الحضارة . حسين مؤنس . مرجع سابق ص ٣٥٧

وحدها ، على الانطواء داخل الشعور على ذاته ، لأن الروحية الحقيقية فعالة ايجابية ، لاتزدرى العالم ولا تخارجه ، بل تنفتح عليه وتأخذ منه وتعطيه (١) .

ولقد اعتقد أنصار نظرية التقدم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن الانسانية في أيامهم قد وصلت الى درجة من الرقى يجعلها يبنأى من النكسات المخيبة ، وأن البشر قد تعلموا من درس الماضي وويلاته أن الحرب لاتفيد ، ولكن الوقائع بعد ذلك أثبتت عكس هذا القول تماما ، ان ازدادت الحروب شراسة واتساعا ، وأعقت الفرقة والضلال والانحلال الخلقى . لقد تقدم الانسان في جوانب كثيرة من حياته ، ولكنه بقى متوحشا ، وكان التقدم المادى هذا لم يؤثر الا على المظاهر الخارجية ، بينما بقى داخل الانسان كما كان .

ان الحروب المدمرة ، واستغلال الانسان لأخيه الانسان قد زرع ايمان الناس بما يسمى بالتقدم ، أو شككهم فيما ظنوه من امكان استمراره في الطريق الخير ، وهذا "اشينجلر" ينكر هذا الموقف من الحضارة الغربية واقتنائهم بالعقل ، ويرى أن هذا العقل الغربى نفسه هو الذى يقود حضارة الغرب كلها الى الدمار . وكذلك "توينبى" كان من جملة المنكرين لفكرة التقدم ، وخلصه كلامه أن الحضارة اذا كانت ترقى بماديات الانسان فانها تتحدر بمعنوياته (٢) .

وخطورة التقدم العلمى الهائل تكمن في ضغطها على المعنويات حتى كسادت تزعمها ، وبات انسان اليوم يتصرف بما قد يودى به ويغيره نتيجة ما يمتلكه من سلاح ، وهذا هو وضع الانسان القائد للحضارة والسياسه اليوم . وقد عبر عن هذه الحقيقة كتاب " التقدم نحو البربرية " "Advance to Barbarism" والذى يدل عنوانه على ما وصلت اليه الأمم الغربية نتيجة هذا التقدم العلمى المنفلت عن قيم الدين والاخلاق (٣) . وكذلك فقد واجهت نظرية التقدم كثيرا

(١) معالم الشريعة الاسلامية . د . صبحى الصالح . مرجع سابق ص ١٩١

(٢) الحضارة . مرجع سابق ص ٢٥٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٩-٣٦٠

من النقد ، بعضه يتصل بمنهج أصحابها في البحث ، وبعضه يتصل بالقيم التي صدروا عنها . من ذلك ما أشار اليه بعض الباحثين من مآخذ تتعلق بنقدهم العنيف للعصر الوسيط بمعايير معاصرة . كذلك فإن حملتهم على رجال الدين قد تجاوزتهم الى الدين نفسه ، لأنه لم يعد في نظرهم عاملا مهما من عوامل تشكيل الحضارة .

ومن جهة أخرى فإن نظرية التقدم قد واجهت نقد القائلين بالنسبية التاريخية الذين لا يرون في نظرية التقدم الانمطا من أنماط التنظيم الاجتماعي الذي يعنى بتحليل الواقع ، وتنظيمه على ضوء التجارب الماضية ، من أجل إحداث أكبر قدر ممكن من التغيير ، لخير أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع . فالتقدم بهذا المفهوم يمثل قيمة أخلاقية ويتضمن صفة توجيهية ، وينطوي على شعور بالمسؤولية المشتركة ، أكثر من كونه فلسفة واقعية للحقيقة التاريخية بالمعنى المعروف (١) .

وإذا انتقلنا الى عالمنا العربي والاسلامي نجد لهذا المفهوم أكثر من معنى ، بعضهم يتابع المفهوم الغربي ، وبعضهم يخالفه ويتخذون لأنفسهم مفهوما مستمدا من الاسلام بعيدا عن المفاهيم الغربية ، ونسوق هنا مثلا لكل اتجاه . يرى زكي نجيب محمود " أن العقل هو المعيار الصحيح لقياس التقدم والتخلف ، ويقول: على العقل أن يحكم على صحة الاشياء وعدمها دون التماس الاسباب من وراء العقل أو قوانين الطبيعة . " ويبدو أنه ممن تأثروا بالنمط الغربي من التفكير الذي أسقط من حسابه أو كاد الجانب الانساني الروحي ، فاعتبر البحث عما وراء الطبيعة جريا وراء السراب وعائقا عن التقدم " (٢) ويقول في كتابه " ثقافتنا في مواجهة العصر " : " التقدم الحضارى يقتضى حتما ألا نجعل الماضى مقياسا للحاضر وكيف نجعله المقياس ، اذا كان الحاضر أفضل منه بحكم فكرة التقدم نفسها لا النظر الى الماضى هو نظر الى الورا " ، على حين أن التقدم يقتضى أن نوجه النظر الى أمام ، والانحصار في الماضى هو انحصار في نمط واحد من أنماط الحضارة ، مع

(١) في فلسفة الحضارة . مرجع سابق . ص ٢٧٧-٢٧٨

(٢) الاسلام وموقفنا من حضارة العصر . د . الشهابي نقره . الندوة العالمية للشباب الاسلامي ١٣٩٩ هـ .

أن التقدم يحتم علينا الخروج من نمط أضييق نطاقنا الى نمط أوسع أفقا ، وأرحب اطاراً (١) .

هذا الرأي هو متابعة للمفهوم الغربي الذي عرضناه قبل قليل ، ويمثل تيارا معيننا تأثر بالحضارة الغربية أيما تأثر ، فأراد متابعة خطواتها جملة وتفصيلا ، أما مفهوم التقدم لدى مفكرين آخرين فلا يتابع هذه النظرة ، وانما يعتبر التقدم تحسينا ورقيا حضاريا بعيدا عن المفهوم العلمي الفلسفي الذي تشكل عند الغرب ، فقد رأى هؤلاء حالة الامة الاسلامية من حيث التخلف في الميادين العلمية والصناعية وغيرها ، وأرادوا النهوض بأمتهم والأخذ بيدها الى ميادين التقدم هذه مع استبعاد كل الفلسفات المصاحبة لهذا التقدم كما هي عند الغرب ، وقد استمدوا هذا الموقف من واقع أصالتهم الذاتية وشخصيتهم المستقلة التي شكلها الاسلام ، فلنا مفاهيمنا الخاصة عن الكون والحياة والانسان ، وديننا يحثنا على التقدم العلمي في جميع المجالات ، ومن هنا نعرض رأي المفكر المغربي علال الفاسي الذي يمتسبب التقدم انتقالا وتطورا يكون الى أعلى كما يكون الى أسفل . أما التقدم الذي يقصده فهو تقدم نحو المثل الاسلامي الاعلى ، بحيث يكون سير الامة موجها نحو التقدم الذي يجعل من ماضي الامة ومستقبلها وحاضرها أنغاما متناسقة تربطها رابطة المثل العالي الذي اختارته دائما لنفسها وهي ما تنفك تقطع مراحل الوجود الحي الى الامام ، الى حظيرته . ويفصل الكلام عن القديم والحديث بصورة أخرى ، فهو يرى أن " أساس الفلـسـط عند الناس هو أنهم يخلطون بين العصرية وبين المعاصر ، أو بين ما هو عصري ، وبين ما هو معاصر ، مع أن الثاني قد يكون مثلا حيا لما مر في الازمنة الوسطى أو البدائية للتاريخ ، كما أن الاول يمكن أن لاتجد له وجودا في العهد الذي نعيش فيه ، بينما نعتز عليه في زوايا الفكر البشري العتيق" (٢) . ثم يذكر بعد ذلك

(١) ثقافتنا في مواجهة العصر - د. زكي نجيب محمود - طبعة دار الشروق ١٩٧٦ ص ٢٠١

(٢) النقد الذاتي - علال الفاسي - دار الكشاف ، بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ٩٥

وقائع معاصره ، ولكنها ليست عصرية ، في حين أن عمر بن الخطاب مثلاً طبق مبادئ الحرية الفردية بكل معانيها ، وعلى ذلك فهذه المبادئ على قدمها عصرية ، في الوقت ^{الذي} لأنجد في الانظمة الحالية مقاربة لما كان نسي ذلك العهد .

ويضرب الامثلة على ذلك بالنازية وعصريتها ، وبالفاشية والشيوعية وطغيانها ، والرأسمالية الغربية واستغلالها المحرم واستعبادها للشعوب السائده والمسوده على السواء . ثم يخلص بعد هذا الاستعراض الى أنه يجب النفاذ الى أعماق الاشياء عوضاً عن أن نغتر بشكلياتها واستعبادها للشعوب السائده والمسوده على السواء . (١)

ان المنهج العصري الصحيح كما يقول : " هو الذي يفتح أمامنا آفاق التقدم بجميع أنواعه : الفكرى والاجتماعى والاقتصادى والروحى ، لأن نتيجة المجهود كله هو الوصول لأن نتحكم في حركتنا ككائن حي ، أى أن نوجه سيرنا الى الامام دائماً وتطورنا الى أعلى ، وأنه لمن العجز والكسل ان نقصر في واجبنا وأن نحاول اختصار الطريق بانتحال مذهب من المذاهب القائمة " (٢) .

هذه مجمل الآراء في التقدم كمصطلح حديث ظهر مع ظهور النهضة الأوروبية ، وانتقل اليها واستخدمه الكثير منا بعمان متعددة ، ورأينا انه مفهوم ارتبط بفلسفات مادية معادية للدين ، ومن خلال حرب العلم مع الدين المسيحى الذى رفض العلم وقاوم العلماء نتج عن ذلك هذا الانفصال والقطيعة بينهما ، مع العلم أن الدين الصحيح لا يعارض العلم اليقيني كما هو فى الاسلام .

ونحن فى رسالتنا هذه لا صلة لنا بهذه المفاهيم البعيدة عن معتقدنا وديننا الحنيف ولنا مفهومنا الخاص عن التقدم الذى أراد الاسلام لنسـا ضمن أسسه ومبادئه وصولاً بنا الى التقدم الحقيقى فى جميع المجالات . ان التقدم الحقيقى هو التقدم الذى يكون فى طاعة الله ، وأن التأخر الحقيقى هو الذى يكون فى معصية الله كما ذكر ابن كثير فى تفسيره للآية القرآنية من سورة المدثر:

(١) النقد الذاتى ، غلال الفاسى ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، القاهرة ، بغداد ، ص ٩٥-٩٨

(٢) مرجع سابق ، ص ٩٨

• لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر^(١). ان هذا التقدم الأهم هو الذى يأخذ بيد الانسان الى السعادة الخالدة ، ويمثل ذلك فى العقيدة الاسلامية التى توفر السعادة الكبرى للانسان ، وتقوده الى الحق والخير .
والتقدم الثانى انما يكون بتقدم المجتمع الانسانى من حيث التشريعات والقوانين والنظم والمعاملات الى آخر ذلك .
والتقدم الثالث انما هو التقدم المادى الذى يوفر للانسان أسباب الرفاهية ووسائل العيش المختلفة ، ويؤدى الى التقدم الصناعى والزراعى والصحى والاستفادة من كسوز الارض والطاقات المنبثقة فيها .

وقد رسم الاسلام معالم التقدم الاول نظرا لعدم تمكن الانسان من استكشافها بنفسه ، فقدمها الوحي كاملة شاملة . كما رسم المنهاج القويم للصف الثانى بحيث يضمن لهم سبقا حضاريا واسعا ، فأنزل الشرائع والاحكام الكفيلة بأن تقيم لهم مجتمعا انسانيا فاضلا ، وترك لهم مجالا واسعا للاستزادة من النظم التى أذن لهم بأن يتابعوا تطويرها وتحسينها بحسب ما يقتضى بسبب مصالح معاشهم ورفاهيتهم .

وأطلق الاسلام للناس مجالات الابتكار فيما يخص الصنف الثالث ، وحشهم على العمل والاتقان ، ولم يقف حائلا دون تحقيق ذلك بل شجعه ما لم يتجاوز هذا التقدم المادى جانب الخير الى جانب الشر ، وهذا هو الشرط الاساسى (٢) .

ومن هنا نرى أن هناك تفاوتاً فى صور التقدم ، فقد تجرأ أمة من الامم فس جانب معين من صور التقدم على حساب صورة أخرى ، أما الاسلام فقد هبها لممتنقيه كل أسباب التقدم بجميع صورته ، ودفعهم الى قم المجد المادية والمعنوية دون غلو ، وفى حدود الشريعة الاسلامية .

لقد أراد الاسلام للناس كل أنواع التقدم والرقى ، الا أنه باشر بنفسه الأهم ، أما المهم فقد تركه الاسلام للعمل الانسانى الذى يقوم على التطوير والتحسين والابتكار لاحتراز السبق فى شتى الميادين .

(١) المدثر / ٢٧ وتفسير ابن كثير للآية .

(٢) أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها . عبد الرحمن الميدانى ، دار العربية للطباعة والنشر . ط ١ ص ١٤-١٥ ، ١٣٩٠ هـ

وفى طريق تخصيصنا الكلام عن التقدم المادى انما نريده موصوفاً بما رسمه الاسلام من قواعد وضوابط لهذا التقدم حتى لا ينعكس المقصود ، ويصيب هذا التقدم دماراً للانسانية بدل أن يكون فى خدمة الانسانية ، وسعادتها . وطلب التقدم المادى لا يعنى الانفصال عن التقدم الأهم الذى ذكرناه قبل قليل ، انما يسير فى اطاره ضمن الاهداف التى يرسمها ضمن توجيهه الأمثل .

هذا التقدم المادى المطلوب يقتضى منا الأخذ بالعلم للنهوض الصناعى والزراعى ، وفى مجال الصحة والغذاء وتحسين وسائل المواصلات ، وفى اعداد القوة العسكرية القادرة على حماية الأمة الاسلامية من أعدائها ، وفى كل مجال يسود الى توفير الراحة والطمأنينة للانسان فى حياته .

الاسلام دين عام شامل جاء لعالم البشرية كافة ، وقد غطى بتعاليمه أوجه الحياة المختلفة ، وهو بصلاحيته لكل زمان ، جاء ليأخذ بيد الانسانية نحو الحياة الأفضل فى الدنيا والآخرة . وما أن الطبيعة الانسانية مكونة من الروح والمادة ، فقد جاء الاسلام ليضمن التوازن فى هذه المعادلة ويعطى لكل جانب متطلباته دون طفيان طرف على آخر . من هنا كانت تشريعات الاسلام داعية الى النهوض فى جميع أوجه الحياة روحية ومادية ضمن أسس رسمها ، ومعالج أقاليمها ، وغاية أرادها من وراء وجود هذا الانسان خليفة فى الارض مطالب باعمارها . وهذا الموضع يتطلب من الانسان أن يسعى ويعمل ويستخدم عقله وجميع امكانياته وقدراته ، وأن يأخذ بالاسباب فى تعامله بالحياة .

إن تخلف الامة الاسلامية فى جوانب التقدم المادى لا ينكر ، وقد أشرنا ذلك على مظاهر الحياة العامة ، وقصور الامة فى حماية نفسها من أعدائها المختلفين من مرض وجهل وفقر واعداء متربصين بالاسلام وأهله . كل ذلك يتطلب منا الاخذ بالعلم ووسائله للقضاء على كل مظاهر التخلف والضعف .

اننا في سعيينا للأخذ بالتقدم المادي ، لانقلد أحدا في ذلك
ولا نسلك سبيل غيرنا في الوصول الى ذلك الا بما تقتضيه المصلحة ، ولا نسمي
وراء المفاهيم الغربية والاهداف التي رسمها لتحقيق تقدمه المادي . ان لنا
مفهومنا الخاص النابع من ديننا الذي وفر لنا القاعدة المتينة في انطلاقتنا
الحضارية بجميع جوانبها وربطها بأصوله وقواعده ، حتى لا تقع في سوء استخدام
وسائل التقدم المادي ، وحتى لا تصبح هذه الوسائل عوامل هدم ، وحتى لانكون
عبدا لها . فمقصودنا من التقدم المادي ان ، هو امتلاك العلم والتكنولوجيا
وتسخيرها في خدمة الامة الاسلامية والدعوة الى دين الله ، وتوفير الامكانيات
المساعدة للنهوض والترقي ، وتحقيق وسائل العيش الكريم للانسان . عندها
لن نخش خطر التقدم المادي مادامت سيرته مضبوطة بالمبادئ الاسلامية . وستبقى
طريقنا ضمن هذا المفهوم ما فهمنا اسلامنا على الوجه الصحيح ، حيث الاسلام
دين ودينا ، دين وحضارة ومدنية .

* مفهوم العلم في الاسلام *

إن كلمة علم في اللغة العربية تفيد معنى المعرفة العام، وقد تخصصت بعد ذلك في الثقافة الاسلامية بالمعرفة المنظمة في أي ميدان من الميادين مهما كان مصدرها سواء كان العقل كالرياضيات والمنطق، أم كان الحس والتجربة بالإضافة الى العقل كالطب والكيمياء والفيزياء والفلك، أم كان الذوق والخيال والعاطفة كالآداب، أو النقل والسمع جيلا بعد جيل كاللغة، أم الوحي والنبوة والنقل عن مصدر الوحي كعلوم الدين من العقيدة الى التفسير والحديث والفقهاء. (١)

وكلمة العلم في القاموس الاسلامي كلمة مطلقة لم تخصص بمادة معينة من مواد العلم.

قال تعالى : " هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (٢)
 قال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (٣)
 إلى غير ذلك من الآيات التي وردت فيها كلمة العلم مطلقة دون تفصيل بمعلوم مخصوص، أو منظور مخصوص. ويرشد هذا الاطلاق في مضمونه الى أن العلم في نظر الاسلام ليس خاصا بعلم الفقه والاصول والاحكام، وإنما يشمل كل ادراك يفيد الانسان بمهنته في الحياة. فالعلم في القرآن يشمل كل أنواع المعرفة التي تتصل بكل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، وفي معاشهم ومعادهم، وفي أجسادهم وأرواحهم، وهذا أمر طبيعي باعتبار الاسلام نظاما كاملا خالدا ينظم شؤون الدين والدنيا ويقيم الحياة الصحيحة. (٤)
 كذلك وردت مادة (علم) اللغوية في كثير من الآيات في صيغة المصدر ومشتقاته وهي بمجملها تتضمن جميع المعاني المقصودة من كلمة علم بمفهومها الواسع، وتكرار لفظ العلم أكثر من ٥٨٠ مرة يؤكد اهتمام الاسلام بالعلم والدعوة اليه.

(١) الاسلام والفكر العلي، د. محمد المبارك، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٨، ١٩٧٨، ص ١٥
 (٢) الزمر : ٩ ، (٣) المجادلة : ١١
 (٤) المعرفة في الاسلام بين الاصل والمعاصرة، اخذ عبد الرحيم السايح، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط ١، ١٤٠٠ هـ، ص ٩

وقد يسر الله للإنسان والناس العلم بما زودهم من امكانات للقيام بمهمتهم فمن هذه الحياة على أتم وجه . أعطاهم معرفة خالقهم وبارئهم لأنه لا يمكن الوصول الى ذلك بوسائلهم المحدودة ، " وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والفراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصناعة السفن واستخراج المعادن وتجهيتها لما يراد منها ، وغير ذلك مما فيه قيام معاشهم ، ثم منحهم سبحانه عما سوى ذلك ما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ، ولانشأتهم قابلة له كعلم الغيب" . (١)

ومن هذا النص يتضح لنا أن ابن القيم اعتبر هذه الامور علوما أعطاهها الله سبحانه وتعالى للإنسان لتسهيل مهمته في الحياة ، حيث لاغنى عنها لصلاح معاشه ودنياه . وقد صرح القرآن بالعلم للصنعة ولعلوم كونه أخرى . ومن ذلك قوله تعالى في الصنعة : " وعلما صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون" (٢) . وفي هذه الآية اظهر فضل الله على داود أن علمه صنعة الدروع التي تحصن من إصابات الحروب ، وفي نسبة التعليم الى ذاته تعالى تأكيد على شرف هذا العلم ولزومه .

وقد قسم ابن عبد البر العلوم الى ثلاثة أقسام ، ويقول في ذلك : " والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى وعلم أسفل وعلم أوسط . فالعلم الأعلى عندهم علم الدين ، الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أولسه الله في كتبه وعلى السنة أنبيائه صلوات الله عليهم نوا . والعلم الاوسط هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عليه بجنسه كعلم الطب والهندسة . والعلم الاسفل هو احكام الصناعات وضروب الاعمال مثل السباحة والفروسية والزى والتزويق والخط وغير ذلك من الاعمال التي هي أكثر

(١) "فتاح دار السعادة ، ابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة ، ج١ ص ٢٨٢ .

(٢) الأنبياء : ٨٠

من أن يجيها كتاب أو يأتي عليها وصف ، وإنما تحمل بتدريب الجوان
 فيها" (١) . وهذا النص يكشف تقسيمات الاقدمين للعلوم ، وأنهم
 تشمل علوم الدين وعلوم الأبدان وضروب الصناعات . ونحن لانشك أن علوم
 الدين أشرف العلوم ، ولكن النظرة للعلوم الأخرى أدت في النهاية وخاصة
 (ضروب الصناعات) الى تأخرها في العالم الاسلامي نظرا الى المكانة
 الاجتماعية التي كان ينظر اليها من يمارس هذه المهن ، حيث كانوا يمتدحون
 من يتجه اليها هم أخس الناس وأضعفهم هم . ويكفي ردا على ذلك
 أن نقول بأن الله خلق الناس بقدرات متفاوتة ومواهب تختلف من شخص
 لآخر ، ولم يترك أحدا دون أن يهبه قدرة معينة يبرز فيها ، وهذا من
 نعمة الله في خلقه ، فمن يفشل في مضار معين يحتاج الى عقل كبير ، من
 الممكن أن يظهر في مجال علمي آخر في مبادئ التجارة أو الصناعة أو الزراعة
 أو حرفة من الحرف . فهل نجعل هؤلاء خسيس الطبع لظهار ميولهم
 وقدراتهم في مجال الصناعات ، وعدم استطاعتهم تحصيل علوم أكثر صعوبة
 بالنسبة اليهم ، ان الامر يتعلق بخلق الله وتقديره وتوزيع الرزق بين عباده ،
 وتوزيع الاختصاصات حتى تتم الحياة بالشكل المطلوب .

والمهم من التقسيم السابق أنه جعل مفهوم العلم بالمعنى الشامل
 وان هناك تفاوتاً في مراتب العلوم .

ونجد عند الدكتور عبد المنعم خلاف (٢) تقسيماً ثلاثياً للعلم حسب
 المفهوم القرآني :

الاول : العلم المكتسب

وهو من أعظم المميزات التي وهبها الخالق للإنسان ،
 وهو مهني على سلمات الهداية والفترة التي فطر الله الناس
 عليها ، كاليقين الجازم بحتمية وجود الخالق الى آخر الحقائق

(١) جامع بيان العلم وفضله ، يوسف بن عبد البر القرطبي ، طبعة المكتبة العلمية
 بالمدينة المنورة ، ج ٢ ، ص ٣٧

(٢) اللقاء بين العلم والدين ، د . عبد المنعم خلاف ، منشورات مجلة الحياة
 والثقافة ، ص ١٧ نقلًا عن الاسلام والعلم التجريبي . يوسف السويدي ،
 مكتبة الفلاح ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ

الدينية والكونية والعقلية. وهذا النوع من العلم هو السرار-
في قوله تعالى: " والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل
من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب" (١).

الثاني : العلم المبني على التجارب الحسية

وهو المبني على التجارب الحسية في الطبيعة ومشاهدتها ،
وعلى النظر والتأمل في كل ما خلق الله ، وعلى استخلاص قوانين
التكوين والهدم والتسخير لقوى الطبيعة. وهو المستفاد من
القرآن في قوله تعالى: " ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف
السننكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين" (٢). وفي قوله :
" وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا إليها في ظلمات الليل
والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون" (٣).

الثالث: العلم عن طريق الوحي الالهي للأنبياء:

فهو فيض من علم الله ينزل على قلب النبي بحقائق بعضها
من الغيب المحجوب عن العقول كأخبار الأمم السالفة وكأنبياء
المستقبل. ومنه: " فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من
عندنا وعلما من لدنا علما" (٤)، ومنه: " تلك من أنبياء الغيب
نوحينا اليك ما كنت تعلم أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر
ان العاقبة للمتقين" (٥).

ويقول السيد سابق: والعلم الذي يطلبه الاسلام هو: (٦)

- | | | | |
|-----|--|---|-----------------|
| (١) | آل عمران / ٧ | ، | (٢) السورم / ٢٢ |
| (٣) | الانعام / ٩٧ | ، | (٤) الكهف / ٦٥ |
| (٥) | هود / ٤٩ | | |
| (٦) | دعوة الاسلام ، السيد سابق ، دار الكتاب العربي ، ط ١٩٧٣ م | | |
- ص ٦٠-٦٤

- ١- الوحي : كتابا وسنة وعقيدة وشريعة .
 وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " العلم ثلاثة :
 آية محكمة ، وسنة قائمة ، وفريضة عادلة " .
 وفي العقيدة يقول الله سبحانه : " فاعلم أنه لا اله الا الله " (١) .
 وفي الشريعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " طلب العلم
 فريضة على كل مسلم ومسلمة " .
 والعلم المفروض هو العلم الذي طلب العمل به ، وأية عبادة
 لا تبنى على علم ومعرفة فهي عبادة باطلية .
- ٢- علوم الكون :
 هذه العلوم يدعو اليها الاسلام ويحث عليها ، لتعرف سنة الله
 في الكون ، وأسراره في الخلق ، وحكمته في الوجود .
 والآيات الكونية ماثورة في القرآن الكريم ، وفي هذه الآيات
 ما يقطع بأن تحصل علوم الكون من طبيعة ، وحياة ونبات واجتماع ونفس وتاريخ
 من لب الاسلام وصميمه .
- ٣- التسخير الوارد في القرآن الكريم للكون لا يتم الا بالتهيئة للانتفاع بها ، ولا يتم
 ذلك الا بعلم صحيح بوسائل الانتفاع ومعرفة طرقه وأسبابه .
- ٤- العلوم والفنون التي تقوم بها الصناعات .
 وقد اعتبرها علماء الاسلام واجبا كفاثما ، اذا قام به البعض سقط
 العرج والا ثم عن الامة كلها ، واذا أهمل أتم الكل ، وحوسبوا عليه الحساب
 العسير .

والشيخ عبدالرحمن الناصر بن سعدى يقول فى ذلك :
 " ان العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخله فى ضمن علوم الدين ،
 وأعماله ليست منافيه كما زعم الجاهلون الماديون ، ولا جاءت الفنون العصرية
 النافعة بشئ جديد كما ظنه الجاهلون أو المتجاهلون ، بل النافع منها
 للدين والدنيا وللجماعات والافراد داخل فى الدين ، والدين قد دل وأرشد
 الخلق اليه ، والى كل أمر نافع الى أن تقوم الساعة " (١) . ويقول فى موضع آخر :
 " وحيث أطلق العلم شمل العلوم الشرعية وهى الاصل ، وهى أشرف العلمين ، وشمل
 العلوم الكونية . فكل علم نافع فى الدين أو فى الدنيا داخل فى مدح العلم وأهله " (٢) .

كذلك يستفاد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى " أطلق بها لفظ
 العلم على شمولها لعلوم الدين والدنيا ، فى مثل قوله :

" من سلك طريقا يطلب به علما ، سهل الله به طريقا الى الجنة " (٣)

" من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع " (٤)

" اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ،
 أو ولد صالح يدعو له " (٥)

" أليس قوله عليه الصلاة والسلام " أو علم ينتفع به " واضحا فى أنه يعنى مع
 علوم الآخرة علوم الدنيا التى تنفع الناس وتيسر لهم وسائل العيش والحياة . ألا أن
 الذين يقصرون مدلول هذه الاحاديث على علوم الآخرة ليسلبون الاسلام أعظم مزاياه
 وخصائصه ، فالاسلام هو الدين الذى جمع بين حاجات الدنيا وحاجات الآخرة ،
 هو الدين الذى يعلم اتباعه أن يعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبدا " (٦) ، وهو الدين

(١) الدلائل القرآنية فى أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخله فى الدين الاسلامى ، تأليف الشيخ عبدالرحمن الناصر بن سعدى مطابع الرياض ١٣٧٦هـ ص ٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧

(٣) صحيح البخارى باب العلم قبل القول والعمل

(٤) صحيح مسلم ، ورواه الترمذى وقال : حديث حسن

(٥) رواه مسلم .

(٦) العربى ، عدد يناير ١٩٨٢م ، خالد محمد خالد .

الذى يعلم اتباعه أن يعملوا للاخيره كأنهم يموتون غدا .

اذن فالدين علم ، بلغ اليها عن طريق الانبياء ، حيث خصهم الله بمزيد من العلم بمعرفة الله وخشيته وهداية الناس اليه . والى جانب ذلك نجد أن العلوم التجريبية تشكل فرعا من فروع العلم التي أجازها الاسلام ، وحسب عليها ، ودعا اليها ، ليطلع الناس على ما فى الكون من آيات وروائع ، ليتحقق تعميق الايمان فى الله الذى جعل هذا الكون آية على وجوده وقدرته ، والاستفادة من أسرار هذا الكون وما سخره الله . (١)

ونجد اشارات واضحة فى القرآن الى كثير من فروع العلم بمعناه الخاص كعلم الطبيعة والعلوم الانسانية ، مع أن القرآن لم ينزل ليكون كتابا فى العلوم ، وانما هدفه الاساسى هو التدليل على وحدانية الله وهداية البشر ، ورسم المنهج القويم للانسانية ليأخذ بيدها ، ويبين لها طريق الحق لسعادتها فى الدنيا والآخرة .

وردت آيات كثيرة تحض الانسان على تطلب آيات الله فى الكون وتعرف أسرار الخلق ، وهى فى الواقع توجيه للعقل الى مجالات العلم الذى يسميه الناس بالعلم الطبيعى ، بل هى أوامر من الله بطلبه . ان هذه العلوم الطبيعىة انما تبحث عن أسرار هذه الظواهر الكونية التى نبه اليها وأمر بالبحث فيها . (٢) وفى ذلك يقول تعالى :

" وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " (٣) .

" ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين " (٤) .

-
- (١) الاسلام والعلم التجريبي ، د . يوسف السويدى ، مكتبة الفلاح ط ١ ١٤٠٠ هـ ص ٢٦
 (٢) الإسلام فى عصر العلم ، د . محمد احمد الغمراوى ط ١٩٧٣ م ، مطبعة السعادة ص ٥٥
 (٣) الانعام / ٩٧
 (٤) الروم / ٢٢

• ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور* (١) .

وواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها أشارت اليه هذه الآيات الكونية . هؤلاء العلماء اذا كانوا مؤمنين حطهم علمهم بأسرار الفطرة على خشية الله فاطر الفطرة ، لأنهم يكونون بعلمهم أبصر بعظمة الله سبحانه وجلاله وقدرته المتجلية في آيات صنعه. وهذا في الواقع هو الحكمة الكبرى التي من أجلها أمر الله الانسان في كثير من آيات القرآن بالنظر فيها خلق الله في السموات والارض من خلق. (٢)

وهناك الى هذه الحكمة حكم أخرى هي ما يتبع طلب هذه العلوم الكونية من منافع مادية دنيوية ، آتية من استخدام حقائق العلم في شؤون الانسان ، كالانتفاع مثلا بخواص الكهرباء والبخار والحديد في هذه القطارات والسفن البخارية ، وهذه المركبات والمصابيح الكهربائية وما يتوصل اليه العلم النافع في كل المجالات . والحكم كلها مرادة لله سبحانه حين أمر الانسان بالنظر في ملكوت السموات والارض إلا أن الحكمة الاولى ، حكمة خشية الله هي الحكمة الكبرى ، ان عبادة الله وخشيته هي الغاية الاولى والآخرة من وجود الانسان . (٣)

ان حث الانسان على هذا الجانب من الظواهر الكونية أريد به عبادة الله عن طريق دراسة هذا الكون وقوانينه ، وشكره على ما ستمره هـذـه الدراسات من ثمرات، وهذا أبلغ في الدلالة على أن العلم في الاسلام جزء من الدين .

(١) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٦

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٦-٥٧

ومن هنا يمكننا أن نقول أن " بعض العلوم التجريبية قد اعتبرت أشبه بالعلوم الدينية لأن فيها خدمة للفكر الديني كالفلك والتوقيت والحساب أو خدمة للإنسان كالطب" (١) . وقد قال الشافعي : " لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب" (٢)

ان العلماء الذين يخشون الله أكثر من غيرهم كما ورد في سورة فاطر هم العالمون بأسرار الوجود وأسرار الخلق كما قال بهذا ابن رشد، لأن هذه الآية وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في انزال المطر وخلق النباتات على اختلاف أنواعها وألوانها. (٣) كذلك أشار القرآن للعلوم الانسانية وضرورة البحث في مجالات النفس والمجتمع الانساني في عديد من الآيات. يقول سبحانه وتعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"

وأقر حقائق اجتماعية في كثير من الآيات. قال تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وعالج قضايا اجتماعية كثيرة منها ظاهرة الترف وكيف أنه يؤدي الى دمار المجتمع، ونحن هنا لا نريد أن نستقصى ما تتبعه القرآن في هذا الجانب ، وانما نندلل على معالجة القرآن لكثير من قضايا علمية، وان لم يدخل في تفصيلاتها، وانما اکتفى برؤوس الموضوعات ليقى للجانب الانساني مجال البحث والتجربة. وقد تأثر المسلمون من كل ما جاء في القرآن " ولعل ابن خلدون في مقدمته أول من تناول هذه الحقائق (الاجتماعية) . والناظر في مقدمته لا بد أن يخرج بانطباع واضح عن المصدر الذي استقى منه، ألا وهو القرآن" (٤) . ولقد تميز تاريخ المسلمين الأول بالتعطش الى المعرفة. ولقد

(١) الفكر العلمي في المغرب الاقصى للاستاذ / عبدالعزيز بن عبد الله ، الدارة ، العدد الرابع لعام ١٣٩٩ هـ .

(٢) آداب الشافعي ومناقحه ص ٣٢١ نقلا عن الدارة ، العدد المذكور، ونفس المقال .

(٣) الندوة العالمية للشباب الاسلامي ص ١٠٦ من كلمة الدكتور محمد سفر

(٤) مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الاول ١٣٩٧ هـ من موضوع " اصول الاجتماع في القرآن " ، د . حسن الساعاتي .

انبثق حب المعرفة عندهم من تأثرهم بآيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، " لقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم العربي أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهكذا جعل أتباعه يفهمون أنهم باكتسابهم المعرفة فقط يتسنى لهم أن يعبدوا الله عبادة تامة . وعندما تدبروا قول النبي صلى الله عليه وسلم " ما خلق الله داء الا وخلق له دواء " أدركوا أنهم بالبحث عن الادوية المجهولة يسهمون في تحقيق ارادة الله على الارض . وهكذا أكتسب البحث الطبى ثوب القداسة لكونه فرضا دينيا .

لقد قرأ المسلمون الآية القرآنية الكريمة " وخلقنا من الماء كل شئ " حيا . وفى محاولاتهم للنفاذ الى معنى هذه الكلمات بدأوا يدرسون الكائنات الحية وقوانين نموها ، وهكذا أنشأوا علم الاحياء .

لقد أشار القرآن الى انسجام النجوم وحركاتها كشواهد على عظمة خالقها ، ومن أجل ذلك اشتغل المسلمون بالعلوم الفلكية والرياضية بحمية واندفاع احتفظ بهما فى الاديان الاخرى للصلاة وحدها . وكثير منهم تمسكوا - دون أن يتهموا بالكفر اطلاقا - بأن الارض تدور حول الشمس . وبالطريقة نفسها عكفوا على الكيمياء والفيزياء والفسولوجيا وعلى سائر العلوم التى قدر للعبقريه الاسلاميه أن تجد فيها أخلد آثارها . (١)

وحرية الرأى العلمى كان شيئا واضحا فى تاريخ المسلمين ، ولم تثبت حالة واحدة عوقب بها صاحبها لرأى علمى نطق به على عكس الكنيسة فى أوروبا فتاريخ حريتها على العلم والعلماء معروف . " لقد كانت حرية الرأى العلمى هى الدعامة الاولى التى سقمت عليها النهضة العلمية فى العصر الاسلامى ، فقد قالوا بكروية الارض ، ودورانها ، بل تكلم بعضهم فى التطور ، ومع ذلك لم يتعرض واحد منهم الى قتل أو حرق أو سجن بسبب رأيه العلمى " (٢) ، وفى مكتبة

(١) الطريق الى الاسلام ، محمد أسد ، ص ٢٣٤-٢٣٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٦ م .

(٢) التضامن الاسلامى فى المجال العلمى ، د . عبد الحلوم منتصر ، بحث مقدم الى مؤتمر التضامن الاسلامى بمكة المكرمة عام ١٤٠١ هـ .

الكونجرس - أضخم مكتبات العالم - سجل بما الذهب في سقف قبتها العيسارة
التالية : " ينبوع الاول للحضارة في العلوم الطبيعية هو العصر العربي الاسلامي " (١)
ان موقف علماء المسلمين المجتهدين عبر التاريخ الاسلامي من العلم ، أو من العلوم
عامة ، يوضح موقف الاسلام من العلم ، " لقد اعتقدوا جميعا أنهم يؤمنون بأمانة
الكتاب في حثهم المسلمين على طلب المعرفة حيثما وجدوها . فكل معرفة صحيحة
فهي معرفة قرآنية اسلامية على اختلافهم في تفسيرها ، والنسبة الى الكتاب
الكريم بين فئه ترى أن المعرفة محتواة فيه اجمالا وتفصيلا ، وفئه ترى
أن المعرفة من مطالب المؤمن بالكتاب لا يعوقه عائق منه أن يتحراها
ويحققها ويهتدى بها حيثما أصابها . (٢)

لقد لا حظنا ما سبق ذكره أن الاسلام يربط بين كافة أنواع المعرفة
بما يمكن أن نسميه بوحدة المعرفة في الاسلام ، " ذلك أن المعارف المادية
لا تتعارض مع المعارف الروحية ، بل أن كليهما لازم وضروري " (٣) . هذه النظرة
الشاملة الى العلم وضعت المجتمع الاسلامي في مكان الصدارة من الحياة
حيث ينبغى له أن يكون " فطاف آفاق السموات والأرض نظارا باحثا يستشف
الحقائق الكونية من وراء السجف ، يكشفها له القرآن ويهديه الى أصولها " (٤) .

فهذا العلم الذي يقصده الاسلام هو العلم بأوسع معانيه ، علم الدين
وعلم الطبيعة والتاريخ وطبقات الارض والطب والفلك الى آخر ذلك ، وليس
خاصا بعلم الشرائع ، " انما هو ادراك يفيد الانسان في القيام بجهته وهنسى
خلافته بالارض .. عمارتها واستخراج كنوزها واظهار أسرار الله فيها . وقد
أدرك المسلمون ايحاء القرآن في ذلك ، ادركوا قيمة العلم ومنزله وضرورته في
سعادة الأمم والافراد ، ومولفاتهم في شتى العلوم والفنون والصنائع ما يشهد
لهم بالتركيز العلمي " (٥) .

(١) المصدر السابق

(٢) التفكير فريضة اسلامية ، عباس محمود العقاد ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط ٦ ، ص ٥٥

(٣) موقف الاسلام من التنمية ، د. عبد العزيز داغستاني . جريدة الجزيرة عدد ٣٧٨ لسنة
١٤٠١ هـ .

(٤) سنن الله في المجتمع . محمد الصادق عرجون ، منشورات العصر الحد يث ط ١ ، ١٩٧١ ، ص ٢٧

(٥) من هدى القرآن ، محمود شلتوت ، ص ١٩٧ ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ،

ط ٢ ، ١٩٦٨ م .

أما مفهوم العلم في الثقافة الغربية المعاصرة، فقد خصصت للعلوم الرياضية والطبيعية ثم ادخل في مدلولها كل علم يقبل موضوعه الخضوع للتجربة والمشاهدة والاعتبار والاستقراء والمقاييس الكمية. أما بقية العلوم الانسانية كالأدب والأخلاق والفلسفة وعلوم الدين ما صدره الذوق الفني أو الشعور الأخلاقي أو التأمل العقلي أو الوحي الإلهي، فلا تدخل في اصطلاح الثقافة الغربية المعاصرة في مضمون اصطلاح كلمة (Science) في الاستعمال الدقيق، وإن استعملت أحيانا على سبيل التجوز والاطلاق اللغوي العام. (١)

إن هذا التصنيف يقوم على حصر صفة اليقين بالعلوم الرياضية والتجريبية ونفيها بالتالي عما سواها، مع أن لكل نوع من أنواع المعرفة طريقته ووسائله للوصول إلى حقائقه وموضوعاته. إن من المستحيل تطبيق طرائق التجربة واستعمال وسائل الحس للوصول مثلا إلى معرفة حقائق ما وراء الطبيعة، أو إلى تقدير القيم الجمالية. ومن السخف وقصور العقل والجمود القبول بأن ما لا يدخل في نطاق الحس والتجربة، ولا يوزن بالموازن، ولا يكال بالمكاييل غير موجود، أو أنه يستحيل فيه الوصول إلى المعرفة اليقينية بأي طريق. ولو كان ذلك لوجب انكار الجراثيم قبل اكتشافها والحكم باستحالة وجودها حتى في المستقبل حين لم تكن معروفة ولا مكتشفة. (٢)

وعليه فلا نرى متابعة المفهوم الغربي في تخصيص كلمة (علم) و (علوم) بالعلوم الطبيعية والتجريبية عموما والرياضية إذا أطلقت. بل علينا أن نتابع اصطلاحنا للعلم كما تدل على ذلك لغتنا وديننا في شموله، وبإمكاننا أيضا بعدنا عن اللبس، أن نستعمل هذه الكلمة مضافة أو موصوفة فنقول علوم الطبيعة أو العلوم الطبيعية. (٣)

-
- (١) الإسلام والفكر العلمي. د. محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط ١ ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ص ١٦
- (٢) الإسلام والفكر العلمي. د. محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط ١ ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ص ١٦، ١٧، (تاريخ العلم، د. منتصر)
- (٣) يمكن تقسيم العلم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: (١) تاريخ العلم، د. منتصر) الأول، العلم الدينية، مصدرها العقيدة والشريعة والوحي والكتاب والسنة الثاني، الأدبية والفلسفية، مصدرها المنطق واللغة. الثالث، الطبيعية، وهي التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واعتبار.

وكلمة أخيره في هذا المجال نقول : ان العلم الطبيعي ليس سوى علاقة واحدة من مجموع علاقات جاء الاسلام لكي ينظمها على أساس صالح ، ويسمى الى تحديد أهداف ايجابية لها ، ويسلكها جميعا في نظام معجز ينشق عن تصور كامل لوضع الانسان في الكون .

أما الدين فهو " منهج كامل للحياة البشرية ، يسعى الى تنظيم علاقات الانسان بأخيه الانسان ، بالامم والشعوب الاخرى ، وبالطبيعة والعالم والكون" (١) ، واننا نقف موقف الوسط من المعارضين للعلم والمؤيدين له ، اننا نؤمن بما يقوله العلم الصحيح الحق ولا ننزى عليه . ونؤمن بما جاء به الدين الحق على لسان كتابه المنزل . ونعتقد أن ليس فيه من الآيات القطعية الدلالة ما يتعارض مع قطعيات العلم" (٢)

هذا مع اعتقادنا أن وظيفة الدين هي بث الاعتقاد بالواحد الأحد ، ولم ينزل القرآن لتفصيل نظريات العلوم ، ومع ذلك فقد مس الكثير من الحقائق العلمية وأتى بها ، وهي حقائق يقينيه لاشك في ذلك . وعلينا أن نتناولها بالدرس ، لأن معرفتها تقوى معرفتنا بالله ، ثم تأتي الفائدة للانسان من وراء ذلك.

الاسلام اذن يدعو الى العلم ، ومفهومه للعلم مفهوم شامل يشمل علم الدين وغيره ، وواجبنا ان نتبنى هذا المفهوم ، ونسعى الى كسب العلوم النافعة جميعها ، ونستعيذه من العلم الذي لا ينفع كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما أوجبنا في هذا العصر الى اكتساب العلوم النافعة جميعها ، لأن في طلبها وامتلاكها خدمة للاسلام والدعوة اليه . ولتكن لدينا القناعة الكاملة بهذا الموقف للاسلام من العلم ، حتى ننطلق في مضمار العلم مع وعينا الكامل أننا نقوم بواجب ديني الى جانب حاجتنا الشديدة إليه في تسيير أمور الحياة (٣)

(١) تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٥-١٩٧٥ ص ٢٦

(٢) الدين والعلم . مصطفى الفلايحي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ص ٢٣

(٣) يسعى العلم الى تفسير قوله تعالى : " ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم رسك أحدا ، بالتصوير الفضائي للأحداث وبقا الصورة في الفضاء بقدره الله لسرى الانسان ما عمل يوم القيامة .

تمهيد

النظرة العلمية في القرآن والمنهجه

- مفهوم العلم في الاسلام
- الاسلام يحض على العلم ويكرم العلماء
- المنهج التجريبي مستمد من القرآن والسنة
- مناهج العلماء والمسلمين وتأثيرهم بالمنهج الاسلامي
- مساهمات منصفه

"القرآن يحض على العلم ويكرم العلماء"

ان التمتع لآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليخرج باقتناع تام أن نظرة الاسلام الى العلم وأهله نظرة أصيلة ، نابغة من كون الاسلام آخر الاديان السماوية ، وأنه منهج للبشرية في دنياها وآخرتها . وقد اتسمت الدعوة الى توحيد الله بالمنطق السليم ، أي بالمنطق العلمي المبني على أسس صحيحة تنشد الحق وتسمى اليه .

عمل الاسلام بتغذية الميل الفطري عند الانسان لمعرفة ما يجهل ، واستخدام كل وسيلة انسانية مستطاعة لابلاغ هذا الميل الى مرتبة الشغف بالعلم ، والتلief المستمر لتتابعة المعرفة الشاملة لكل ما هو موجود من حقائق وسمن . وليس يخفى قيمة العلم والمعرفة في بناء حضارة راقية تأخذ بيد الشعوب الى قمم المجد والرفق ، وتستحثها الى ارتياد المجهول ، واستثمار كل ما هو مفيد للانسان ووجوده في هذه الحياة ، حتى يودي رسالته على الشكل المطلوب منه ، وهو تحقيق خلافة في الارض على أكمل وجه .

والعلم كله من الحق تبارك وتعالى ، " ومن فضله علينا أن أذن لنا بالتعلم ، وأذن لنا من علمه ، فالعلم والتعلم بفضله " (١) . اننا لانخترع قانوننا أو مادة ، بل كل ما نقوم به ، هو محاولة اكتشاف القوانين والسمن الالهية التي أودعها الله في هذا الكون ، وسير الكون بها ، ونستفيد منها ، ونسخرها لخدمة الانسان ، ولصالح مهمته في الحياة . اذن علمنا من الله سبحانه وتعالى ، وما نعلمه هو جزء بسيط جدا من علم الله ، قال تعالى : " ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء " (٢) . وقال تعالى : " وما أوتيتم من العلم الا قليلا "

(١) من الاصول الاسلامية للعلم والتعلم " د . محمد اسماعيل راشد ،
الهدوة العالمية للشباب الاسلامي ٣٩٩ هـ .

(٢) البقرة : ٢٥٥

ومن ادنيه لنا بالتعلم نقرأ هذه الآيات : " وعلم آدم الاسماء كلها
ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء " ان كنتم صادقين ، قالوا
سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم
بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات
والارض وأعلم ما تهدون وما كتمتكنون " (١) .

يقول ابن القيم أثنا " بيانه فضل العلم تعليقا على الآيات المذكورة :
" ان الله سبحانه لما أراد اظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ، ميزه عليهم
بالعلم ، فعلمه الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ... وعرفهم سبحانه
نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظواهرهم وباطنهم ، وبغيب السموات والارض ،
فتعرف اليهم بصفة العلم ، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم
عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفا للعلم . وانه سبحانه أظهر
للملائكة أحسن ما في آدم وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما في الانسان ،
وأن فضله وشرفه انما هو بالعلم " (٢) .

ان هذه الآيات وما سبقها ، توحي بأن العلم أساس الحياة وسر
النجاح ، فالخلافة في الارض وتسخير ما فيها أساس ذلك كله العلم لا غيره .
وإذا كانت هذه هي مهمة الانسان في الحياة - وهذا ما أكد القرآن الكريم -
فلا سبيل الى قيام الانسان بهذه المهمة ، وتحقيق تلك الحكم ، الا بالعلم
والمعرفة والعمل ، سبوقه بهدى الله وتوفيقه .

لقد كان الامر الى المسلمين بالتعلم والتعليم منذ بداية الطريق ، ولذلك
دلالة عظيمة على قيمة العلم ، ولفت شديد للتمسك به وطلبه ، " ولم يناد أول
ما نادى بالتوحيد أو بالتقوى ، وانما نادى بالقراءة ، وحث على التعلم " (٣) وذلك
لأن العلم مطلوب لشهادة أن لا اله الا الله " فاعلم أنه لا اله الا الله " (٤) ، والايهان
عندما يكون عن علم يكون في أرق صورته .

(١) البقرة : ٣١-٣٣

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة ، ابن قيم الجوزية ،
مكتبة الرياض الجديدة ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) القرآن والعلم . أحمد محمد سليمان ، دار العودة ، بيروت ، ص ١ ، ط ٢ ، ١٩٧٨م

(٤) محمد : ١٩

قال تعالى : " اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم " (١) .

انها توجيهات لاتقف عند علم معين ، بل شرطها الوحيد أن تكون باسم الله ، " وحتى يتأكد الانسان أن هذه الدعوة الى القراءة انما هي دعوة الى العلم ، نجد أن الآية الثانية توجه النظر الى أدق العلوم وأكثرها التصاقا بالانسان ألا وهو علم الحياة ، ثم نجد ان الآية الثالثة تكرر الدعوة الى القراءة تأكيدا لها ، وتظهر طريق العلم وتقرره ألا وهو القلم . وهكذا طالب الاسلام الانسان في أول آيات القرآن الكريم أن يقرأ ويدرس العلم كتابسة وقراءة ، فاذا استجاب لما دعاه اليه القرآن فقد أعد نفسه لتلقى فيض الله بما يلهمه من العلم ، وذلك بنص الآية الخامسة (علم الانسان ما لم يعلم) .

فهل مصادفة ترتيب هذه الآيات ؟ أم لحكمة كانت ، وهل يشير نزولها كأول ما نزل من القرآن الكريم الى هدف غير الدعوة الى العلم وتشريفه وببيان مكانه في الاسلام ؟ (٢) كذلك أقسم الله تعالى بألة العلم وهي القلم ، وذلك في ثاني سورة نزلت ، وكل ذلك يدل دلالة واضحة على تقدير الاسلام للعلم ، وقد أصبح هذا الامر معروفا ولا حاجة لاثباته . ففي هذه الآيات من الوضوح والانتشار ، ما يغني عن الدفاع عن وجهة نظر الاسلام في هذا الشأن ، ونسوقها هنا كمقدمة للقضية التي نحاول اثباتها في هذه الرسالة ولم أطرافها حتى يتكامل الوعي بقيمة النظرة الاسلامية للعلم ومكانته في بناء المجتمعات ورفقيها .

يطالب القرآن الكريم المسلمين بأن يطلبوا العلم ليهد بهم الى القول الفصل في كل الأمور والحقائق ، سواء أكانت دينية أم سنا كونية . قال تعالى : " وقل رب زدني علما " (٣) . وكما ذكرت في فصل مفهوم العلم في الاسلام ، فان العلوم النافعة جميعا ، تدخل ضمن المفهوم الاسلامي للعلم ، وبذلك تكون

(١) العلق : ١ : ٥

(٢) بين الدين والعلم ، عبد الرزاق نوفل ، مكتبة وهبه ، ط ١ ، سنة الطبع غير مذكورة ، ص ١٥٩ .

(٣) طه : ١١٤

علوم الطبيعة ضمن هذا المفهوم ، وآيات القرآن كثيرة في هذا الصدد
تستحثنا على النظر والتأمل والبحث والدراسة والتنقيب ، وما مظاهر
الطبيعة هذه الا آيات دالة على قدرة الله سبحانه وتعالى ، فكيف
نهمل البحث فيها وقد أمرنا الله بذلك ؟ ان البحث فيها يقودنا
حتما الى مزيد الايمان بالله مادنا ننتقل في بحثنا من نظرة سليمة
كما خلقها الله .

وفائدة أخرى لنا في هذا العلم تنتج بالتبع من واقع البحث
والدراسة ، وهي استخدام نوائد العلوم والمكتشفات لصالح وجودنا في هذه
الحياة ، واقامة شرع الله على أكمل وجه ، وحمايته من الأخطار . وما يأتي
من فصول سألين ما استطعت موقف الاسلام من كل هذه القضايا ، للخروج
بنظرة واعية الى مهمة الانسان المسلم والمجتمع الاسلامي ، ومدى تقصير
المسلمين من حيث الواقع العملي الذي نلسه من تكاسل المسلمين في الأخذ
بالعلوم ودراساتها كواجب ديني وليس من باب تقليد غيرنا .

هذه العلوم اذا قضا بها نطلب رضا الله وعزة دينه ، فانها
حينئذ تشمل جزءا من هذا الدين ، فمارستها عبادة بالمفهوم الواسع
للعبادة ، والذي لا يعني مجرد الاقتصار على الشعائر فقط . ان كل حركة
في الوجود تهدف الى رضا الله ، وتستمد العون منه ، هي عبادة لله
سبحانه وتعالى . وان اكتشاف السنن الكونية - والتي هي من صنع الله -
واستخدامها لصالح البشر عبادة يؤجر عليها الانسان المسلم ، لأن فيها
اظهارا لقدرة الله وعظمته ، وبالتالي تستخدم لخير البشرية بصورة عامسة ،
ولصالح الاسلام والمسلمين بصفة خاصة ان أحسن استعمالها ، وكانت محكومة
بنظرة الاسلام الواعية .

علينا أن ننطلق انطلاقاً واسعة في ميادين العلم دون خوف أو وجل ، بل بشعور عميق بأن ذلك هو جزء مهم من تحقيق العقيدة الصحيحة وتمثيلها عملياً ، لأن الإيمان الصحيح لا يكون إيماناً باللسان فقط ، بل لابد من ترجمة هذا الإيمان إلى واقع عملي فعلى مؤثر في الحياة ، ويكون معبراً سلبياً إلى الآخرة التي نلقى بها جزاء ما عملنا من خير أو شر . وحول ارتباط العلم بالعمل ، وأن العلم قبل القول والعمل ، يقول الإمام البخاري في صحيحه تحت عنوان : " العلم قبل القول والعمل " (١) " ان العلم مطلوب قبل القول والعمل ، لأن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليها ، لأنه مصحح للنسبة المصححة للعمل . ثم يأتي بآيات من القرآن يسترشد بها على هذا القول . " فاعلم أنه لا اله الا الله " فقدم العلم على الشهادة ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورثوا العلم ، من أخذه أخذ بحظ وافر ، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة . وقال جل ذكره : " انما يخشى الله من عباده العلماء " وقال : " وما يعقلها الا العالمون " .

" فالعلم في الاسلام يطلب به العمل ، ويظهر أثره في النفس ، فلا انفكاك بين العلم والسلوك في الاسلام " (٢) . ومطلوب من العالم أن ينشر علمه على الناس حتى يتحقق أثره في المجتمع ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً : فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاء ، والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيحان : لاتمسك ماء ولا تنبت كلاء ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع

(١) صحيح البخاري ، باب العلم قبل القول والعمل .

(٢) الندوة العالمية للشباب الاسلامي ١٣٩٩ هـ الرياض ، من كلمة الدكتور احمد العسال ، ص ٧٣ .

بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " (١) .

ان ترابط العلم والعمل فى مفهوم الاسلام أثر على وجهة الحضارة الاسلامية التى انبعثت بتأثير هذه النظرة التى يشها القرآن فى كثير من الآيات ، ثم اتجهت حركة العلم والفكر لبناء الانسان من جميع الجوانب " فتكاملت تكامل هذا الانسان من حيث كونه روحاً وجسداً ، فمن حيث كونه جسماً فهى موضوع العلوم الطبيعية ، ومن حيث أنه ذو حياة فهو موضوع علم الحياة وعلم الاحياء من نبات وحيوان ، ثم من حيث أنه روع ونفس وقلب فان هناك علوم الاخلاق والعقائد . ولكن ذلك كله لا ينفصل ، ويتحرك فى اطار بناء هذا الانسان وحمايته من الاخطار ووضع الضوابط التى تجعل حركته صحيحة ودقيقة وبعيدة عن الانحراف ... ولا بد لذلك من ايمان بالله ، ومحيط كامل من الاخلاق " (٢) .

ومن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم نذكر طائفة حثت على طلب العلم: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة " (٣) .

" من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع " (٤) .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تحسن السريانية؟ انها تأتىنى كتب ، قال: قلت لا ، قال: فتعلمها ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً " (٥) .

" نضر الله أمراً سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع " (٦) .

-
- (١) متفق عليه .
 - (٢) شبهات التغريب فى غزو الفكر الاسلامى ، أنور الجندى ، ١٣٩٨ هـ ، المكتب الاسلامى ، ص ١١١
 - (٣) رواه مسلم .
 - (٤) رواه الترمذى وقال : حديث حسن
 - (٥) سنن الإمام احمد فصل (فيها جاء) فى تعلم لغة غير لغة العرب
 - (٦) من صحيح مسلم ، رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح

وقال صلى الله عليه وسلم : " فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع " (١)

" فضل العالم على العابد كفضل علي أدناكم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله وملائكته واهل السموات والارض حتى النملة منى جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير " (٢)

" نقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " (٣)

" طلب العلم فريضة على كل مسلم " (٤)

" الغلب العلم ولو بالصبيان " (٥)

في الحديث الاول نكر طريقا في قوله : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما " ، وفي ذلك على ما يبدو وايحاء بشمول العلم الدنيوي والآخروي . الى هذا الحد يحث الاسلام على طلب العلم والسعى لتحصيله ، وفي هذا دلالة واضحة على تأييد الاسلام للمعلم .

تكريم العلماء :

أما تقدير الاسلام للعلماء ، فهو أيضا يبلغ حدا رفيعا ، وهو استكمال للنظرة الى العلم ، ومن تقدير العلم تقدير حملته .

لقد رفع الاسلام من مكانة العلماء تقديرا لعلمهم ، وأعلى من شأنهم ، ووجه لهم عناية خاصة ، وجعلهم الله شهداء في الارض على ألوهيته ووحديته ، ورفعهم في درجات الفضل ، كل على مقدار علمه ومعرفته وتطبيقاته لما يعلم ، وجعلهم وحدثهم هم الذين يخشونه حق خشيته ، لأنهم هم العالمون بعظم قدرته وعدله .

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ، مطبعة الحلبي ، ج ١ ، باب العلم ، رواه الطبراني في الاوسط والهازار باسناد حسن .

(٢) المرجع السابق ، رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(٣) المرجع السابق ، رواه الترمذى وابن ماجه والبيهقى .

(٤) المرجع السابق ، رواه ابن ماجه وغيره .

(٥) كنز العمال للمتقى الهندي ، ج ١٠ ، رواه البيهقى في شعب اليمان ، وابن عبد البر في العلم ، وقال غيرهم بضعفه .

قال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير" (١) .

ان الله يرفعهم درجات لا درجة واحدة يمتازون بها عن سائر الناس ، وذلك حتى تتناسب مع مقامير العلم الذي يكتسبه كل فريق منهم .

وقال تعالى : " شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم" (٢) .

" وفي هذه الآية جعل الله العلماء في الارض شهداء على ألوهيته ووجدانيته ، وعلى قيامه فيما خلق بالقسط ، وعلى أنه وحده العزيز القادر الذي لا يغلب ، والحكيم في كل شيء ، ولا يكون حكيمًا ما لم يكن عليمًا ، وفي جعلهم شهداء على هذه الحقائق العظمى ، دلالة على أن الباحثين العلميين المنصفين لا بد أن تتجلى لهم في طرق بحثهم براهين هائلة الحقائق ، التي تجعلهم يشهدون بها شهادة الاستدلال العقلي المكافئ للمشاهدات الحسية التي تسمح بالشهادة بها . " (٣)

وقال تعالى : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء" (٤) .

وفي هذه الآية اشارة الى أن من وظائف العلماء متابعة البحث العلمي في هذا المجال الواسع ، ويبدو أن هذه الآية تتضمن أكثر العلوم الطبيعية ، وبحث العلماء في كل ما عدته الآية ستهد بهم الى معرفة قدرة الله وحكمته البالغة ، وان معرفة كل هذه الامور لا شك أنه سيلا قلوب هؤلاء العلماء بالخشية .

(١) المجادلة : ١١

(٢) آل عمران : ١٨

(٣) أسس الحضارة ووسائلها ، عبد الرحمن الميداني ، ص ٣٣٢ مرجع سابق

(٤) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

وننظر في قصة اختيار طالوت ملكا على بني اسرائيل كما جاءت في قوله تعالى : " وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا : أنسى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتسى ملكه من يشاء " والله واسع عليم " (١) .

ان من أسباب اصطفائه بالحكم هو العلم ، وهذا العلم يلغى المقياس الذي حسبه اليهود أنه المقياس لاختيار الحكم ، وهو المال والغنى والجاه . وفي ذلك تكريم للعلم وأهله .

وقال تعالى : " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولو الالباب " (٢) .

ففي هذه الآية من تشريف العلم ما فيه ، ان حكم الله بأن أهله يمتازون على سواهم ، ثم حصر التذكير في أولي الالباب (أى أصحاب العقول) ، ولا مقوم للالباب غير العلم " (٣) .

أما الذين لا يعلمون فهم في أسوأ حال ، ان يطبع الله على قلوبهم " كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون " (٤) .

وأنزل الله طلبية العلم منزلة الجهاد في سبيله فقال : " وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين . ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم " (٥) .

وقال ابن القيم بعد أن بين ثلاثين وجها لفضل العلم " إن الله سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى : (ولكن أكثرهم يجهلون) (٦) ، وقال تعالى : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (٧) ، فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال

(١) البقرة : ٢٤٧

(٢) الزمر : ٩

(٣) روح الدين الاسلامي ، عفيف عبد الفتاح طباره ط ١٧ ، دار العلم للملايين ص ٣٨

(٤) الروم : ٥٩

(٥) التوبة : ١٢٢

(٦) الانعام : ١١١

(٧) الفرقان : ٤٤

بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . وقال : * ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * (١) .

أخبر أن الجبال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب ، فالجبال شر منهم ، وليس على دين الرسل أضر من الجبال بل أعداؤهم على الحقيقة . (٢)

والاحاديث في تكريم العلماء ورفع منزلتهم كثيرة نذكر منها ما يلي :

- * يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء * (٣)
- * من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع * (٤)
- * تعرف الملائكة بأجنتها فوق طالب العلم * (٥)
- * فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم * (٦)
- * موت العالم مصيبة لا تجبر وثلمه لا تسد ، وهو نجم طمس ، موت قلبة أفسر من موت عالم * (٧)

كذلك وضع الاسلام مقاييس دقيقة أمام العلماء ، ورسم أخلاقيات لهم اذا تسكوا بها عدوا من العلماء الجديرين بالمكانة السامية التي رسمها الاسلام لهم ، وأول هذه الاخلاقيات عدم الكبرياء ، فقال لهم * وفوق كل ذي علم عليم * (٨) ، فبين لهم أن لا حد للعلم ، حتى يخفف العلماء من كبريائهم ، ويطلبوا المزيد من العلم ، ويعدوا أنفسهم لتلقي نقد الناقدين (٩) .

-
- (١) الافعال : ٢٢
 - (٢) مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ، ص ٢٦٨
 - (٣) تمييز الطبيب من الخبيث ، احمد بن عمر الشيباني ، دار الكتاب اللبناني ، حديث مرفوع
 - (٤) صحيح مسلم ، رواه الترمذى وقال : حديث حسن البخارى - باب علم .
 - (٥) صحيح مسلم ، رواه الترمذى وقال : حديث حسن
 - (٦) الترغيب والترهيب للمنذرى - رواه البيهقي عن أبي الدرداء .
 - (٧) يوسف : ٧٦
 - (٨) روح الدين الاسلامى ، ص ٢٦٨ ، مرجع سابق
 - (٩)

كذلك يفرض الاسلام على المسلم عدم التأثر بالأهواء والشهوات والمعالج الذاتية ، ويطلبه بالاستقلال الفكرى وغيرها من خصائص وشروط البحث العلمى التزمه مثل استبعاد الاعتبارات الشخصية والتعصب ، ويؤكد القرآن على هذا الجانب فيقول : " ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه " (١) " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى " (٢).

ويطالب الاسلام المسلم بالاهتمام بالعلوم المؤدية الى العمل الصالح النافع، فالاسلام يجعل العلم الصالح مرتبطا بالعمل النافع ، فلا قيمة لعلم لا يتعمه عمل . وضرب القرآن على ذلك مثلا بملما اليهود علماء السوء .

قال تعالى : " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا يشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين " (٣) ويطلب الاسلام المسلمين بعدم الخيانة فى العلم وكنانه . (٤) قال صلى الله عليه وسلم : " من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار " (٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : " تناصحوا فى العلم فان الخيانة فى العلم أشد من خيانة فى المال " (٦) .

ما مر بنا من آيات وأحاديث تحت على العلم وتكريم العلماء ، انما هى تدل دلالة لابلس فيها على مكانة العلم فى الاسلام ، ومدى حثه على السزود بالعلم ، واكرام العلماء نابع من تكريم العلم . والمجتمع الاسلامى بدوره أخذ بهذه النظرة واحترم العلم والعلماء ، فقد كان المدرسون موضع احترام الناس واجلالهم ، ولم تكن المحاضرات فى المسجد مقصورة على الدراسات الدينية ،

(١) الكهف : ٢٨

(٢) النازعات : ٤٠

(٣) الجمعة : ٥

(٤) الإسلام والعلم التجريبي ، د . يوسف السويدى ، مكتبة الفلاح ط ١ ١٤٠٠ هـ ص ١٠٤-١٠٦

(٥) الترغيب والترهيب للمندرى ، رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح لا غار عليه .

(٦) الترغيب والترهيب للمندرى ، باب العلم ، رواه الطبرانى .

بل تعدتها الى الموضوعات الأخرى ، ولم تكن هذه المحاضرات كذلك مقصورة على الطلاب الذين يحضرون بانتظام ، بل كانت مباحة لجميع من يودون الاستماع اليها من الشباب والشيخ ، وكان هناك عدد كبير من المرادد بمثابة معاهد لتعليم الفلك ، كما كانت المستشفيات الكثيرة معاهد لتدريس الطب ، وبجانب ذلك انتشرت الأندية الأدبية ، كما أقام الخلفاء والسلاطين والعظماء ندوات أدبية في قصورهم ، كانت مما سبب في رقى العلوم وانتشارها". (١) وكذلك المكتبات مثل بيت الحكمة في بغداد ودار الحكمة في القاهرة ، ودار العلم في الموصل .

على أن الآيات والاحاديث لم تكثف بالحث على العلم والترغيب في طلبه ، وإنما قدمت هي نفسها أفانين من الفكر ، كانت مجالاً للدراسة والبحث فخلقت بذلك أول ينبوع من ينبوع الفكر الاسلامي . وقد سار هذا ينبوع قويا متدفقا ، وسارت بجانبه ثقافات الأمم السابقة التي حث الاسلام على رعايتها . ومن ينبوع الفكرية الاسلامية الاصلية ، تلك النظم التي وضعت الاسلام بذورها ، ان رسم للمسلمين أخلاقا جديدة ، وشرح لهم فقهها جديدا كذلك ، وقدم لهم نظريات سياسية واقتصادية وفلسفية حديثة . فجعل الطابع الجديد للأخلاق أن تكون عملية ، وللسياسة أن تكون ديمقراطية ، وللفلسفة الاسلامية أن يكون التوحيد أساسها ، كما فرض الدين الاسلامي دينا عاما لجميع البشر . ومع أن القرآن الكريم أعطى صورة واضحة قاطعة عن هذه الاتجاهات ، فان التفاصيل الدقيقة عن ذلك تركت ليصل لها الناس عن طريق النظر والفكر .

وهناك أسئلة كثيرة تركها القرآن الكريم للعقل البشري ليحلها عن طريق التفكير والمحاولة ، والقرآن الكريم دون شك قائد ومرشد للعقل البشري ، ولكنه لم يكن قط سلسلة يقيد هذا العقل ويفله . ان القرآن والحديث قد أمدا

(١) الفكر الاسلامي منابعه وآثاره ، تأليف م. شريف ، ترجمة احمد شلبي ،

المسلمين ببذور للأفكار ، وأما نمو هذه الافكار وازدهارها ، فقد ترك ليكون نتيجة الرعاية والدرس في ضوء المذاهب والاتجاهات الفكرية الرشيدة (١)

ومن واقع هذه التوجيهات الاسلامية ، انطلق المسلمون يدرسون ويبحثون ، ويقعدون القواعد ويوصلون الأصول ، انطلقوا في كل المجالات ، وان " مؤلفاتهم في شتى العلوم والفنون والصنائع ما يشهد لهم بالتركيز العلمي . نظروا وحشوا واختبروا وابتكروا ، وبذلك اقتعدوا مكانة الاستاذية العامة المطلقة ، كانوا حقا جديرين بوصف الله لهم " كنتم خيرا أمية أخرجت للناس " تسلك الى الخير طريقه ، وتسد دون الشر سبيله " (٢) .

وليت المسلمين عملوا على نهج المسلمين الأولين ، وواصلوا بالمعرفة العلمية الانطلاق في ملكوت السماوات والارض ، انهم لو عملوا ذلك ، لكانت لنا حضارة تسمو على كل حضارة ، ولما رأينا هذا التخلف عن ركيب الحضارات الأخرى المتقدمة في النواحي العلمية على الأقل .

(١) المرجع السابع ، ص ٧٢-٧٤

(٢) من هذي القرآن ، محمود شلتوت ، دار الكاتب العربي ص ١٩٧

المنهج التجريبي مستمد من القرآن والسنة

ان الباحث في حضارة المسلمين وتقدمهم العلمي ، لابد أن يخرج بانطباع واضح عن الأثر العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في التفكير العلمي ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة. لقد كان الدفع العلمي الكبير أثرا من آثار الاسلام ، وهذا الدور لا يقف عند الحث على العلم والدفع الى البحث العلمي ، بل إنه قدم أفانين من الفكر ، وفتح مجالات واسعة شغلت المسلمين في كل الاتجاهات ، وأوجد عندهم التحفز الشديد للبحث والاستقصاء ، ما دفعهم كذلك الى مزيد من المعرفة ، فاتجهوا الى حضارات الأمم المجاورة ، وقاموا بترجمتها واستيعابها .

ومنذ البداية علينا أن نعرف أن ليس من مهمة القرآن الكريم تقديم نظريات علمية مفصلة ، وان كان قد أمد ببذور للأفكار في شتى المجالات وذلك لأن مهمة الاسلام الأساسية هي رسم المنهج القويم للبشرية في حياتها الدنيوية والأخروية ، في معاشها ومعادها ، ما يأخذ بيدها الى طريق السعادة والتقدم الحقيقي ، والى العزة والفضيلة ، والى تخطي الصعاب والعقبات التي لا بد أن تعترض طريق الحق والخير والعدل .

لقد قدم الأصول العامة ، وفتح لنا بدايات الطرق الموصلة الى المعارف ، وترك للجهد البشري المجال الواسع لتنمية هذه الأفكار وازدهارها ، والى الابتكار والتحسين في وسائل الحضارة ما يعين الانسان في حياته ، وترك للإرادة الانسانية مجال التحدى مع الطبيعة ومحاولة اكتشافها ، ومن هنا تبرز الأمم والجماعات بمقدار جهودها المبذولة ، وسلامة طريقها ومعتقداتها . ان هذه الجهود مطلوبة من الانسان ، لأنه يملك المواهب التي منحها الله له ، ويملك الطبيعة التي يشاهدها أمامه ، وهي لا تستعصى الا على العاطلين . فقط يتطلب منا أن نسير في اتجاه فكري رشيد ، ذلك الاتجاه الذي رسمه الاسلام حتى تعان الجهود وتتضافر لتكون في طريق الخير .

ان الاسلام كمصدر عقيدة وتفكير ، وكوجه حضارى أثر تأثيرا عظيما
 فى اتجاه حركة الحضارة الاسلامية وفى ازدهارها ، وهو الذى بصر الانسان
 وحركه ، وهباً له الأرضية الصالحة لبناء أروع حضارة عرفها التاريخ . ولم
 تضعف هذه الحركة الا حين ابتعد المسلمون عن اسلامهم ، وتراخوا فى
 فهم نصوصه وأحكامه وقيمه وما دعا اليه . وما فترات الضعف فى تاريخهم
 الا أثرا من آثار اهمالهم لدينهم وتوجيهاته وإيجاداته فى جميع المجالات .
 واذ أراد المسلمون أن يعودوا الى سابق عهدهم ، فليس لهم الا التمسك
 بالحق الذى جاء من عند الله والوعى الحقيقى والفهم العميق لمضامينه ، وليس
 لنا أن نتقاعس عن جوانب كثيرة حثنا الاسلام عليها وأمرنا بها ، وخاصة فى
 النواحي العلمية والعملية . " ان الاسلام فى الحق ، هو الذى حمل المسلمين
 الاولين الى أعالي الذروات الثقافية بتوجيه طاقاتهم كلها نحو التفكير الواعى
 كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة خلق الله ، وبالتالى لفهم ارادته " . (١) ونصوص
 الدين الاسلامى هى أكبر دافع للمسلمين فى طلب العلوم النافعة واعتبارها
 جزءا من العبادة .

وتأثير الاسلام بدأت النظرة الصحيحة والخطوة الحاسمة فى تاريخ
 البشرية فى طريق العلم ، طريق المنهج التجريبي ، ذلك المنهج الذى كان
 من مبتكرات الأمة الاسلامية خالصة لهم دون غيرهم من الأمم ، الى أن تلققت
 أوروبا بعد ذلك ، ما أتاح لهم أن يفتحوا الباب واسعا فى طريق التقدم الكبير
 الذى أحرزوه والذى نشاهد هذه الايام . غير أنهم انحرفوا بالعلم الى ما هو
 شر وبلاء على الانسانى فى أكثر الجوانب ، حين اعتقدوا به كتنفس للحياة
 دون سواء ، وذلك فى غياب المنهج السماوى ما جعلهم فى طريق التصور
 الخاطى " لحقيقة الايمان وارتباطهم بالكون وخالق الكون .

(١) - الطريق الى الاسلام ، محمد أسد ، ص ٢٣٤ ، ط ٣ ، ١٩٦٨ م ،
 دار العلم للملايين . مرجع سابق .

" لقد نما المنهج التجريبي في العالم الاسلامي في ظل العقيدة الاسلامية ، وفي ظل الايمان بثبوت " سنة الله " التي يسميها الغرب جهلا وعنادا منه قوانين الطبيعة ، ومع ذلك لم يصطدم في حسمهم بقسوة الله المطلقة التي تستطيع أن تغير ما تشاء حين تشاء ! فآمنوا بالعلم ، وآمنوا بالمعجزة في بساطة بلا تعارض ولا تمزق في التفكير . وهذا هو المنهج الصائب في تفهم الحقيقة الالهية والحقيقة الكونية " . (١)

لقد تعلم المسلم من قرآنه وسنة نبيه الكثير ، تعلم منطق التاريخ وسنن المجتمعات ، وعوامل رقيها وانحطاطها ، وتعلم كذلك كيف يتعامل مع الطبيعة والأشياء من حوله ، فانطلق على هذا الأساس العلمي ليقدّم الابداع والتجديد ، وما آثار المسلمين في كل هذه النواحي الا دليلا على هذه العقيدة المتفتحة ، التي ساهمت في تقدم الحياة ورفقيها ، وما سبب توقف العطاء الا الابتعاد عن روح الاسلام ، ولو عمل المسلمون بما حاول نهجه الاولون ، وواصلوا بالمعرفة العلمية الانطلاق في ملكوت السماوات والارض ، لأنتموا ما قدم الأولون في مجال زيادة البناء الضخم لمجالات التقدم الاجتماعي والتطوير العمراني " (٢) وكذا التقدم التقني في مجال الحرب والسلم ، ممثلين لقوله تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " .

ان المنهج العلمي القائم على المشاهدة والتجربة يتوافق مع القرآن الكريم في كثير من الخطوات ، مما يدعونا الى عقد مقارنة تربينا مدى هذا التوافق ، ثم نحكم بعدها ، ان كان القرآن الكريم والسنة المطهرة قد حثا على سلوك هذا الطريق العلمي الصحيح أم لا . وتتمثل هذه الخطوات فيما يلي :

أولا : أول الركائز الرئيسية للعلم وطريقته التجريبية هي المشاهدة العلمية التي تستعمل فيها الحواس خصوصا السمع والبصر بشرط تدرسيها وترشيدها ، وذلك لأن الحواس هي المنافذ الرئيسية للعقل والفكر حيث

(١) التطور والثبات في حياة البشرية ، محمد قطب ، د . د . ت . ص ٣٥٣
 (٢) العقيدة والفطرة في الاسلام ، د . صابر طعيمة ، دار الجيل بيروت
 ١٣٩٨ هـ ، ص ٢٣٠

تتجمع هذه المدركات ، ثم يبدأ العقل بالربط بينها وتحليلها واختبارها .
 واستطاع باكتشافه الآلات أن يوسع من قدرة الحواس ويزيد من قدرتها ، وبذلك
 استطاع رؤية أشياء لم يكن باستطاعته رؤيتها بدون استعمال هذه الآلات .
 وإذا نظرنا في آيات القرآن الكريم لوجدنا الكثير منها يحثنا على استخدام
 حواسنا وخاصة السمع والبصر ، وحملها مسؤولية كبرى من أجل أن يستعملها
 فيما خلق له . " لقد دعا القرآن الناس الى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم
 الكونية عن طريق النظر الحسى الى ما حولهم ، وأعطى للحواس مسؤولية وليتها
 الكبرى عن كل خطوة يخطوها الانسان السلم في مجال البحث والنظر والتأمل
 والمعرفة والتجريب ... وناداه أن يمعن النظر الى ما حوله ، الى طعامه
 والى خلقه والى ملكوت السماوات والارض ، الى التاريخ ، الى خلائق الله ، الى
 النوايس الاجتماعية ، الى الطبيعة ، الى الحياة الاولى كيف بدأت ، وكيف
 نت وارتقت " (١) . قال تعالى :

- " فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا " (٢)
 " فلينظر الانسان سم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب
 والترائب " (٣)
 " أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض " (٤)
 " أولم يسمروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا
 أشد منهم قسوة " (٥)
 " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت " (٦)
 " أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض " (٧)
 " قل سمروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق " (٨)

(١) تهافت العلمانية ، د . عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٩٧٥ م .

ص ٣٠-٣١ ، مرجع سابق

(٢) عمس : ٢٤ ، وما بعدها

(٣) الطارق : ٥-٧

(٤) الاعراف : ١٨٥

(٥) الروم : ٩

(٦) الفاشية : ١٧

(٧) الاسراء : ٢١

(٨) العنكبوت : ٢٠

كذلك فقد دعا القرآن الانسان ليحرك سمعه باتجاه الاصوات لكي يعرف ويميز
 فبأخذ أو يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الايمان .
 قال تعالى : " ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون " (١)
 " إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشيد فأنا به " (٢)
 " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير " (٣)
 " ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون " (٤) .

ان هذا النظر لهو خطوة أولية في الطريق الصحيح الى المعرفة ، ومن
 الواقع أن النظر لا بد أن يتبعه نظر بالبصيرة والفكر ، والا فما قيمته ان لم
 يتبع بخطوات أخرى . يقول ابن القيم : " والنظر في هذه الآيات وأمثالها
 نوعان : نظر اليها بالبصر الظاهر ، فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها
 وعلوها وسعتها ، وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو
 المقصود بالأمر . الثاني أن يتجاوز هذا الى النظر بالبصيرة الباطنة " (٥) .
 وهذا القزويني العالم والقاضي كان يوصي باعادة النظر في عجائب صنع الله ،
 وكان مستغرقا بالنظر في آيات الله الهيئات في مصنوعاته ، وغرائب ابداعه
 في مبدعاته ، مسترشدا بقوله تعالى : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف
 بنيناها وزيناها وما لها من فروج " . يقول : " وليس المراد بالنظر
 تغليب الحدقة نحوها ، فان البهائم تشارك الانسان فيه ، ومن لم ير من
 السماء الا زرقتها ، ومن الارض الا عيونها ، فهو مشارك للبهائم في ذلك
 وأدنى حالا منها وأشد غفلة ، كما قال تعالى : " لهم قلوب لا يفقهون
 بها . ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام
 بل هم أضل أولئك هم الغافلون " (٦)

(١) الانفال : ٢١
 (٢) المتيك : ١٠
 (٣) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، ج ١ ، مكتبة الرياض الحديثة ، ص ١١٩
 (٤) الاعراف : ١٢٩
 (٥) - الجين : ١ فما بعد
 - يونس : ٦٧

يقول: " والمراد من النظر التفكير في المعقولات ، والنظر في المحسوسات ، والبحث عن حكمتها وتصاريفها ، لتظهر له حقائقها ، فانها سبب اللذات الدنيوية والسعادات الأخروية . وكلما أعمق النظر فيها ، ازداد من الله تعالى هداية ويقينا ، ونورا وتحقيقا" .

ويقول : " لقد حصل لي بطريق السمع والبصر والفكر والنظر ، حكم عجيبة ، وخواص غريبة أحببت أن أقدها لتثبت ، وكرهت الذهول عنها مخافة أن تغلت" (١) .

ان الحواس أدوات للمعرفة زود الله بها الانسان ، ولم يمنعه اياها عما ، بل من أجل أن يستعملها فيها خلقت له . قال تعالى : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (٢) . " ولن يتحقق شكر الانسان لله على ما وهبه من نعم ما لم يتابع سيره في طريق المعرفة والعلم دون انحراف أو شذوذ ، لأنه متى استخدم هذه الأدوات ، وسار ضمن منهج فطري سليم ، فانه لا بد أن يصل الى معرفة خالقه ، ومعرفة ما أنعم به عليه ، ومعرفة ما يجب عليه نحوه من شكر" (٣) .

ونظرا لأهمية العقل في الاستفادة ما تجمعه الحواس عن طريق المشاهدة والربط بين هذه المدركات الحسية ، كان لا بد من الاشارة بهذا العقل والتنبه به ، وهذا ما نجده في القرآن الكريم حيث نرى آيات تقرب من الخسنيين عددا تحت على تحريك العقل ، المفتاح الذي منحه الله لبيبي آدم وقال لهم : افتحوا به أبواب الملكوت ، وادخلوا ساحة الايمان الذي سخر لكم ما في السماوات والارض . ان الاشارة بالعقل وتوجيه النظر الى استخدامه ، والرجوع اليه بطريق مباشر أو غير مباشر فيما اختص به من تفكير منبثة في آيات كثيرة ، وهذا دليل على تقدير الاسلام للعقل وأهميته في فهم الاحكام الاسلامية ، وانه مناط التكليف في الاحكام الشرعية ، والمعول عليه في شؤون الحياة بمختلف نواحيها . " ان التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضا ،

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، القزويني ، عن تاريخ العلم

للدكتور/ عبد الحليم منتصر ، ص ٢٠٣-٢٠٤ ، ط ١٩٨٠ م .

(٢) النحل : ٧٨

(٣) أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، عبد الرحمن حنيكه الميدانسي ،

دار العربية للطباعة والنشر ، ط ١٩٩٠ هـ ، ص ٢٨٨

ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التردد المعاد . بل كان هذا التوبيه
بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهه ، ويترقبها من هذا
الدين كل من عرف كنهه ، وعرف كنه الانسان في تقديره " (١) . وابن تيمية
من قبل ذلك يقول : ان صحيح المعقول لا يتعارض مع صحيح المنقول .

ان الاشارة بالعقل تأتي بمعيدة عن آراء بعض الفرق ومفاهيمها عن
العقل ، تلك التي تأثرت بالفلسفة اليونانية ، انما نريد العقل الذي يفكر
ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي ، والذي هو مناط الاحكام في الاسلام .
لقد استعمل العقل في القرآن بمعنيين اثنين ، إما بمعنى الفهم والادراك
والعلم ، واما بمعنى التمييز بين الخير والشر وامسك النفس عن الاسـ
القبحة . (٢) ومن الآيات التي توضح المعنى الاول قوله تعالى : " وتلك
الأمثال نضربها للناس . وما يعقلها الا العالمون " (٣) .

وقال تعالى : " انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (٤)
فالمعنى هنا للعقل هو العلم والمعرفة والفهم ، أما المعنى الثانى
فيستخلص من مثل قوله تعالى : " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم
تتلون الكتاب أفلا تعقلون " (٥) .

وقوله تعالى : " أف لكم ولا تعبدون من دون الله . أفلا تعقلون " (٦)
وهذا الراغب الأصهبانى أخذ يقسم الآيات الواردة فيها عن العقل ، ويقسمها
الى عقل مطبوع أى غريزى ، وسموع أى مكتسب . وهو فى هذا التقسيم
قد أخذ قول على بن أبى طالب فى ذلك (العقل عقلان مطبوع وسموع) .
يقول : " كل موضع رفع التكليف فيه عن العبد لعدم العقل فإشاره الى الاول ،
وكل موضع ذم الله الكفار لعدم العقل ، فإشارة الى الثانى دون الاول " (٧) .

-
- (١) التفكير فريضة اسلامية ، عباس العقاد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر
ط ٦ ، ص ١٥ .
(٢) الاسلام والعقل ، د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت
ط ٢ ١٩٧٦ م ص ١٨ .
(٣) المنكسوت : ٤٣ - الزخرف : ٣
(٤) البقرة : ٤٤ - الأنبياء : ٦٧
(٥) المفردات فى غريب القرآن للأصهبانى ، نقلا عن " الاسلام والعقل " ص ١٩

وخطوة أخرى مع آيات القرآن الكريم تدعو الانسان الى التفكير العميق المتبصر المسوؤل، تدعوه الى التفكير بكل ما يحيط به من علامات وأشياء وموجودات ، ولا يتم ذلك الا باستعمال العقل . قال تعالى : " قل هل يستوى الاعى والبصير أفلا تتفكرون " (١)

وقال تعالى : " ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار . (٢)

وقال تعالى : " أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلفظ " ربهم لكافرون " (٣) كذلك وردت آيات يكثر فى نهاياتها الكلام عن العقل بصيغ مختلفة ، وهو بيان يرينا أن العقل نعمة ، وأنه لاهد من استخدامه واللجوء الى حكمه فيقول تعالى : " ان فى ذلك آيات لقوم يعقلون " ، " ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون " ، " أفلا تعقلون " ، " صم بكم عى فهم لا يعقلون " . ان اهمال العقل أمر خطير ، هذا الاهمال للعقل فى الدنيا سيترتب عليه العذاب فى الآخرة . قال تعالى : " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير " (٤) .

ومن باب الاشارة بالعقل ، التعبير عنه بالسلطان كما ورد فى سورة غافر ، حيث يقول تعالى : " الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتدا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار " (٥) .

ان هذا العقل الذى يعصم الضمير ، ويدرك الحقائق ، ويميز بين الأمور ، ويتبصر ويحسن الادراك ، كيف يهمله الناس وقد قال الله فى ذلك : " ان شر

(١) الأنعام : ٥٠

(٢) آل عمران : ١٩٠-١٩١

(٣) الروم : ٨

(٤) الملك : ١٠

(٥) غافر : ٣٥

الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " (١) ، وقال تعالى : " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " (٢) .
ولنا أن نتساءل مع الدكتور عماد الدين خليل حيث يقول : " مادام قد خلق الانسان بهذا العقل المدرك وهذه القدرات الخلاقة ، فهل يعقل أن يبعث أنبياءه بأديان ومناهج ترفض استخدام العقل ، وتجمد القدرات الخلاقة؟ ألم يكن من الأجدر أن يخلق الانسان أساسا بلا عقل ولا قدرات " (٣) .
ولم يكتف الاسلام بكل هذا ، بل انه رسم المنهاج القويم للحفاظ على العقل وعلى حرته ، ورفع عنه كل الضغوط التي تجعله مكرها سواء أكانت قيودا اقتصادية أم قيودا اجتماعية أم قيودا سياسية . وما فتوحات الاسلام الا لازالة الطغمة الفاسدة والمتسلطة على العقول لازاحتها ، وبالتالي ازاحة الكابوس الجاثم على العقول ، حتى تصبح هذه العقول حرة ، فتختار الطريق كما تشاء .

ان هذا الاستطراد في كلامنا عن العقل أملته علينا أهمية هذا العقل في تحليل المشاهدات الحسية ، والاستفادة منها وتنظيمها ، واستخلاص علاقات وروابط وقوانين من وراء هذه المشاهدات . ولا يتم ذلك الا بالعقل لأن هذه مهمته بعد تحصيل الحواس للمعلومات .

وخلاصة القول في موضوع المشاهدات واستعمال العقل ما ورد في هذه الآية : " ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه سوء ولا " (٤) . وفي تعليق الدكتور الغمراوي على هذه الآية يقول (٥) : " في هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هي جماع أصول النظر العلي :

-
- (١) الانفال : ٢٢
(٢) الفرقان : ٤٤
(٣) تبهافت العلمانية ، د . عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ ص ٢٦
(٤) الاسراء : ٣٦
(٥) الاسلام في عصر العلم . د . محمد احمد الغمراوي ، دار الكتاب الحديث . ١٩٧٣ م ، ص ٦٦

أولها : ألا يتبع الانسان الا الحق المعلوم يقينا (ولا تقف ما ليس لك به علم)
 وثانيها : أن طريق الوصول الى الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح
 وثالثها : أن على الانسان أن يستمسك بما يصل اليه من الحق عن طريق
 المشاهدة والتفكير (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه
 سوءولا) .

هذه المشاهدة اذن التي تتم بمختلف الحواس والتي يتدخل العقل في
 الاستفادة منها وتنظيمها ، أصل قرآني يدعو اليه كما مر بنا ، وهي أصل
 العلم الحديث ، حيث هو الطريق السليم لاكتساب المعرفة الحقة خاصة فيما
 يتعلق بجزء من عالم الشهادة ، وهي الميدان السليم للوصول الى نتائج علمية
 صحيحة . وهذه الطريقة تفرق عن طريقة العلم قديما كما نجدها عند اليونان ،
 حيث كانوا يعتمدون على العقل ويهملون أمر المشاهدة بالمعنى الذي ذكرناه
 في الصفحات الماضية ، انهم كانوا يرون العقل مصدرا للحقائق مستغنيا بذاته
 عن المشاهدة ، بينما العلم الحديث يراه وسيلة ، والحقائق تقع خارج النفس
 وخارج العقل .

والعلم الحديث باختراعاته واكتشافاته ، قد ولد حين ترك الانسان مذهب
 الأقدمين في طلب العلم عن طريق التفكير البحت ، وبدأ يطلب العلم عن طريق
 المشاهدة مع التفكير ، يبقى أن نستبعد عن حقائق العلم وطريق الوصول
 اليه ما صاحبه من نظريات وفلسفات أرادت انكار ما وراء الحس والمشاهدة ،
 وهذا أمر لا يقره العلم نفسه ، وانما اتخذه بعض العلماء ذريعة لأهوائهم
 ومعاربتهم للأديان ، وهذا في حد ذاته ليس منطقا علميا كما يثبت العلم
 نفسه كلما تقدم خطوة الى الأمام ، وكما بينه الدين الحق .

ثانيا : السعى للوصول الى الحق بالبرهان والحجة

ان العلم لا يقول عن شئ " انه حق الا اذا قام عليه البرهان
اليقيني القاطع ، والقرآن يأمر كذلك بألا يقل الانسان شيئا
على أنه حق الا اذا قام عليه البرهان .
قال تعالى : " وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ،
تلك أمانتهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين " (١)
وقال تعالى : " قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا
الظن وان أنتم الا تخرصون " (٢)
والعلم المقصود هنا هو الحق اليقيني الثابت بالحجة القاطعة ،
بدليل عيبه عليهم انزالهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين . (٣)
ان القرآن يسمي الى الحق دائما ، لأن هدفه الحق ، ولا سبيل
للاوصول الى الحق الا بدليل ثابت قطعى لا يحتمل التخمين والظن .

ثالثا : ان العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقينا ما ليس بيقيني ،
وأن ينزل الظن منزلة اليقين ، فهو يقيس مقدار اقتراب القضية
من الحق بمقدار مئاة الحجة التي تشهد لها . لذا فالنظريات
العلمية لا تعتبر قاطعة في دلائلها ، ولا بد من توافر قطعيتها حتى
تلحق بالحق اليقيني ، أو يثبت بطلانها . وان الخطأ الذي يقع عند
كثير من الناس حين يعتقدون أن مثل هذه النظريات حقائق ثابتة ،
ويبنون عليها أمورا علمية تؤدى الى مزالق خطيرة . انها تبقى
في طور النظرية حتى يقطع اليقين بصحتها بواسطة الادلة القوية
التي تلحقها بالحقائق العلمية أو تبطلها ، فان كانت الحجة قاطعة
فالقضية حق ، وان كانت القضية غير قاطعة فهي ظن . وهذا التفريق

(١) البقرة : ١١١

(٢) الانعام : ١٤٨

(٣) الاسلام في عصر العلم ، مرجع سابق ، ص ٥٨

في العلم في المنزلة بين ما هو حق وما هو ظن يتفق تماما مع روح القرآن الكريم في النظر ، ومع طريقته المتجلية في آياته كلها . قال تعالى : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) (١) .

وقال تعالى : (وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليهم بما يفعلون) (٢)

فالظن تصور لا يستند الى دليل ، وهو لا يفيد ما يفيد الحق الذي عليه مدار الايمان الصحيح . كذلك العلم لا يفيد الظن في الوصول الى سنة من سنن الله الكونية ان لا بد من الحق القاطع للوصول الى حقيقة علمية سليمة .

رابعا : ان العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل والافتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم قديما في هذا ، لأن العلماء قديما ، خصوصا في القرون الوسطى ، كانوا كثيرا ما يقنعون في الاستدلال على الصحة والبهلان باثبات أن القضية توافق أو تخالف رأي فلان أو علان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلا يتخذ حجة قاطعة في موضوعه من غير أن ينظر في رأي أرسطو هذا في ذاته ، ومن غير أن يسأل ما هو دليل أرسطو .

والعلم في منعه التقليد الأعشى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذي شدد النكير على أناس كانوا يستسكون بالرأي ، لا لأنهم عقلوه ، ولكن لأن آباءهم فعلوه . (٣)

(١) النجم : ٢٣

(٢) يونس : ٣٦

(٣) الاسلام في عصر العلم ، مرجع سابق ، ص ٦٠-٦١

قال تعالى : (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (١)
 وقال تعالى : (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى ما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون ، فانلقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) (٢)

فالتقليد الاعى محرم على أهل النظر في حكم العلم وفق حكم القرآن .
 والقرآن بعد أن نهى عن التقليد من غير دليل ، نهى أيضا عن التقييد بوجهة نظر واحدة ، وذلك بدعوته للأخذ بالأحسن . " فالاخذ بالأحسن نزعة جديدة في الاخلاص للحقائق لم تتجل على أكمل حالاتها الا لدى مفكرى القرن التاسع عشر ، الذين أدركوا : أن الحقائق المطلقة لا يمكن أن تكون وقفا على فلسفة مقررة محدودة ، بل يجب عليهم أن يأخذوا بأحسن ما يجدونه من جميع الفلسفات ، وان أسلوبا واحدا من البحث لا يصح أن يحتكر أحسن طرق الوصول اليها ، وهذا المبدأ دعت اليه الحكمة القرآنية منذ نحو أربعة عشر قرنا) (٣)

قال تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم الأولياء) (٤)

"ففي هذه الآية أمر الله المسلمين أن يسمعوا كل قول ، وأن لا يحملهم التعصب للرأى أن يرفضوا أى رأى دون تفهم وتمحيص ، بل يأخذوا أحسن ما يجدونه ، وقد وصف الله الذين يفعلون ذلك : بأنهم المهديون هداية الهية ، وبأنهم أهل العقول الراجحة ، والبصائر النيرة" (٥)

(١) البقرة : ١٧٠ (٢) الزخرف : ٢٢-٢٥

(٣) روح الدين الإسلامى ، عفيف عبدالفتاح طباره ، ط١٧٠١٩٧٨ م ، دار العلم للملايين ، ص٢٧٢

(٤) الزمر : ١٨ (٥) المرجع السابق ، ص٢٧٣

خامسا : كذلك فان العلم يلتقى مع القرآن الكريم في أصلين اثنين هما :
توافق الحقائق أو امتناع التناقض بينهما ، وثبات السنن الالهية
واطراد الفطرة . ولولا ثبات تلك السنن لما كان علم أصلا ، ولما
ضبطت القوانين .

قال تعالى : (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله
تبديلا) (١)

(فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله

تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) (٢)

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر

الناس عليها لا تبدل لخلق الله ، ذلك الدين

القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٣)

(ما تسرى في خلق الرحمن من تفاوت) (٤)

فهذه آيات صريحة في اطراد الفطرة وبقا سنن الله فيها على
الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل ولا تناقض ، سواء كان ذلك
ما تعلق بالانسان أو بنبات وجماد وحيوان . فلا تفاوت في خلق
الرحمن ولا تناقض ، والسنن باقية على الدهر كله حتى يشاء الله
تغييرها أو تبديلها .

ان الحقيقة لها وجه واحد ثابت لا يختلف في كل عصور وفسى

كل زمان ، ولا تبدل الحقيقة من وقت لآخر . وهاتان النقطتان

يعتمد عليهما العلم اعتمادا كبيرا ، ولولاها لما كانت هناك

بحوث وتجارب أصلا .

هذه القواعد الاولية لبناء المنهج التجريبي ، مازالت

بحاجة الى مزيد من الدراسة والتحليل والتعليق والتعمق في الآيات

القرآنية بصورة أوفى ، ونسأل الله أن يتوفر عليها مزيد من الباحثين .

(١) الاحزاب : ٦٢ ، (٢) فاطر : ٤٣

(٣) الروم : ٣٠ ، (٤) الملك : ٣

ثم نكمل طريقنا في الكلام عن المنهج التجريبي حيث نلتقي بالكسوف المحيط بنا ، ذلك الكون الذي بسطه الله سبحانه وتعالى لنا ، وعرضه عرضاً حسياً واقعياً لا عرضاً تجريدياً خيالياً . فالقرآن يذكر من ذكر السماء والأرض والشمس والقمر والجبال والأنهار والنبات والأنعام ، "والقرآن يتحدث عن الطبيعة الحية الواقعية لا الطبيعة المجردة التخيلية . فهو لا يذكر الجواهر والصور والهيولى والجزء الذي لا يتجزأ ، وإنما يذكر الهباء والذرة والدخان والماء والنار والشجر والجبال ... وغيرها من الموجودات الواقعية بأنواعها وأصنافها" (١) . ولو قارنا عدد هذه الآيات في القرآن بغيره من الكتب الدينية الأخرى ، لوجدنا مجموعة كبيرة جداً ، في حين أن مثل هذه الآيات قليلة في الكتب الأخرى .

كذلك فإن القرآن حبيب هذا الكون لنا ، وقربه إلينا ، وبين أنه مخلوق كثيره من خلق الله مسخر لخدمة الإنسان وانتفاعه ، وأزال ما كان عالقا بالأذهان من الخرافات والاساطير في تعليل حوادث الطبيعة، وجعل الارتباط بين الحوادث ارتباطاً موضوعياً بين المقدمات والنتائج ، بين الأسباب والمسببات ، وبذلك فتح المجال للفكر العلمي المعنى على البحث بين ترابط الحوادث .

قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة) (٢)
 (أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأبنتنا به
 حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) (٣)
 (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناهم وما أنتم
 له بخازنين) (٤)

" يلاحظ في هذه الآيات ربط الحوادث ببعضها ببعض وتلازمها واقتربها وتتابعها على نسق ، وهي تلتق في نفس قارئها فكرة السنن المطردة في الكون" (٥)

(١) الإسلام والفكر العلمي ، محمد المبارك ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨ ،

ط ١ ، ص ١٢٢

(٢) الحج : ٦٣ ، (٣) النمل : ٦٠ ،

(٤) الحجر : ٢٢ ، (٥) الإسلام والفكر العلمي ، مرجع سابق ، ص ١٢٢

وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نجد طائفة من الاحاديث تنكسر الخرافات والتعليلات الباطلة في تفسير الحوادث الكونية.

(من أتى عرفا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما) (١)

(العيافة والطيرة والطرق من الجبث) (٢)

كذلك يبدو هذا الأمر واضحا في حادثة موت ابراهيم عندما ذهب الناس في تعليل موته الى كسوف الشمس ، فخطبهم عليه السلام بقوله : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ولا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وصدقوا) (٣)

وناحية أخرى مهمة على طريق المنهج التجريبي ، وهو أن القرآن قد فصل عالم الغيب عن عالم الشهادة ، فقد وضعه أماننا وجها لوجه ، وطالبنا ادراك الكثير من العلاقات بوسائل البحث المتوفرة لدينا حسب امكانياتنا البشرية ، ولم يذكر القرآن سوى خلق الله لها وتقديره لها أى سبب من الأسباب الغيبية التي لا تدرك بالعقل والحواس ادراكا مباشرا كالجن والملائكة ، وبذلك فصل القرآن عالم الشهادة عن عالم الغيب بالنسبة للادراك الانساني على الأقل ، بحيث يعالج الانسان الحوادث والمسائل الكونية معالجة موضوعية بحسب ما يشهد بحواسه ، ويدرك بعقله ، ويستخرج بتفكيره ما يستخرجه منها من الأسباب السابقة والنتائج اللاحقة وما بينهما من علاقات حسابية ، وصلات تأثيرية ، وقوانين مطردة ، أو سنن ثابتة . (٤)

ولم يكف القرآن الكريم بالحث على البحث العلمي في مجال عالم الشهادة والحث على استعمال الحواس مع العقل ، بل أمرنا بالممارسة العملية التي تؤدي بنا الى ممارسة التجربة ، وهي العنصر الآخر المهم من عناصر المنهج التجريبي .

(١) صحيح مسلم ، (٢) رواه ابو داود

(٣) متفق عليه

(٤) الاسلام والفكر العلمي ، مرجع سابق ، ص ٣٩-٤٠

قال تعالى : (أولم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعي الأبهار ولكن تعي القلوب التي في الصدور) (١)
 في هذه الآية أمر بالممارسة العملية تطلب منا أن نتبين ما تحمله سنن دالات تدل على الأمم التي خلفتها ، وما تتضمنه من عظات للأجيال المتلاحقة يعتبر بها أولو الأبهار ، ان هي مظاهر لسنن الله الدائمة ، التي لا تبدل لها . وسها أمر بالتنقيب عن الآبار المعطلة ، والقصور المشيدة التي خلفتها القرون الاولى ، والبحث عن آثار حضارتها ، وأسباب انهيارها ودمارها ، للاتعاظ والاعتبار بكل ذلك ، والانتفاع بما توصل اليه السابقون من مكتشفات علمية أو عملية .

كما قال تعالى : (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) (٢)

(قل سيرا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) (٣)

(قل سيرا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) (٤) .

والرسول صلى الله عليه وسلم أهد التجربة العملية المستندة الى الأسباب العادية دون التعليقات التي لا مبرر لها . فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم مر على قوم يلقحون النخل فقال : ما يصنع هؤلاء ، فقبل يأخذون من الذكر فيحطون على الأنثى يلقحون به ، فقال : ما أظن ذلك يعني شيئا . فيلغهم فتركوه ونزلوا عنها ، فلم يحمل تلك السنة شيئا ، فبلغ ذلك النبي صلى الله وسلم فقال : (انما هو ظن ظننته . ان كان يفتي شيئا فاصنعوا فانما أنا بشر مثلكم . والظن يخطئ ويصيب ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل فلن أكذب على الله) (٥) .

(١) الحج : ٤٦ ، (٢) الملك : ١٥
 (٣) العنكبوت : ٢٠ ، (٤) الروم : ٤٢
 (٥) أخرجه مسلم .

وفى رواية أخرى: " إذا أمرتكم بأمر من أمور دينكم فأطيعوا وإذا أمرتكم بأمر من أمر دنياكم فانما أنا بشر " .
 وهذا الحديث التوجيهى عظيم جدا فى أساسه وفى نتائجه ، فقد أحسّ الناس فى الأمور الكونية الطبيعية على تجربتهم الخاصة ، وعلى تفكيرهم .
 فهذه الامور الدنيوية كالزراعة والصناعة ، الاصل فيها أنها من اختصاص البشر فى تجربتهم وخبرتهم ، وقد أبان الله حلالها من حرامها ، ثم حثهم على هذه الأمور ، وترك لهم العمل فى هذا المجال بجهدهم الانسانى .
 وفائدة أخرى من الحديث الشريف هو اعتبار التجربة من مصادر المعرفة البشرية ، وكأن الحديث يحض عليها ويبين مدى أهمية هذه التجربة فى اكتساب العلم الصحيح فى مثل هذه المجالات .
 كذلك حديث: " ان لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء ببرأ باذن الله تعالى " (١) .

وفى رواية : " يا عباد الله تداووا فان الذى خلق الداء خلق الدواء ، فتلمسوا دواء كل داء فى ما تنبتة الأرض ، فان لكل داء دواء الا الهرم " .
 فى هذا الحديث حض ظاهر للبحث عن الدواء المناسب لكل داء ، واحالة ذلك على التجربة الانسانية ، وفتح باب التجربة فى ميدان الطب . وفى هذا النص يتضح لنا مع النص السابق مدى أهمية التجارب كمصدر من مصادر المعرفة الانسانية .
 واذ كان هدف الدين هو رسم المنهاج للبشرية لهدايتها ، فاننا نعجب من هذا الدين الذى هداننا أيضا الى طريق سليم لتحصيل المعارف والعلوم . وهل يطلب من دين أكثر من ذلك ؟

ان القرآن علاوة على ما ذكرنا من حث على البحث العلمى واستعمال وسائل الحس والتجربة ، يعطينا بعض الوسائل للبحث ، ويهدينا اليها ، وفى ذلك يقول محمد المبارك : " ان القرآن الكريم لفت النظر الى بعض وسائل البحث

(١) أخرجه أبو داود ورواه مسلم .

وطرائقه ، كجمع التشابهات وغير التشابهات من الأشياء والموجودات ، أي ظاهرة التشابه والاختلاف . ومن ذلك طريقة التصنيف^(١) . فالقرآن يلفت نظر الباحث في سنن الكون وقوانينه الى ما يعينه على اكتشاف هذه السنن . قال تعالى : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والسـزرع مختلفا أكله والرمان متشابها وغير متشابه^(٢)) .

وقال تعالى في نفس السورة : (ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون^(٣)) فالاشتباه في الطعم والتشابه في الشكل ، وهذا يحتاج الى بحث وتجريب ومقارنه .

وقد صنف القرآن المخلوقات كقوله تعالى : (وما من دابة ولا طائر يطير بجناحيه الا أم أمثالكم) (٤)

(والله خلق كل دابة من ماء^٤ فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء) (٥)

كذلك أشار القرآن الى ظاهرة الألوان وفاعدها في استخراج السنن واكتشافها . قال تعالى : (وما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه) (٦)

(ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين) (٧)

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء) (٨)

في هذه الآيات يذكر الله سبحانه اختلاف اللون في البشر والألسنة وما في الأرض من دواب وأنعام ، وما في الجبال ، وهذه المواضيع يقوم ببحثها علماء مختصون ، لذا فقد ختمت الآيات بالاشارة بالعلماء .

- | | |
|-----|-------------------------------|
| (١) | الاسلام والفكر العلمي ، ص ١١٣ |
| (٢) | الانعام : ١٤١ |
| (٣) | الانعام : ٩٩ |
| (٤) | الانعام : ٣٨ |
| (٥) | النور : ٤٥ |
| (٦) | النحل : ١٣ |
| (٧) | الروم : ٢٢ |
| (٨) | فاطر : ٢٧ |

وفى هذا المجال نذكر مادة الحديد وما ورد بشأنها فى القرآن حيث سميت سورة بهذا الاسم ، قال تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ولا يكون كذلك الا بتصنيعه وتطويره ما يحتاج الى عمل وتجارب للحصول على الفائدة المطلوبة. وفى قصة ذى القرنين عندما بسنى السد ليحجز بأجوج ومأجوج ، فقد أذاب الحديد بواسطة النار وغلطه بالنحاس ما أكسبه متانة وصلابة، وفى هذا توجيه الى هذه المادة المهمة، وأنه بالنار نستطيع تشكيل هذه المادة. قال تعالى : (آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا) (١).

نخلص من ذلك الى ان الاسلام قد رسم المنهج العلمى الصحيح ، وهو المنهج التجريبي القائم على المشاهدة واجراء التجارب للخروج بنتائج صحيحة معانية على الواقع.

وقد وضع الاسلام جميع الأمور المتعلقة بالبحث العلمى ، ولم يترك جانباً خافياً فيها ، حتى تكون الانطلاقة صحيحة وسليمة. فهو قد منح الحواسر للانسان وحته على استعمالها ، ورسم صورة للكون بالمقابل ، وقال لنا : ان هذا الكون مسخر لبنى البشر ، وهو خاضع للدراسة والبحث ، وحملنا مسؤولية البحث فى هذا الكون ، وطالبنا به أشد المطالبة ، وجعل ذلك طريقاً للوصول الى الايمان بالله سبحانه وتعالى ، وعلى أثر ذلك تأتى المنفعة البشرية.

لقد وضع لهذا الكون سننه التى يسير بمقتضاها ، وهذه السنن مطردة ثابتة لا تتغير ، وليس فى ذلك معنى التعلق الذاتى بين السبب والمسبب ، وانما هو بسبب تقدير الله وخلقته. وهذا هو الفهم الاسلامى لهذه السنن المطردة وللأسباب المسببات ، وهذا ما نغترى به من المذاهب الوضعية التى ترى التلازم بين العلة والمعلول كطبيعة للمادة لاشياء خارجى عنها . واننا

كسليمين نؤمن بالأسباب والمسببات ، ولكننا لانعتقد أن الحادثة الأولى السابقة هي الموجدة للتالية ، ولا نعتقد بالتلازم الحتى الابدى الذى لا يتخلف ، وبذلك نؤمن بالأسباب والمسببات ، ونؤمن أن الله هو الخالق المدبر الموجد للأشياء سواء منها الاسباب والمسببات .

ان هذه النظرة تتيح لنا البحث فى الطبيعة ، وتجعلنا نطمئن الى أن الماء مثلا فى كل مكان يتكون من الأوكسجين والهيدروجين ويتحول الى بخار فى درجة معينه والى جليد فى درجة معينه أيضا ، ولولا ترابط الحوادث واطراد السنن لما كان هناك تقدم علمى ، ولا كان هناك قانون .

يقول ابن تيمية عن الاسباب والمسببات :

" وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير . وأحاط بكل شيء علما ... ومع هذا لا ينكرون ما خلقه الله من الاسباب التى يخلق بهـ المسببات ، كما قال تعالى : " حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات " (١) .

وقال تعالى : " يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام " (٢)

وقال تعالى : " يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا " (٣)

فأخبر أنه يفعل بالأسباب ، ومن قال - انه يفعل عندها لا بها - فقد خالف ما جاء به القرآن ، وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع ، وهو شبيهه بانكار ما خلقه الله من القوى فى الحيوان وذلك أنه ما من سبب من الاسباب الا وهو مفتقر الى سبب آخر فى حصول سببه ، ولا بد من عدم مانع يمنع مقتضاه . اذا لم يدفعه الله عنه ، فليس فى الوجود شيء واحد يفعل شيئا اذا شاء الا الله وحده " (٤)

(١) الأعراف : ٥٧ ، (٢) المائدة : ١٦

(٣) البقرة : ٢٦

(٤) الرسالة التدمرية ، ابن تيمية ، ص ٧١-٧٢ ، مكتبة الرياض الحديثة ، سنة الطبع غير مذكورة .

وان إقصاء الخرافة عن الكون ، وإبراز عالم الشهادة وجعله طريقاً ومنطلقاً للوصول إلى الإيمان بالله ، وإلى سائر حقائق الإيمان بالغيب ليكون بذلك الانتقال من الحسنى الغريب إلى المجرى البعيد ، واستخدام الحواس والعقل وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، كل ذلك أدى إلى أحداث ثورة فكرية شاملة ونقطة انطلاق إلى آفاق بعيدة ، وتحول كبير في مسار التفكير الإنساني ما أدى إلى بروز المنهج العلمى الصحيح ألا وهو المنهج التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة.

ان التفكير الاسلامى - بتأثير مباشر من القرآن والسنة - أحدث فى طرائق البحث العلمى تغييراً عميقاً ، وأدى إلى تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية ، وبذلك تغير الفكر البشرى ككل، وبدأ فى التقدم الصحيح حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن ما نشاهد ونسمع. هذا هو موقف الاسلام من العلم وحته عليه ، وهذا هو المنهج الذى دعا إليه الاسلام. ويقتضى أن نستعرض باختصار مناهج علماء المسلمين لئلا نرى مدى تأثيرهم بهذا المنهج، ثم نأتى بشهادات تثبت أن المنهج التجريبي منهج اسلامى استقاه الغرب من حضارتنا الشامخة.

ومن هذا المنطلق ، نجد أن الأمة العربية فى العصر الاسلامى ، عسى التى قدمت للانسانية المنهج التجريبي ، وقدم علماء المسلمين للعلم والمعرفة طرائقهم وتجاربهم ومناهجهم ، التى تقدمت على أساسها العلوم الطبيعية من رياضيات وفلكية وأحيائية وهندسية الخ ..

مناهج البحث عند علماء المسلمين وتأثرهم بالمنهج الاسلامي

ان تقدم العلوم الطبيعية والرياضية منذ وقت مبكر عند المسلمين ، ثم استمرار هذا التقدم والرقى دون أن يصدد ذلك بمعارضة في المجتمع الاسلامي ولا في التفكير الاسلامي أى شعور بالتناقض خير دليل على سلامة هذا الاتجاه . بل اننا نقول إن قوة الدفع في هذه الجوانب العلمية مصاحبة لقوة الاسلام وتمسك المسلمين به . لقد اقتبس المسلمون علوم الأمم التي اختلطوا بها ، ولو وجدوا أدنى شبهة في نقل هذه العلوم لما اقتربوا منها كما فعلوا بالاساطير اليونانية والهندية . وإن إقبالهم على هذه العلوم وتطويرها بعد ذلك لدليل على عدم معارضة الاسلام لها ، بل نقول انها دليل على تأييد الاسلام لمثل هذه العلوم النافعة . لقد كان الايمان قويا في نفوس المسلمين الأول ، ووجدوا من نصوص القرآن والسنة أكبر الدفع للعلم ، فقبلوا هذه العلوم بروح جديدة استخلصوها من طبيعة هذا الدين كما مر بنا في صفحات سابقة .

اننا ننكر قول بعض الناس ان الفكر الديني فكر غيبي ، وهو بذلك مناف للتفكير العلمي ، ان هؤلاء يجهلون طبيعة الاسلام تماما ، أو أنهم لم يفهموه على طبيعته . كذلك فاننا لا نؤيد من يقول ان الاسلام لا ينافي العلم ، فان قولهم هذا كمن يقول ان الشانعى وأبا حنيفة لا يجهلان الفقه الاسلامي . (١) ولكننا نقول ان الاسلام هو الباعث الحقيقي للروح العلمية التي وجدت عند المسلمين ، وليس العلم الا طاقة من طاقات هذا الدين التي فجرها منذ ظهوره الى يوم الناس هذا ، وما الدين الاسلامي الا نظام كامل شامل لجميع أوجه الحياة يرسم الطريق للحياة الدنيا ولحياة الآخرة معا .

(١) الاسلام والفكر العلمي ، محمد المبارك ، مرجع سابق ، ص ١٢٩

ان هذا الفكر الذى بثه القرآن والسنة ، وهذه الافكار التوجيهية - قد ولد بصورة طبيعية منهجية البحث عند المسلمين ، تلك المنهجية القائمة على المنهج التجريبي وعساده الملاحظة والتجربة . ولم يكن ثمة طريق آخر طبيعي غير هذا الطريق لمن يفهم الاسلام ويمثل الفكر الاسلامي بالشكل الصحيح . لذا فليس غريبا أن يلفظ المسلمون مناهج غيرهم من يونان وهند بعدما عرفوا أن هناك فروقا بين منهجهم الاسلامي ومناهج القوم . ونبدأ القول بالامام الشافعي رضى الله عنه مثلا بعلما "أصول الفقه والذى " علل السبب الحقيقي لنقد المسلمين لمنطق أرسطو بأن هذا المنطق يقوم على خصائص اللغة اليونانية ، ولغة اليونان مخالفة للغة المسلمين . فلما طبق المنطق اليوناني على الابحاث الاسلامية أدى هذا التطبيق الى تناقضات عدة .. ويرد هذا الرأى للشافعي علماء اللغة كأبى سعيد السيرافى كما يرددها الفقهاء" (١) أما علماء أصول الدين فقد رفضوا أيضا هذا المنطق من حيث بحثه في الالهيات المخالفة لما عند المسلمين ، ورفضوا كل ما يتعلق بهذا الموضوع بالذات وما تفرع عنه لصريح مخالفته العقائد الاسلامية . والفريق الثالث الذين رفضوا هذا المنطق ومنهجه هم الفقهاء ، ومثلهم في هذا ابن تيمية حيث هاجم هذا المنطق بشدة وتفصيل مما نلمح فيه جوانب مجلبة للمنهج الصحيح الذى يوصل الى الحقائق ، وأظهر ما يكون ذلك في كتابه الرد على المنطقيين" . لقد رفض هذا المنطق - علاوة على ما ذكرنا من رفض علماء الاصول - لأن هذا المنطق يقيد الفطرة الاسلامية بقوانين صناعية متكلفة في الحد والاستدلال . وبينما الاسلام يتجه الى الوفاء بالحاجة الانسانية المتغيرة ، نجد المنطق الأرسطاليسى تعتبر قوانينه كلية وثابتة . وأخيرا فان عدم اشتغال الصحابة والأئمة بهذا المنطق مع توصلهم الى كل نواحي العلم ، يوضح أن هذا المنهج لا يصلح في التفكير

(١) مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، د . علي محمد النشار ، دار المعارف ، القاهرة ط ١٩٦٥ ص ٣٧٨

الاسلامي (١). أما فريق العلماء فقد رفضوا بدورهم هذا المنطق، لأنه منطوق يقوم على المنهج القياسي، بينما منهج هؤلاء العلماء يعتمد على الطريقة التجريبية. والحق يقال ان منهج اليونان هو منهج تأملي يعتمد على مجرد التصور العقلي والقياس المنطوق المجرد، بينما المنهج الاسلامي منهج تجريبي وخاصة في ميدان علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية، وبوساطة هذا المنهج الاستقرائي نستطيع أن نفسر عداوة الاسلام للفلسفة، لأنه اذا كان الاسلام يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي، وينكر أشد الانكار المنهج الهرهاني في القياس، استطعنا أن نفسر بسهولة عدم نجاح الفلسفة - وهي القائمة على هذا المنهج - في الاسلام (٢).

وقد توصل الدكتور النشار الى نتيجتين اثنتين في هذا المجال: النتيجة الاولى: أن مفكرى الاسلام المثلين لروح الاسلام لم يقلوا المنطق الأرسططاليسى، لأنه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي.

والنتيجة الثانية: أن المسلمين وضعوا هذا المنهج بجميع عناصره. (٣)

واذا أردنا مزيد ايضاح لابد أن نعرض آراء بعضهم، ونبدأ الحديث بابن تيمية حيث كتب في الرد على المنطق اليوناني كتابه المشهور، والذي يلوح فيه معالم طريق جديدة لكسب المعرفة على طريقة تختلف عن طريقة المنطق اليوناني. انه يرفض المنطق اليوناني كطريق موصل الى العلم. ويقسم طريق العلم على أساس الحس أو التجربة. ويرفض أن يقال: لا يحصل علم الا بالقياس الهرهاني. جاء في كتابه " الرد على المنطوقين تحت عنوان " العلوم الحسية لا تكون الا جزئية معينة " ما يلي: " وما يوضح ذلك أن القضايا الحسية لا تكون الا جزئية. فنحن لم ندرك بالحس الا " احراق هذه النار "

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٩

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨١

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٢

و "هذه النار" ، لم ندرك أن " كل نار محرقة " ، فاذا جعلنا هذه القضية كلية وقلنا " كل نار محرقة " ، ولم يكن لنا طريق يعلم به صدق هذه القضية الكلية علما يقينيا الا والعلم بذلك ممكن في الأعيان المعينة بطريق الأولى. (١) فأصدق القضايا عنده هي القضايا الجزئية التي تعتمد على التجربة. ثم يحاول اثبات أن الجزئيات المعينه القائمة على الحس هي الحقائق الوحيدة المتحققة في الاعيان ، فلا فائدة اذن للكليات، والكليات لا توجد الا في الأذهان ، فالبرهان لا يوصل الى العلم بشئ موجود ، بسبل بأمر مقدرة في الأذهان لا يعلم تحققها في الأعيان. (٢)

ثم يمضى ابن تيمية في ايضاح طريق العلم ويقول :

" ان جزم العقلاء بالشخصيات من الحسيات أعظم من جزمهم بالكليات، فجزم الفطرة بها أقون . ثم كلما قون العقل اتسعت الكليات ، وحينئذ فلا يجوز أن يقال ان العلم بالأشخاص موقوف على العلم بالأنواع والأجناس، ولا أن العلم بالأنواع موقوف على العلم بالأجناس، بل قد يعلم الانسان أنه حساس متحرك بالارادة قبل أن يعلم أن " كل انسان كذلك " ، ويعلم أن " الانسان كذلك " قبل أن يعلم أن " كل حيوان كذلك " ، فلم يسبق علمه بـ " أن غيره من الحيوان حساس " متحرك بالارادة موقونا على البرهان . واذا علم حكم سائر الناس وسائر الحيوان ، فالنفس تحكم بذلك بواسطة علمها أن ذلك الغائب مثل هذا الشاهد أو أنه يساويه في السبب الموجب لكونه حساسا متحركا بالارادة ونحو ذلك من قياس " التمثيل والتعليق " الذي يحتج به الفقهاء في اثبات الأحكام الشرعية" (٣) .

فالطريق الصحيح اذن هو الانتقال من جزئى الى جزئى ، وهذا الطريق في منطق أرسطو ظنى ، بينما قياس الغائب على الشاهد اذا نظمت التجربة أصبح يوصلا الى اليقين .

(١) الرد على المنطقيين ، ابن تيمية ، ط ٢ لاهور ١٣٩٦ هـ ، ص ١١٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٥

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٥-١١٦

ويضيف الدكتور النشار تعليقا على مقالة ابن تيمية قائلا :
يتبين لنا الآن أن ابن تيمية نقد القضية الكلية من حيث هي عنصر مسن
عناصر الهرمان ، ثم استطراد الى الكلام في مسائل الكليات والجزئيات ، فشك
في قيمة الكليات جميعها من حيث هي عالم معقول ... ثم وضع نقدا
مبتكرا ، وحاول أن يصوغ كل ذلك في صورة اسلامية . ثم حاول أن يحدد
مصدر العلم ، وكان هذا المصدر أو هذا الطريق عنده هو التجربة ، ولذلك
كان العلم الوحيد النافع لديه هو العلم الجزئي . (١)

وهذا محمد بن ابراهيم الوزير الصنعاني يرفض كذلك المنطق اليوناني
القائم على النظر العقلي واصطناع الحدود على طريقة أهل المنطق ، ويقول
عن الجاحظ انه صنف كتاب " العبر والاعتبار " ، فأتى فيه ما يقضى لسه
بعلو القدر في العلم ، وتعمقه في التفكير في عجائب المخلوقات الضرورية ،
وكذلك النظر في علم التشريح وعجيب خلق الانسان والتأمل لما يدرك من
ذلك بالعيان ، وقد حث الله تعالى على النظر في المشاهدات قال تعالى :
(فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها) وقال تعالى :
(خلق السموات بقير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم) ...
لكن المخالف يقول : ان المراد بالنظر في هذه الأمور نظر مخصوص ينسني
على مقدمات مرتبة مركبة تركيبها مخصوصا على وجه ينتج العلم على سبيل
الاختيار وغيره . (٢)

أما العلماء وطريقتهم في دراسة العلوم الطبيعية فلا بد من ايضاح
لموقفهم أيضا وبما أن الطريقة التي اتبعوها في دراستهم هي الطريقة التجريبية ،
هذه الطريقة التي تناسب تفكيرهم ومنهجهم في البحث . ونعرض باختصار
لآراء بعضهم للتدليل على هذا الاتجاه الذي ساروا عليه في أبحاثهم ، ولست
مستقصيا لهذه الطريقة عندهم لأن لها مجالا آخر أوسع وأشمل .

(١) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٣٣٧-٣٣٨

(٢) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، محمد ابراهيم الوزير الصنعاني ،

طباعة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية سنة ١٣٤٩ هـ ، ص ٤٨

ان البيروني في كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة " قام بمقارنة العلوم الهندية من طب وفلك ورياضيات بتراث اليونان العلمي ، ومقارنة كل ذلك بما عند المسلمين فتوصل من وراء هذه المقارنة الى نتائج مهمة . قال انه كان لدى الهنود علم جزئي كبير على درجة من التقدم ، لكنه لا يربطه رابط علمي أو منهجي ، أبحاث متناثرة في الطب والرياضيات والفلكيات والطبيعيات ، ولكن خالية من الاطار المنهجي . وكان لدى اليونان نظرية العلم ، نظرية البرهان . فهنا لا نجد لدى اليونان العنصر العديد من أبحاث الهنود في مختلف العلوم الجزئية التي كان الهنود سادتها ، لا نجد لدى الهنود نظرية في العلم ، في البرهان ذي المقدمات اليقينية ، قمة الفكر اليوناني ، وسمة الحضارة اليونانية كلها . (١)

هذه النتائج الخطيرة التي توصل اليها هذا العالم المنهجي ، الذي كان له أثره الكبير في تطور العلم الاسلامي ، بمنهج الاستقرائي الراسخ ، كما كان له فضله العظيم في تاريخ العلوم عامة . ان الفكر اليوناني النظري ، والفكر الهندي الجزئي في نظر البيروني موضع نقد ، ولولا تصوره لمنهج آخر لما حكم بهذا الحكم . انه ذلك المنهج التجريبي القائم على مشاهدة الواقع وتجربته ، وذلك هو طريق علمي صحيح .

وهذا جابر بن حيان يوصي تلاميذه بالاهتمام بالتجربة ، وعدم التعويل الا عليها مع التدقيق في الملاحظة والاحتياط وعدم التسرع في الاستنتاج . وفي ذلك يقول : " وأول واجب أن نعمل ونجرب التجارب ، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل الى أدنى مراتب الاتقان ، فعليك يا بني بالتجربة لتصل الى المعرفة . ويقول : ما افتخر العلماء بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدبير ، فعليك بالرفق والتأني وترك العجلة ، واقف أثر الطبيعة فما

(١) ساهج العلم عند مفكرى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥

تريده من كل شيء "طبيعي" (١) .

ويستخدم جابر بن حيان قياس الغائب على الشاهد في كلامه عن المنهج التجريبي ، وقد جعل هذا القياس على ثلاثة أوجه :

أولها : دلالة المجانسة أو الأنموذج . وهي أشبه بالوقائع المختارة في المنهج الاستقرائي عند المحدثين . وقد جعل هذه الدلالة ظنية احتمالية . فهو في هذا الشأن يقرر احتمالية التجربة وظنيتها ، وأنها لا تؤدي إلى يقين . وهذا المعنى يتفق مع ما وصل إليه العلم الحديث .

ثانيها : دلالة مجرى العادة . وهو قياس واستقراء للفظائر واستشهاد بها على المطلوب ، وقد أعلن جابر احتمالية هذا المسلك ، وسبق ذلك هيوم .

ثالثها : دلالة الآثار أو شهادة الغير . وقد اعتبرها شهادة ظنية . ويصور جابر حدود المنهج التجريبي في أنه من المشاهد لا يجوز الحكم على ما لم يشاهد إلا على سبيل الاحتمال . (٢)

وإذا انتقلنا إلى الحسن بن الهيثم ، فإننا نرى طريقته العلمية واضحة جدا وخاصة إذا ما قرأنا ما كتبه في كتابه " المناظر " موضحا منهجه في البحث ذلك المنهج الذي اتبعه في علم الضوء مما كان السبب في تقدم هذا العلم . لقد أدرك ضرورة الأخذ بالاستقراء والأخذ بالقياس ، والأخذ في بعض البحوث بالتمثيل ، وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود . يقول في مقدمة كتابه " المناظر " مستعرضا لوجهات النظر المختلفة في كيفية الابصار : " وكل مذهبيين فاما أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا ، واما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا ، واما أن يكونا جميعا يؤيدان إلى معنى واحد هو الحقيقة ،

(١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، د . عبد الحلوم منتصر ، دار المعارف ١٩٨٠ م ، ص ١٥٧-١٥٨

(٢) منهج البحث العلمي عند العرب ، ط ١ ١٩٧٢ م ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د . جلال محمد موسى ، ص ٢٧٥ .

ويكون كل واحد من الفريقين الباحثين القائلين بدينك المذعبين قد قصّر في البحث فلم يقدر على الوصول الى الغاية ، فوقف دون الغاية ، أو وصل أحدهما الى الغاية وقصر الآخر عنها ، فعرض الخلاف في ظاهر المذعبيين ، وتكون غايتهما عند استقصاء البحث واحدة . وقد يعرض الخلاف أيضا فـسـى المعنى المبحوث عنه من جهة اختلاف طرق المباحث ، وانا حقق البحث وأمعن النظر ، ظهر الاتفاق وانسفر الخلاف " . ثم يتلو ذلك قوله : " ونبتدى في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال البصرات ، وتميز خواص الجزئيات ، وملتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتهه من كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ في النتائج ، ونجعل في جميع ما نستقرئه ونتصفحها استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، ولعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذي به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقود والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات " .

ويضيف بعد ذلك : " وما نحن مع جميع ذلك برآء ما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هولنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد العون في جميع الأمور " .

ويعلق مصطفى نظيف في محاضراته عن ابن الهيثم على هذه الأقوال فيقول : " ابن الهيثم في مقدمة كتابه المناظر يعرض حالة كثيرا ما تعرض أمثالها في تاريخ العلم ، حيث توجد نظريتان متناقضتان ينقسم العلماء ازاءهما فريقين ، لكل فريق مقاييس واستدلالات وطرق ، تجعله يتمسك بنظريته . فقد كان الفلاسفة وأصحاب التعاليم في عصره منقسمين في كيفية الابصار فريقين . أصحاب التعاليم يقولون بأن الابصار هو بخروج شعاع من البصر الى البصر . والفلاسفة يذهبون الى أن الابصار هو بؤرود صورة البصر

أو شبهه من البصر الى البصر ، دون أن يبينوا ماهية ذلك الشبح الوارد ، أو كيفية وروده ."

ثم يضيف في تعليقه قائلاً : " رسم ابن الهيثم خطة البحث وجمع فيها بين الاستقراء والقياس ، وقدّم فيها الاستقراء ، ووضع الشرط الاساسى الذى يجب أن يتوافر فى البحث العلمى " استعمال العدل لا اتباع الهوى ، وطلب الحق لا الميل مع الآراء... " (١) . اذن فقد سلك ابن الهيثم فى بحوثه طريقة للنظر فى المسائل العلمية يؤخذ فيها بالاستقراء ، ويعتمد فيها على التجربة ، ويؤدى فيها القياس دوراً فى استنباط النتائج التى تفضى اليها النظرية أو القانون .

ويمثل كل من الاستقراء والقياس مرحلتين فى البحث العلمى . فالاستقراء يفيد الجانب الوصفى ، والقياس يفيد الجانب العلمى . ولذلك كان القياس وحده منهج البحث عند اليونان بالرغم من وجود نوع من المنهج الاستقرائى ، ولكنهم لم يوغلوا فيه شأن العلماء العرب . وقد تنبه العلماء العرب السسى عدم فائدة هذا المنهج فى الوصول الى نتائج جديدة بتأثير الفكر الاسلامى ما جعلهم يذهبون الى منهج آخر الا وهو المنهج التجريبي . (٢)

وهذا الأديب الكبير الجاحظ والعالم الجليل يعتمد التجربة فى أبحاثه عن الحيوان ، وقد أبان فى مقاطع كثيرة من كتابه " الحيوان " عن منهجه الذى يعتمد على المشاهدة والرصد والتجربة ، ويرى أن العقل والتجربة توأمان لا سبيل الى الفصل بينهما ، فهو يصحح العقل بالتجربة ويقول : " فلا تذهب الى ما تريك العين ، وانذهب الى ما يريك العقل . وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة " (٣) .

(١) محاضرات ابن الهيثم التذكارية ، مصطفى نظيف ، المحاضرة الأولى ١٩٣٩م ، مطبعة فتح الله القياس بمصر ، ص ٢٠-٢٣

(٢) منهج البحث العلمى عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢-٢٧٣

(٣) الحيوان ، الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٥هـ

ويضيف في موضوع آخر : " ولعمرو أن العميون لتخطئ " ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للمعقل ، ان كان زماما على الاعضاء ، وعيارا على الحواس " (١) .

ويقول الدكتور عبدالحليم منتصر في صدر كلامه عن الجاحظ انه أجبر بعض التجارب على بعض أنواع الحيوان . فقد كان يجمع الحيوانات ، ويضعها تحت أواني زجاجية لمراقبة سلوكها معا ، كما كان يقرر بطون الحيوانات لمري ما في بطونها . كان يجرب أثر الخمر على الحيوانات ، وهو بذلك عالم من علماء الحيوان التجريبي " (٢) .

ولو ذهبنا في تعداد العلماء التجريبيين لاحتاج ذلك الى بساط واسع ، وليس ذلك هو الهدى من البحث ، وانما نهدف الى اعطاء صورة عن المنهج الذي أتخذه طريقا للعلم الصحيح . وبالإضافة الى من ذكرنا ابن العوام صاحب كتاب " الفلاحة " الذي يقول انه لم يثبت الا ما جرسته مرارا فصح . (٣) والخازن في كتابه " ميزان الحكمة " أشار الى أن للهواء وزنا وقوة رافعة كالسوائل ، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتوقف على كثافة الهواء . وبين أن قاعدة أرشميدس لا تسرى فقط على السوائل ، ولكن تسرى أيضا على الغازات . (٤) وابن البيطار يقول في كتابه " المغنى في الأدوية المفردة في العقاقير " فما صح عندي بالمشاهدة والنظر ، وثبت لدى ، ادخرته كنزا سريا . وأما ما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية نبذته ظهريا ، ولم أحاب في ذلك قدما لسبقه ، ولا محدثا اعتمد غيري على صدقه " (٥) .

-
- (١) المرجع السابق ، ص ٣٩١-٣٩٢
 (٢) تاريخ العلم بدير العلماء العرب في مقدمه ، مرجع سابق ، ص ٢٦١
 (٣) المرجع السابق ، ص ١٧٣
 (٤) المرجع السابق ، ص ١٨٩
 (٥) المرجع السابق ، ص ١٩٢

وهكذا نرى أن علماءنا قد ساروا على المنهج التجريبي في أبحاثهم ورفضوا المنهج اليوناني ، وبذلك نهض العلم عندهم نهضته الجبارة . ولو بحثنا عن المصدر الذي استقى منه هؤلاء العلماء منهجهم لتبين لنا - كما يقول الدكتور علي النشار - أنهم أخذوه عن علماء المسلمين من متكلمي وأصوليين حيث تكون هذا المنهج عندهم ، ونضج لديهم في صورته الكاملة . ثم انتقل إلى علماء المسلمين (علماء الطبيعة) (١) . وهوؤلاء بدورهم قد استقوا هذا المنهج من القرآن والسنة وتأثروا بتعاليم الاسلام لاشك في ذلك . ولقد كان ما يتميز به الكثير من علماء المسلمين أنهم يجمعون بين علومهم الطبيعية وبين العلوم الدينية ويمزجون بين الطرفين ، فيكون عالما في الحديث إلى جانب علمه في الطب مثلا أو أي علم من علوم الطبيعة ، فالضلعة في الحديث بجانب الطب والصيدلة والعلوم الطبيعية ، كانت شنشنة الكثير من أرباب الفكر أيام الموحدين (٢) . والامام السنوسي شارح البخاري مثال على من يجمع العلوم الدينية مع علوم الطبيعة ، وقد ألف هذا شرحا على رجز ابن سينا في الطب ، وشرحا كبيرا على الحوفية في الحساب والرياضيات ألفه وهو ابن تسع عشرة سنة. (٣)

ولو أن همة المسلمين وتمسكهم بدينهم بقي مستمرا ، لكانت هذه العلوم الحديثة من نتاجنا ونحن أصحابها ، ولكن ابتعادنا عن الاسلام الصحيح ، وما واجهته بلادنا الاسلامية من نكبات حلت بها ، قد أدى إلى فقد هذا التوجه العلمي ، وهذه الروح التي بشها الاسلام في كل تلك العلوم النافعة . لقد تلقفها الغرب منا ، وساروا على نفس الطريق حتى وصلوا

(١) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، د . علي سامي النشار ، مرجع سابق ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥

(٢) الدار ، العدد الرابع ١٣٩٩ من مقال " الفكر العلمي في المغرب الاقصى " للاستاذ / عبدالعزيز بن عبد الله ، ص ١٧٠

(٣) المقال السابق ، نفس الصفحة .

ما وصلوا اليه الآن . انها أصلا علونا ، وديننا يحثنا عليها لأنه لا بد منها في حياتنا ، ان كيف يتم استغلال الكون - وهو ما طالبنا به القرآن - دون الاستعانة بمثل هذه العلوم التي ساهم في تقدمها المنهج التجريبي الذي رأينا خطواته السليمة عند المسلمين وفي منهج القرآن الكريم . يقول محمد الفزالي : " ولقد اخترع المسلمون القدامى علوم القواعد والبلاغة لخدمة القرآن الكريم ، ولو أن العقلية التي اخترعت هذه العلوم لخدمة لغة القرآن ، واكتشاف اعجازه بقيت الى يوم الناس هذا ، وانتقلت من السلف الى الخلف ، لكانت علوم الكيمياء والنبات والحيوان والآلات علوما دينية ، أدنى صلة بالاسلام من علوم النحو والصرف ، والمعاني والبيان والبديع " (١) .

(١) نظرات في القرآن ، محمد الفزالي ، ط٤ ١٣٨٣ هـ ، دار الكتب الحديثة ، ص ٧٤

* شهادات منصفة *

ان الغرب في موجة عداية الشديد للاسلام وأهله ، أنكروا كل فضل للمسلمين عليهم بالرغم من أن حضارتهم وتقدمهم العلمي قاما على اكتاف الحضارة الاسلامية ، وهذا الموقف العدائي الناكر للجميل بدأت تخف حدته ولو بنسبة ضئيلة ما فسح المجال لقلّة قليلة منصفة أن تعترف بفضل الحضارة العربية ، وخاصة في مجال المنهج التجريبي الذي نتكلم عنه ، والذي اتضح جليا أن مصدره اسلامي استقاه الغرب من علمائنا الأفاضل . نسوق طائفة من هذه الشهادات المنصفة ونكتفي بالقليل منها على كثرتها .

يقول د رابر : " لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئا عن الاسلوب الذي توخوه في بحوثهم ... فقد تحققوا أن الاسلوب العقلي وحده لا يؤدي الى التقدم ، وأنه ينبغي أن تجرّن المشاهدات والتجارب . وهذا الاسلوب العلمي التجريبي هو الذي دفعهم الى عذا الترقى الباهر في الهندسة والمثلثات والفلك والجبر والطبيعة وغيرها . فالعلماء العرب هم واضعو أسس البحث العلمي بالمعنى الحديث ، وقد تميزوا بالملاحظة والرغبة في التجربة والاختبار . ابتدعوا طرقا واخترعوا أجهزة وآلات لاستخراج الوزن النوعي لكثير من المعادن والسوائل والأجسام التي تذوب في الماء ، وقد ابتدع " الخازن " ميزانا غريبا لوزن الاجسام في الهواء والماء . كما ابتدع " البيروني " تجربة لحساب الوزن النوعي . كما تبين من كتاب " ميزان الحكمة " للخازن أنه كانت لديه آلة لقياس حرارة السوائل ، وفكرة عن الجاذبية . كما تبين أن العرب عرفوا الضغط الجوي ، وأن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وأن كثافة الهواء في الطبقات السفلى أكبر منها في الطبقات العليا ، وأن الهواء لا يمتد الى ما لا نهاية ، بل ينتهي عند ارتفاع معين .

واخترع ابن يونس البندول واستعمله العرب في حساباتهم وتجاربهم الفلكية^(١).

ويقول ويلز : " كانت طريقة العرب أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وساطة وتلك الخاصة جاءتنا عن طريق العرب ، ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين^(٢) .

ويقول جوليفه كستلو في كتابه قانون التاريخ : " كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عظيما جرى على أسرع ما يكون ، وقبض العرب بأيديهم ، خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي ، وأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا في أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية ، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر الا أنها باهرة الأثر ، وليس لنا الا ابداء الأسف على اضمحلالها ، وأن أوروبا لمدينة للحضارة العربية ، وعنها أخذت أوروبا الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت سريانا بطيئا ناقضا في العصور الوسطى . وأن أوروبا لتتجلى لنا منحنى جاهلة أمام المدنية العربية وأمام العلم العربي ، والآداب العربية ، ولقد انقضت أربعة قرون لا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق^(٣) .

وهذه المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة تقول : " لقد طور العرب تجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الاغريق ، وشكلوه تشكيلا جديدا . فالعرب في الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق القائم على التجربة ... لقد سرت بينهم رغبة في البحث الحقيق ، وملاحظة الجزئيات ، ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة النظرية . ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة الا عند العرب .

-
- (١) تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه ، للدكتور عبد الحلیم منتصر ، مرجع سابق ، ص ٨٦
 (٢) المرجع السابق ، ص ٩١
 (٣) الندوة العالمية للشباب الاسلامي ، من محاضرة الاستاذ فيصل حسونة ، ١٣٩٩هـ

فَعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذى يمكن الاعتماد عليه ، يتدرج من الجزئيات الى الكلّيات ، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق العلمية كثيرة للمجهودات المضنية فى القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل . وبالتجارب العلمية الدقيقة التى لا تحصى ، اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ، فأثبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ فى بعضها . ووضعوا بدائلًا للخطأ منها متمتعين فى ذلك بحرية كاملة فى الفكر والبحث ، وكان شعارهم فى أبحاثهم - الشك هو أول شروط المعرفة - تلك هى الكلمات التى عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الاساس العلمى سار العرب فى العلوم الطبيعية شوطا كبيرا ، أثر فيما بعد ، بطريق غير مباشر ، على مفكرى الغرب وعلمائه أمثال روجر باكون وماجنوس وفيتليو وليوناردو دافنشى وجاليليو . ان العرب لم ينقدوا الحضارة الأخرى من الزوال ونظموها - ورتبوها ثم أهدوها الى الغرب فحسب ، انهم مؤسسو الطرق التجريبية فى الكيمياء والطبعية والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع . وبالإضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات - الفردية فى مختلف فروع العلوم والتى سرق أغلبها ونسب لآخرين ، قدم العرب أثمن هدية وهى طريقة البحث العلمى الصحيح التى مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم". (١)

والمفكر الاسلامى الكبير محمد اقبال يبين لنا مدى اخفاق الفلسفة اليونانية عند المسلمين ، " لأن روح القرآن تتجلى فيها النظرة الواقعية ، على حين انمازت الفلسفة اليونانية بالتفكير النظرى المجرد واغفال الواقع المحسوس". وهذه الثورة العقلية على الفلسفة اليونانية تتجلى فى كل ميدان

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زيفريد هونكه ، المكتب التجارى ، بيروت ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ط ٣ ١٩٧٩ (م) ص (٤٠١-٤٠٢)

من ميادين الفكر ، ويندو على أوضح ما يكون من التحديد وأوفاه في نقد المسلمين للمنطق اليوناني ، وقد كان عذراً طبيعياً لأن عدم الرضا عن الفلسفة النظرية البحثية معناه التماس طريقة لإفادة العلم على وجه أقرب إلى اليقين . ويضيف قائلاً : " وفي كتاب " التقريب في حدود المنطق " يؤكد ابن حزم أن الحس أصل من أصول العلم . وابن تيمية يبين في كتابه المسمى " نقد المنطق " أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين . وهكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله لا التفكير النظري المجرد " (١)

وجاء في كتاب (حضارة العرب) لمؤلفه جوستاف لوبون ما يلي :

" والاسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشاف العلم ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملها على العدل والاحسان والتسامح ."

" والانسان يقضى العجب من الهمة التي أقدم بها العرب المسلمون على البحث ، فإذا كانت هنالك أم قد شاركت العرب في ذلك ، فانك لاتجد أمة فاقتهم على ما يحتفل ."

" فبعد أن نقلوا كتب اليونان ، لم يلبثوا أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب . وعلى ما يبدو من بداهة هذه الحقيقة ، جد علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها ."

" يعزى إلى " باكون " على العموم ، أنه أول من أقام التجربة والرد ، اللذين هما ركنا المناهج العلمية الحديثة ، مقام الاستاذ . لكن يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب المسلمين وحدهم ."

" ونشأ عن منهج العرب التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمة . فسـتـرى من مباحثنا في أعمال العرب العلمية ، أنهم في الحقيقة أنجزوا في ثلاثة

(١) تجديد التفكير الديني في الاسلام ، محمد اقبال ، ترجمة عباس محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٥ م ، ص ١٤٧ - ١٤٨

قرون أو أربعة من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق في زمن أطول كثيرا . وكان تراث الاغريق العلمي قد انتقل الى البيزنطيين فلم يستفيدوا منه ، فلما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه ، فتلقاه ورثتهم مخلوقا خلقا آخر . ولم يقتصروا على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، بل نشروها كذلك بما أقاموه من الجامعات وما ألفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أوروبا من هذه الناحية^(١) .

ويقول بريفولت في كتابه " بناء الانسانية " : " ان روجر باكون درس اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الاندلس . وليس لروجر باكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن روجر باكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضع المنهج التجريبي ، هو طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية . وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر باكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهفة على تحصيله في ربيع أوروبا ."

" وانه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوروبي الا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجب أوضح ما تكون وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفي المصدر القوي لازدهاره - أي العلوم الطبيعية وفي روح البحث العلمي ."

" ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشف مذهبة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا ،

(١) حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، ص ٥٢٣ وما بعدها .

انه يدين لها بوجوده نفسه ، فالعالم القديم ، كما رأينا ، لم يكن للمعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الايام فتمتج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعموا الاحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث في راب وأناة ، وجمع المعلومات الايجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للمعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم الا في الاسكندرية في عهد الهليني . أما ما ندعوه العلم ، فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطريق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتنظير الرياضيات الى صورة لم يعرفها اليونان . وعنده الروح وهذه المناهج العلمية أدخلها العرب الى العالم الاوربي . (١)

نكتفي بهذه المقطعات التي توضح أن المنهج التجريبي منهج الأمة الاسلامية التي استمدته من عقيدتها وفكرها لا من مصدر آخر . وكفى أمة الاسلام فخراً ولدين الاسلام أن يكون الباعث الحقيقي للحضارة الحققة والمعلم الصحيح بما أهداه للعالم من روح علمية ومنهجية راقية أوصلت الحضارة الى خطواتها القصوى .

فما أجد رنا - أبناء الاسلام - أن ننشر هذا الدين على حقيقته وأن ندعو له بصورته المشرقة الرائدة في جميع دوائر الحياة ، فليست تعاليم الاسلام في فراغ ، وانما هي تبدو في أرض الواقع ، ولا ايمان لمن لا عمل له . وقل اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله .

(١) بناء الاسانية ، بريفولت ، نقلاً عن كتاب " تجديد الفكر الديني لمحمد اقبال ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠

الباب الأول

الانسان وعلاقته بالكون المادى كما يصورها الاسلام

الفصل الأول

مركز الانسان فى الكون المادى

- الانسان خليفة وسيّد
- تسخير الكون لمنفعته
- العمل وأثره فى البناء الحضارى

الفصل الثانى

الاسلام ودعوة المسلمين الى معرفة العلم النافعة

- حاجتنا الى العلم
- علم الفلك
- الرياضيات
- الطب والصيدلة
- المجال واسع

الفصل الثالث

المسلمون والحضارة

- مفهوم الحضارة
- خصائص الحضارة الاسلامية
- أثر الحضارة الاسلامية فى الحضارة الاوروبية
- الغزو الفكرى وأبعاده

الانسان خليفة وسيد

ان هذا الكون العظيم بأرضه وسماؤه ، بكل ما فيه قد خلقه الله سبحانه وتعالى لحكمة أرادها ، ولا يعقل أبدا أن يكون هذا الكون قد خلق نفسه ، فلا شيء يوجد من العدم . وتلك قاعدة عقلية يشترك في معرفتها كل العقول ولا يخالفها الا جاهل أو معاند .

وهذا الكون الواسع العجيب كله في خدمة مخلوق واحد هو الانسان المتفرد من بين مخلوقات الله جميعا . انه مخلوق من تراب وفيه نفحة من نفحات الله ، وهو بهذا التركيب اكتسب ميزة على غيره من الكائنات جميعا ، " وبذلك جمع فيه ما تفرق في خلق الله جميعا ، وفيه ما انفرد به دون خلق الله جميعا . وهو العقل والفكر ، الخاصية التي تجعله انسانا " (١) .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يوجد هذا الانسان في الأرض ، وأن يجعله خليفة ، ومن أجل ذلك مهد له الأرض وجعلها مستقره وجعل ما فيها من الخيرات نعمة ورزقا . قال تعالى : " الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولى النهى " (٢) . وقال تعالى : " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور " (٣) .

وهذا الاستخلاف هو تشريف لهذا الانسان واعلاء لمكانته ، وفي نفس الوقت فانه يلقي عليه مسؤولية وليات وأعباء لا بد أن يقوم بها حتى يكون عن جدارة خليفة لله في هذه الأرض . " والذات الانسانية بحكم هذا الاستخلاف مزودة

(١) القضاء والقدر ، محمد متولى شمراوى ، اعداد وتقديم احمد فراج ،

ط ٢ ، دار الشروق ١٩٧٥ م ، ص ٤٠

(٢) طه : ٥٣-٥٤

(٣) الملك : ١٥

بالوسائل التي يستطيع أن يرتفع بها الى أفق السمو للقيام بتبعضات الاستخلاف، وهي كذلك مزودة بالوسائل التي يستطيع أن يهبط بها الى حضيين البهيمية حيث يريد الشيطان^(١).

وقد منح الله هذا الخليفة الارادة وحرية الاختيار، فهو يعمل أو لا يعمل، وذلك تابع من صميم ارادته، وهو بالتالي يتحمل مسوءولية تصرفه. هذه الارادة الممنوحة للانسان الخليفة تميزه أيضا عن باقي الخلق الذين لا ارادة لهم فيما يقومون به، وهذا تشريف للانسان واعلاء لقدره. ويترتب على هذه الارادة وحرية الاختيار أكبر التحديات في بناء الحضارات وتقدم الأمم، فالأمم التي تختار طريق التحدن تجتاز الصماب وتتقدم بين الأمم، والتي تركز الى الكسل والخمول تختار لنفسها المصير السيء والتأخر في الحياة. وما ظهور أمم واختفاء أخرى الا بمقدار بروز هذا التحدن الارادي وفاعليته في البناء والتقدم.

وكون الانسان خليفة مستمد من المركز الذي اعطاه الله اياه فسي قوله تعالى في سورة البقرة: "وان قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال اني أعلم ما لا تعلمون"^(٢). وقد ذكر الامام الرازي في تفسيره لهذه الآية أن الخليفة من يخلق غيره ويقوم مقامه. قال تعالى: "ثم جعلناكم خلائف في الأرض" "واذكروا ان جعلكم خلفاء". ويتساءل الامام الرازي عن هذا الخليفة من هو ويورد قولين: أحدهما: أنه آدم عليه السلام. وقوله "أتجعل فيها من يفسد فيها" المراد ذريته لا هو. والثاني: أنه ولد آدم. أما الذين قالوا المراد آدم عليه السلام، فقد اختلفوا في أنه تعالى لم سماه خليفة، وذكروا فيه وجهين،

(١) الاسلام والكون، د. عبدالقنى عبود، دار الفكر ١٩٧٧م، ص ٩٠

(٢) البقرة: ٣٠

الأول : بأنه تعالى لما نعى الجن من الأرض ، وأسكن آدم الأرض ، كان آدم عليه السلام خليفة لأولئك الجن الذين تقدموه . يروى ذلك عن ابن عباس . الثاني : ساء الله خليفة ، لأنه يخلف الله في الحكم بسبب المكلفين من خلقه . وهو المروى عن ابن مسعود وابن عباس والسدي ، وهذا الرأي يتأكد بقوله : " انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق " . أما الذين قالوا المراد ولد آدم فقالوا انما ساءهم خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضا وهو قول الحسن ويؤكد قوله " وهو الذي جعلكم خلائف الأرض " (١) . اذن هناك تفسيرات مختلفة في ما هي خلافة آدميين ، فالبعض يرى أن الآدميين خلفوا جنسا سابقا كان يسكن الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء . والبعض يرى أن الخلافة عن الله جل شأنه لا عن جنس آخر ، وأن " الله سلب الانسان على الأرض يقيم فيها سنه ، ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليفته ، ويداع حكمه ، ومنافع أحكامه " (٢) .

ان الانسان مكرم بهذه الوظيفة ، ومنزلته عظيمة في هذا الوجود ، وقد سجد له الملائكة الا ابليس رفض السجود ، واعتبر مادته أفضل من مادة الانسان ، وأصبح بذلك على عدا " دائم الى قيام الساعة لهذا المخلوق المفضل ، يمثل نهار الشر والفوضى للانسان ليزل به عن الطريق الصحيح . ولكن الله سبحانه وتعالى أخذ بيد هذا الكائن وأبان له طريق الخير وأمره بسلوكه ، وحذره من عداوة ابليس وظالمة باجتنابه ومخالفته . زيادة على ذلك فان الرسائل كانت تنزل بين حين وآخر تشد الانسان الى الهداية وتصحح مسار الحياة بهدايتها للطريق الصحيح ، واجتناب الأهواء والشيطان وصولا للفلاح في الدنيا ، وبالتالي للحياة الآخرة الدائمة .

(١) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي ، ج ٢ ص ١٦٥ ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية .

(٢) المال والحكم في الاسلام ، عبد القادر عودة ص ١٨ ، ط ٥ ، ١٣٩٢ هـ ، المختار الاسلامي .

واستخلاف البشر في الأرض كما يقول عبدالقادر عودة ، نوعان :
 استخلاف عام : وهو استخلاف البشر في الأرض باعتبارهم مستعمرين فيها
 وسلطين عليها .. وقد بدأ هذا الاستخلاف بآدم ومن بعده كل ذريته .
 والاستخلاف الخاص هو الاستخلاف في الحكم وهو نوعان : استخلاف الدول
 واستخلاف الأفراد . والاستخلاف في الحكم بنوعيه هو منة من الله بعبء
 منة الاستخلاف في الأرض (١) .

ومن مستلزمات هذا الاستخلاف أننا نجد الأرض بكل ما فيها وبكل
 ما يحيط بها مهيأة لمعيشة الانسان ، حيث هيأ الله سبحانه وتعالى
 جميع الظروف لتصلح هذه الأرض لسكنى الانسان ، وحتى يقوم بممارسة
 دوره في الخلافة دون عوائق قاهرة . وليس الأمر مقصوراً على الأرض فقط ،
 بل ان جميع ما في الكون مرتبط بهذا التهيؤ وهذه الصلاحية ، الشمس
 والكواكب الأخرى ، من حيث القرب والبعد وتأثير الاشعاع والهواء بكوناته
 المختلفة ، بحيث لو وقع اختلال في أي منها لحصل الخلل في الأرض .
 ولنضرب مثلاً على ذلك بالشجرة التي تحتاج الى الماء والهواء والضوء لتشيل
 الغذاء ، فانه لو حصل أي خلل في الشمس من حيث القرب أو البعد ، أو
 حصل خلل في المجموعة الشمسية أو في طبقات الجو من نقص في عناصر
 الهواء والأشعاع المختلفة من فوق بنفسجية ودون الحمراء وغيرها
 لأثر كل ذلك على الشجرة من حيث تشيلها الغذاء . وهذا التأثير ينعكس
 على الانسان الذي يتغذى من هذه الشجرة ، بل لأثر على حياته مباشرة .
 اذن كل ما في الكون مرتبط ببعضه ببعض في نظام عجيب واحكام دقيق ،
 ما يدل على وحدة النظام ووحداية الخالق . كل هذا يشهد بأن الله
 واحد والا لذهب كل اله بما خلق . زيادة على ذلك فان هذا النظام
 الشامل يدل على ارتباط هذا التهيؤ العام بمهمة الانسان في الأرض

(١) المال والحكم في الاسلام ، عبدالقادر عودة ، ص ١٩ ، ٢٠ ،
 ط ٥ ، ١٣٩٢ هـ ، المختار الاسلامي .

والا لما استطاع مواجهة ظروف قهرية لا يستطيع حياؤها عمل أى شئ .

ومن جانب آخر نرى أن الانسان بما وهب من قدرات على اختلاف أنواعها ، و ارادة تحرك هذه القدرات صوب الكون لاستغلاله ، و صوب الارض واستخراج كنوزها وطاقاتها المذخورة ، فقد غلب من هذا الانسان استغلال الظروف الممنوحة له سواء في الطبيعة أو ما في داخله من قدرات لاعمار العالم ، وتوجيه هذا الاعمار لصالح وجوده الأرضى وصولا الى الحياة الأخرى . ان تحقيق هذا التوافق بين ما منح الله الطبيعة، وما منحنا من قدرات، والوصول بذلك الى أحسن النتائج ، لا يتحقق على الصورة السليمة الا من خلال منهج صائب وعدالة خيره وعقيدة موجهة .

وبما أن التكوين الانسانى عناصره الروح والجسد ، فان الله سبحانه وتعالى لا يريد من الانسان أن يتجه الى طرف واحد من تكوينه ، بل لابد أن يمزج ويوفق بين الطرفين المتمازجين ، كل طرف يستوفى حقه باعتدال وحسب الشريعة الالهية ، فلا هو يريد أن ينقطع - خلال ممارسته لدور الخلافة - الى ممارسة العبادات ، ولا يريد أن ينشغل بملذات الدنيا ومتطلبات وجوده الأرضى بحيث يعمده ذلك عن واجبه الأساسى وهو عبادة الله .

ان الانسان الكامل هو من يعيش بكيانه كله ويوفق بين معطيات روحه وجسده ويعبد الله بكل حركة له فى الوجود ، وليس فقط عند أداء شعائر معينة . بل ان كل حركة له فى الوجود يمكن أن تكون تعبدا اذا كمنست وراءها نية مؤمنة تسعى الى أن تجعل من كل فاعلية فى الحياة وسيلة يتقرب بها الانسان من الله ويتعبد اليه ، هذه القاعدة تضم فيما تضم الشعائر الاسلامية الخمس نفسها مضافا اليها كل الفاعليات الأخرى ابتداء من أشدها مادية وكثافة (كالتجربة الجنسية وتجارب

الطعام والشراب) وانتهاه بسهر الليالي الطوال تقربا الى الله وتأملا
في ملكه " (١) .

ولو نظرنا الى طبيعة العلاقة بين الكون والانسان عند الوثنيين
لوجدناها علاقة لاتقوم على الألفة والمحبة بل هي علاقة عداوة أو خوف
أو غير ذلك ، وكذلك كانت عند الرومان والاغريق من قبلهم . أما في الاسلام
فهى علاقة صداقة وألفة ومحبة ، وأن هذا الكون كله من خلق الله
ومسخر للانسان وموضوع للاستفادة منه ، والاقبال عليه ، لا للهروب منه
ومجافاته .

زيادة على ذلك فان آيات الكون هذا طريق للوصول الى معرفة
الخالق بهذه الآثار العظيمة . فشتان ما بين النظرتين . نظرة تناصب
العداء والنفور ، ونظرة تمارس العمل والاستفادة من هذا الكون قدر
المستطاع وتؤدي الى الثقة بهذا الكون وعدم النفور منه ، بل الاقبال
عليه بهذا المفهوم الواضح لا بمفهوم الخوف أو التقديس أو العداوة .

وكثيرا ما يقع الانسان بين افراط وتفریط ، فقد يظن نفسه أكبر قوة
في الكون ، يقول تعالى : " فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا
من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة
وكانوا بآياتنا يجحدون " (٢) . وقال تعالى : " فقال أنا ربكم الأعلى " (٣) .
ويميل حينها الى التفریط ، فيظن أنه أدنى كائن . ولكن القرآن يبين
أن الانسان أرقى ما في الكون ، وما هذه الموجودات الكونية الا مظهرا من
مظاهر تكريم هذا الانسان واعلاء شأنه واشعاره لرباسته لهذا العالم
المحسوس ، قال تعالى : " ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم
من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا " (٤) . والتألية للموجودات

(١) التفسير الاسلامي للتاريخ ، د. عماد الدين خليل ، ص ١٨٧ ،

دار العلم للملايين ، ط ٣ ، ١٩٧٨ م .

(٢) فصلت : ١٥ ، (٣) النازعات : ٢٤ ،

(٤) الاسراء : ٧٠ ،

فضلا عن كونه عقيدة سخيقة ، فانه يضع الانسان في منزلة دونها ، مما يحول دون استثمارها ، وحسن الاستفادة منها ، لمصلحته ودفع ضرره وأذاه (١) .

ان كون الانسان خليفة وسيد في هذا الكون لا يعطيه الحق بالتصرف كيف يشاء وفق أهوائه ورغباته ، وانما هو محكوم بذلك بالتشريع الالهى الذى ان سار عليه انسجم مع هذا الوجود ومع بنى البشر ، وكانت سيطرته على الطبيعة خادمة لوجوده ولمصلحته في اعمار الارض ، لاسبابها في التناحر والعداء بين بنى البشر . انه بعبوديته لله وسعيه في الحياة هذه وفق منهج الله يقصد به سعاده في الدنيا والآخرة ، والا فليس الله بحاجة الى هذا المخلوق حيث يقول تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين " (٢) . وفي معرض كلام سيد قطب على الآية الكريمة " انى جاعل في الأرض خليفة " يقول : " ومن هذه النظرة للانسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء . وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الانسان سيد في هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شئ فيها ، فهو اذن أعز وأكرم من كل شئ مادي . فهذه الماديات كلها مخلوقة - أو مصنوعة - من أجله ، من أجل تحقيق انسانيته . من أجل تقرير وجوده الانساني . فلا يجوز اذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الانسانية ، أو نقص مقوم من مقومات كرامته . والاعتبار الثانى هو أن دور الانسان في الأرض هو الدور الاول . فهو الذى يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها ، وهو الذى يقود اتجاهاتها ورحلاتها . وليست وسائل الانتاج ولا توزيع الانتاج ، هي التى تقود الانسان وراءها

(١) الكون والانسان في التصور الاسلامى ، حامد صادق قنيس ،

مكتبة الفلاح بالكويت ، ط ١ (١٤٠٠ هـ ، ص ٩٩-١٠٠)

(٢) الذاريات : ٥٦-٥٨

ذليلا سلبها كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الانسان وتصغر ، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر " (١) .

ان هذا الاستخلاف لا بد له من العمل الشاق والجهد المستمر ولا يتحقق الا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات . قال تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم " (٢) . والصالحات بمعناها الشامل الذي يعنى " كل ما يصلح شأنهم في الدنيا من الاعداد والاستعداد والتفوق ، وما يصلح شأنهم في الآخرة في الطاعة واجتناب المعاصي " (٣) . ولا يستحق الاستخلاف الا من كان أهلا لذلك ، فاذا قام بما هو مطلوب منه ، مكن الله له في الارض وآتاه من كل شيء سيبا ، وان هذا ينطبق على الافراد والدول على السواء . قال تعالى : " وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم " (٤) .

ومسألة الاستخلاف هذه تتردد أكثر من مرة في القرآن الكريم . قال تعالى : ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون " (٥) . وقال تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون " (٦) . وهذه المسألة من خلال تلك الآيات وغيرها تهدو مرتبطة بالعمل والابداع ومجانبة الافساد في الارض والالتزام الكامل بشرع الله وتعاليمه خلال ممارسة الجهد البشري في العالم . ولذا لا بد لنا من الكلام عن تسخير الكون لمصلحة الانسان ودور الاسلام في الدعوة الى العمل والاستثمار .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط ١٣٩٧ هـ ، ص ٦٠

(٢) النور : ٥٥ ، (٣)

(٣) المال والحكم في الاسلام ، عبد القادر عودة ، ص ٢١

(٤) الانعام : ١٦٥ ، (٥) يونس : ١٤

(٦) النور : ٥٥

تسخير الكون لمنفعة الانسان

استكمالا لنظرية الاستخلاف ، فان الله سبحانه وتعالى قد وضع الكون تحسب سيطرة الانسان ، فهو مسخر له ، وموضوع للاستفادة منه . ومن الآيات الواردة في تسخير ما في الكون للانسان قوله تعالى : " الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (١) . فكل شئ فى هذا الوجود من الله سبحانه وتعالى واليه ، وهو مسخره ، والانسان بما زوده الله لديه استعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية يسخر بالمعرفة قوى هذا الكون ، وكل ذلك من فضل الله عليه ، وما على الانسان الا أن يستفيد من هذا التسخير ويوجهه الى تأييد سيادة أحكام الله لا الى سيادة أحكام الأثره والهوى التى تشتت الجهود وتبعثرها . وقال تعالى : " الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلم كفار " (٢) . وقال تعالى : " وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريفا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " (٣) . وقال تعالى : " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور " (٤) . وقال تعالى : " ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض " (٥) .

من خلال هذه الآيات نستنتج أن الكون ليس لها ، فمن كان يعبد الكون من الشمس أو القمر أو الحيوانات ، هؤلاء مخطئون فى اعتقادهم وتغييرهم " فجاء الاسلام وحرر الانسان من عبادة الطبيعة بجميع أجزائها بل جعل له سلطانا عليها فسخرها له " (٦) . وستتبع هذه النظرة أن الانسان ليس لها أيضا

(١) الجاثية : ١٣ ، ١٢ ، (٧) ابراهيم : ٣٢-٣٤

(٢) النحل : ١٤ ، (٤) الملوك : ١٥

(٥) لقمان : ٢٠

(٦) النظرة الى الانسان والكون والحياة ، محمد المبارك ، محاضرة فى قسم الثقافة الاسلامية بجامعة الامام محمد بن سعود عام ١٤٠٠هـ .

في الكون ، بل هو معطى من الله سلطانا على هذا الكون وليس من عند نفسه ، فليس له أن يطغى بل عليه أن يتواضع ويعرف موقعه الصحيح وهو أنه يحتل هذه المكانة في الكون بناءً على ما منحه الله آياه من التكريم ، فهو سيد ولكنسه عبد لله ومملوك .

ومن واقع هذا التسخير نستنتج أيضا أنه مطلوب من الانسان أولا وهو يمارس دور السيادة في الكون أن يفكر في هذا الكون ويستفيد مما به باستخراج السنن والقوانين التي يسير بها الكون ليحقق الفائدة التي يريجوها ميسر وراة استخراج هذه السنن . وما التقدم العلمى الا مظهر لهذا التفكير والبحث في هذا الكون لاكتشاف أسراره . والحقيقة أن الانسان لا يستطيع القيام بمهمته كخليفة في الأرض وتحقيق الفائدة مما منحه الله آياه من تدليل لهذا الكون وتسخيرها لمنفعته ، الا بالفكر والعلم والجهد المستمر . ولهذا نجد القرآن الكريم يحث في كل مناسبة يذكر بها الكون ومظاهره أصحاب العقول على التفكير ، وحسن النظر الممزوج بالتفكر والعقل ، ليخرج هذا النظر عن حدود العين المجردة الى البصيرة واعمال الفكر ، وبالتالي التوصل الى أسرار الكون . وهذه النظرية السليمة تؤدى بنا بالضرورة الى التوصل الى خالق هذا الكون ، لأنه لا يعقل أن يكون بهذا التنظيم الدقيق الرائع الا أن يكون الله هو خالقه ومودع فيه هذه الأسرار وهذه السنن . عندئذ تلتقى النظرة العلمية الى الكون مع النظرة الايمانية الى الله . وعندها يتم الانسجام التام بين العلم الطبيعى وبين الايمان ، وسن هنا لم يكس ثمة تعارض بين علم وايمان في الاسلام . وصدق الله العظيم الذى يقول : انما يخشى الله من عباده العلماء .

وهذا الكون بناءً على هذا التسخير موضوع للانتفاع والاستثمار ، يشير سبحانه وتعالى في كثير من الآيات الى هذا الانتفاع بمواضع متعددة . قال تعالى : " هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقم يتفكرون " (١) .

وقال تعالى : " وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " (١) فيذكرنا الله سبحانه وتعالى بهذا الانتفاع ، ويطلب منا أن نسعى لتحقيقه ، والا فما الفائدة أن يدلنا على مواضع المنفعة ولا نستغلها أو نستثمرها ؟ . اننا بمارستنا العمل لاستخراج هذه المنافع مقرونه باعتقادنا أن الله هو الذى سخرها لنا وحننا على استخراجها ، لا بد أن نتوجه بالشكر للمنعم على انعامه ، وبالتالي نتحقق لنا المنفعة الدنيوية مع المنفعة الآخروية ، ونكون بذلك من العبيد الشاكرين المستحقين للخلافة بكافة شروطها .

ان الكون يتميز بعدة مميزات أوضحها القرآن الكريم لنتبين مواقعنا ونستفيد الى أقصى درجة من هذه المميزات لصالح وجودنا فى الأرض . فمن هذه المميزات الحركة التى يتميز بها الكون كله . يقول تعالى : " وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى " (٢) " وسخر لكم الشمس والقمر دائبين " (٣) " والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون " (٤) " والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون " (٥) .

وهذه الارض الهامدة اذا ما نزل عليها الماء اهتزت وهذا يدل على الحركة ، كذلك فان نمو النبات نتيجة حركة مستمرة " وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " (٦) وكذلك الانسان فى حركة مستمرة " ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا " (٧) .

ثم ان هذا الكون يبدو فيه أن الحوادث تترابط ترابطا منتظما ومطردا وهو قائم على سنن ثابتة . قال تعالى : " ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت " (٨) وقال تعالى : " سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا " (٩)

(١)	النحل	: ١٤	٦	(٧)	لقمان	: ٢٩
(٢)	ابراهيم	: ٣٣	٦	(٤)	يس	: ٢٨-٤٠
(٣)	الذاريات	: ٤٧	٦	(٦)	الحج	: ٥
(٤)	نوح	: ١٣-١٤	٦	(٨)	الاحزاب	: ٦٢
(٥)	الملائك	: ٣				

" ولن تجد لسنة الله تحويلاً " (١) .
 وقال تعالى : " ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودى يخرج من خلاله .. " (٢) هكذا تترايط الحوادث بسنن ثابتة لا تتغير وبأسس علمية لا دخل للمصادفات أو لأمر خارجة عن قوانينها التي أودعها الله في خصائص الأشياء .
 كذلك فإن الله سبحانه وتعالى أوجد كل شىء بقدر معلوم فكل شىء يجرى بحساب ويمقادير محسوبة . قال تعالى : " وما ننزله الا بقدر معلوم " (٣) .
 " وكل شىء عندنا بقدر " (٤) " انا كل شىء خلقناه بقدر " (٥) " والله يقدر الليل والنهار " (٦) .
 والقدر هنا " هو تقدير الله لحوادث المخلوقات أى لخلقها وحياتها وأعمالها وفقاً لحساب مقدر ولكميات محسوبة ، ثم يأتى تنفيذ ذلك وفقاً لحسابه وتقديره ، وبهذا المعنى فسر ابن كثير أكثر هذه الآيات " (٧) .
 والله سبحانه وتعالى يخبرنا عن الوزن والحساب والاحصاء ، وهى تابعة لمعنى التقدير . قال تعالى : " وأنبتنا فيها من كل شىء موزون " (٨) .
 " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتتفقوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً " (٩) .
 " وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً " (١٠) .

(١) فالجر : ٤٣	، (٢) النور : ٤٣
(٣) الحجر : ٢١	، (٤) الرعد : ٨
(٥) القمر : ٤٩	، (٦) المزمل : ٢٠
(٧) الاسلام والفكر العلمى ، محمد المبارك ، ط ١٣٩٨ ع ١ ، ص ٣١	
(٨) الحجر : ١٩	، (٩) الاسراء : ١٢
(١٠) الجن : ٢٨	

فالحوادث الكونية مرتبط بعضها ببعض بتقدير من الله سبحانه وتعالى وهو الذى أودع فيها السنن التى تجرى بها ، فلا خرافات ولا أسباب غير منطقية تفسر بها الحوادث ، وإنما هذا الكون يظهر للانسان بمعالـم موضوعية يدركها بحواسه أو بعقله أو بهما معا بعيدا عن الغيبات التى لا يستطيع الانسان ادراكها ولم يكلفه الله بالبحث عنها .

هذا هو الكون كما يعرضه القرآن الكريم ، قريب من الانسان محبب اليه مسخر له ومذل ، فما على الانسان الا أن يستشير قدراته الذاتية للبحث والنظر وصولا الى النتائج المأمولة واستفادة من هذه الغرض المنوحة له . " ان تفسير علاقة الانسان بالكون من كون مقدس الى غيبية مسخرة ومذلة ، وخاضعة للانسان الحاكم عليها ، والمستثمر لها ، أدنى الى تفسير نفسى مجرى الحضارة كلها ، وخروج من تعطيل الانسان وانحطاطه الى تنشيطه ورفع مستواه . من أجل هذا كان الاسلام متشددا فى كل مظهر من مظاهر الوثنية لئلا تظل برأسها من جديد فى أى شكل من الأشكال . وهنا تبدو قيمة التوحيد وأهميته الحضارية " (١) .

ومن مستلزمات كلامنا عن الاستخلاف وتسخير الكون للانسان ، يجب علينا أن نمر على مسألة الاستمتاع بالطيبات والى أى حد حتى تكون الأمور متوازنة لا يطفئ جانب على جانب . فان مسألة الاستخلاف فى الأرض لا تأخذ مسارها الصحيح المنسجم ، الا بموازنة متطلباتها الروحية والمادية على السواء . " وقد أولى القرآن المسألة المادية أهمية كبيرة لانجد مثلها فى معظم الديانات التى جنحت باتجاه الروح ، ونظرت الى المسألة الجسدية أو المادية نظرة اختقار واستعلاء وازدراء . فان معنى هذا أن خلل فى هذا التوازن ، الذى يؤكد القرآن الكريم ويدعو اليه كشرط أساسى

(١) الاسلام والفكر العلمى ، د. محمد المبارك ، ص ٤٤ ، مرجع سابق .

للاستخلاف ، سيؤول - بالضرورة - الى تفكك وانحلال الفرد والجماعة..
الأمر الذى يقود ولا ريب الى تأزم فى الفاعلية البشرية وبالتالي فسوف
تدفع معطياتها الحضارية " (١) .

قال تعالى : " يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا
انه لا يحب المرففين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات
من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة
كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها
وما بطن والأثم والبنى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا
وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " (٢) .

فى هذه الآيات نرى مسألة التوازن الدقيق ، فهى الآيات تدعو
الإنسان الى الأخذ بالزينة حتى عند أداء العبادات ، ثم يعقب ذلك
دعوة الى الأكل والشرب بشرط أن لا يبلغ حد الاسراف .

وتستنكر الآيات موقف الذين يحرمون زينة الله ويحرمون الطيبات من
الرزق ، وتوضح أن المحرم والمرفوض هو الفاحشة أيا كان مصدرها ، وكذلك
الاثم والبنى والشرك بالله . وما أكثر الآيات التى تدعو الانسان الى استفلال
الطيبات دون افراط أو تفريط ، وكذلك الآيات التى تستنكر مواقف الذين
يحرمون الكثير من الطيبات التى أحلها الله .

قال تعالى : " قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا " (٣)
وقال تعالى : " قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا
قل الله اذن لكم " (٤) .

وقال تعالى : " لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ " ، نحن ولا آباؤنا ،
ولا حرمنا من دونه من شئ " (٥) .

(١) التفسير الاسلامى للتاريخ ، د. عماد الدين خليل ، دار العلم للملايين ،

ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٩٤

(٢) الأعراف : ٣١ - ٣٣ ، (٣) الانعام : ١٥٠

(٤) يونس : ٥٩ ، (٥) النحل : ٣٥

ان الله سبحانه وتعالى حينما أنكر على هؤلاء التحريم أوضح لنا
أن الأصل هو الحلال ومطلوب الاستمتاع بما خلق الله وفق شريعة الله
وبحدود الاعتدال ، وبشرط أن لا تكون المطالب الجسدية هي الهدف النهائي
من وراء السعى في الدنيا بحيث تشد هذه المطالب الانسان الى الأرض
وتنسيه مهمته الأساسية ودوره الايمانى .

ان الله لا يريد لنا أن يكون هدفنا الوحيد هو التمتع بالطيبات
” والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مشون لهم “ (١)
انما يريدنا أن يكون هدفنا أسمى من ذلك ، حتى يتمكن الانسان من تأدية
مهمة الاستخلاف في الأرض بحالة من التوازن بين متطلباته المادية ومتطلباته
الروحية . والقرآن الكريم يؤكد في مواضع كثيرة على المسألة المادية ، فحديشه
عن الكون والتسخير والسعى في الأرض والدعوة الى اكتشاف أسرار الطبيعة
لتسهيل مهمة الانسان في اعمار الأرض ، واعتماد القوة المادية الى جانب القوى
الروحية لحماية الدين والدعوة اليه ، كل ذلك يدلنا على أهمية المسألة
المادية . ولكن يجب أن يكون في مفهومنا أن الاهتمام بهذه المسألة
لا ينفصل عن قضايا الروح والقيم والأهداف العليا ، انما هناك تمازج تام
بين الاثنتين ، ولا توجد حدود فاصلة بين هذه الأمور . ان هذه النظرة
تحفظ التوازن البشرى في الأرض وتقود الانسان الى مهمة الاستخلاف على
أكل وجهه ، وتحركه في الاتجاه الصحيح نحو الهدف الأخير ألا وهو
عبادة الله والتوجه اليه .

ومن هنا يرفض الاسلام بكل قوة الجنون الى أحد طرفي المعادلة سواء
الى الجانب المادى أو الروحى ، فان ذلك يعتبر انحرافا خطيرا ويسودى
الى الفشل الذريع .

ان العلاقة بين الانسان والعالم علاقة صراع وتناقض في المذاهب الغربية من هيجل الى ماركس الى تويني . فهيجل جعل الصراع في عالم الفكرة ، وماركس جعلها في عالم المادة ، أما تويني فقد ركز على مسألة التحدي والاستجابة ، وبالتالي الصراع بين الانسان والبيئة . أما المفهوم الاسلامي فالعلاقة تقوم على الوثام والانسجام ، " فادام الانسان مزيجا معقدا فذا معجزا بين الروح والجسد ، فان تلاؤم وتوافق هذين الجانبين ، وما يتفرع عنهما من قوى وطاقات ، هو الوضع الطبيعي الذي يمكن الانسان من بذل الحد الأقصى لطاقاته وقدراته ، وبالتالي تسيير العجلة الحضارية بسرعة أكبر ، وانجاز أبداع .. وأن الصراع بين هذين الجانبين أمر شان يؤول الى تعكك وحدة الذات البشرية وتمزيقها ، الأمر الذي ينعكس - بالضرورة - على الفاعلية الجماعية فيصيرها بأكبر قسدر من خلل يترقل سيرتها الحضارية" . " وانه مادامت قوى العالم - من جهة أخرى - قد سخرت لمهتنا الأرضية تسخييرا ، فان علاقتنا بها ليست أبدا علاقة صراع وتناقض واقتتال .. انما هي محاولة الكشف والتنقيب والاندماج للوصول الى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الانسان وبين العالم ، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية " (١) .

والقرآن الكريم يطلب من الانسان عمارة الأرض في قوله تعالى : " هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها " (٢) .
قال ابن كثير في تفسيره : " أي جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها " .
وقال القرطبي : " قال بعض الشافعية الاستعمار طلب العمارة ، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب " .
وقال الجصاص : " وبه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية " .

(١) التفسير الاسلامي للتاريخ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ، مرجع سابق

(٢) هود : ٦١

ويقول البهي الخولى تعقياً على ذلك : " على أن العمارة - بما نعرف فسى أيامنا هذه - يمتد أفقها الى أبعد مما عرف سلفنا الصالح من " الزراعة والغراس والأبنية " الى استثارة ما فى الأرض من أنواع المعادن ، والتوسيع فى المنافع العمرانية باستخدام المصنوعات المختلفة ، والمرافق الضرورية ، والوسائل الميسرة للمصالح ، وما يتبع ذلك كله من تبادل السلع والغلات ونقل المتاجر أو جلبها من هنا وهناك .. وانا لنقرأ فى ذلك قوله تعالى : " وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس " فنرى فيه اشارة تلفت النظر السى أفق العمران الصناعى، وترهد الى مزايا الحديد وتوجه الهمة الى استخراجها: (١)

ولقد مكن الله الناس من الأرض لتنظيم انتفاعهم قال تعالى : " ولقد مكنناكم فسى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش " (٧) ، وهذا التمكين هو تمكين استقرار وتمكين تسلط . فقد قال الزمخشري بالمعنيين حيث قال فى تفسيره لهذه الآية " جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا " والمعنى الآخر " أو مكنناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها " (٣) . ماذا علينا بعد ذلك ؟ ان من الواجب التوجه الى تنمية الموارد واستثمار الطبيعة بشرط أن يكون هذا الهدف " محكم بالاطر العام للاسلام يسير ضمن حدوده وأهدافه الأخرى ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " (٤) . فالنهى عن الاعتداء فى مجال الانتفاع بالطبيعة واستثمارها تعبير بالطريقة القرآنية عن ذلك الاطار المذهبى العام " (٥) .

وضيف الكاتب فى صفحات أخرى فى معرض كلامه عن تنمية الثروة ويقول : " فالثروة فى رأى الاسلام وتنميتها هدف من الأهداف المهمة ، ولكنه هدف طريق لا هدف غاية ، فليست الثروة هى الهدف الأصيل الذى تضعه السماء للانسان الاسلامى على وجه الأرض ، وانا هى وسيلة يودى بها الانسان الاسلامى دور الخلافة ،

(١) الثروة فى ظل الاسلام ، البهي الخولى ، ص ٦٤ ، دار الاعتصام ، ط ٣ ، ١٣٩٧ هـ .

(٧) الاعراف : ١٠ ، (٣) تفسير الزمخشري .

(٤) المائدة : ٨٧

(٥) اقتصادنا ، باقر الصدر ، ص ٥٨٧ ، دار الكتاب اللبنانى - دار الكتاب المصرى ، ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ .

ويستخدمها في سبيل تنمية جميع الطاقات البشرية والتسامي بانسانية الانسان في مجالاتها المعنوية والمادية . فتنمية الثروة والانتاج لتحقيق الهدف الاساسى من خلافة الانسان في الأرض هي نعم العون على الآخرة ، ولا خير فيمن لا يسعى اليها ، وليس من المسلمين بوصفهم حملة رسالة في الحياة من تركها وأهملها . وأما تنمية الثروة والانتاج لأجل الثروة بذاتها ، ووصفها المجال الاساسى الذى يمارس الانسان فيه حياته ويفرق فيه ، فهي رأس كسل خطيئة ، وهي التى تبعد الانسان عن ربه ، ويجب الزهد فيها .
 فالاسلام يريد من الانسان الاسلامى أن ينمى الثروة ليسيطر عليها ، وينتفع بها في تنمية وجوده ككل لا لتسيطر عليه الثروة ، وتستلم منه زمام القيادة ، وتمحو أمامه الأهداف الكبرى" (١) .

ان الهدف الاساسى من خلق الانسان هو عبادة الله ، وان ما فى الارض من ثمرات أو مواد قابلة للتصنيع كلها مخلوقة ، ووسائل يستعين بها الانسان على تلك العبادة . فالعمارة غير مقصودة لذاتها بل هي وسائل لاقامة احكام الله فى الأرض كما أراد الله سبحانه وتعالى ، والتي تكون لغير هذا الهدف لا يقرها الاسلام لأن المقصود بها هو توكيد صلة الانسان بربه ، وتهيئته لعبادته فى يسر وسهولة ، واقامة العدل فى الارض ليعيش الناس باطمئنان وراحة لعبور هذه الحياة الى الدار الآخرة .

لم يبق الا أن نستثير الطاقات الانسانية تجاه الخيرات الكامنة فى الارض - واستغلالها ولا يكون ذلك الا بالعمل البناء .

(١) اقتصادنا ، باقر الصدر ، ص ٦٠٥ - ٦٠٦

العمل وأثره في اعمار الأرض

ما دام الانسان خليفة في الأرض ، والكون مسخر لخدمته ، وأن من مهماته في الأرض أن يعمر هذه الأرض ويستخرج كنوزها بعد أن مكنه الله تمكين استقرار وتسلط ، لا بد له من العمل والتوجه البناء للأرض - لاستخراج كنوزها وخيراتها . فالانسان محتاج الى الغذاء والسدواء واللباس والمأون الى غير ذلك ، ومحتاج أيضا الى أدوات صناعية يستعين بها على استغلال الكون . ولا بد له من أن يتوجه الى العمل المثمر للقيام بكل هذه الأمور .

فالإسلام اذن حث على العمل والانتاج ، ولم يترك مناسبة الا وطالب المسلم بالعمل ، فالعمل وسيلة لتنمية الانتاج والثروة ، وبما أن الإسلام غالب بالتنمية واستخراج ما في الأرض بعد تسخيرها للانسان ، لذا فانه " حث على العمل والانتاج وقيمه بقيمة كبيرة ، وربط به كرامة الانسان وشأنه عند الله وحتى عقله . وبذلك خلق الأرضية البشرية الصالحة لدفع عجلة الانتاج وتنمية الثروة ، وأعطى مقاييس خلقية وتقديرات معينة عن العمل والبطالة لم تكن معروفة من قبله ، وأصبح العمل في ضوء هذه المقاييس والتقديرات عادة يثاب عليها المرء .. وأصبح العامل في سبيل قوته أفضل عند الله من المتعبد الذي لا يعمل ، وصار الخمول أو الترفع عن العمل نقضا في انسانية الانسان وسببا في تفاوته " (١) .

ويؤكد القرآن الكريم في آيات كثيرة تزيد على ثلاثمائة وخمسين مرة على العمل والجهد البشري لاعمار العالم . غذا العمل هو المحور الأساسي لوجود الانسان على الأرض ، وهو المقياس العادل لتحديد مصير الانسان في الدنيا والآخرة " وأن ليس للانسان الا ما سعى " (٢) . وقد بين القرآن الكريم لنا أن مسألة خلق الموت والحياة جاءت لابتنلاء بني آدم ، حتى

(١) اقتصادنا ، باقر الصدر ، ص ٥٨٧-٥٨٨

(٢) النجم : ٣٩

يتبين من هو أحسن عملا. قال تعالى : " الذى خلق الموت والحياة ليهلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور " (١)

والعمل لابد أن يكون صالحا ، لأن العمل الفاسد يوصل الى الدمار والى الخراب ولا يوصل الى تقدم الحياة ، أما العمل الصالح فهو العمل البناء الهادف الى خير الدنيا والآخرة. والايان والعمل الصالح شرطان أساسيان لتقدم الحياة واعمارها ، والا فان الصير سيكون سينا يفقد هذين الشرطين . قال تعالى : " والمصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " ، والقرآن الكريم يكلفنا بعمل الخير دائما والدعوة اليه ، ويأمرنا بالانتها عن المنكر والتحذير منه حيث يقول تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " (٢).

ويدعوة الاسلام الى الفلاح وتنديده لكل عمل فاسد انما يريد حماية العمل الصالح والمكتسبات الحضارية التى أنجزها العمل الصالح ، ويسمى لوقف كل حركة فاسدة تؤدى الى عرقلة الخير والعمل الصالح .

ان العمل الصالح بمفهومه الشامل لا يقف عند جوانب معينة وانما يشمل كل عمل فيه صلاح وخير ، ولا تقف الأعمال الصالحة التى يشهد بها القرآن الكريم عند أعمال القلب ، ولكنها تتجاوز ذلك الى كل أنواع السلوك الانسانى وما يترتب عليه ازاها الفرد والجماعة على السواء (٣) . ويضيف فى موضوع آخر بقوله " كل نشاط يحقق للأمة الرفاهية والسعادة ويضمن لها التقدم ويحقق لها القوة والمزة هو من الأعمال الصالحة الواجبة المشروعة " (٤)

ويقول يوسف القرضاوى : " وقد ذكر القرآن الكريم الايمان مقرونا بالعمل فى أكثر من سبعين آية من آياته . ولم يكن مجرد العمل ، ولكنه يطلب عمل الصالحات ، وهى كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين ، وما يصلح به

(١) الملك : ٢ ، (٢) آل عمران : ١٠٤

(٣) (٤٠٣) مواقف الاسلام ، محمد الحبيب بن الخوجه ، دار بوسلامه

للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ١٩٧٩ م ، ص ٤٨ ، ٥٠٠

الفرد والمجتمع وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا * (١)
ويقول البيهقي الخولي في معرض تعليقه على الآية الكريمة * ولقد كتبنا نفس
الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * (٢) : * وإذا كان
الصلاح الذي تعنيه الآية الكريمة كثير المعاني متعدد الأنواع ، فما لاجدال
فيه أن الصلاحية الاقتصادية في هذا المجال هي الأساس الطبيعي لأنواع
الصلاحيات الأخرى ، روحية وغير روحية . ثم انه من الطبيعي أن تكون الصلاحية
الاجابية هي أساس تحكيز الانسان في الأرض وهيئته عليها * (٣)

ان العمل الصالح المنبثق عن الطاقة الايمانية التي تجعله مشدودا الى
الصلاح والى الخير والاعمار في الأرض هو الذي يرده الله لنا ، وهو العمل
البناء الذي يساعدهم في التقدم بأشكاله المختلفة .

وإذا نوى المسلم بالعمل وجه الله فهو عبادة ، والدعوة الى الله والصور
من أجلها في وجه الاعداء كانت صفة الكثير من المؤمنين ، وهي معدودة في
أعمالهم الصالحة وعباداتهم المفصلة التي قصدوا بها وجه الله . وخير دليل
على ذلك ما قام به المسلمون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من تأصيل
أسباب الرقي وتركيز دعائم المدنية من حيث العلم والكتابة والتربية وتأسيس
القوة واتحاد الكلمة في وجه الاعداء والاهتمام بالناشئة وتربيتها ، كل ذلك
عبادة وعبادة يقصد بها وجه الله .

يقول ابو الحسن الندوي في معرض كلامه عن دور الخلافة الراشدة
مثل المدنية الصالحة * وكذلك كان ، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل
وأزهر في جمع هذه النواحي من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة ، فقد
تعاونت فيه قوة الروح والأخلاص والدين والعلم والأدوات المادية فسعى
تنشئة الانسان الكامل ، وفي ظهور المدنية الصالحة . كانت حكومة من
أكثر حكومات العالم ، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها ،

(١) الايمان والحياة ، يوسف القرضاوي ، ص ٣٠٠ ، الدار السعودية

للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٣٨٩ هـ .

(٢) الانبياء : ١٠٥

(٣) الثروة في ظل الاسلام ، مرجع سابق

تسود فيها المثل الخلفية العليا ، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم . وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الخلق والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة الى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كمالى لم يحلم الانسان بأرفى منه ولم يفترض المعتزرون أزمى منه (١) !

انه بدون التوجه الى العمل بأشكاله المختلفة لا يكون هناك قوة ولا تقدم ولا حماية للاسلام ودعوته ، وهذا ما يبدو في كل عصر وفي كل مكان . ان الأمة التي تتقاعس عن أداء دورها في العمل وتكتفى بالكلام لن يكون لها نصر ، ولن تكون لها عزة . وحتى هذه الأمة لو بقيت تؤدى شعائر الدين دون ترجمتها الى عمل في مختلف الاتجاهات فلي تأنيها العزة ، ولن يأتيها النصر والتقدم في الحياة الى المستور الأفضل . وانه بدون اعتماد المسلم المنظم الهادف ، وبالوعى العلمى الصحيح النابع من ايمان عميق باللله وبدور الانسان ومهمته في الأرض ، لن يتحقق لهذه الأمة وجودها المطلوب ولن يشرفها الله ويجعلها حير الأمم . ان المقياس الصحيح للانسان هو بحقدار ظهوره في عبادة عينية ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم " ليس الايمان بالتعنى ولا بالتخلي ، ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل " .

ان من يظن أن الايمان بالدين وعقائده يؤخر عجلة الانتاج المبادى بشكل عام بما قد يملكون أن الدنيا لا تسبحوا الاعتماد حتى يقوم بهذه الجهسون الطويلة ، ان مثل هذه النظرة تؤدى الى تأخر المجتمعات والى الاعتماد على الأمم الأخرى لسد الاحتياجات التي لا بد منها للوفاء بالحاجات الانسانية . والعكس هو الصحيح تماما ، فان الايمان أكبر حافز لأداء العمل والاخلاص فيه وانقائه ، وهذه شروط للعمل الناجح المشر تتوفر كلها في الدفع الايمانى

(١) ماذا خسرت العالم بانحلال المسلمين ، أبو الحسن الندوى ،

باتجاه غذا الطريق ليخرج العمل دائما على أحسن ما يمكن . والمؤمن السدى وفر الايمان بقلبه " يندفع الى العمل بحائز من نفسه ، وباعت من ذاته ، بايحاء ينبعث من داخله لا سوطا يسوقه من الخارج ، ذلك الهائذ الذاتى هو الايمان بالله وبرسالة السماء ، ومهمته فى عمارة الأرض والسيادة نفسى الكون . ان المؤمن يوقن أن السعادة فى الآخرة والنجاة فى الأولى موقوف على العمل" (١) .

ولن يتوقف دخول الجنة على جنس معين من البشر أو اتباع دين معين ، وانما سيكون استحقاق ذلك بالايمان الصادق والعمل الصالح . قال تعالى : " ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سواً يحز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً" (٢) . وما أن قوانين الله فى الجزاء واحدة فان الفوز والفلاح بالعمل لا يقتصر على الآخرة وحدها ، قال تعالى : " انا لانضيق أجراً من أحسن عملاً" (٣) وقال تعالى : " نعلم أجر العاملين" (٤) ، وقال تعالى : " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (٥) . والمؤمن الذى يعمل فى مجال الصناعة مثلاً يتقن صنمته ويحودها ويعمل فيها باخلاص ، لا يهدف الى الكسب المادى فقط أو ارضاء الآخرين بأى طريق ، انما همس يرقب الله فى عمله ، ويمتقد أنه سيثيبه على حس أدائه وأمانته واتقانه . قال تعالى : " وقل اعملوا فسير الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فنبشركم بما كنتم تعملون" (٦) .

" ان الايمان فى قلب المؤمن قوة فاعلة ايجابية مؤثرة ، بها يطابق بسين جزئيات نشاطه اليومى ، وكل حركة من حركاته ، وكل تصرف من تصرفاته ، ويسين هذا المشعل النير الذى يضئ أمامه ظلمات الطريق . ولا يتحقق هذا الايمان

(١) الايمان والحياة ، يوسف القرضاوى ، ص ٣٠٠ ، مرجع سابق

(٢) النساء : ١٢٣ - ١٢٤ ، (٣) الكهف : ٢٠

(٤) الزمر : ٦٤ ، (٥) الزلزله : ٧ ، ٨

(٦) التوبه : ١٠٥

بمجرد المشاعر والأمانى الطيبات المباركات ، بل العمل هو الذى يخرجنا الى واقع الحياة ، عندما يجاهد المؤمن لدعوة الآخرين الى النظام العقدي السليم البناء القوى الدائم ، الذى تخلص فيه العبادة لله رب العالمين * (١) .

ولو نظرنا في موقف الاسلام من العمل الزراعى والصناعى والتجارى واليدوى ، لخرجنا بنتيجة لا تدع مجالاً للشك فى أن الاسلام غالينا بكل ذلك ، ان لا يعقل أن يكلفنا الله بمهمة اعمار الأرض ، ويجعلنا مستخلفين فى الأرض ، ثم لا يدعونا الى ممارسة العمل الذى يخدم هذه المهمة زيادة على حماية الدعوة والدولة فى النظام الاسلامى . فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الى العناية بالزراعة والقرس ومن ذلك قوله * ما من مسلم يفرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه غير أو انسان الا كان له به صدقة * (٢) . وتاريخ المسلمين واهتمامهم بالناحية الزراعية متابعة لعت الرسول صلى الله عليه وسلم على الزراعة وعناية أصحابه وحلفائه بالزراعة لأكثر دليل على عناية الاسلام بهذا الجانب الهام والذى لا يتقدم مجاله الا بالعمل والجهد لتنمية زراعية دائمة . كذلك فان العناية بالتجارة لا تقل عن العناية بالزراعة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم عمل بالتجارة قبل الاسلام مع السيدة خديجة ، والصحابه رضوان الله عليهم اشغلت الكثير منهم بالتجارة فمن الخلفاء الأربعة اشغلت أبو بكر وعثمان ابن عفان . والقرآن الكريم يشجع ألوان التجارة الخالية من الربا (٣) : * وأحل الله البيع وحرم الربا * (٤) ، ولا ينهى القرآن بشوق الى الهجرة والسفر من بلد الى آخر فى سبيل الرزق * ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراعى كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله * (٥) .

(١) النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ، د. صبحى الصالح ، دار العلم للملايين ،

ط ٣ ، ١٢٩٦ هـ ، ص ١٨٨

(٢) الترغيب والترهيب للمندرى ، ج ٥ ، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، ص ٥٦

(٣) النظم الاسلامية ، د. صبحى الصالح ، ص ٢٩٤

(٤) البقرة : ٢٧٥ ، (٥) النساء : ١٠٠

وحدث القرآن الكريم على العمل التجارى حتى يوم الجمعة الذى يعتبر عيداً للمسلمين حيث يقول : " اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسموا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا ففى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون " (١) .

فى يوم الجمعة حياة المسلم فيه عمل وتجارة قبل الصلاة وبعدها ، وانسه عمل رائب وعبادة دائمة لا ينفصلان . ان يوم المسلم يبدأ منذ الفجر ، وانسه أطول من يوم غيره يمارس عبادته ونشاطه الاقتصادى جنباً الى جنب ، وفى نفسه يقين أن كل ما يقوم به هو من صميم مهمته فى الأرض ومركزه فى الوجود وعبادته لخالقه سبحانه وتعالى .

ان الوقت ثمين جداً وفى حس المؤمن كل دقيقة تمر منه ، لأنه يشعر أن الحياة قصيرة ولا بد له من اغتنام الفرصة فى عمل الصالحات ، " انه يحرس أن يخلّف وراءه علماً نافعا ، أو عملاً طيباً ، أو مشروعاً مشرئاً ، أو صدقة جارئة ، أو ذرية صالحة ، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذى يخلّفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مشيئته عند الله . هذه الروح هى التى جعلت رجلاً كأبى الدرداء - صاحب رسول الله - يفرس شجرة الجوز وهو فى الشوط الأخير من رحلة الحياة فيقول له بعض الناس : أتفرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير ، وهى لا تثمر الا بعد كذا من السنين ؟ فيقول له أبو الدرداء : وماذا علي أن يكون لى ثوابها ولغيرى ثمرتها ؟ وهى التى جعلت آخر يفرس شجرة الزيتون ويقول : غرس لنا من قبلنا فأكلنا ، ونغرس لياكل من بعدنا " (٢)

ان هذا المسلك يبدو متأثراً بحدِيث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول : " ان قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فان استطاع ألا يقوم حتى يفرسها فليفرسها " (٣) . انه تكريم للعمل بحد ذاته بغض النظر عن تحقيق الفائدة

(١) الجمعة : ٩-٨ .

(٢) الايمان والحياة ، يوسف القرضاوى ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، مرجع سابق

(٣) حديث شريف رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد

والمنفعة من وراء هذا العمل .

والاسلام لا يرضى التعمود لأبنائه ويفضل العامل على العاطل ، ولا يقبل التبريرات للجلوس بدون عمل ولو كان ذلك من باب الايقطاع للعبادة .

ان العمل مهما بدأ بسيطاً أفضل من السؤال ، ويساهم في نفس الوقت في الناحية الانتاجية للأمة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يحث في أكثر من مناسبة على العمل ويفضله على سؤال الناس مهما كان ذلك العمل بسيطاً .
عن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه " (١)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله : " لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه " (٢)
وعن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
" ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وان نبي الله داود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده " (٣)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده " كناية عن الكسب (٤)
وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كان زكريا عليه السلام نجاراً " (٥)

وان سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعبد الله ويعمل في جميع المجالات ويشارك بأوجه النشاط في الحياة . وهذا عثمان بن مظعون قد انقطع للعبادة فبعث اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فجاءه فسأله : أرغبت يا عثمان عن سنتي ، قال : لا والله يا رسول الله ولكن سنتك أطلب . قال : فاني أنام وأصلي وأصوم وأفطر وأنكح النساء فاتق الله يا عثمان فان لأهلك عليك حقاً ، وان لضيفك عليك

(٢) متفق عليه
(٤) رواه البخارى

(١) رواه البخارى
(٣) رواه البخارى
(٥) رواه مسلم

حقا وان لنفسك عليك حقا نصم وأفطر وصل ونم .
 وهذا عمر بن الخطاب قد رأى قوما قابعين في ركن من المسجد بعد صلاة
 الجمعة فسألهم : من أنتم؟ فقالوا : نحن المتوكلون على الله . فعلاهم عمر
 بدرته ونهرهم وقال : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم أرزقني
 وقد علم أن السماء لا تطر زهبا ولا فضة ، وأن الله يقول : فاذا قضيت الصلاة
 فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله .

والاحاديث كثيرة على التكريم العظيم من الرسول لصاحب الهدى المكذوبة ،
 ويروى أنه رفع يده عامل مكذوب فقبلها ، وقال طلب الحلال فريضة على كسل
 سلم وسلمه ، ومن أكل من كد يده مر على الصراط كالبرق الخاطف . ومن أكل
 من كد يده نظر الله اليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبدا . ومن أكل من كد يده
 حلالا فتح له أبواب الجنة يدخل من أيها يشاء (١) .

والله سبحانه وتعالى قد طالب الناس بالسعى لتحصيل رزقهم لأن السماء
 لا تطر زهبا ولا فضة ، ولكن لا بد من التحرك في سبيل الوصول الى الرزق
 الذي قسمه الله لابن آدم . قال صلى الله عليه وسلم " لو توكلتم على الله حق
 توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خصاضا وتعود بطنانا " فرواحها ملأى البطون
 بعد غدوها وسعيتها لا مع بقائها في أوكارها .

وأخيرا اذا كان العمل بهذه المكانة وكان الاسلام يحث عليه فالمطلوب
 العمل العلمي المنظم أولا ثم انطلاق في مختلف أوجه الحياة للبناء والاستثمار
 والاعمار والتنمية بشرط أن تكون كل هذه الاعمال موجهة الى هدف أصيل مرسوط
 بالهدف هذا حتى لاتضيع الجهود سدى وحتى نضمن تكاتف هذه الجهود معا ،
 ان الهدف هو عبادة الله والتوجه اليه .

(١) من كتاب اقتصادنا ، لباقر الصدر ، ص ٥٨٨ ، مرجع سابق

لم يهو لنا الا أن نعالج بعض العصايا المهمة في هذا الباب مادام
باب العمل قد فتح لنا ونركز على الجهود العلمية والعملية التي حث الاسلام
عليها وخاصة العلوم الطبيعية مفتاح التقدم المادي للوصول الى أرقى المستويات
المادية التي لا بد منها لحماية الدعوة وأوطان الدعوة والى صيانتها
وعزتها ولتبق كلمة الله هي العليا .

حاجتنا الى العلوم

لقد تعرفنا في الفصل السابق على مركز الانسان في الكون المادي ، وتبين لنا أنه خليفة وسيد ، وأن كل ما في الكون مسخر له وموضوع للاستفاده منه ، وأن الله قد خلق الكون على سنن وقوانين ثابتة ، وأعطى هذا الخليفة القدرات الذاتية في مواجهة قوانين الكون ، وطالبه باستغلال هذه الطاقات فيما يمود عليه بالخير والصلاح ، واستخدام هذه الطاقات للاستفاده مما في الكون من قوى واستخراج كنوزه واكتشاف سننه لصالح وجوده . ولقد كانت وسيلة في ذلك العلم والعمل .

ولأهمية العلم والعمل فقد حث الاسلام عليهما كما رأينا فيما سبق . والآن نأتى الى العلوم ونبين مدى حاجتنا لها كأمة اسلامية صاحبة دعوة ورسالة للعالم أجمع .

والأمر الذي ندعوا اليه لم يمد أخافيا على أحد . ففي ممارستنا للحياة نرى مدى أهمية هذه العلوم للناس أجمعين ، وخاصة في هذا العصر عصـر انفجار المعرفة وخاصة العلمية ، فليست هناك أمة على وجه الأرض تريد النهوض والوقوف على قدميها الا كانت العلوم وسيلة مهمة من وسائل نهضتها ، بل وسيلة أساسية لا بد من اعتمادها اذا ما أردنا أن نكون أمة متقدمة ذات حضارة ورسالة . ونحن كأمة اسلامية أحوج الأمم الى امتلاك هذه العلوم بشتى فروعها وتشعباتها ، فان لنا بها حاجتين أساسيتين :

الحاجة الاولى : هي للنهوض بالمستوى المادي والصحي والغذائي ، وكل ما يتطلبه العصر من ضرورات لا بد من توفيرها والحصول عليها بالطرق العلمية السليمة لا باستيرادها ، بل بتصنيعها في الداخل ، وامتلاك كل القوى المؤثرة في ذلك . والحاجة الثانية : لفرض تقوية الأمة الاسلامية بامتلاك وسائل القوة العسكرية والحربية والاقتصادية والسياسية ، والتي يقصد من ورائها حماية الدعوة الاسلامية في الداخل والخارج ، وارهاب الظالمين في الاسلام والمسلمين ، وتقوم سائر الحياة

للشريعة جمعاً ، كي تكون في حرية تامة لتختار الطريق دون ممارسة الضغوط عليها ، وتعطيل حرية الاختيار ما دامت لا تتنافى مع الشريعة الاسلامية السمحاء .

هذه مهام أساسية من مهام الدعوة الاسلامية لا بد أن تسمى الأمة التي استلكت كل الطرق المؤدية الى الوصول الى هذه المرحلة من التصنيع والاعداد الجيد في جميع الجوانب الحربية والاقتصادية والغذائية وغيرها .

فامتلاك العلوم واجب يفرضه الواقع والمبدأ ، ولنا في مبادئ الاسلام خير عون ندعم به أقوالنا في أهم مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . ولو تتبعنا مراحل هذا الدعم ، لوجدناه يتمثل أول ما يتمثل في الحديث الاسلامي على العلم وتكريم ذويه ، حيث العلم بفهمه الشامل الواسع الذي يشمل العلوم الدينية والدنيوية .

ولقد بينت فيما كتبت سابقاً دعوة الاسلام الى التسك بالحق والعلم ، وبينت الطريقة العلمية في الوصول الى الحق واليقين والعلم الصحيح ، ألا وهو المهج التجريبي ، والذي لم تتبين ملامحه قبل ذلك ، وانما ظهر عند علماء المسلمين ، وعندهم أخذ علماء العرب في العصور اللاحقة .

والدفع الاسلامي الى هذه العلوم لا يحتاج الى دفاع ، ومع هذا فلا بد لنا من القول * ان حث الانسان في نحو سبع القرآن على دراسة الفطرة * سنن الله * أريد به على الأخص حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة ، وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسات من ثمرات ، وهذا لا يقلل شيئاً من شأن العلم في الاسلام ، بل يزيده ، ثم هو أبلغ في الدلالة على أن العلم في الاسلام جزء من الدين * (١) .

(١) الاسلام في عصر العلم ، الدكتور محمد الغمراوي ، ١٩٧٣ م ، ص ٥٧ .

ما دام الأمر كذلك فإن العلوم الطبيعية مطلوبة من الانسان المسلم ،
 وعليه أن يتعمق في تلك العلوم الى أي مدى يستطيع الوصول اليه ، وعلينا
 أن ننطلق في هذا السبيل بكل الامكانيات المتوفرة لدينا ، وألا ندع غيرنا
 يسبقنا في هذا المجال ونحن نلمس الحاجة العاسة لها ولما تثمره تلك العلوم
 من ثمرات ، وها نحن نرى الغرب والشرق قد امتلك القوة والسيطرة والسيادة في
 جميع المجالات ، ونعيش على ما يعطوننا منه ، وهم يتحكمون في ذلك الى أبعد
 الحدود . والعجيب يأتي ليس من طلبنا لهذه العلوم ، وانما " من تراخي
 المسلمين في طلب هذا العلم ، ولو للانتفاع به في تفسير ذلك الجزء من
 القرآن . ان الآيات الواردة لتلفت الانسان الى أسرار الفطرة وتحت عيسى
 تفهمها ، لا تقل عن سبع آيات القرآن ، ولم تلق ناحية من نواحي المدنية مثل
 هذا التوكيد في الاسلام الا ناحية الأخذ بالعدل والاحسان في المعاملة ،
 فكان المدنية في الاسلام شطران : شطر يقوم على العلم ، وشرط يقوم على
 العدل " (١) .

واذا ألقينا نظره على بعض الآيات الكريمة فاننا نجد هذا المفهوم واضحا
 جليا ومطلوبا من المسلمين . قال تعالى : " ألم تر أن الله أنزل من السماء
 ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف
 ألوانها وقرانيا سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما
 يخشى الله من عباده العلماء " (٢) .

موضوع مثل هذه الآية هو موضوع العلم الطبيعي ، فالعلم الطبيعي
 يبحث عن الاشياء الكونية وطبائعها وخواصها ، والعلاقات التي بينها ، ثم عن
 حقيقتها ان أمكن ، أي عن آيات الله المودعة في هذه الاشياء " .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧

(٢) فاطر : ٢٧-٢٨

ففى هذه الآية السابقة " لا يعرف سر نزول الماء من السماء الا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخواصه الا بعلم الكيمياء ، ولا يعرف الانبيات والاشار فيها الا بعلم النبات ، ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها الميسر والحر والسود الا بعلم طبقات الأرض ، ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام الا بعلم أصل الشعوب والحيوان " (١) .

ان هذه العلوم والبحث العلمى عنها أصبح من الضرورة القصوى فى هذا العصر نظرا للأهمية البالغة التى ترتب على تقدم هذه العلوم وتأثيرها فى جميع مجالات الحياة . وان التأمل والبحث لواضح من خلال الكثير من نصوص القرآن الكريم ، ويوجه ذلك خاصة الى العقلاء من الناس . يطالبنا الله سبحانه وتعالى بالتأمل فى كل شئ : " فى خلق السماء ، وفى خلق الأرض ، وفى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وفيما دخلت فيه يد الصناعة الانسانية ، فاستفادت فى صنعه من سنن الله الدائمة فى الكون ، وقوانينه التى رتب بموجبها طبائع الأشياء " ، كالفلك التى تجرى فى البحر ، وفى السحاب ، وفى المطر ، وفى النبات ، وفى الرياح ، وفى الثمار ، وفى الجبال ، وفيما بث الله فى الأرض من دابة ، وفى الشمس والقمر ، والنجوم والاهتداء بها ، وفى الألوان واختلافها ، وفى علم المواقيت وحساب الزمن ، وفى علم جغرافية الأرض وتقسيمها وطرقها وما فيها من كنوز ، وفى البحار وما فيها من مستخرجات ، وفى آثار الأولين وما فيها من دلالات ، التى غير ذلك من كل ما يتناوله البحث العلمى بالدراسة والتأمل ، وحول هذه الأشياء تتجمع حشود العلوم الكونية ، التى ينتقل الباحثون المنمنون المتتبعون للحقيقة من ظواهرها الى الايمان بالله خالقها ومحكم نظامها ، والايمان بمعظم صفاته جل وعلا ، كما ينتفعون منها فى مجال حياتهم الدنيا " (٢) .

(١) " روح الدين الاسلامى ، عفيف طبارة ، ط ١٧ ، ١٩٧٨ م ، دار العلم للملايين ، ص ٢٧٦

(٢) أسس الحضارة الاسلامية ، عبد الرحمن حسن حنيكه الميدانى ، ط ١ ، دار العربية ، ص ٣٢٧-٣٢٨

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الى بحث على شامل في جميع الجوانب من طبيعية وفلكية وتاريخية . قال تعالى : " ان في خلق السموات والأرض - واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " (١) .

" ففي هذا النص من كتاب الله دعوة للذين يعقلون أن يتبحروا في خلق السماء ، وفيها حوته من اتقان صنع ، وعجائب دالة على عظمة قدرة الله وواسع علمه ، وجليل حكمته ، وأن يتبحروا في النظام المحكم الدقيق ، الذي يتعاقب به الليل والنهار على محيط الأرض ، وفي الأنظمة الثابتة المحكمة التي تطفو بها الفلك في البحار ، وتتخذ لها على الماء مجارى تجري فيها بما ينفع الناس ، وأن يتبحروا في ظاهرة نزول الماء من السماء ، بإرادة الله وضمن قوانين مادية ومعنوية ثابتة ، ثم في ظاهرة حياة الأرض بالنباتات بسبب الماء ، بعد أن كانت قدرا كأنها ميتة ، وأن يتبحروا في عالم الحيوان وما فيه من عجائب وآيات ، وفي ظاهرة الرياح وتصريفها ، وأسرار ذلك ، وفي ظاهرة تصريف السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وما في ذلك من آيات وعجائب منطوية على كمال الاتقان ودالة على عظمة متعتها القادر العليم الحكيم " (٢) .

وفي مجال البحث التاريخي في الآثار والأمم السالفة يقول تعالى : " فكأن من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبشر معطلية وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعنى الأبهار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور " (٣) .

ان في هذه الآيات دعوة الى البحث العلمي التاريخي في الآثار ، لتبين ما تحمله من دلالات تدل على الأمم التي خلفتها ، وما تتضمنه من عظات للأجيال

(١) البقرة : ١٦٤
(٢) أسس الحضارة ، ص ٣٢٨-٣٢٩
(٣) الحج : ٤٥ ، ٤٦

المتلاحقة ، يعتبر بها أولو الابصار . انها دعوة الى التنقيب عن القرى البائدة ، التي أهلكها الله بذنوبها ، ودعوة الى التنقيب عن الآبار المعطلة ، والقصور المشيدة التي خلفتها أمم سابقة ، والبحث عن حضارتها وعن أسباب انهيارها ودمارها ، للاتعاض والاعتبار ، والانتفاع بما توصل اليه هو " لا " من مكتشفات .

وهكذا نرى أن الاسلام يحثنا على امتلاك العلوم لتحقيق مصالحنا في الحياة وتقدمنا ، وان هذه العلوم اذا ما أحسننا النظر فيها ستكون أدلة على وجود الله وقدرته وعظيم حكمته ، ولا بد ان نؤمن أن تقودنا الى الايمان . وما تنسادي به بعض المذاهب الالحادية ، برغم تقدمها العلمي ، من انكار وجود الله ، لا يستند على دليل علمي واحد ، فلا شيء يخلق نفسه ، كما أن العدم المطلق لا يوجد شيئاً ، وأن الحكمة والدقة في خلق هذا الكون - وهذا ما تعترف به العلوم الحديثة - لأعظم دليل على وجود قوة مدبرة وراء كل ذلك ، وأن نسبة العلماء الذين يؤمنون بوجود الله كبير بجانب المنكرين . لذا فلا شيء يعوقنا عن القول بهذه الحقيقة ، وهي أن هذه العلوم تقودنا الى تعميق الايمان بوجود الله سبحانه وتعالى خاصة اذا كان أسلوبنا في معالجتها هو الاسلوب الديني حتى تتكامل الفائدة من تناول هذه العلوم ودراستها .

وليس قولنا ان هذه العلوم تقود الى الايمان بوجود الله ، على أساس الاقتصار على هذا الطريق ، ولكننا نقول ، انه طريق جيد للوصول الى الايمان بوجود الله والا فان طريق الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم واجيب وهو الطريق الاول .

ونقتطف من أقوال العلماء الذين هداهم علمهم الى الايمان بالله ، ما جاء في كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " ما يلي :

" ان العلوم ليست الا دراسة خلق الله وآثار قدرته " (١)

(١) الله يتجلى في عصر العلم ، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين ، ترجمة الدكتور / الدرمان عبد المجيد سرهان ، ط ٣ ، ١٩٦٨ م ، مؤسسة الحلبي ، ص ٢٠

* ان النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصودة عسى أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيمًا عليهما قادرا على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان* .

* ان التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل من أننا اذا فكرنا تفكيرًا عميقًا فإن العلوم سوف تضطرنا الى الايمان بالله* (١) .

ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة واليعد عن التحيز الذي ينظرون بسببه الى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بهواغفهم وانفعالاتهم ، فإنهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله ، وهذا هو السبيل الوحيد الذي يفسر الحقائق . فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا بدون شك الى ادراك وجود السبب الأول الذي هو الله* (٢) .

وقد رأينا فيما سبق من دراستنا لبعض الآيات القرآنية أن العلم الصحيح هو جزء من الدين ، وبذلك يصبح لدينا دافع قوى للخوض فيها على أنها علوم مطلوبة من المسلمين بالدرجة الأولى نستفيد منها بالتدليل على وجود الله ، وعلى عظيم حكمته وكمال قدرته ويدعي صنعه ، وبذلك فإنها تصبح علومًا اسلامية كما هي علوم الدين الشرعية ، لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ومن فيه وما فيه ، فهي كلها من صنعه ، ودراستها تكشف لنا عن يد يد هذا المصنع . قال تعالى : * لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون * (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨

(٣) غافر : ٥٧

وهذه العلوم مطلوبة لتحقيق التقدم في الحياة وفي جميع المجالات، وإن الأمم التي لا تمتلك هذه العلوم ستكون في مؤخرة الصفوف. إن هذه العلوم مطلوبة لتحقيق القوة التي بها تصان البلاد والعباد، وهي مطلوبة لتوفير مجالات الحياة المختلفة ومتطلباتها المتشعبة من توفير الغذاء والصحة والتقدم الصناعي والاقتصادى بشكل عام. إنه بدون هذه العلوم سيكون التخلف عاما شاملا، وسنبقى في عوز الدول التي تمتلك هذه العلوم وهذا التقدم التكنولوجي، وبالتالي سنكون بحاجة دائمة إلى هؤلاء ما يجعلهم يمارسون الضغوط علينا والسيطرة، وهذا ما يرفضه الإسلام لأبنائه.

إن التمسك بالإسلام لا يعني أبدا قصورنا في الجانب العلمي، بل إن التقدم العلمي هذا من مطالب الإنسان المؤمن الذي يعي دور هذا الدين في رسم نهج الحياة بشمولها وقيادتها إلى أعلى المستويات الروحية والمادية.

وفيما يلي سأذكر طرفا من هذه العلوم التي يحث عليها الإسلام والتي تشكل ضرورة ملحة خاصة في هذا العصر الذي تتسابق فيه الأمم لامتلاك هذه العلوم. ولا أقصد استقصاء هذه العلوم. إنما أذكر بعضها لأبين موقف الإسلام منها وحثه عليها وذكره جملة من قضاياها، وأبين تطور هذه العلوم على أيدي المسلمين في عصور ازدهارهم وتقدمهم في جميع الجوانب. وأخيرا أبين مدى حاجتنا المعاصرة لمثل هذه العلوم لبناء الحضارة الإسلامية من جديد على أسس متكافئة من عقيدة وعلم وتقدم مادي يدعم هذا الدين وهذه الأمة، وحتى لا نبقى في حاجة إلى الأمم التي تمتلك هذه الوسائل والتي تحقق سيطرتها بها على الأمم المتخلفة صناعيا.

علم الفلك

علم الفلك من العلوم التي اهتم بها المسلمون ، وهو العلم الذي يختص بحركة الأجرام السماوية في أفلاكها ، والسماوات وما تحويه من نجوم وكواكب - وكويكبات وأقمار^(١) وكذلك ما يحدث في الكون من رياح وبرد وحرق ورعد ، والليل والنهار وتعاقبهما واختلافهما .

وعند استعراض هذا العلم لا أريد التفصيل فيه ، وإنما أذكر اشارات دالة على نظرة الاسلام الى علم الفلك وغيره من العلوم الأخرى ، وكذلك مقبسات من تقدم المسلمين في علم الفلك ، والتي حاجة الدعوة الاسلامية في تقرير هذه الحقائق لاستخدامها في الدلالة على صدق الدعوة وأن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى . وأخيرا الى دفع المسلمين للاخذ بهذه العلوم بناء على دعوة الاسلام ، ودي حاجتنا اليها في عصرنا الحاضر .

والدارس لعلم الفلك عند المسلمين يجد أن أسباب اهتمام المسلمين بهذا العلم تتلخص في الأمور التالية :

أولا : أول هذه الأسباب تتمثل في النظرة العامة للإسلام الى العلوم جميعها ، ومن بينها علم الفلك . وقد خصصنا الكلام عن هذا الموقف حيث اتضح مدى الاهتمام بالعلم ، والدفع الاسلامي اليه بشكل عام .

ثانيا : لم يقتصر القرآن في دعوته الى العلم ، ولكنه أورد حقائق العلوم على اختلافها بلا لبس أو غموض . "والقرآن عندما يقرر الحقيقة العلمية ، لا يورد تفاصيلها ، ولا يحدد تطوراتها ، إنما يسبق العلم بأن يقرر الحقيقة ، ويترك للمسلمين وسائل البحث والدراسة التي تسمى الوصول الى هذه الحقيقة ... وبذلك يكون القرآن قد أورد وجهها من اعجازه يتجلى في هذه الحقائق العلمية ، وسبقه العلم فليس سيادتها ، ويكون أيضا قد دفع المسلمين الى البحث والدراسة"^(٢) .

(١) النجم مضي * بذاته كالشمس الكوكب يدور في فلك النجم ، كالارض والزهرة والمريخ والمشتري وزحل الكوكبة - مجموعة من الاجرام السماوية تبدو في صور خاصة ، كالدب الاصفر والاكبر القمر - جرم سماوي يدور في فلك الكوكب

(٢) بين الدين والعلم ، عبد الرزاق نوفل ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، سنة بدون ، ص ١٦٧

ثالثا : ما ورد في القرآن الكريم من اشارات فلكية متعددة ، حثت السلم على البحث والدراسة في هذا الكون ومظاهر الوجود ، وحثته على النظر والتأمل والاعتبار وتقوية الايمان والاهتمام بهذا العلم . فمن هذه الآيات :

• قوله تعالى : " والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقر قد رثاه منازل حتى عاد كالمرجون القهقري . لا الشمس ينهى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " (١)

• هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق بفصل الآيات لقوم يعلمون . ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم يتقون " (٢)

• وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات المسير والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " (٣)

• الشمس والقمر بحسبان " (٤)

• ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يخشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين " (٥)

• وترى الجبال تحسبها جادة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء انه خبير بما تخفون " (٦)

(١)	يس : ٣٨ - ٤٠	،	(٢)	يونس : ٦ - ٦
(٣)	الأنعام : ٩٧	،	(٤)	الرحمن : ٥
(٥)	الأعراف : ٥٤	،	(٦)	النمل : ٨٨

• قل رأيتم ان جعل الله عليكم الليل سردا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بضياء افلا تسمعون ، قل رأيتم ان جعل الله عليكم النهار سردا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكون فيه افلا تصرون . ومن رحته جعل لكم الليل والنهار لتسكوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (١) .

رابعا : ارتباط بعض احكام الدين الاسلامي بالظواهر الفلكية ، جعل المسلمين يهتمون بهذا العلم . كأوقات الصلاة ، واتجاه المسلمين الى الكعبة في صلواتهم ، وصلاة الكسوف والخسوف ، والصوم وارتباطه بالهلال .

وفي ذلك يقول قدير طوقان : " ان ارتباط بعض احكام الدين الاسلامي بالظواهر الفلكية ، جعل المسلمين يهتمون بهذا العلم . لذا نرى أن علم الفلك قد تقدم تقدا كبيرا في العصر العباسي كغيره من فروع المعرفة ، وكانت بعض سائله ما يطالسه المسلم بمعرفتها ، كأوقات الصلاة التي تختلف بحسب المواقع ومن يوم الى يوم ، ولا يخفى أن حسابها يقتضى معرفة عرض الموقع الجغرافي ، وحركة الشمس في المروج ، وأحوال الشفق الأساسية ، وفوق ذلك : فاتجاه المسلمين الى الكعبة في صلواتهم يستلزم معرفتهم سمت القبلة ، وهناك صلاة الكسوف والخسوف التي تقتضى معرفتها ، معرفة حساب حركات النورين واستعمال الأزياج الدقيقة . وهناك أيضا هلال رمضان ، وأحكام الشريعة الاسلامية والصوم ، حملت الفلكيين على البحث عن المسائل المعوية المتعلقة بشروط رؤية الهلال ، وأحوال الشفق ، فهزوا في ذلك واخترعوا حسابات وطرقا بدوية ، لم يسبقهم اليها أحد من الهنود والفرس" (٢) .

(١) القصص : ٧١-٧٢
تراث العرب العلي في الرياضيات والفلك ، د. قدير طوقان ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٩٦٢ م ، ص ١٠٩-١١٠

والحقيقة أن علم الفلك لم يكن قد قطع شوطا بعيدا قبل الاسلام، فالمعارف الفلكية محدودة، ومعارف العرب الفلكية كانت محدودة أيضا معظمها مستوحى من شهاداتهم وحاجتهم العملية في تنقلاتهم وأسفارهم. وفي الزمن الذي انتشرت به الدعوة الاسلامية كان أكثر ما بقي من صناعة النجوم الموروثة من البابليين والصينيين والهنود واليونان قد انحط السي "صناعة للتنجيم" غايتها خلق صلة بين أحوال النجوم وحركاتها ومواضعها وبين البشر (١).

في تلك الفترة والتي اختلطت بها الأمور الفلكية بالخرافات والايان بالتنجيم، ظهر الاسلام وهو يدعو الى علم الفلك الصحيح. وقد لازمت النزعة العلمية في الفلك العرب منذ انتشار الاسلام، وهم أول من قال بإبطال صناعات التنجيم البنية على الوهم، ومالوا بعلم النجوم نحو الحقائق البنية على الرصد والمشاهدة والاختبار (٢).

وقد بدأ الاهتمام بالفلك مبكرا حيث ترجم أول كتاب في هذا الشأن في أواخر الدولة الأموية قبل انقراض دولتهم في دمشق بسبع سنين. ويرجع الباحثون أن الكتاب هو ترجمة لكتاب "عرض مفتاح النجوم" المنسوب إلى "هرمس الحكيم". والكتاب المذكور موضوع على تحاويل سني العالم وما فيها من الأحكام النجومية.

وفي عهد أبي جعفر المنصور أخذت العناية بعلم الفلك تشتد، واتخذت بالمنصور الخلفاء الذين أتوا بعده في نشر العلوم، وتشجيع المشتغلين بها. فلقد ترجم المشتغلون ما عثروا عليه من كتب ومخطوطات للأمم التي سبقتهم. وصححوا كثيرا من أخطائها، وأضافوا إليها (٣).

وهكذا أخذ علم الفلك في التقدم والرقى، وكثر العلماء الباحثون في هذا المجال، ولقى العلماء من الدولة الاسلامية الدعم المباشر والتحويل المطلوب

(١) عمق العربية في العلم والفلسفة، د. صر فروج، ط ٣، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م، بيروت ٨١

(٢) المرجع السابق، ص ٨٢، نقل عن مآثر العرب في الرياضيات والفلك، منصور حسنا

جداق، بيروت ١٩٣٧ م، ص ١٣
(٣) تراث العرب العلمي، قدري طوفان، مرجع سابق، ص ١١١، ١١٢

لتأسيس المراصد وتجهيزها في بعض المواقع المنتخبة ، وكان الاقداق السخي علامة على تبنى الأبحاث الفلكية ، والحرص على استخدام المراصد ، وعلسى تطوير الأجهزة المستخدمة في الرصد " (١) .

تطور علم الفلك عند المسلمين :

إذا ألقينا نظرة على تطور هذا العلم عند المسلمين لأدهشنا مدى التقدم الذي حصل في تلك الفترة المتقدمة نسبيا من الزمن ، مع قلبيـة الآدوات المساعدة على تقدم هذا العلم ، وبالرغم من ذلك . فقد حققوا الشيء الكثير الذي به نالوا الاعجاب والتقدير الكبيرين ، فقد عوضوا عن نقص الآلات بمقدرة عقلية فائقة ، " ومع ذلك فقد بنوا المراصد ، واستعملوا الاسطرلاب بعد أن أدخلوا عليه تحسينات جملة ، واخترعوا آلات تساعد هم على بحوثهم في النجوم ، وفي تقدير أبعاد الأجرام المساوية عن الأرض ، أو أبعاد بعضها عن بعض " (٢) .

والمسلمون أول من اشتغل بعلم الفلك بعد قدماة المصريين واليونان ، وأول من أنشأ المراصد الفلكية في العالم ، وخصصوا لها المخصصات الطائلة من بيت مال المسلمين ، واكتسبت مرصد بغداد والقاهرة وقرطبة وسمرقند والرقبة ومراغة شهرة فائقة .

ورصد الاعتدال الشسي مكنهم من تعيين مدة السنة بالضبط ، وحققت المدرسة البغدادية الفلكية انجازات مذهبة ، فعدلت الكثير من النظريات الفلكية القديمة وأصلحت الكثير من أخطاء بطليموس ، وصححت الجداول اليونانية ، ويمزى الى هذه المدرسة اكتشاف أن أبعاد نقطة في محور الشمس عن الأرض تغير موضعها ، واستطاعت تلك المراصد ايجاد قدر تقوس مدار الشمس المسمى الشكل ود راسة طول السنة بدقة ، وأن أعلى خط عرض للقمر

(١) الاسلحة والفكر الجغرافيا في العربي ، د. صلاح الدين بن علي الشامي ، ١٩٢٨ م ،

منشأة المعارف بالأسكندرية ، ص ١١٢

(٢) عقيدة العرب في العلم والفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٨٢

غير منتظم ، واكتشفوا اختلافا ثالثا للقمر يدعى التحول ، وقالوا بوجود بقع شمسية. (١)

وقالوا أن الأرض مركز الكون ، وأنها قائمة في الفضاء ، وأن القمر أقرب الاجرام السماوية الى الأرض ويليه عطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل والنجوم . كما قاسوا اجرام الشمس ، والقمر والنجوم بطرق هندسية حسابية بما يقرب من الحقيقة ، وقاسوا أبعادها عن الأرض.

ولابن الهيثم والبيروني ، والبيروني ، وآراء علمية قيمة ، ولا زال الكثير منها معتادا حتى الوقت الحاضر في تقدير محيط الأرض وقياسات ورصدات أخرى كثيرة .

ويقول سارتون : ان بحوث العرب الفلكية كانت مفيدة جدا ، ان أنبساطها هي التي مهدت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى التي ازدهرت بكيبلر وكوبرنيك . والخلاصة أن العلماء العرب ، كانوا يرون في الفلك علما رياضيا مبنيا على الرصد والحساب ، وعلى فروض تفرض لتعليل ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية .

وكان أساس تقدم علم الفلك عند العرب ما أقاموه من مرصد ، وما ابتكروا من أجهزة وآلات وادوات ، وما قدموا من أزياج وجداول فلكية. (٢)

والكتب المختصة بهذا المجال تطالعنا بأسماء كثيرة جدا من العلماء المسلمين الذين تفوقوا في علم الفلك ، وكانوا أساتذة في هذا العلم ، ونذكر في هذا بعض ما جاء في كتاب " تراث العرب العلمي " : " وفي زمن المهدي والرشيد اشتهر علماء كثيرون في الارصاد امثال " ما شاء الله " الذي الكف في الاسطرلاب ودوائره النحاسية ، وأحمد بن محمد النهاوندي . وفي زمن المأمون ألف يحيى بن أبي منصور زيجاً فلكياً مع سند بن علي ، وهذا أيضا عمل

(١) المسلمون وعلم الفلك ، محمود محمد المصطفى ، الدار السعودية للنشر ، جدة ، ١٣٨٥ هـ من ٢٠-٣١

(٢) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، الدكتور عبد الحلیم منتصر ، مرجع سابق ، ص ١٠٢-١٠٤

أرسادا مع علي بن عيسى وعلي بن المحترى . وفي زنه أيضا أصلحت أخطاء
المجسطي لبطليموس، وألف موسى بن شاكر أزياجه المشهوره ، وكذلك
عمل أحمد بن عبدالله بن حمشي ثلاثة أزياج في حركات الكواكب ، واشتغل
بنو موسى بحساب طول درجة من خط نصف النهار ، بناءً على طلب
الخليفة المأمون ، وفي ذلك الزمن وبمعه ، ظهر علماء كثيرون لا يتسع المجال
لسرد أسمائهم جميعا . وهوؤلاء ألفوا في الفلك وصلوا أرسادا وأزياجها
جديدة أدت الى تقدم علم الفلك أمثال : ثابت بن قرة والمهاني والبلخسي
وحنون بن اسحق والعبادي والبتاني - الذي هذه " لالاند " من العشرين
فلكيا المشهورين في العالم كله - وسهل بن بشار ... والبيروني والخسازن
والطوسي وابن الشاطر... الخ (١) . والاخير أول من قال بأن الشمس مركز
الكون ، وبذلك يكون قد سبق كوبرنيك بمضعة قرون .

ولا حاجة بنا الى ذكر تفاصيل ما قدمه في هذا العلم سوى أننا
نلخص أهم فضائل المسلمين في علم الفلك والتي تتلخص في النقاط التالية: (٢)
أولا : نقلوا العلوم الفلكية عن اليونان والفرس والكلدان والسريان وصححوا
بعض أغلطها وتوسعوا فيها ، وهذا عمل جليل جدا اذا عرفنا أن أصول
تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية ، وهذا طبعها
ما جعل الاوروبيين يأخذون العلم عن العرب فكانوا - أي العرب - أساتذة
العالم فيه .

ثانيا : في إضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجليلة التي تقدمت بالفلك شوطا
بحيدا .

ثالثا : في جعلهم علم الفلك استقرايا وفي عدم وقوفهم فيه عند حدود
النظريات كما فعل اليونان .

(١) تراث العرب العلي في الرياضيات والفلك ، مرجع سابق ، ص ١١٢-١١٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨

رابعا : في تطهير علم الفلك من أدران التنجيم .

"آيات من القرآن الكريم في ضوء علم الفلك الحديث" :

وفي هذا العصر شهد علم الفلك تقدما هائلا وقطع شوطا بعيدا ، وليس لنا فضل في ذلك ، انما كان الفضل لأجدادنا الذين ساهموا مساهمة كبرى في تقدم هذا العلم ، وفي أخذ أوروبا هذا العلم عنهم . أما نحن الآن فمقصرون في ذلك ، وكان الأجدار بنا أن نسير على طريق سلفنا ونواصل الطريق ، ولكننا تركنا الأمر لفهرنا فتقدموا وتأخرنا ، ونرجو عودة حميدة الى كل المجالات العلمية لنساهم في تقدمها والاستفادة منها في جميع المجالات . ومن هذه الهانة المقصود بآيات كثيرة واردة في القرآن الكريم نتبين من خلال بحثها على ضوء المكتشفات الحديثة صدق الاسلام ، وأن هذا الدين من عند الله سبحانه وتعالى ، وبالتالي صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ماورد في القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عمل بشر ، لأن العلم الذي تضمنه فوق كل علم ، ولم يصل هذا العلم الى هذه الحقائق في وقت نزول القرآن ، بل انه حتى الآن لم يكشف الكثير من أسرار القرآن العلمية والتي هي الحق الذي لا شبهة فيه .

قال تعالى : " والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " (١) .

" لقد جمعت الآية الشريفة علما اعتبر اكتشافه في العصر الحديث ، نصرا للعلم والمعلم ، ان تقول الآية ان المجموعة الشمسية وما حولها ، تتحرك في الفلك ، وأن الشمس تجري الى بعيد فيه ، وليس الى قريب . ان لا ينبغي لها أن تلحق القمر بالنزول الى فلكه ، وأنها تجري لمستقر لها " (٢) .

(١) ص ٣٨ - ٤٠

(٢) الله والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل ، دار الشعب ، سنة الطبع غير مذكورة ، ص ١٤٥

ويقول الدكتور الفسراوى : * فالفعل (تجرى) ينطبق فى أمون الناس على حركة الشمس من المشرق الى المغرب. وهو فى حرفيته يعبر عن حركة حقيقية أثبتتها العلم للشمس بسرعة مخصوصه قد رويها بنحو اثني عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه مخصوص فى قضاة الله * .

* والمقام فى هذه الآية مقام تحذير اجالى من تكذيب الرسل ، وتنبيه تفصيلى الى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته وجلال فضله ونعمته على عباده ، فكانت القرينة اللغوية قوله تعالى : * ذلك تقدير العزيز العليم * ، والاشارة فى (ذلك) هى طبعاً لكون الشمس تجرى لستقر ، أى للجرى وظافته معا ، لا لأحدهما وحده ، وفرباً أن يكون فاب عن الفخر الرازى شمول التقدير للأمرين جميعاً ، إذ جعل اسم الاشارة راجعاً الى الجرى أو الى الستقر على الاحتمال ، كما تراه فى موضعه من تفسيره . * فالقرآن معجزة علمية كبرى ينمى أن يتذكره دائماً كل مسلم شقفاً ، ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقيناً أن القرآن من عند الله حقاً ، وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولا تكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن * (١) .

وقال تعالى : * وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون * (٢) .
ضرب الله المثل بحركة الأرض بحور الجبال ، وهى أبرز ما عليها ، وليس ذلك يوم القيامة بل فى الدنيا ، لأن الأرض لن تكون نفس الأرض ، وأن الجبال ستوت صداقا لقوله تعالى : * يوم تبدل الأرض غير الأرض * (٣) ، ثم لا يكسون فى الآخرة حسان ، بل نرى فيها حقائق ، ونعرف كل شىء على حقيقته . ونفس الآخرة لن يكون هناك جبال ، ففى سورة طه : * ويسألونك عن الجبال فقل

(١) الاسلام فى عصر العلم ، محمد احمد الفسراوى ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٩

(٢) النسل : ٨٨ ، (٣) ابراهيم : ٤٨

بنفسها ربي نسفا" (١) ، وهبت الجبال بسا فكانت هباء منبثا" (٢) . كذلك شبه الله هذه الحركة بمر السحاب ، والسحاب لا يتحرك بذاته بل بواسطة الرياح ، فكان الله يقول لنا : لممت حركة الجبال ذاتية كحركة الريح ، فهي لا تتحرك بذاتها أى لا تتحرك من مكان على الأرض الى آخره ، ولكنها تتحرك بحركة الأرض. (٣)

والنظريات العلمية بشأن أصل الكون تقول بأنه كان متصل الأجزاء ثم انفصل بعد ذلك ، والقرآن الكريم يسبق هذا القول بقرون عديدة من الزمن ، وبالتالى فان ما جاء به القرآن أتم وأوفى . وما زال العلم قاصرا عن بلوغ ما وصل اليه القرآن الكريم . يوضح ذلك قول الآية الكريمة من سورة الأنبياء : " أو لم يمسر الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ" حتى أفلا يؤمنون" (٤) .

فالعلم الحديث يوضح أن هذا الكون كان متصل الأجزاء ، ثم انفصل بقدرة الله ، وكل المجموعة الشمسية بما فيها الأرض ، ويستدل على هذا ، بأن العناصر التى تتكون منها المجموعة الشمسية هي العناصر نفسها تقريبا . (٥) والمعنى اللغوى للرتق والفتق تفيد هذا المفهوم قديما وحد يثسا ، والذى اختلف بعد ذلك هو طريقة التعبير عن المعنى . وان هذا الإدراك - لمعاني القرآن الكريم يقودنا الى الايمان الصحيح ، ويخدم الدعوة الى الله سبحانه وتعالى .

وأشئلة أخرى تتعلق بالرياح والسحب، نجد من خلال آيات القرآن الكريم علما دقيقا نستخلصه من خلال تلك الايات على ضوء الفهم العلمى الصحيح .

-
- (١) طه : ١٠٥ ، (٢) الواقعة : ٥ - ٦
 (٣) تراجع في ذلك كتاب: الله والعلم الحديث، ص ٤٥ - ٤٦ ،
 وجريدة الرياض عدد ٤٣١١ لعام ١٣٩٩ هـ من مقال للشيخ الشمرانى
 (٤) الأنبياء : ٣٠
 (٥) ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم ، ابراهيم حسن النصيرات ،
 (٤٠١ هـ ، ط ٢ ، ص ٢٨ ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ،
 ينقل عن كتاب الايمان لعبد السلام المبارك ، ص ١٠

يقول تعالى : " وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين " (١) .

فسرت هذه الآية في ضوء العلم الحديث ، على أن الرياح لواقح للنبات ، بعد ما ثبت أن الهواء من أهم وسائل تلقيح النباتات ، بل إن هناك قسما كبيرا من النباتات لا يتم تلقيحه الا بالهواء ، وكثيرا ما شوهد في جو غامسات المنهر أثناء نضج أزهارها غيم كأنه عاصفة رملية ، وما هذا الغيم الا حبوب اللقاح يحملها الهواء الى حيث يتم اخشاب النبات ... ويمكن أن يكون للآية تفسير آخر ، ان لم يرد فيها ذكر النبات أو الأرض ، أو ما يدل على قصر هذه الآية على تلقيح النباتات . قرر العلم الحديث أن الرياح انما هي لواقح للسحب التي يتم بها نزول الماء من السماء .

والآيات التي تشير الى تلازم السحب والمطر والرياح وردت في أكثر من سورة بما يؤكد صحة هذا التفسير .

يقول تعالى : " وهو الذي يرسل الرياح بشري بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقاه ليلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون " (٢)

وقال تعالى : " ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته " (٣)

وقال تعالى : " وهو الذي أرسل الرياح بشري بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا " (٤)

وقال تعالى : " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقاه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور " (٥)

- | | |
|----------------|--------------------|
| (١) الحجر : ٢٢ | ، (٢) الاعراف : ٥٧ |
| (٣) الروم : ٤٦ | ، (٤) الفرقان : ٤٨ |
| (٥) فاطر : ٩ | |

وما ورد عن القمر وظلامه نتلو هذه الآية الكريمة :
 " وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار
 مهجرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه
 تفصيلا " (١) .

لقد توصل العلم الحديث الى أن القمر جرم مظلم يستمد نوره من الشمس،
 وليس منيرا بذاته . يقول عبد الحميد بن باديس في تفسيره : " المحو هو
 الازالة ، ازالة الكتابة من اللوح ، وازالة الآثار من الديار . فمحو آية الليل
 ازالة الضوء منها . وهذا يقتضى أنه كان فيها ضوء ثم أزيل . فتفيد الآية
 أن القمر كان مضيئا ثم أزيل ضوءه فعار مظلماً " . وقد تقررت في علم
 الهيئة أن القمر مظلم يأتيه نوره من الشمس ، واتفق علماء الفلك في العصر
 الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر - كالأرض - كان منذ
 أحقاب طويلة وملايين السنين ، شديد الحمو والحرارة ، ثم برد ، فكانت
 اضاءته في أزمان حموه ، وزالت لما برد " (٢) . وقد هبط الانسان في العصر
 الحديث على سطح القمر وتجول فوقه في عام ١٩٦٩م وصنع مراكب الفضاء
 يتجول بها بين حين وآخر في الفضاء المرهق ليزيد في معارفنا عن هذا
 الكون المرهق .

ويقول تعالى : " هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل
 لتعلموا عدد السنين والحساب " (٣)

وهذا يناسب ما جاء في الآية السابقة ويؤكد صحة التفسير الملقى لها ،
 فالشمس مضيئة بذاتها ، والقمر ينير نتيجة انعكاس نور الشمس عليه ، فهى
 لا يضىء بذاته . وعلى ذلك فالقمر كوكب مظلم ، ويضىء بواسطة انعكاس نور
 الشمس عليه فهى سراجة وهو أقرب الأجرام الساوية الى الأرض .

-
- (١) الاسراء : ١٢
 (٢) المسلمون وعلم الفلك ، مرجع سابق ، ص ٢٧-٢٨
 (٣) يونس : ٥

ان دراسة الفلك تتيح لنا مجالات حيوية من العلم والمعلومات التي تفيدنا في حياتنا التي نحياها وفي تقوية عقيدتنا وایماننا بالله وتفيدنا في دعم قضايا الدعوة الاسلامية على أسس علمية سليمة كما تقتضيها ظروف الحياة المعاصرة وطبيعة التفكير القائم على الأسس العلمي .

اننا متخلفون في علوم كثيرة ، وانسحب هذا التخلف على جوانب كثيرة من حياتنا بحيث أصبحنا في الطرف الآخر من سرح الحضارة ، في الوقت الذي دانا القرآن الكريم فيه الى العداة والقيادة لتوجيه العالم الوجهة الصحيحة نحو الله ، ستمينون بالایمان أولا وبالعلم ثانيا على اعداد القوة والبناء السلم لمختلف قضايا الحياة وأمورها . ولو تركنا هذا المجال العلمي للغرب والشرق يحثون ويستثمرون فانهم بذلك يزدادون قوة ويزدادون ضعفا .

الرياضيات

والرياضيات من جملة العلوم الكثيرة التي اهتم بها المسلمون ، وجاء الاهتمام بها ضمن الاهتمام العام للعلوم جميعها ، والذي دفعهم الى هذا الاهتمام هو الاحساس بالدور الحضارى الذى رسمه القرآن لهذه الأمة ، ولا بد ان من تناول هذه العلوم لرسم معالم هذه الحضارة الى جانب الاسس التي رسمها الاسلام والقواعد التي تبنى عليها الأمم في تقدمها الصحيح في الحياة ، كذلك فان الحاجة العملية دفعتهم الى السعي لتحصيل هذه العلوم ومنها الرياضيات . فهذه الدولة الاسلامية المتقدمة الأطراف تحتاج الى ضبط أمورها من معاملات تجارية وصدقات ورواتب وجزية وموارث ، وذلك اندفعوا لأخذ ما لدى غيرهم من الأمم من علوم ومعارف دون عوائق ، ولا شك أن موقف الدين الاسلامي من العلوم هو الأساس في ذلك ، وفي هذا يقول "فرانس روزنتال" :

" ليس يكنى الدافع النفسى العظمى ، أو النظرى ليعمل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية ، بل لابد من فهم موقف الدين الاسلامي ذاته من العلم . . وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب ، بل للحياة الانسانية في جميع جوانبها ، وموقف الاسلام هذا هو الدافع الأكبر في السعي وراء العلوم ، وفي فتح الأبواب للوصول الى المعارف الانسانية ، ولولا لانحصرت الترجمة في أشياء ضرورية للحياة العملية وحدها " (١) .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة توضح العناية بالحساب ، وأن الحوادث تجري بحساب ومقادير محسوبة ومقدرة .

(١) استمرار علوم الاغريق القداماء في الاسلام / فرانس روزنتال / نقل عن "محاضرات في تاريخ العلوم" للدكتور فؤاد سزكين / الرياض

قال تعالى : " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا " (١) .

" هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون " (٢)

وقوله تعالى : " والله يقدر الليل والنهار " (٣) .

وقوله تعالى : " الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار " (٤) .

" وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم " (٥) .

وقوله تعالى : " وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وانما على نهاب به لقادرون " (٦) .

وبفهم من هذه الآيات وما شابهها أن القدر هو تقدير الله لحوادث المخلوقات أى لخلقها وحياتها وأعمالها وفقا لحساب مقدر ولكميات محسوبة ثم يأتي تنفيذ ذلك وفقا لحسابه وتقديره وهو القضاء " (٧) .

وهناك آيات أخرى يأتي فيها ذكر الاحصاء والوزن والعدد نذكر منها قوله تعالى : " ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عطاوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا " (٨) .

(١) الاسراء : ١٧ .

(٢) يونس : ٥ .

(٣) الزمّل : ٢٠ .

(٤) الرعد : ٨ .

(٥) الحجر : ٢١ .

(٦) المؤمنون : ١٨ .

(٧) الاسلام والفكر العلمى / مرجع سابق / ص ٣١ .

(٨) الكهف : ٤٩ .

- وقوله تعالى : " لقد أحصاهم وعدهم عدا " (١) .
- وقوله تعالى : " انا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى امام مبين " (٢) .
- وقوله تعالى : " والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون " (٣) .
- وقوله تعالى : " فالق الاصبح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم " (٤) .
- وقوله تعالى : " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم " (٥) .
- وقوله تعالى : " وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون " (٦) .
- والله وصف نفسه بأنه سريع الحساب وأسرع الحاسبين حيث يقول :
 " أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب " (٧) .
- وقوله تعالى : " ثم ردا الى الله مولا هم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين " (٨) .
- كذلك وردت آيات فى القرآن الكريم فيها ذكر الاعداد البسيطة والمركبة والكسور والتناسب ووحدات القياس ، منها قوله تعالى : " واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا " (٩) .

(١)	مریم	: ٩٤	.
(٢)	يس	: ١٢	.
(٣)	الحجر	: ١٩	.
(٤)	الأنعام	: ٩٦	.
(٥)	النحل	: ٤٧	.
(٦)	الحج	: ٤٧	.
(٧)	البقرة	: ٢٠٢	.
(٨)	الأنعام	: ٦٢	.
(٩)	الاعراف	: ١٠٥	.

- وقوله تعالى : " ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا " (١) .
- وقوله تعالى : " ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " (٢) .
- وقوله تعالى : " يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . . . " (٣) .
- وقوله تعالى : " ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين " (٤) .
- وقوله تعالى : " ثم في سلسلة زرعها سبعون ذراعا فاسلكوه " (٥) .

هذه الآيات ونحوها لا بد أنها نهت الأذهان الى أهمية الحساب والاحصاء والكميات وغيرها ، وأن هذا الكون الشهود يسير على سنن ثابتة لا تتحول ، وأن العلوم الرياضية تخدم الانسان في حياته العملية ، فانطلق هذا العلم بمختلف فروعه يبحثون فيه ويطلعون على ما عند الأمم الأخرى ، كالليونان والهند وغيرهم من الأمم ذات الحضارات السابقة ، وزادوا عليها الكثير من أبحاثهم واختراعاتهم مما يشهد للمسلمين بعبقريّة عظيمة في مجال العلوم الرياضية .

ولاشك أيضا أن الحاجة العملية للحساب والهندسة والثلثات وغيرها دفعتهم الى البحث فيها ، فهذه الدولة الاسلامية المترامية الأطراف تحتاج الى ضبط أمورها من معاملات تجارية وصدقات ورواتب وغيرها ، كذلك كان معهم لايجاد الطرق السليمة لتعليم الرياضيات الى الطلاب ما أوجد

-
- (١) الكهف : ٢٥ .
 (٢) العنكبوت : ١٤ .
 (٣) النساء : ١١ .
 (٤) الانفال : ٦٥ .
 (٥) العاقبة : ٣٢ .

عند هم الطرق الميسرة الصالحة للتعليم ، وكانت امثلتهم من واقع الناس وحياتهم واحتياجاتهم . وفي ذلك يقول قدرى طوقان :

" وكان العرب يكثرون من الأمثلة والتمارين في مؤلفاتهم ويأتون بمسائل عملية تتناول ما يقتضيه العصر ، ويدور على المعاملات التجارية والصدقات واجراء الغنائم والرواتب على الجيوش ، كما تتطرق الى البريد وسيره واللحاق به الى طرق البيع والشراء .

وهذه ميزة امتازت بها المؤلفات العربية القديمة ، فلقد كان رياضيو العرب يفضلون المسائل العملية التي تتعلق بحاجات العصر ومقتضياته .

وهذا لو يتبع المؤلفون بعض الطرق التي كان يسير عليها العرب في وضع المسائل الرياضية ، ففي ذلك ما يعود على الطلاب بأكبر الفوائد ، مما يجعلهم يدركون أهمية العلوم الرياضية عموما في نواحي الحياة المختلفة ، واتصالها الوثيق بحياة الانسان المادية * (١) .

والحقيقة أن المؤلفات العلمية لدى العرب تزد وكثيرة جدا ، ولم تستوف حقا في البحث حتى الآن ، ونسأل الله أن يسوق لها من يكشف عنها ويرزها حتى تكتمل الصورة العلمية في تاريخنا لتكون لنا حافزا من الحوافز التي تدفعنا الى التقدم العلمي .

ولو نظرنا الى اندفاعهم الكبير لترجمة الكتب لتبين لنا أنهم اهتموا أولا بترجمة الكتب العلمية بعد أن أحرزوا الشيء الكثير منها استكملوا الترجمة بالكتب النظرية والفلسفية الاخرى .

وفي ذلك يقول الدكتور عمر فروخ : * قصد العرب ترجمة الكتب

(١) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك / قدرى طوقان / ص ٥٧-٥٨ / دار الشروق .

العلمية أولاً قصدا كالرياضيات والفلك والطب ومعدّها نقلوا كتب الفلسفة ليتمموا أداها رسالتهم الثقافية * (١) .

ولقد كانوا في كل ذلك متمسكين بمعقيد تهيم وبإيمانهم العميق ، ولم يتجهوا إلى ترجمة كتب اليونان مثلا التي يكثر فيها ذكر آلهتهم وخاصة في مجال الأعمال المسرحية .

تطور الرياضيات في العهد الاسلامي :

ونذكر طرفا من ابداع المسلمين في مجال العلوم الرياضية من حساب (علم العدد) وجبر وهندسة ومثلثات (علم الانساب) .

ففي الحساب كان العرب يستخدمون العدد والحساب في أمورهم العملية من البيع والشراء وتقسيم الغنائم والموارث وقياس الأراضى والكميل والوزن وما إلى ذلك .

وقد عرف العرب تدوين الاعداد بواسطة الحروف أو بحساب الجمل (٢) الذي اقتبسوه من الأمم السامية التي كانت تحيط بهم والتي فتحها المسلمون .

ومعد ذلك اكتشف المسلمون الارقام الهندية والصفير وهذبوها وجعلوها الصفير الا على الجزء الخالي في العدد ، وبذلك يكونون قد ابتكروا الخانات ، وظهر ذلك في مؤلفاتهم لأول مرة سنة ٢٧٤ هـ قبل أن تظهر في الكتب الهندية (٣) ، ومن ثم ظهرت في الغرب منقولة عن الكتب العربية وكذلك اقتبسها الهنود مهذبة ومستعملة بالشكل الذي نراه اليوم .

(١) تاريخ العلم عند العرب / د. عمر فروخ / دار العلم للملايين ١٩٧٠ م

(٢) حساب الجمل : أي الحساب بالحروف فكان لكل رقم حرف يدل عليه أ : ١ ، ب : ٢ إلى آخره . انظر تراث العرب العلمي لقسدي طوفان ، وتاريخ العلم للدكتور عبد الحليم منتصر ، وتاريخ العلم عند العرب للدكتور عمر فروخ .

(٣) تاريخ العلم عند العرب / الدكتور عمر فروخ / دار العلم للملايين ١٩٧٠ م

ولاشك أن باستخدام الأرقام هذه والصفحة تم التقدم في علم الحساب ما ساهم في حل الكثير من المسائل الحسابية وتدوين الكسور العادسية والعشرية هنا المعادلات .

ونقل هنا ما جاء في كتاب " تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقدمه " : " وتمتاز الأرقام العربية أو الهندية بأنه يمكن تركيب أي عدد منها مهما كان كبيرا ، أما الأرقام الرومانية فتحتاج إلى أشكال عديدة ، كما أن الأرقام العربية تقوم على النظام العشري والقيمة الوضعية للرقم بحسب موضعه في الآحاد أو العشرات .

ومن مزايا هذا الترقيم تسهيل جميع أعمال الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة ، بدلا من العطيات الطويلة العويصة ، التي كانت تحتاج إليها هذه العطيات ، وكذلك كان استعمالهم للصفر ميزة كبرى وابتكر العرب علامة الكسر العشري ، وتنسب إلى العالم الرياضي " فيث الدين جنسيد الكاشي " (١) .

ولقد أبدع المسلمون في مجال الرياضيات في نواح متعددة كعلم الجبر والمثلثات بشكل خاص ، حيث لم يصبح علم الجبر علما متميزا حتى اشتغل به العرب ، والخوارزمي ذلك العالم المسلم هو واضح هذا العلم في كتابه " الجبر والمقابلة " ، ويقول في ذلك الدكتور مشرفه : " انه يميل إلى الظن بأنه لم يكن قبل الخوارزمي من علم يسمى علم الجبر " .

وتجلى عبقرية الخوارزمي في أنه خلق علما من معلومات مشتتة وغير متماسكة كما خلق نيوتن علم الديناميكا من معلومات مشتتة عرف بعضها قبله " (٢) .

(١) تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقدمه / الدكتور عبد الحلیم منتصر مرجع سابق ص ٩٣ .

(٢) تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقدمه ، ص ٩٥ .

أما في المثلثات فان ذلك العلم يعتبر علما عربيا كما هو الحال بالنسبة للجبر ، " ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر في الاختراع والاكتشاف ، وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية " (١) .

ويبدو أن علم المثلثات كان متقدما شوطا أطول عند الهنود ما تقدم به اليونان وقد أخذ علماءنا من الطرفين ثم جعلوا منه علما خاصا مستقلا عن علم الفلك .

وقد اشتهر في هذا العلم بعض العلماء أشهرهم نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ) وأبو عبد الله محمد بن جابر البتاني (ت ٣١٧ هـ) وأبو الوفاء البوزجاني ، والبهروني والخازن وجابر بن الأفلح والتبريزي وغيرهم .

وقد جاء في محاضرة الدكتور فؤاد سزكين في هذا المجال قوله : " لأول مرة يظهر لدى المسلمين منذ أواسط القرن الثالث تعبير " جيب الزاوية " بدل من " جيب الضلعين " وكان هذا هداً جديداً في تطور حساب المثلثات ، وقد وصل هذا التطور المستمر في القرن السابع من الهجرة الى نهايته العظمى حينما أسس نصير الدين الطوسي علم المثلثات كعلم مستقل .

ولقد تبين نتيجة للدراسات التي تمت في السنوات الأخيرة أن علم حساب المثلثات كان يحتوي تقريبا سائر دقائق هذا العلم المعروفة في القرون الحديث .

ولقد حاول الفلكيون العرب منذ أواسط القرن الثالث أن يجدوا مناهج تسهل لهم حساب المسافات بين الأمكنة على كرة الأرض بعد ما تبين لهم أن

(١) تراث العرب العلي / قدرى طوقان / مرجع سابق ص ١٠١

طريقة الاغريق في حساب هذه المسافات تقتضى صرف وقت طويل ومشقة كبيرة .

• وأن أول خطوة راقية في هذا الضمار بدأت عند ثابت بن قره .

وأن التطور المستمر أدى في أواخر القرن الرابع الهجرى الى معرفة اضلاع المثلث الكروى وحساباته التى تختلف عن المثلثات المستوية ونتيجة لذلك تأسس علم المثلثات الكروية .

وينبغى علينا أن نصرح لمنع أى التباس بأن الاغريق كانت لديهم معرفة بالهندسة الكروية ، ولكنهم لم يعرفوا المثلثات الكروية (١) .

أما فى الهندسة فقد برع بها اليونان أكثر من غيرهم ، وجاء العرب فاهتموا بالناحية العملية من الهندسة أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية . تشهد بذلك المباني والقصور التى نهضت بالشرق والمغرب .

وسخر العرب - ولا سيما ابن الهيثم - الهندسة بنوعيهما : المستوية والمجسمة ، فى بحوث الضوء ، وتعيين نقطة الانعكاس فى أحوال المرايا الكرية ، والاسطوانية ، والمخروطية ، المحدبة منها والمقعرة . وابتكروا لذلك الحلول العامة ، وبلغوا فيها الذروة .

فلقد استغل ابن الهيثم الهندسة الى أبعد الحدود فى حلول كثير من القضايا المعقدة المتعلقة بالضوء ، وتناول دراسة وتعيين نقطــــة الانعكاس على أساس منطوق سليم ، فعنى أولاً بوضع بضع عمليات هندسية ، هى فى ذاتها على جانب من الصعوبة والتعقيد ، ذكرها حين كيفية اجرائها ووضع لها البراهين المضبوطة ، وذلك كله على أساس هندسى صحيح ، ثم

(١) محاضرات فى تاريخ العلوم / دكتور فؤاد سزكين / الرياض ١٣٩٩ هـ

اتخذ هذه العمليات الهندسية مقدمات الى الحلول التي أرادها لتعيين نقطة أو نقاط الانعكاس .

ولم يقف عند هذه الحدود ، بل ساق لتلك الحلول براهينها الهندسية * (١) .

ويضيف قدرى طوقان تعليقا على ذلك بقوله : * ما كان لابن الهيثم أن يبتكر في علم الضوء ، ولا أن يوفق في شرح بعض طرقه وعملياته ونظرياته ، لولا استعانته بالهندسة وتطبيقها في مسائل الضوء ، مما جعل لبحوث ابن الهيثم قيمة عملية وعلمية كانت ولا تزال محل تقدير الباحثين والعلماء في الشرق والغرب على السواء * (٢) .

وقد ذكر العلماء المسلمون فوائد الهندسة فقالوا : ان الهندسة على نوعين : عقلية وحسية .

فالحسية هي معرفة المقادير وما يعرض فيها من المعاني اذا أضيف بعضها الى بعض ، وهي ما يرى بالهصر ويدرك باللمس ، والعقلية بخد ذلك ، وهي ما يعرف ويفهم .

والنظر في الهندسة الحسية يؤدي الى حذق في الصنائع كلها وخاصة في المساحة ، وهي صناعة يحتاج اليها العمال والكتاب والد هاقين وأصحاب الضياع والعقارات في معاملاتهم في جباية الخراج وحفر الأنهار وعمل البريد وما شاكلها (٣) .

والخلاصة أن علماء المسلمين قد خاضوا في فروع الرياضيات ونقلوا ما عند غيرهم من الأمم وأضافوا عليها من عند هم ، وأبدعوا خاصة في علم الجبر وعلم

(١) تراث العرب العلي / مرجع سابق ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٠ .

المثلثات اللذين يعتبران علمين عربيين .

ولقد كانوا يستعملون بقوانين الحساب ومبادئه في حل مسائل العلوم الطبيعية والمثلثات والفلك ، ويرون أنه لولا ذلك لما أمكن الاستفادة من هذه العلوم التي مرت والتوسع فيها .

ومع مرور الزمن استخدما الحساب التفاضلي وجداول المنحنيات في القياسات الفلكية .

واشتهر علماء الرياضيات العرب عدا الخوارزمي ، أبو كامل ، قسطا بن لوقا ، وسان بن أبي الفتح ، وابن البناء ، والقلصادي ، وسهاء الدين العاملني .

وحل العرب معادلات من الدرجة الثالثة . . . وثبت أن ثابت بن قسرة أعطى حلولا هندسية لبعض المعادلات التكعيبية ، وكذلك الخازن والخيام ، وابن الهيثم ، والكوهي .

وحلوا بعض أوضاع المعادلات ذات الدرجة الرابعة ، واستخدموا الهندسة لحل بعض الاعمال الجبرية ، وذلك وضعوا أسس الهندسة التحليلية ، كما مهدوا لعلم التكامل والتفاضل .

وبحث العرب في نظرية ذات الحدين . وعنوا بالجذور الصماء وقطعوا في ذلك شوطا ، وكان الخوارزمي أول من استعمل كلمة أصم لتدل على العدد الذي لا جذر له . ووجدوا طرقا لإيجاد القيم التقريبية للأعداد والكميات التي لا يمكن استخراج جذرها ، كما مهد ابن يونس وابن حمزة لاكتشاف اللوغاريتمات التي شاع استعمالها بعد ذلك عن طريق " نابير " و " بروجز " .
فقد عرضوا فكرة تسهيل الأعمال التي تحتوى على الضرب والقسمة ، واستعمل الجمع والطرح بدلا منها . وعرفوا المتواليات العددية والهندسية ، كما مهد ثابت بن قرة لحساب التكامل والتفاضل (١) .

(١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، مرجع سابق ص ٩٧

دور الرياضيات في الحياة المعاصرة :

وفي العصر الحاضر ازدادت أهمية الرياضيات ازديادا كبيرا ، فهى تدخل فى جميع المجالات وتستعين بها كافة العلوم ، وأصبحت تستعمل فى جميع العلوم كوسيلة للتفكير وذريعة للتقريب والتحليل .

وما من مرفق من مرفق الحياة الا وتدخل فيه الرياضيات .

وقد جاء فى مقال الدكتور "عبد الكريم اليانى" قوله : " الرياضيات ضرب من ضروب البيان وهى فى ذلك مثل اللغة والكلام ، واذا ساغت اللغسة للتعابير الفنية والأدبية والفلسفية ، فان الأرقام تسوغ للتعابير العلمية والتحليل الدقيق المضبوط " (١) .

" ان الرياضيات المفتاح السحرى الذى نفتح به خزائن المادة والطاقة وكنوز الأرض والفضاء وهى فى كل ذلك تهيم الباحث الاجتماعى " .

ويوضح بعد ذلك علاقة الرياضيات بالحضارات مستشهدا برأى الفيلسوف الألمانى اشينغلر فى الفصل الذى عقده عن معنى الأرقام .

يقول : " كل حضارة تتضمن طرازا من الرياضيات معينها ، لأن الرياضيات أولا عند ذلك المفكر علم ذو منهج دقيق كالمنطق ولكنها أوسع نطاقا منسـه وأكثر خصبا ، ولأن الرياضيات ثانيا عند من صرف يجمعها الى جانب الفنون التشكيلية والموسيقى وذلك بالنظر الى حاجتها للإلهام الموجه والاصطلاحات الشكلية التى يتضمنها نموها ، ولأن الرياضيات ثالثا وأخيرا فلسفة وميتافيزيقا عالية كما أوضح أفلاطون قد يما وكما أوضح "سبيتر" .

(١) المجلس الاعلى للعلوم ١٩٦١م الاسبوع الثانى / من مقال الرياضيات وعلم الاجتماع للدكتور عبد الكريم اليانى ص ٤٨ .

ولهذا كله يبرز اشينغلي المعاني المختلفة التي يجدها للرياضيات في الحضارات المتفرقة المختلفة ويقرن أوج تكاملها بأوج تكامل بعض الفنون في تلك الحضارات ، وهذا مدعاة للرياضي الى التأمل والتفكير والاستفادة (١) .

ومن خلال الآيات الكريمة التي مرت في هذا البحث نلاحظ العناية بالأعداد والأرقام ومدى أهميتها الكبرى في معرفة الكون والحياة والانسان ، وفي دفع الانسان ، من طريق هذه الأرقام والاعداد ، الى استخدام طاقاته كلها في البناء والعمران ، تجميلاً للوجود ، وتنمية للحياة ،

ونختتم هذا الموضوع بعبارة من كتاب " معالم الشريعة الاسلامية " للدكتور صبحي الصالح حيث يقول في أهمية الاعداد والحساب : " ولئن أحاط الاسلام ، من طريق الايمان ، تلك الاعداد والارقام والموازن والمقادير بهذه الأهمية البالغة ، فقد أعد المسلمين بذلك الى علمية النظرة من ناحية ، والى تعزيز حضارة الانسان من ناحية ثانية ، وكأنه بهذا الاعداد المزوج يضع تحت أهبصار المؤمنين وفي متناول حواسهم منذ أربعة عشر قرناً نماذج من الانجازات التقنية التي ما كان للانسان أن يصل اليها لولا استخدام الأرقام والأعداد ، ولولا معرفة أصول الحساب .

ووصل الانسان الى قمة النجاح لما اخترع الآلات الحاسبة الالكترونية ، لا لتساعده في الأعمال الحسابية الروتينية المتراكمة فحسب ، بل لتمتد الى كل الميادين : في السلم والحرب ، وفي الادارة ، والصناعة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وما كان لشيء من ذلك يتم لولا العناية بالأرقام والاعداد والحساب " (٢) .

(١) المجلس الاعلى للعلوم ١٩٦١م الاسبوع الثاني / من مقال الرياضيات وعلم الاجتماع للدكتور عبد الكريم الباني ص ٥٣ ، ص ٥٥-٥٦ .
 (٢) معالم الشريعة الاسلامية / الدكتور صبحي الصالح / دار العلم للملايين ج ٢ / ١٩٧٨ م ص ٢٥٧-٢٥٨ .

الطب والصيدلة

يعزو كثير من الباحثين ان سبب الاهتمام بالامور العلمية في الدولة الاسلامية نشأ في القرن الثاني أو الثالث ، بعد اطلاعهم على حضارات الأمم المجاورة ، ومعرفة مدى تقدمهم العلمي . والحقيقة أن الدافع الذي جعلهم يسمعون وراء العلم بجميع فروعها ، ليس على ما يذكرون من أنه نتيجة الاحتكاك مع الأمم الأخرى ، وكنتيجة طبيعية للدور الحضارى الذى لعبه العرب في تلك الفترة من التاريخ . ولكن الحقيقة تكمن في الدافع الأصيل والعميق الذى يمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

لقد جاء الدافع العلمى اذن من العقيدة التى امتلكت النفوس وهىأتها للتوثب الحضارى العظيم الذى شهدناه فيما بعد .

ولقد كان التفتح لهذه العلوم منذ القرن الأول ، وليس في القرن الثانى والثالث ، هداً اهتمامهم بالعلوم حسب الأهمية ، لذا نشطوا في علوم القرآن من تفسيره بيان الناسخ من المنسوخ وأسباب النزول ، وكذلك الحديث الشريف من جمع وترتيب وتدوين وتهذيب ، ونشأ الفقه بمناهجه العظيمة ، وامتد العلم الى فروع اللغة العربية من أدب وشعر ونحو وصرف الى آخر ذلك خدمة للدين ولغة القرآن .

وكان نصيب علم الطب مبكراً في الأخذ أيضاً ، نظراً للحاجة العظيمة لأموال الطب ومدى فائدتها للناس ، خاصة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد طالب المسلمين بالبحث والتقصى عن العلاج ، لأنه ما من داء خلقه الله إلا وخلق له الدواء سوى الهرم ، وكذلك اشارته الى علاج بعض الأمراض .

كل ذلك جعل الاهتمام بالطب مبكراً ، وامتد الى عصور الاسلام الزاهرة بحيث أصبح الطب الاسلامى من أعظمها خلفته الحضارة الاسلامية ، وأثر أكبر

الأثر على الأمم الأخرى وخاصة أوروبا وحضارتها الحديثة .

” ان العرب أعد تهم علومهم الخاصة بهم ، وضهجهم فيها وتقد مههم
فى أصولها وفروعها الى استقبال العلوم التى لم يكن لهم بها عهد ، والتى
تقوم فى جوهرها على تفكير قريب جدا من تفكيرهم .

ومن هنا كان النجاح الذى احرزته الفلسفة والطب والعلوم اليونانية لدى
العرب . وليس صحيحا أنهم تعلموا هذا النوع من التفكير بعد أن عرفوا
الحضارة الاغريقية ، بل الصحيح أنهم عرفوا هذه الحضارة لتوافقها مسج
تفكيرهم حينذاك ” (١) .

ورد فى القرآن الكريم آيات كثيرة مهمة فى باب الطب وفى مجال الوقاية
من الأمراض والاستشفاء بالمسح و عدم الاسراف فى الأكل وطلب الوضوء قبل كل
صلاة ، اضافة الى بعض المحرمات كالخمر ولحم الخنزير والميتة والدم والمنخنقة
والموفودة ، وصفة عامة تحريم الخبائث والفواحش . يستشف من هــــــــ
المطالب أن الصحة مطلب قرآنى وعلى المسلم المحافظة عليها .

وفى العصر الحديث تكشفت أمور علمية وردت فى القرآن فى مجال الطب
تخدم قضية الايمان بالله والدعوة الاسلامية ، فما يتعلق مثلا بالجنين وكيفية
تخلقه ومراحل نموه كلها آيات باهرات فى مجال الطب الحديث ، كذلك
قضية صعوبة التنفس وضيق الصدر اذا ارتفع الانسان فى طبقات الجو العليا
والتى أثبتتها العلم الحديث ، والبصمة التى تختلف من شخص لآخر رغم تسوع
البشر وكثرتهم . كل هذا وغيره يثبت صدق الدعوة وصدق نبي الاسلام عليه
السلام ويشكل دافعا لمواصلة الدراسات الطبية الحديثة .

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، اشراف الدكتور محمد
كامل حسين / ص ٢٠ .

ان هذه الآيات الباهرات تقف شامخة على مدى الزمن تتحدى باعجازها كل العصور ، ولا شك أنها أثرت في التفكير الاسلامي بحيث حولته - مع غيرها - من الآيات - الى تفكير علمي منظم .

أما ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديث ، وما أشر عنه من ممارسة في مجال أمور الطب ، يشهد بمدى الاهتمام بالطب ، مما لا يدع أدنى شك بأن التقدم الطبي في العصور اللاحقة كان بناءً على التصور الاسلامي العميق لهذه القضايا .

لقد جاء الأمر صريحاً بالتداوي على لسان النبي الكريم في أحاديث رويت عنه منها :

عن أسامة بن شريك قال : جاء أعرابي فقال : يا رسول الله ، أنتداوي ؟ قال : نعم ، فان الله لم ينزل داءً الا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه وجهله من جهله * (١) .

وفي لفظ ، قالت الأعراب : يا رسول الله ، ألا نتداوي ؟ قال : نعم ، عباد الله تداووا ، فان الله لم يضع داءً الا وضع له شفاءً أو دواءً ، الا داءً واحداً قالوا : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : * الهرم * (٢) .

وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : * لكل داء دواء ، فان أصيب دواء الداء برى باذن الله * (٣) .

وعن ابي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : * ما أنزل الله داءً الا أنزل له شفاءً * (٤) .

-
- (١) رواه أحمد / من كتاب المنتقى من أخبار المصطفى لابن تيمية / ج٢ / دار الفكر / باب اباحة التداوي وتركه .
 (٢) رواه ابن ماجه وأبو داود والترمذي . وصححه .
 (٣) رواه أحمد وسلم .
 (٤) رواه البخاري وأحمد وابن ماجه .

وفى السند وسنن الترمذى عن أبى خزيمة قال : قلت يا رسول الله ، أرأيت رقى نسترقمها ، ودواء نتداوى به ، وثقاة ننتقمها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : " هي من قدر الله " (١) .

ولم يقتصر الأمر فى هذه الأحاديث على الأمراض التى أشار فى أحاديث أخرى كثيرة إلى بعض الأمراض ، " كالصداع والشقيقة والربو والجذام والحصى واستطلاق البطن وذات الجنب (التهاب الرئة) والطاعون والسحمة الحية والمقرب ، وفيها إشارات للدواوة بالعسل شرابا ، هالكي واحتجام من الشقيقة ، ووصف ألبان الأبل ، وإشارة إلى الاثد وما الكاه للرمم واستعمال الحبة السوداء خمس أو سبع منها تسحق ثم تقطر فى أنف المريض مع قطرات الزيت ، والعود الهندى معوطا لذات الرئة ، وإراقة الجسم بالماء البارد للحصى .

ويقول صاعد الأندلسى : " كانت العرب فى صدر الاسلام لا تعنى بشئ من العلم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتهها حاشا صناعة الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد من العرب ، غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس اليها ، ولما كان عند هم من الأشعر عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " يا عباد الله تدأوا ، فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له دواء ، الا واحدا وهو الهدم " (٢) .

ونسوق بعد ذلك حديثا وتعليق ابن القيم عليه لئلا نرى مدى ما وصل اليه الطب النبوى من العمق وصحة المنهج فى استعمال العلاج .

فى الصحيحين من حديث أبى المتوكل عن أبى سعيد الخدرى : " أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ان أخى يشتكى بطنه ، وفى رواية

(١) أخرجه أيضا ابن ماجه والحاكم فى صحيحه وقال الترمذى ، حسن صحيح .

(٢) تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه / د . عبد الحلیم منتصر /

استطلق بطنه ، فقال : اسقه عسلا . فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فلم يخن عنه شيئا . وفي لفظ فلم يزد الا استطلاقا . مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول له : اسقه عسلا ، فقال في الثالثة أو الرابعة : صدق الله وكذب بطن أخيك .

ويعلق على هذا ابن القيم في كتابه الطب النبوي بقوله : " وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع ، وهو : ان الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء " : ان قصر عنه لم يزل بالكلية ، وان جاوزه أوهن القوى ، فأحدث ضررا آخر . فلما أمره أن يسقيه العسل سقاء مقدارا لا يفسد بمقاومة الداء ، ولا يبلغ الغرض ، فلما أخبره أن الذي سقاء لا يبلغ مقسدا ر الحاجة ، فلما تكرر تردادها الى النبي صلى الله عليه وسلم أكد عليه المعاودة ليصل الى المقدار المقاوم للداء ، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الدواء برى بان الله . واعتبار مقدار الادوية وكيفياتها ، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب " (١) .

ومن جملة أحاديث الطب هذه نستخلص عدة فوائد منها :

أولا : الأمر بالتداوى ، وهو لا ينافي التوكل ، بل لا يتم حقيقة التوحيد الا بمباشرة الاسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا ، وأن تعطيلها يقدر في نفس التوكل ، كما يقدر في الأمر والحكمة (٢) .

ثانيا : مادام لكل داء دواء ، فان ذلك يبعث القوة في النفس والأمل من قبل الطبيب والمريض على السواء ، ان يجد المريض أملا في الشفاء مادام دأؤه له دواء . وكذلك بالنسبة للطبيب او العالم الباحث الذي

(١) الطب النبوي / ابن قيم الجوزية / دار الحكمة بيروت / باشراف عبدالغني

عبدالخالق / ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق / ص ١٠ .

يجد دافعاً في نفسه قوياً للبحث والتدقيق عن الدواء مادامت القناعة
راسخة في نفسه ان الله لم يخلق دواء الا وقد خلق له الدواء (١) .

ثالثاً : ان الاهتمام بالعلاج أو التدوي واجب ديني (٢) ، حيث يشكل
العلاج جزءاً من الوقاية ، وقد ربط الطب النبوي بين الصحة
والعبادة ، فكانت الصلاة والصوم والوضوء والرياضة وقواعد الغذاء
والشراب والنوم والراحة والعلاج والوقاية . وفي هذا حفظ لقوة الأمة
وصحتها لممارسة مهامها في الحياة وأداء رسالتها على أكمل وجه .

رابعاً : اهتم الطب النبوي بالجوانب العلاجية والوقائية والغذائية
والصحية والجوانب النفسية ان الانسان مركب من روح وجسد ، وقد
اهتمت رسالة الاسلام بالانسان ككل في نواحيه الروحية والجسدية ،
ومن هنا كان الاهتمام منصبا على الناحيتين في الطب النبوي .

وقد اهتم الطب الاسلامي بالعلاقة بين الأمراض النفسية والأمراض
المعضوية ، وقد اتضح هذه العلاقة بشكل واضح في العصر الحديث .

والحق يقال اننا مازلنا بحاجة الى تركيز الدراسة في الطب النبوي
واجراء التجارب والاختبار لتحقيق الاستفادة من هذا الطب العظيم ، هذا
وان كان التركيز على النواحي الوقائية في الطب النبوي أبرز منه في النواحي
العلاجية . وذلك أمر طبيعي ان الوقاية أهم بكثير من العلاج عند المرض ،
وتفادي المرض بطرق الوقاية منه أسهل وأحفظ للصحة .

اننا بحاجة لهذه الدراسة لبيان نواحي الاعجاز في هذا الطب ، مما
يستفاد منه اخيراً في مجال الدعوة واثبات صدق رسالة الاسلام وأنها من عند

(١) الطب النبوي / ابن قيم الجوزية / دار الحكمة بيروت / باشرف
عبد الغني عبد الخالق ص ١٢ .

(٢) في رحاب الطب النبوي ، د. نجيب الكيلاني ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ص ١١١

الله . والفرصة متاحة الآن بفضل تقدم العلم الكبير في المجال الطبي .

وإذا عرفنا كل ذلك أدركنا السر في التقدم الباهر الذي حققه المسلمون في مجال الطب ، حتى ان البعض اعتبره درة في جبين الحضارة الاسلامية . وهذا قول حق ، لأن من يطلع على تطور الطب عند المسلمين في العصور اللاحقة سيجد الشيء الكثير الذي أضافوه الى الطب من اكتشافات واختراعات وأدوات طبية وعلميات جراحية الى غير ذلك ، اضافة الى اطلاعهم على ما توصلت اليه الأمم السالفة .

تطور الطب عند العرب :

لقد عرف العرب قد يما نوعا من الطب ، وظهر بينهم أطباء أمثال ابن حزم والحارث بن كلدة والنضر بن الحارث ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحيل بعض المرضى الى الحارث بن كلدة لداواتهم عنده .

وفي زمن الدولة الأموية اشتهر بعض الأطباء ، وقد اتخذ معاوية ابن آثال طبيا له ، وكان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها ، واشتهر في العصر الأموي أطباء لهم مؤلفاتهم التي تدل على علمهم في الطب . والوليد بن عبد الملك أول من أنشأ الهممارستانات في الاسلام بدمشق عام ٨٨ هـ ، وذكر الطبري أن الخليفة المذكور أمر بحبس المجذومين كأول محجر في الاسلام .

يروى أكثر المؤلفين أن أول من أمر بالترجمة هو مروان بن الحكم (٦٤-٦٥) هـ ، فترجم ما سرجويه بأمره كتاب أهرن في الطب ، على أن نشر الكتاب المذكور تم في عهد عمر بن عبد العزيز ، وبد أن الطب كان متقدما في عهد خلافته (٩٩-١٠١) هـ .

وكانت محاولات الترجمة في العهد الأموي فردية تموت بموت الأفراد القائمين عليها وكانت مقصورة على العلوم العلمية كالطب وما شاكله (١) .

أما في العصر العباسي فقد تقدم الطب تقدماً كبيراً ، وقفز قفزة علمية قائمة على التجربة والبحث والاختبار ، ونقلوا علوم من سبقهم وأضافوا إليها من خبرتهم وتجاربهم وأبحاثهم ، وقد ظهر في هذا العصر كثرة من الأطباء ، وبدأ عصر الترجمة بشكل واسع ، وقد مرت الترجمة في هذا العصر بأدوار ثلاثة .

الأول من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد ، أي من عام (١٣٦-١٩٣) هـ . ومن نوابغ المترجمين في تلك الفترة أمثال يحيى بن البطريق وجورجيس بن يختشوع وعبد الله بن الحفص ويوحنا بن ماسويه وغيرهم .

والثاني منذ ولاية المأمون (١٩٨-٣٠٠) هـ . واشتهر من التراجمة قسطنطين بن لوقا البعلبكي وحنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين ، وعيسى ابن يحيى وثابت بن قره الحراني .

والدور الثالث من سنة ٣٠٠ هـ وينتهي في منتصف القرن الرابع الهجري . وفي أواخر هذا الدور بدأ عهد التأليف ، واشتهر منهم في الطب أربعة وهم : علي بن سهل الطبري صاحب كتاب فردوس الحكمة وحفظ الصحة ومنافع الأطعمة والأشربة . ومحمد بن زكريا الرازي صاحب كتاب الحاوي ، والمنصوري في التشريح ، ومحنة الطبيب ومنافع الأغذية .

وقد أجمع المستشرقون والمشتغلون بتاريخ الطب على أن الرازي أعظم طبيب أنجبت الأمة الإسلامية ، وقد تتلمذ على الطبري ، وله رسالة في الجدري والحصبة ، ومحمد الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة وأول من عمل

(١) العرب والطب / د أحمد شوكت الشطي / منشورات وزارة الثقافة

مراهم الزئبق ، وأول من أنشأ مقالات خاصة في أمراض الأطفال .

وعلى بن عباس المجوسى صاحب كتاب الطلى المعروف بكامل الصناعة ،
اشتمل على علم الطب ، وقد اشتهر شهرة كبيرة ومال الناس لدراسته حتى ظهر
كتاب القانون فى الطب لابن سينا وهو الكتاب الغنى عن التعريف (١) .

ولون هبنا نستقصى أسماء لامعة فى الطب لعددنا مئات الأطباء
المشهورين ، ويكفى هنا أن نختصر أهم المنجزات التى قاموا بها فى المجال
الطبي .

انهم أول من استخدم البنج فى الطب ، وأول من استخدم الكاويات فى
الجراحة على نحو استخدامها اليوم ، وأول من وصف علاج اليرقان وصب المساء
البارد لقطع النزيف ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة فى الكلية ، وأول من
كتب عن الجذام ، وأول من وصف الحصبة والجدرى ، وكذلك فحص بول المريض
وجس النخز كتحليل طبي وفحص عام . واكتشفوا الدورة الدموية الـصـفـرى
على يد ابن النفيس (٢) .

ومرغوا فى الجراحة وكان أشهرهم فى ذلك الزهراوى ، وهم أول من
استخدم الاوتار الجلدية فى تخييط الجروح بعد اجراء العمليات .

أما فى مجال طب الاسنان فقد برع به الأطباء المسلمون ، ووصلوا به الى
درجة عظيمة من التقدم ، بحيث لا يزال كثير من طب الاسنان كما كان عند
المسلمين ، مصماتهم عليه واضحة حتى الآن . وما أكثر الادوات الجراحية
التى ابتكرها الأطباء المسلمون والمدونة بأسمائها ورسومها فى كتبهم
الطبية . ولون هبنا فى الاستقصاء لطال بنا المجال .

(١) تاريخ العلم / د . عبد الحلیم منتصر / مرجع سابق / ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) الطب الاملاص / دكتور عز الدين فراج / دار الفكر العربى / سنة
الطبع غير مذكورة / ص ٦ وما بعدها .

مميزات الطب في العصر الاسلامي :

ومن خلال هذه الدراسة نلخص الملامح العامة في الطب الاسلامي وأهم مميزاتة ، ما يدل على المكانة السامية التي تسمنها علماء الطب من المسلمين والطب الاسلامي بصفة عامة .

١- أول هذه المميزات هي تأثير الطب الاسلامي بالمصادر الاسلاميية : القرآن والسنة ، ضمن النظرة العامة الى العلم بجميع فروعه ، حيث اصبح العلم أمثن شيء بعد الايمان . وهذا دفعهم الى تحصيل ما لدى الامم الاخرى من العلوم الطبية ، فاندفعوا اليها واطلعوا عليها كما مر بنا قبل قليل ، وهضموها وزادوا عليها ، وانطبعت هذه المهنة باخلاقيات اسلاميية من أمانة في العمل واخلاص وطلب مرضاة الله ، وأصبحت مهنة نبيلة لا يسمح بتعاطفها الا لذوي الخبرة الواسعة في الطب ، واشترط الحكام على محترفي هذه المهنة أن يكون عالما بالتشريح ، طما بعلم وظائف الاعضاء ، خبيراً بالنبض وتعدل البول محيطاً بجميع العلوم التي لها صلة قريبة أو بعيدة بالطب أخصها التشريح .

٢- كذلك عرف مبدأ الاختصاص في الطب (١) ، ان هناك الطبيب والمجبر والكحال والجراح والفاصد والحجام . وكل يعمل في حدود عله وفي ضمن صنعة واختصاصه ، هذا بالرغم من أن العلم في ذلك العصر كان علماً موسوعياً حيث كان الأطباء يمارسون الى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة والفلك والكيمياء والصيدلة وغيرها . وقد اتسع المجال التخصصي داخل البيمارستانات حيث كان يقوم على كل قسم من أقسام البيمارستان أطباء متخصصون .

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب / مرجع سابق / ص ٢٢٠ ، كذلك كتاب العرب والطب / مرجع سابق / ص ١٠٢-١٠٤ .

٣- وعرف العرب المسلمون في تنظيم ممارسة مهنة الطب صوراً من ضبط الحقوق والواجبات شبيهة بقوانين النقابات الطبية الحديثة وقواعد ممارسة المهنة .

٤- وقد فرضت رقابة على ممارسة مهنة الطب ، حيث نظم الخليفة العباسي المعتز بالله هذه الممارسة ، ان فرض على من يريد ممارسة الطب أن يسؤدى امتحاناً لاجازته . كذلك طبق نظام الحسبة على الاطباء والصيادلة ، وكان لهؤلاء الحسبة دور كبير في معرفة الغشوش الحاصلة في الأدوية ، ما يدل على سعة خبرتهم في هذه الشؤون (١) .

٥- أما طرق التعليم الطبي فقد امتازت بقيامها على المشاهدة والتجربة ، حيث كانوا يشاهدون المرضى ويستمعون الى شكاواهم ويستقصون أحوالهم ويوزرون منازلهم ، ويرون على أسرة المرضى بالمستشفيات مصطحبين طلابهم ويشرحون لهم ويشيرون عليهم بالعلاج .

٦- وكانت وسيلة التعليم الطبي قائمة على المناقشة العلمية ، حيث كان أساتذة الطب يجلسون وأمامهم الكتب الطبية في قاعات مخصصة يتباحثون مع تلاميذهم ، كما كان نظام تقديم رسالة أو أطروحة تمهيداً للحصول على اجازة علمية هو نظام عربي .

٧- وكانت تعقد اجتماعات في بيت الحكمة بهفداد التي أنشأها هسارون الرشيد وازد هرت في عهد الأمين عام (٨٣٠م) أودار الحكمة التي أنشأها الحاكم في القاهرة عام (٩٥٥م) بما يطلق عليه الآن المؤتمرات العلمية ودار العلم في الموصل .

٨- وفي مجال التأليف العلمي التزم أغلب الأطباء العرب ، تقاليد منهجية في كتاباتهم بالحرص على ذكر مصادر ما ورد فيها عن سبقوهم من المؤلفين ،

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب / مرجع سابق / ص ٢٢٠
كذلك كتاب العرب والطب / مرجع سابق / ص ٢٤١ .

ف نجد الرازي مثلا وغيره يذكر في مؤلفاته الباب أو الفصل الذي استمد منه المادة ثم يميز آراءه وخبرته الشخصية بلفظة " لى " (١) .

٩- وتميز الطب في تلك الفترة بالتأثر في نظرية الاخلاط الاربعة ولم يستطع الخروج عليها لانها تمثل معارف العصر ، ولأن النقص في الأجهزة العلمية الدقيقة كان كبيرا ، والعصور الحالية استفادت من الاكتشافات الطبيعية والمعلوم الطبية والاجهزة العلمية مما ادى الى المعارف الصحيحة وابطال نظرية الاخلاط الاربعة . " وهذه النظرية تعنى أن ظواهر الكون تتكون من عناصر اربعة : الماء والهواء والتراب والنار ، ولها صفات أربع : الحرارة والجفاف والرطوبة والبرودة ، وتقابل هذه العناصر والصفات ، أخلاط اربعة في الانسان الدم والصفراء والهلغموافراس الطحال " السوداء" (٢) .

١٠- وأخيرا تميز الطب العربي بادخال الكثير من الادوية المفردة والمركبة وعمل الاقربانينات . وقد ساعد العرب معرفتهم للنبات ومهارتهم في الكيمياء فأصبحت كتبهم تعج بالمركبات والمستحضرات المعدنية والنباتية والحيوانية التي أدخلوها لعلاج بعض الأمراض (٣) .

وهناك عهد " على بن رضوان " بدلا من عهد أبقراط والذي تعدل نصوصه على عظيم التقدير لهذه المهنة الشريفة .

(١) دراسات في النهج العلمي لدى الاطباء العرب . عرب موسى وأبو ريان مجلة الاسكندرية الطبية ص ٢٧ سنة ١٩٧٢ م نقلا عن المصدر السابق ص ٣٢٢ .

(٢) تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقدمه / مرجع سابق ص ١٢١ .

(٣) المرجع السابق / ص ١٢٢ .

الصيدلة

كان من الطبيعي نتيجة الاهتمام بالطب ، أن يتوجه المسلمون إلى الاهتمام بالصيدلة ، لأنها علم يحتاج له الطب . وقد وصلت عند هم إلى آفاق بعيدة من التقدم ، بحيث إن مدلولها في تلك العصور لا يختلف كثيرا عن مدلولها في عصرنا الحاضر ، بل إنه مدلول واحد في مادته .

والفارق يكمن في تقدم الوسائل العلمية في العصر الحديث ، ما أوجد دراسات جديدة وتعمقا في البحوث ، بحيث اشتملت الدراسات الصيدلانية الحديثة على المواد الكيماوية الطبيعية والصنعة ، بجانب ما كان معروفا لدى المسلمين من التركيز على العقاقير (١) .

ولقد لعب الخلفاء العباسيون دورا مهما في تقدم علم الصيدلة إلى جانب العلوم الأخرى ، فانشئت المدارس لتعليم الصيدلة في بغداد والبصرة ومدشق ، ثم في القاهرة والأندلس في قرطبة وطليطله ، والحقوا بكل مستشفى صيدلية في عهده صيدلي كفاء . وكان الصيدلي يقوم بمهمة مزدوجة ، حيث كان يقوم بتجهيز الأدوية ، ويدرب الدارسين عليها في مجال الدواء ، وكانت هذه الصيدليات مطووعة بأصناف الأدوية والأشربة الموضوعة في الأواني الصينية والمرتبطة ترتيبها جميلا ، وهذه الأدوية كانت تصرف مجانا للمرضى (٢) .

لقد برزوا في مجال الأدوية البسيطة والمركبة ، وادخلوا الكثير منها في ما تهم الطب ما عرفوه بأنفسهم أو نقلوه عن اليونان . واشتهرت المؤلفات الطبية بأفراد أقسام هامة منها للأدوية المفردة والمركبة . وعرفوا الكثير عن أحوال النباتات المستخرج منه العقاقير من حيث مواعيد جمع العقار، ومن

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة / مرجع سابق / ص ٢٧٠-٢٧١ .

(٢) المرجع السابق / نقلا عن ابن أبي أصيبعة / ص ٣١٤ .

أى الأجزاء يؤخذ العلاج ، وكيفية الادخار دون أن يتطرق لها الفساد .

ومن مظاهر اهتمامهم بالعقاقير انهم كانوا يسيحون في البلاد بحثا عن العقاقير وأصولها ومصادرها ومواطنها وأسمائها بمختلف اللغات واللهجات مما يدل على الدقة العلمية .

ومن أشهر هؤلاء الغافقي في كتابه " الادوية المفردة " ، وابن الرومي وتلميذه ابن البيطار صاحب كتاب " الجامع لفردات الادوية والاذوية " حيث ذكر أكثر من ١٥٠٠ عقار من أصل نباتي وحيواني ومعدني ، منها ما يزيد على ٣٠٠ لم يذكرها أحد من قبله .

وسا يدل على الدقة العلمية والعملية ، أن بعضهم كان يرتحل السبي مواطن النباتات يدرسونها على الطبيعة ، وهذا رشيد الدين الصوري (١١٧٧-١٢٤١) كان يستصحب مصورا معه الاصباغ ويريه النبات وأجزائه في أطوار نموه المختلفة حيث يرسم كل ذلك بالألوان الطبيعية (١) .

وتعتبر الصيدلة ابتكارا اسلاميا خالصا بمفهومها الحديث وتنظيمها المتقن على الصورة التي كانت عليها عند هم . ولم يترك أمر الصيدليات دون اشراف نظرا لأهميتها ، فقد سنت الحكومة الاسلامية القوانين التي تفرض الرقابة الحكومية على الصيدلة . وقد كان في كل مدينة موظف يعتبر كبيرا للصيدلة أو عميدا لهم للاشراف على تنفيذ هذه القوانين ومراقبة تحضير الادوية في الصيدليات ونقاوة العقاقير المستعملة .

وكان يطلب الحصول على ترخيص من الحكومة لمزاولة هذه المهنة بعد امتحانات خاصة في معرفة العقاقير وطرق تجهيزها . وأول امتحان أجرى

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب / ص ٣٣٠-٣٣١ .

لذلك عام ٢٢١ هـ زمن المعتصم .

من هنا فان المسلمين يعتبرون بحق أول من أنشأ فن الصيدلة على أساس علمي سليم ، واقامة الرقابة على الصيدليات والصيدالة ، فكانوا رواده ومؤسسيه^(١).

أما الطرق التي ابتدعوها واستعملوها في تحضير الادوية والعقاقير وتنقيتها ، فكان منها التقطير والترشيح والتكليس والتحويل والتبخير والتصعيد والتدبيب (الصهر) والتصويل والفصل . وهم أول من أدخل تغليف الحبوب بالذهب والفضة كما ذكر ابن سينا ، وأول من حضر الأقراص بالتكليس في قوالسب خاصة ذكر ذلك الزهراوى .

ولقد ذكر ابن سينا ، والمجوسى والزهراوى وداود وغيرهم من الأطباء والصيدالة العرب عدة عمليات لاعداد الدواء وجعله صالحا للعلاج ، ومن هذه العمليات الطبخ والسحق والاحراق بالنار والفصل والجماد بالتبريد والوضع في جوار أدوية أخرى^(٢) .

ولقد مارسوا الدقة الكبيرة في وزن الادوية بواسطة موازين دقيقة ورثوها عن علماء اليونان والرومان ، ولكن أدخلوا عليها تغييرات وتحسينات بحثابة ابتكارات تثير الاعجاب بالدقة في أوزانها^(٣) .

وأخيرا فان ما وصل اليه علماءنا في مجال الطب والصيدلة يعتبر مفخرة في تاريخ الحضارة الاسلامية ينبغي الاطلاع عليه ونشره ، ليكون دافعا لأبناء المسلمين في الثقة بأمتهم وليكون عوناً في رسم معالم النهضة الاسلامية الحديثة على أسس راسخة من الثقة بالمعقيدة بالنفس .

فقد مارس المسلمون هذه العلوم في ظلال الدولة الاسلامية يوم أن كانت عزيزة بالاسلام قوية بالايان ، ما يدل على الاستيعاب الصحيح للحضارة الاسلامية .

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب / ص ٣٤٥ نقلا عن القنطري

(٢) المرجع السابق / ص ٣٥٥ . (٣) المرجع السابق / ص ٣٦٢ .

لقد عزت هذه الأمتبالا سلام أولا وبالعلم ثانيا ، ذلك العلم الذى وفر
لهذه الأمة الامكانات الصحيحة تحت قيادة الضهج الاسلامى وتحت رعايته ،
وهذا لك فاضت الحضارة الاسلامية خيرا لأبنائها وللعالم أجمع .

وقد استفاد الغرب من هذه الحضارة دون أن يضع المسلمون عوائق
فى طريق استفادتهم ، بل ان المسلمين كانوا يرغبون فى نشر عقيدتهم
وبهاذتهم وأخلاقهم وعلومهم الى الانسان أينما كان ، وهكذا أخذت أوروبا
علم الطب والصيدلة من جملة ما أخذته عن حضارة المسلمين .

وحرى بنا فى هذا العصر الذى احتل به العلم مكانة سامية ، وما حصل
من تقدم ، أن نستعيد دورنا فى قيادة الحركة العلمية مرة ثانية ونصح مسار
هذه العلوم ووضعها فى المكان المناسب لها خادمة للانسان لا سببا فى
دماره وقتله ، تحت قيادة العقيدة واشرافها وتوجيهها لتكون فى خدمة
الدين ، لا كما هى عند الغرب حيث أصبحت هذه العلوم دينا لهم بمسند
خروجهم عن الدين المسيحى الذى حارب هذه العلوم والتقدم العلمى .

ونرجو من الله أن يتحقق ذلك ، وأن تمارس مهنة الطب والصيدلة
بالروح التى مارس بها أجدادنا هذه المهنة من قبل ، وأخلاقيات مستمدة
من العقيدة السمحة السامية وحتى تكون هذه العلوم الطبية فى خدمة
الاسلام والمسلمين والدعوة الى الله .

وعلى المسلمين استغلال هذا التقدم العلمى فى المجال الطبى لعلاج
المسلمين فى مجال اثبات صدق نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم واجتياز
ما جاء به ليكون بذلك شاهدا على أن هذا الدين من عند الله . وقد قال
تعالى : " من ربههم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق

أو لم يكف بريك أنه على كل شيء شهيد" (١).

ولا ننسى مدى الحاجة في العصر الحاضر للطب والصيدلانية وما يوفرانه من صحة للإنسان المسلم ليستطيع مواصلة مهمته في الحياة على أكمل صورة. وإن إهمال هذا الجانب سيؤدي إلى عواقب سيئة على الأمة بشكل عام وعلى تمتعها بالصحة والقوة اللازمتين لمواصلة الأعمار وحماية الدعوة الإسلامية وأوطان المسلمين. وهذه الحاجة ظاهرة كل الظهور يلمسها كل فرد في المجتمع الإسلامي.

المجال واسع

أكتفى بهذا القدر من ذكر العلوم النافعة في هذا الفصل، والذي تحدثت فيه عن علم الفلك والرياضيات والطب والصيدلة، وذلك لأن هدفى ليس في تفصيل موقف الاسلام من كل العلوم كالفيزياء والكيمياء والآثار العلوية وعلم النبات والحيوان والجغرافيا الى آخر ما هنالك من علوم التي برع فيها المسلمون، انما قصدت ببيان أثر الاسلام في تقدم هذه العلوم ومدى مساهمة المسلمين في هذه المجالات، ومدى الحاجة الماسة في عصرنا هذا لامتلاك هذه العلوم.

ولم اتناول في هذا الفصل السرد التاريخي لتطور هذه العلوم عند المسلمين فان لذلك مجالا آخر وكتبا كثيرة بحثت في هذا الموضوع وأعطته حقه من الدراسة، وان كان ما يزال هناك الشيء الكثير للكتابة فيه نظرا لضيق قسم كبير من المؤلفات الاسلامية، ولتبعثر المخطوطات في جميع أنحاء العالم ما يؤدي الى صعوبة البحث والمشقة الكبيرة التي تواجه الباحثين.

ولم أقصد من وراء الكتابة في هذه العلوم الوقوف عندها، لان العلم في هذا العصر تجاوز بمراحل هائلة ما توصلنا اليه في العصور الاسلامية الزاهرة وانما كان الهدف هو توفير الدافع العقيدى والنفسي للسمى من

جد يد لا متلاك هذه العلوم ، واستغلالها خدمة للأمة الإسلامية في مجالات
تأمين القوة العسكرية والاقتصادية ، وحماية للدعوة الإسلامية في سبيل
انطلاقها الى كل مكان . وأسأل الله أن تتوافر الدراسات التي تركز على
بيان أثر الاسلام نفسه في مختلف هذه العلوم ومدى ما قدمه من اسهام في دفع
المسلمين الى التوجه الصحيح نحو هذه العلوم بدافع العقيدة الدينية
التي وفرت هذا الدعم ، وفي كشف ألوان الفكر الذي قدمه القرآن والسنة
المطهرة .

وسا لا شك فيه أن لدفع الحضارى لرسالة الاسلام هي التي حملت
المسلمين على التوجه العلمي ، وليس كما يدعيه المستشرقون من أن المسلمين
كانوا مجرد نقلة لعلوم اليونان لا أكثر ولا أقل . ان المنصفين منهم
- وهم قلة - اعترفوا بالسبب الجوهرى الذى دفع المسلمين للتوجه نحو علوم
اليونان ، ان هذا السبب يكمن في العقيدة الإسلامية . وكان لابد من
الاطلاع على علوم من تقدمهم من الأمم والاستفادة منها ، وهذا التاريخ كله
سلسلة من التأثير والتأثير والأخذ والعطاء ، وكل أمة تأخذ ما يناسبها
من التي قبلها . وهذا هو عين ما حدث .

ولا نريد ان نقف بطلب العلوم عند الحد الذى عرفه المسلمون منها ،
وهذا شئ لا يخفى ، كذلك فاننا نريد أن نطالب بكل علم مستحدث يفيد
هذه الأمة ويميز مكانتها بين الأمم . نحن بحاجة الى الخوض في كل العلوم
التي تجلب لنا مصلحة وتدفع عنا ضررا ، ومن ضمن ما نطالب به علوم الذرة
مناه المفاعلات النووية ، وصناعة الصواريخ والأقمار الصناعية وأقل من ذلك

وأكثر ، لأننا في عصر ان لم نسع فيه لامتلاك كل ذلك ، ضعنا في مهب الريح وتحكم القوى في الضعيف ، ونكون بذلك قد ساهمنا في انتشار الشر والفساد من حيث أراد الله لنا العزة والمنعة وحماية الحق والعدل .

ولن نكون كذلك الا بالاسلام عقيدة ومنهجنا وقيما وخلقنا وامتلاك العلم حماية لهذه العقيدة ولهذا المنهج .

ولدراسة هذه العلوم ينبغي الرجوع الى القرآن الكريم والسنة المطهرة ليستوحى المسلمون منها موقفيهم من طلب هذه العلوم والدافع العقيدى الذى وفره الاسلام للمسلمين في سبيل طلب كل علم نافع . فهذه علوم البحار التى تتقدم الآن بصورة سريعة لتأمين المصادر الغذائية ، دعا القرآن الكريم للتوجه اليها والاستفادة من هذه الكنوز المخزونة في البحار والمحيطات .
وعلم الجغرافيا الذى تقدم تقدما كبيرا على ايدى المسلمين ، بحيث صححوا مسار الفكر الجغرافى القديم وحولوه الى علم نافع وأعانوا اليه كل جديد ، دعا اليه القرآن الكريم من خلال عرض كثير من الآيات تتعلق بعلوم الجغرافيا بشتى أقسامها وفروعها .

وهكذا ساهم الاسلام والمسلمون في هذه العلوم الكونية الى حدود بعيدة وهذا هو واجب المسلمين الآن .

المسلمون والحضارة

مفهوم الحضارة

الحضارة لغة الإقامة في الحضر ، وبذلك يكون سكان البادية غير متحضرين على هذا الأساس . وقد عرف العرب قديما المقابلة بين أهل الهم من جهة وبين أهل المدر أو الحجر من جهة أخرى للترفة بين الرحل وبين التجمعات المستقرة ، فكأن المقابلة بين الحضارة والبداءة هي مقابلة بين الاستقرار والتنقل (١) .

أما المعنى الاصطلاحي للحضارة فليس هناك تعريف محدد متفق عليه عند الجميع ، فلكل واحد من العلماء طريقته في التعبير عن مفهوم الحضارة بحسب مرئياته عن الوجود ومفاهيمه عن الحياة .

أول تعريف يطالعنا هو تعريف ابن خلدون للحضارة ان يعتمدها :
 " أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة وتفاوت الأمم في الغلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر " .

فالحضارة عند ابن خلدون هي الوصول الى منتهى العمران (٢)، وهو مرحلة الثبات على مستوى من الرقي لا يبقى بعده الا الانحدار . وهو بهذا يخرج البدو عن مفهوم الحضارة وان كانوا في قمة السمو الخلقى ، نظراً لنظرتهم الى الجانب المادي في مفهوم الحضارة .

وظهرت تعريفات جزئية للحضارة تعتمد على جوانب معينة ، حيث ذهب فريق من العقلاء بأن جعلوا الحضارة مرادفة للعقل نفسه ، أو في أحسن

(١) القيم الحضارية في رسالة الاسلام / د محمد فتحي عثمان / ط ١ ١٤٠٢ هـ

الدار السعودية للنشر ص ٩٠ .

(٢) الحضارة / د حسين مؤنس / سلسلة عالم المعرفة / الكويت ٩٨ هـ ص ٣٨١

الأحوال لشعرات العقل (١) ، فلا حضارة الا للظواهر الانسانية البنيوية على مقياس العقل وتقديراته . ومن خلال هذا المفهوم العقلي للحضارة تفرعت مفاهيم اخرى ، فمنهم من ظن أن الحضارة هي التاريخ الذي يعكس حركة الأمم والشعوب في صراعاتهم وثقافتهم وأديانهم .

وذهب بعضهم الى أن الحضارة هي العلم - التكنولوجيا . وهمما اللذان يمنحان الحضارة حيويتها ومفاهيمها الصحيحة .

ومنهم من ظن ان الحضارة هي الاقتصاد الذي يفسر التاريخ ، وبالتالي ترتبط الحضارة به . وفي مقابل هذه التعريفات الجزئية ظهرت تعريفات أخرى أشمل ، ومن ذلك تعريف جورج باستيد حيث جعلها " كل تدخل انساني ايجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة ، تجاها مع ارادة التحرر في الانسان ، وتحقيقا لمزيد من اليسر في ارضاء حاجاته ورغباته ، وانقاصا للعناء البشري " (٢) .

فالحضارة عنده هي كل ما استطاع الانسان اختراعه لتسهيل أمور الحياة والعيش والتقليل من الصعوبات ، فهو بذلك يميل بها الى السادة ومظاهر الحياة المادية ، مع عدم اهماله للعوامل المعنوية التي أجعلها في تطلع الانسان للتخلص من الضغوط وتحقيق حريته ، وفي تطلع للمعرفة واكتشاف المجهول ومقاومة الظروف المحيطة . ويعرفها " ول ديورانت " في كتابه (قصة الحضارة) بأنها " نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي " (٣) .

-
- (١) الحضارة الاسلامية بين التحدي والتعطيل / محمد علي ضناوى / الندوة العالمية للشباب الاسلامي / اللقاء الرابع / ٩٩ هـ
- (٢) جورج باستيد / المدنية / ترجمة عادل العوا / طبع دمشق / ص ١٢ وما بعدها .
- (٣) قصة الحضارة ، ج ١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ١٩٤٩ م .

فهو يرجع الحضارة الى مبادئ وقيم ، ولا يقصرها على مظاهر الحضارة المادية ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن النظم التي تسير عليها الحياة هي عنده من ظواهر الاجتماع الانساني ، لا دخل للدين بها .

وهي عند الدكتور حسين مؤنس " شجرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبدول للوصول الى تلك الشجرة مقصودا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الشجرة مادية أو معنوية " (١) .

فالحضارة هنا أقرب الى المدنية التي تعتبر من مظاهر الحضارة .

أما سيد قطب فقد اعتبر الاسلام هو الحضارة ، وما دونه فهو تخلف وبالتالي لا يطلق لفظ الحضارة الا على الاسلام (٢) .

ويعلق أبو الاعلى المودودي على مفاهيم الحضارة ويقول : " يظن الناس أن حضارة أمة عبارة عن علومها وآدابها وفنونها الجميلة وصنائعها ومدائنها وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية ، ولكن الحقيقة أن ليست كل هذه الأمور بالحضارة ذاتها ، وانما هي نتائج الحضارة ومظاهرها ، وما هي بأصل للحضارة وانما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها . وانما صح هذا فلا يجوز أن نحدد وزن حضارة وقدرها وقيمتها على أساس ما لها من هذه الصور الظاهرة والملابس العارضة ، وانما علينا أن نتوصل الى روحها ، ونتحسس أساس أصولها ، صارفين النظر عن تلك الصور الظاهرة والملابس العارضة (٣) .

والحضارة عنده جامعة بين الدين والدنيا . . . هي نظام متكامل يشمل كل ما للانسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية

- (١) الحضارة / د حسين مؤنس / مرجع سابق / ص ١٣ .
 (٢) معالم في الطريق / سيد قطب / فصل الاسلام هو الحضارة .
 (٣) الحضارة الاسلامية أسسها ومبادئها / أبو الاعلى المودودي / ط٢ / دار العربية للطباعة / ص ٦ . بيروت ، ١٣٩٠ هـ

أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية ، وإنما مجموعة الناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الانسان . . . هي المعبر عنها بكلمة " دين الاسلام " أو " الحضارة الاسلامية " (١) .

ويمكننا القول أن لكل أمة حضارة مهما كانت درجتها ، لأن لكل أمة تصورات ومعتقدات وأفكارا عن الحياة والكون والانسان ، وعلى ضوء هذه التصورات تسير في الحياة ، وقد رصحت هذه المبادئ وقوتها وثباتها تكون درجة هذه الحضارة بشرط أن تمارس هذه المعتقدات والمبادئ وتتفاعل مع حياة الانسان لا أن تبقى بصورتها الفكرية .

ومن جملة هذه التعريفات للحضارة - وغيرها كثير - نرى أن بعضها يحيل بها إلى الناحية المادية ، أو إلى تعريفات جزئية قاصرة ، والبعض الآخر يرجعها إلى المبادئ والقيم ولا يقصرها على مظاهر الحضارة المادية ، وبعض التعريفات يجعل من كل ذلك مفهوما للحضارة .

وقبل المضي أكثر من ذلك يستوقفنا مصطلحا المدنية والثقافة نظرا لما لهما من ارتباط وتداخل مع مفهوم الحضارة .

يرى بعضهم أن الحضارة تتميز عن المدنية تتميز البسيط عن المعقد ، وهذا الرأي يمثل رأى علماء " الأنثروبولوجيا " الذين اهتموا بدراسة المجتمعات البسيطة بوجه خاص . وذهب البعض الآخر إلى أن المدنية هي الأبسط ، إذ أن المدنية تتعلق بالظواهر المادية في حياة المجتمع على الأخص ، أما الحضارة فهي الظواهر الثقافية والمعنوية في هذه الحياة . وذهب فريق آخر إلى أن اللفظين مترادفان ، أو على الأقل يقترب معنى كل

(١) المرجع السابق / ص ٢٨٨ .

منهما من معنى الآخر ، وأنه لا سبيل الى وضع حد فاصل بين المجالين (١) .

ويرى الدكتور فؤاد زكريا أن التفرقة بين الحضارة والمدنية عند هؤلاء تعتمد على الشائبة بين الروح والجسد ، حيث الحضارة أقرب الى الروح ، بينما المدنية أقرب الى الجسد .

والحقيقة أن في تلك التفرقة تعسفا واضحا ، لأن الانسان كائن حي يتكون من روح وجسد بامتزاج دون انفصال ، فلا هو روح خالصة ولا جسد خالص ، وهذا التداخل لا يسمح بايجاد تفرقة قاطعة بينهما ، لذا فان الأجساد أن نستخدم لفظ الحضارة والمدنية بمعنىين متقاربين ، وأن نؤكد وجود اتصال مباشر بين الأوجه العملية لنشاط الانسان وبين الأوجه الثقافية والروحية الخالصة له (٢) .

وبهذا ذهب كثير من الباحثين الى هذا الرأي من حيث التطابق بين لفظي الحضارة والمدنية ومنهم ول ديورانت والدكتور محمد حسين في كتابه "الاسلام والحضارة الغربية" ، وقد سبق عرض رأى العلامة أبى الاعلى المودى ان يعتبر المدنية مظهرا من مظاهر الحضارة ، لا الحضارة نفسها .

أما مصطلح الثقافة فكما يقال هي الأخذ من كل شيء بطرف ، فالمثقف هو الذى يعرف شيئا عن كل شيء .

أو هي المعرفة المتصلة بالعلوم النظرية ، فهي تعنى بقضايا الحياة المعنوية والوجدانية من أدب ولغة وفن وتاريخ وفلسفة .

ويرى " شبنجلر " (٣) أن الثقافة هي مرحلة التطور والنمو والحيوية ،

(١) الانسان والحضارة في العصر الصناعي / د فؤاد زكريا / ط ٢ / مكتبة

الشرق الاوسط / ١٩٥٨ م ص ١٣ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق / ص ٢١ .

(٣) الحضارة / د حسين مؤنس / مرجع سابق / ص ٣٨١ .

فإننا وصل الأمر إلى مرحلة الحضارة فهي النهاية ومداية التطور . أى أن مرحلة الثقافة سابقة لمرحلة الحضارة .

ويرى الدكتور عبد الحليم منتصر أن الحضارة ذوق وفن وعلم وثقافة (١) ،
ويغرق بين المتعلم والعالم والمثقف .

فالمتعلم كل من حصل قسطاً من المعرفة والتعليم فى بعض أو كل مراحلها ،
والعالم من تخصص فى فرع من فروع المعرفة ويستطيع أن يضيف إليه جديداً .
أما المثقف ، فقد اشترط فيه تكامل عشرة شروط وهى :-

- ١- اجادة لغته القومية .
- ٢- اجادة لغة أجنبية على الأقل حتى يستطيع أن يطلع على إنتاج علمى
أو أدبى بلغته الأصلية .
- ٣- معرفة جيدة بدينه .
- ٤- معرفة جيدة بتاريخ وطنه .
- ٥- أن يكون له تخصص يسمى إليه فيه ، فيستطيع أن يجيب السائل فى
تخصصه أو يحيله إلى المراجع والصادر التى يستطيع أن يحصل
على اجابته .
- ٦- معرفة عامة بالعلوم والمعارف ، فنحن فى عصر انفجار المعرفة والأقسام
الصناعية وسفن الفضاء والرادار والكمبيوتر . . . الخ .
- ٧- معرفة عامة بالفنون .
- ٨- معرفة عامة بالحضارات من فرعونية وآشورية وبابلية ويونانية ورومانية
واسلامية وأوربية .
- ٩- معرفة عامة بالفلسفات .
- ١٠- معرفة عامة بالأحداث الكبرى فى التاريخ . مثل الحرب الأهلية فى أمريكا
والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية ، والحرب العالمية الأولى والثانية .

(١) مجلة رسالة العلم - ١٩٦٣ م - الثقافة والمثقفون . رئيس التحرير د . عبد الحليم
منتصر .

وخلاصة الآراء حول مفهوم الثقافة من واقع ندوة العلوم والفنون والتربية
لسهية الأمم عام ١٩٧٠م أن ثقافة شعب هي طريقته الخاصة به في الحياة :
موقفه منها وآراؤه فيها وفلسفته تجاه مشاكلها ثم يصوره لوضعه في الحياة (١).

وإذا انتقلنا إلى الإسلام وحضارته نرى أن الكثير من هذه التعريفات
تهد وقاصرة عن النفاذ لمعنى الحضارة الحقيقي ، إذ يذهب الكثير منها
إلى مظاهر الحضارة ونتائجها . إن التعريف الأمثل للحضارة ينبغي أن
يبحث عن الروح التي أوجدت هذه المظاهر الحضارية ومدى فعالية القيم
والبادئ والأفكار ، ومدى ما ترسمه في دنيا الواقع من نظم عملية صالحة
لتغطية مختلف جوانب الحياة الانسانية ، ومدى ما توفر للانسان من أمن
وطمأنينة ورفاهية .

إن الحضارة الحقيقية هي التي ترسم للبشرية طريق الخير والعدالة ،
وتغطي جميع المساحات في حياة الانسان ، ولا فهي قاصرة ولن تكون بهذا
القصور حضارة مثلى .

وعلى هذا يبدو أن لكل جماعة انسانية حضارة مهما كانت درجاتها ،
لأن لكل أمة معتقدات وتصورات وأفكارا عن الحياة والكون والانسان ، وعلى
ضوء هذه التصورات تسير في حياتها بغض النظر عن مدى صحة هذه
المعتقدات وطلانها ، ومن هنا تتميز الحضارات عن بعضها البعض
عندما تمارس هذه القيم والمعتقدات في دنيا الواقع .

ومدى ثبات هذه الحضارة أو تلك يعتمد على فاعلية هذه القيم وقوة
الدفع التي تتمتع بها لتصل بهذه الجماعة المؤمنة بهذه المبادئ إلى قسم
السمو في حياتها وآخرتها .

(١) الحضارة / حسين مؤنس / ص ٣٧٦ .

وحضارة الاسلام مطبوعة بالطابع الدينى ، ان الاسلام جوهر هذه الحضارة بعبادته وتشريعاته ونظامه الاجتماعى الشامل للحياة الذى يغطى كل الجوانب الفكرية والمادية والعملية ، وليس الدين بالمعنى الضيق كما يفهمه بعض الناس .

" هذه العقيدة التى أفرزت حضارة متميزة ، وهى المثال الواحد الذى عرفته الانسانية فى تاريخها الطويل ، انها العقيدة التى تتسع فتشمل كل نشاط الانسان فى كل حقول الحياة . . . وانها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده . . . انها لا تتولاه فردا وتهمله جماعة ، ولا تتولاه فى حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته " (١) .

ان الاسلام هو الاطار الذى رسم معالم هذه الحضارة والمعين الذى نهلت منه ، فهو يعمل على علاج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العالم ، ان الاسلام نظام مؤسس على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذاهب دنيوية من المذاهب الحديثة . وهو آخر الاديان فهو دين كل عصر ودين كل شعب مؤمن .

لقد غيرت رسالة الاسلام مجرى التاريخ ومدلت نظام الحياة ، وأخذت بيد الانسانية الى دنيا الكرامة والعزة والكمال ، " وقضت على المبادئ الضارة التى تسبب الى الحضارة ، سواء فى العقيدة أو فى التفكير أو فى الاجتماع ، صعدت شعورا جديدا فى العالم كافة يقوم على ايمان عميق وطيد بمبادئ الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة والزمالة الانسانية المشتركة " (٢) .

ان الايمان بهذه المبادئ السامية والعمل بها فى الحياة واقامة معالمها يؤدى الى حضارة سامية .

(١) السلام العالمى والاسلام / سيد قطب / ص ٨ .
 (٢) العرب والحضارة / د . على حسنى الخربوطلى / مكتبة الانجلو المصرية / ١٩٦٦م ص ٥٣ .

فالإنسان المؤمن بهذه المبادئ، بحيث تصوغ حياته وتخرج إلى دنيا الواقع بصورة عملية ضمن جماعة مؤمنة ينتج الحضارة المثلى، ولوقيت هذه المبادئ، دون خروجها إلى دنيا الواقع فلن تتشكل الحضارة، لأن الحضارة ليست أفكاراً في الخيال، وعندنا نطلق عليها مبادئ، دون تسميتها بالحضارة، لأن الحضارة لا توجد إلا بالتفاعل والممارسة (١).

ولكل حضارة أسس تقوم عليها، وصلاحيات أي حضارة وامتدادها وشمولها يكون بناءً على متانة هذه الأسس. والقياس الحضاري يجب أن يكون على أساس خيرية هذه الحضارة أو تلك وتغطيتها لمساحات الحاجات الإنسانية جميعها من النواحي المعنوية والمادية، وهذا لم يتوفر إلا في الحضارة الإسلامية. ولذا فهي مؤهلة دائماً للنهوض والاستمرار إذا ما وجدت الجماعة المؤمنة في زمن ومكان، وممارسة فعلية تطبيقية لهذا الإيمان.

وإذا نظرنا نظرة فاحصة - من خلال هذا المقياس - إلى حضارات كثيرة لتبين لنا من خلال هذه النظرة أن تلك الحضارات برزت في جوانب معينة، لأنها أصلاً قامت على تلبية جوانب ومساحات محددة. فالحضارة اليونانية قامت على تمجيد العقل (٢)، فكانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس، إذ أشرت لهم خلال قرون علومها فلسفية ورياضية وطبية وفنوناً جمالية مختلفة.

كذلك فإن الأسس الفكرية عند الرومان قائمة على تمجيد القوة، فأشرت خلال قرون أعداد أجساد قوية وجيوش متقنة البناء، والسلطان والاستعمار والكثير من القوانين والتنظيمات المدنية والعسكرية.

(١) الحضارة الإسلامية بين التحدى والتعطيل / مرجع سابق / ص ٥ .

(٢) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها / عبد الرحمن هنيكه الميداني /

دار العربية للطباعة والنشر / ط ص ٢١-٢٣ .

كذلك الحال بالنسبة لحضارة الفرس والهنود وغيرهم ، ان أثمرت حضاراتهم بما يناسب هذه الأسس التي قامت عليها .

وحضارة الغرب الحديثة قامت على تمجيد العلوم المادية ، والاستفادة من جميع طاقات الكون لخدمة الجسد ومنحه وانرفاهية والمتعة واللذة ، واختصار الزمن له ، وتقريب المسافات وتخفيف الآلام الجسدية ، وقائمة أيضا على الرغبة ببسط السلطان على الشعوب ، واعداد القوة الكفيلة بتحقيق ذلك .

لذا كانت مظاهر هذه الحضارة الحديثة ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، ان أثمرت مجموعة كبيرة من العلوم المادية المتطورة ، والمخترعات التي أفادت الانسان في مختلف نواحي مطالبه المادية ، السلمية والحربية ، ومجموعة ضخمة من النظم والتشريعات .

بينما الحضارة الاسلامية بقيمها العظيمة قد وفرت للانسان الاسس الصالحة والسليمة بحيث تغطي حاجاته الروحية والمادية ونظمه الاجتماعية التي توفر لها سهل الرقى والتقدم بجميع أشكاله وصوره ، وتلك ميزة لم تتوفر حتى الآن في مختلف الحضارات قد يمها وحد ينها .

والامة الاسلامية كانت في قمة مجدها الحضارى وقوة ايمانها لما كانت أكثر الأمم تقدما وازدهارا وقوة ومجدا ، " وما د ب ديبب الضعف في ايمانهم بها الا بعد أن تخلفوا في ميادين العلم والعقل ، وضعفوا في صراعهم للرقى الدنيوى ، وتحكمت فيهم واستولت عليهم أم أجنبية " (١) .

ان التجزئة في النظرة ، والتزام جوانب معينة وترك الأخرى يؤدي بسلا شك الى تفسخ حضارى سواء كان الميل الى الجانب الروحى فقط أو الجانب

(١) الحضارة الاسلامية أسسها ومبادئها / أبو الاعلى المودودى / مرجع سابق

المادى فقط .

ان تمثل القيم الاسلامية جميعها من صلة بالله وايمان مطلق بــــه الى ايمان ينظمه وتشريعاته المختلفة للمجتمع والى نواحي الحياة العلمية والعملية ، وتمثيل كل ذلك وتفاعله على جميع المستويات واخراجه بصورة سلوكية وعملية سيؤدى الى حضارة متميزة بالحيوية والأخذ بصور التقدم والرقى جميعها . ولن تكون هناك حضارة اسلامية الا بكل ذلك .

وما أجمل قول أبى الاعلى فى هذا المجال حيث يقول : " ان بقضاء الحضارة تحت سلطان الدين انما ينحصر فى أن تكون أمور الايمان الدينى شتلة على أمور روحية صالحة لمسيرة ارتقاء الانسان فى حياته العظيمة والعقلية من أدنى مراتبها الى أعلاها ، وأن تكون فى الوقت نفسه صالحة لتشكيل السيرة الانسانية على وجه يجعل الانسان متدينا من الدرجة الأولى ، ودينيويا من الدرجة الأولى فى الوقت ذاته ، بل يجب أن تكون صالحة لتجعل اشتغاله بأمر الدنيا تدينا بحثا ، واشتغاله بأمر الدين دنيويا بحثا " (١) .

وفى ذلك يقول الدكتور عبد الحلیم منتصر ، ان الأمة الاسلامية استطاعت أن تمتد من حدود الصين شرقا الى حدود فرنسا غربا فى أقل من قرن من الزمان ، وانما كان ذلك كذلك بالاسلام أولا وبالعلم ثانيا بالاسلام عقيدة وقيما وخلقاً ، وبالعلم المادى المتطور من كيمياء وطب وصيدلة وفلك وهندسة . . . الخ .

- هذه هى نظرة الاسلام الواعية الى الحضارة وموقفه منها .
- انها نظرة شمولية مستوعبة للابعاد الحضارية .

(١) المرجع السابق / ص ١٠٣-١٠٤

وفيما يلي نعرض لخصائص الحضارة الإسلامية لنرى مدى ما تتمتع به من مميزات وحيوية لا تتوفر في أي حضارة ظهرت قديماً أو في العصر الحاضر .

خصائص الحضارة الاسلامية

ان لكل حضارة من الحضارات خصائص ومميزات تفرد بها عن غيرها ، وان اشتركت بمظاهر متشابهة في كثير من الاحيان ، ولكنها تفتقر من حيث اختلاف القيم التي تؤمن بها كل حضارة ، ومن حيث ترتيب الأهمية لقواعد الكيان الحضارى ، بحيث يكون لكل حضارة هوية تختلف عن الأخرى وتتمايز بها .

والحضارة الغربية المعاصرة التي يعتزها البعض حضارة عالمية من حيث النظرة الى الطابع العلمى التكنولوجى ، نرى أن الطابع الحضارى في الاتحاد السوفياتى وبريطانيا وأمريكا على سبيل المثال ، يختلف فيما بينهما ، إذ كل واحدة من هذه تتميز عن الأخرى ، وذلك راجع لطبيعة القيم التي يؤمن بها كل طرف ، مما يؤثر في ايجاد هذه الفروق الحضارية .

والحضارة الاسلامية تتميز بقيمها الخاصة وبادئها التي رسمها الاسلام نفسه ، وبين معالمها ، وطبيعتها بطابع خاص تفارق به غيرها من الحضارات ، وان كان هناك مظاهر مشتركة .

١- أول هذه الخصائص للحضارة الاسلامية أنها ذات أسس ايمانية أخلاقية مصدرها الهى ، وهذه الخاصية هي الأولى في ترتيب السلم الحضارى المتكون بالاضافة الى ذلك كما يقول الدكتور عمر بن عبد العزيز من فنية

جمالية وتقنية صناعية وثقافية عرفانية (١) ، ومنفذها الانسان المؤمن
فكرا وعقيدة وسلوكا .

وهي على هذا تلتزم بالحق ومناصرته ، وتتفنى الباطل بكل صوره وأشكاله ،
وتطالب بفعل الخير ونشره ، وتقاوم الشر وكل ما يسيء الى الانسانية ويعوق
نموها وازدهارها ، أوكل ما يؤدي الى انحراف الحياة عن خط سيرها
الصحيح كما أمر الله ، في جميع المجالات ابتداءً من الصلة بالله وانتهاءً
بالترقى الانسانى في مجالات الحياة المختلفة .

انها قائمة على الايمان بوحدانية الله الذى لا شريك له في حكمه وملكه ،
ما يتيح فرصة عظيمة لرفع مستوى الانسان وتحريره من كل طغيان مهما كان
مصدره ، وهي بذلك تكون أول حضارة تؤمن بالوحدانية المطلقة وتخلو من
كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر
والأدب ، وهذا هو سر اعراض الحضارة الاسلامية عن ترجمة الليانة وروائع
الأدب اليونانى الوثنى * (٢) .

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها
حضارتنا ، وحدة في الرسالة وفي التشريع وفي الأهداف العامة ، ووحدة
في وسائل المعيشة وطراز التفكير ، مما يؤدي الى انسجامها وملاءمتها
للمجتمعات البشرية في كل زمان وفي كل مكان ، مما يعنى انبثاق حضارة
منسجمة مع التكوين البشرى والفطرة الانسانية التي فطره الله عليها تقوده
الى معارج الرقى وصولا الى الهدف المنشود من اقامة الخير والحق والعدل

(١) الاسلام في المعترك الحضارى / عمر بهاء الدين الاميرى / دار الفتح

بيروت / ط ١ ١٣٨٨ هـ / ص ١٧ .

(٢) من روائع حضارتنا / د . مصطفى السباعى / المكتب الاسلامى / ط ٢

١٣٩٧ هـ / ص ٤٥ .

في الحياة الدنيا ، وبالتالي نيل رضا الله وهو الهدف الأسمى في الحياة .
وقد أمدتها هذه الخاصية بقدره عجيبة على الارتقاء والصمود ، فهي
صاعدة في الظروف الملائمة للتألق الحضارى ، وصاعدة في الحالات التي تقهر
فيها على الانكماش والتوقف . وتتميز الحضارة الاسلامية بهذه الخاصية
عن أية حضارة أخرى في الأرض ، فكل الحضارات التي عرفتها الإنسانية ،
عاشت في ايمانها في حدود زمانها ومكانها وانسانها ، حتى اذا طرأت عليها
الطوارئ أو أملت الملومات ، انتهت حياتها ، وتوقفت الى الأبد لتنهض
مكانها حضارة أخرى ، وقد ترك من معطياتها ومحصلاتها ، ما يبقى في
عداد الآثار القديمة ، أو الثقافات المذخورة المفيدة في اخصاب التجارب
الحضارية الانسانية الجديدة * (١) .

ان الانسان - وهو مركز الثقل في الساحة الحضارية - قد شكله الاسلام
وفق ارادة الله ، وأعطاه القدرة على اعمار الأرض والقيام بالدور الحضارى
الأمثل ، وهو بذلك انسان متماسك موحد ، يعرف هدفه ويعرف طريقه
لتحقيق هذا الهدف ، وهذا يتيح المجال له لاجاد حضارة متجانسة متميزة
بطابعها الفريد . انه انسان نشط عامل لا يكتفى بالقول بل مطالب نفس
كل لحظة بترجمة ايمانه الى عمل ذي أثر نافع في الحياة ، يقيم حياته
وفق ما أراد الله ، وهو بذلك انسان مشارك في صنع حضارة متميزة - من خلال
الجماعة - تتواءم مع حياة الانسان ومتطلباته الروحية والمادية .

٢- وثاني هذه الخصائص أنها حضارة انسانية النزعة والهدف ، عالمية
الأنق والرسالة .

(١) الاسلام في المعترك الحضارى / مرجع سابق / ص ١٧ .

وهي بهذه الخاصية تفرق عن الحضارات الأخرى التي قامت على أساس عرقى أو لغوى أو وطنى أو غير ذلك .

لقد أعلن القرآن - وهو الموجه الحضارى - وحدة النوع الانسانى حيث يقول : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " (١) .

تظهر هذه الغزعة فى الحضارة الاسلامية وتتضح من خلال الآيات القرآنية الكثيرة التى تردد كلمة الانسان ونهى آدم والناس وما شابهها من صيغ فقد ذكر الانسان ومشتقاته فى ٧٣ آية ، وذكر بنى آدم فى ٢٥ آية ، وكسرر كلمة الناس ٢٤١ مرة .

وكل ذلك يعزز النظرة الى الانسان دون النظر الى لونه أو جنسه . وقد رأينا فى تاريخ الحضارة الاسلامية مساهمة المسلمين فى البناء الحضارى الذين كانوا ينتمون الى مختلف الشعوب والأمم ، " نأبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والخليل وسيبويه والكندى والغزالى والفارابى وابن سينا وابن رشد وأمثالهم من اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم ، ليسوا الا عباقرة قد مسّت فيهم الحضارة الاسلامية الى الانسانية أروع نتاج الفكر الانسانى السليم " (٢) .

وليس من مبادئ هذه الحضارة التفريق بين انسان وانسان على أساس لونه أو جنسه ، انما أساس التفاضل يقوم على التقوى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وهم سواء فى كيان المجتمع المؤمن الذى يعتبر الواحد منهم كالبنة فى البناء " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحس والسهر " (٣) .

(١) الحجرات : ١٣

(٢) من روائع حضارتنا / مرجع سابق / ص ٤٦ .

(٣) رواء مسلم وأحمد .

وتبرز هذه المساواة للجميع في كل أبواب التشريع ، في الصلاة والصوم والحج وأمام القانون وفي العقوبات لا فرق بين العريس والأعرج في ذلك أو بين الحاكم والمحكوم ، ولقد كرم الاسلام الانسان بقطع النظر عن دينه أو عرقه أو لونه ، قال تعالى : " ولقد كرّمنا بني آدم " (١) وهذا التكرّم ضمن للناس جميعا حقهم في الحياة والعقيدة والعلم والعيش ، وأوجب على الدولة القائمة بالأمر مراعاة ذلك للناس جميعا دون استثناء .

ولقد ترجمت هذه العبادي وهذه التشريعات في ظل الحضارة الاسلامية كأروع ما يكون ، وما أكثر القصص التي تروى في هذا الصدد ، مما يثبت عظمها نظرة الحضارة الاسلامية للانسانية ، في حين كانت مختلف الأمم التي ظهرت على مسرح التاريخ والتي الآن تضرب الأمثلة العملية بتعصّبها وحقدّها وتعميرها العنصري الرهيب . فمن شاء فليرجع الى كتب التاريخ والسير التي سطرت أروع الأمثلة في المساواة رغم فوارق العرق والوطن . .

لقد سمى الاسلام الى رفع شأن الانسانية بمختلف الطرق حيث دعا الى تهذيب النفس عن طريق الايمان والصلاة وربطها بخالقها ، ودعا الى تزكية النفس واستقامتها وذلك ربط الانسان بأسمى العبادي والغايات .

ويقول أبو الاعلى المودودي إن هذه الحضارة قد شكلت قومية يستطيع أن يدخل فيها كل انسان من حيث هو انسان بدون ما نظر الى لونه أو نسله أو لغته أو وطنه ، وتصلح لأن تتشر على وجه الكرة الارضية من أقصاها الى أقصاها ، وتخرط أبناء البشر كلهم أجمعين في سلك ملة واحدة ، وتجعلهم متبهمين لحضارة واحدة . ولكن ليس غايتها الحقيقية باقامة هذه الاخوة الانسانية العالمية أن تزيد اتباعها عددا ، وانما هي أن تشرك أفراد النوع البشري كلهم من الاستفادة من ذلك العلم الصحيح والعمل الصالح الذي

(١) الاسراء : ٧٠ .

قد أرسله الله ربهم جميعا لصالحهم أجمعين * (١) .

انها حقا رسالة عالمية انسانية لا تقصر خيرها على جماعة المسلمين ،
ان الاسلام يدعو الى التعاون على البر والتناصح في الخير مع الناس أجمعين
" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم^{من دياركم} أن تهروهم
وتقتطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين " (٢) . "وتعاونوا على البر والتقوى
ولا تعاونوا على الاثم والعدوان " (٣) .

لقد عم نفع هذه الحضارة الانسانية في كل مكان وصلت اليه ، ولم يكن من
اساليبها اخفاء هذه المنفعة ، بل تريد ان تنالها جميعا لينعموا بهـ هذه
الحضارة السامية ، وكم من الأمم انتفعت بقيمتها ومظاهرها الحضارية .

والأمم الغربية على وجه الخصوص لم تشأ لنفسها أن تأخذ هـ هذه
الحضارة ابتداءً بقيمتها ومثلها ومعتقداتها ، فأخذت الجانب الآخر من هـ هذه
الحضارة ما كانت خير عون لها في نهضتها الحديثة . " وهكذا كانت حضارة
الاسلام انسانية عالمية شعت أنوارها من دار الاسلام الى شتى الآفاق ، وشملت
غير المسلمين في دولة الاسلام وخارجها ، وأرسلت صقلية وجنوب ايطاليا
والأندلس نور المعرفة والهدى الى طالبها في أوروبا وآتى الصليبيون غزاة
للمسلمين في عقد ادهم بالشام فتعلموا من حضارتهم " (٤) .

٣- وثالث هذه الخصائص : التسامح الديني

لم تشهد حضارة في التاريخ هذه الروح من التسامح الديني كما
شهدتها هذه الحضارة الخالدة ، وهذا القرآن الكريم يضع مبادئ التسامح

(١) الحضارة الاسلامية أسسها ومبادئها / أبو الأعلى المودودي / دار

العربية / ط ٢ ١٣٩٠ هـ ص ٢٨٩ .

(٢) المستحقة : ٨ .

(٣) المائدة : ٢ .

(٤) مذكرات في الحضارة الاسلامية / د محمد فتحي عثمان / مرجع سابق / ص ١٦١

فى كثير من الآيات الكريمة ، فهو يعتبر الاديان السماوية مستمدة من منبع واحد
فى قوله تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك
وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " (١) .

وطالب المسلمين بأن يؤمنوا بالأنبياء جميعا : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا مما أنزل
الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى
النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (٢) .

ولقد أكدت رسالة الاسلام فى نفوس أبنائها الثقة بدينهم وأنفسهم ،
واليقين بأن منطق الايمان قادر على اقتناع كل ذى عقل يريد معرفة الحق ،
ولا يحكم منطق الهوى ، ومن هنا كان منطق القرآن " لا اكراه فى الدين " (٣)
" أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (٤) ، ونفس هذا المنطق كفل الاسلام
لرعايا البلاد المفتوحة حرياتهم الدينية ولم يعرض عقيدته تحت ظل السيف
أو السلطة الحاكمة على من تتولى أمورهم .

وفى تاريخ الحضارة الاسلامية لم يسمح بالتمرد على أتباع الأديان
الأخرى ، بل كان البر بالمحتاج منهم وتأمين الحماية لهم واجبا على الدولة
الاسلامية ماداموا يحفظون عهودهم مع المسلمين ولم يعتدوا أو يعينوا الكفار
على المسلمين ، وأكثر من ذلك فقد كفل الاسلام لعاجزهم اسقاط الجزية عنه
وتقديم المساعدة والعون له . وما قصة الكتابى اليهودى الذى كان يسأل الناس
وأعطاه عمر من بيت المال الا مثلا حيا على هذه الروح العظيمة من التسامح .
ويظهر هذا فى العهد الذى ذكره خالد بن الوليد لأهل الحيرة حيث يقول :
" وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والانجيل

(١) الشورى : ١٣ . (٢) البقرة : ٢٥٦ .

(٣) البقرة : ٢٥٦ . (٤) البقرة : ١٣٦ .

أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرين على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين . . . فان هم خالفوا فلا نمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم . . . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بهت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام " (١) .

وما لنا نذهب بعيدا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير ، كان من أول ما عمله من شؤون الدولة أن أقام بينه وبينهم ميثاقا تخدم فيه عقائدهم وتلتزم فيه الدولة بدفع الأذى ، ويكونون مع المسلمين بدار واحدة على من يقصد المد يني بسوء ، فطبق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مبادئ التسامح الديني في البذور الأولى للحضارة الاسلامية .

وجاء مرة وفد نصارى نجران فأنزلهم في المسجد وسمح لهم باقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون في جانب منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول في الدفاع عن دينهم ، استمع اليهم وجادلهم . كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق (٢) .

وعند ما دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس وحان وقت الصلاة وهو نسي أن يدخل كنيسة القدس الكبرى ، رفض أن يصل فيها كيلا يتخذها المسلمون من بعد ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجدا .

وفي تاريخ الحضارة الاسلامية نجد أسماء لامعة لأصحاب الأديان

(١) مذكرات في الحضارة الاسلامية / مرجع سابق / ص ٢١ .

(٢) من روائع حضارتنا / د . مصطفى السباعي / مرجع سابق / ص ٨٤ .

الأخرى وقد احتلت المناصب العالية في الدولة . ومن أشهر هؤلاء ابن أشبال طبيب معاوية ، وكاتبه سرجون ، وجرجيس بن بختيشوع طبيب المنصور ، وإبراهيم بن هلال الصاهي الذي تقلد أرفع مناصب الدولة وكانت صداقاته كثيرة من بين المسلمين حتى أن الشريف الرضي قد رثاه عند موته بقصيدة مشهورة (١) .

وفي ذلك يقول د رابير : " ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيرا من الأعمال الجسام ورفوهم الى مناصب الدولة ، حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ، ولم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ، ولا الى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة " (٢) .

واننا نلمس مدى الفرق بين التسامح الذي ساد حضارتنا ، وبين التعصب البغيض الذي يسود مختلف الحضارات من يونانية ورومانية وحضارة معاصرة أوروبية تلك الأخيرة التي تحمل في جذورها الحقد الدفين على الاسلام والمسلمين منذ ظهور الاسلام ، وفي الحروب الصليبية حيث ورثوا هذه الأحقاد لأبنائهم ، ونرى أثر ذلك واضحا من كلام القائد الفرنسي " غورو " عندما دخل دمشق ووقف على قبر صلاح الدين وكذلك النبي " ، وهذه المواقف تكاد لا تحصى اضافة الى كتابات الكثير من المستشرقين مما يدل على مدى تخطيطهم لهدم الاسلام وحضارته ، حيث يشكل هذا العامل محور السياسة الغربية في كل العصور الاسلامية .

(١) من روائع حضارتنا / د . مصطفى السباعي / مرجع سابق / ص ٨٧-٨٨ .

(٢) المرجع السابق / ص ٩١ .

٤- وابع هذه الخصائص النزعة العلمية التي تتمتع بها حضارتنا الاسلامية .

لقد آمنت هذه الحضارة بعقيدتها الدينية ، واعتمدت على العلم أيما اعتماد ، ولم يكن هناك تعارض مطلقاً بين الدين والعلم في نظرها ، بل أكثر من ذلك فقد كان هذا الدين من أهم العوامل على دفع الأمة الى معارج الرقى والتقدم الحقيقيين ، حيث حث أتباعه على تبني العلم في كل خطواتهم ، مما ترك أثره في حضارة المسلمين ، وامتد الى مساحات واسعة في الحياة ، وبذلك تركت لنا هذه الحضارة آثاراً هائلة في مختلف العلوم .

وسيرا في حدود الفهم الاسلامي الصحيح للدين والعلم ودورهما في ترقى الحياة الانسانية ، وجدنا العصور الذهبية للمسلمين تفتح صدرها لامتصاص المعارف الانسانية المادية التي خلفتها حضارات سالفه . وامتص المسلمون بسرعة فائقة ما خلفه اليونان الاغريق من علوم فلسفية وعقلية ، وما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية ، وما كان لدى مختلف الأمم التي التقت مع المسلمين لقاء مودة أو لقاء خصام ، ثم أخذوا بتحرير هذه العلوم وتنقيتها من الشوائب ، وتطويرها ونقلها واصلاح فاسدها ، مسترشدين بالمنهج العلمي الذي رسمه للمسلمين مصدر التشريع الاسلامي العظيمان القرآن والسنة ، كل ذلك فيما لم يكن من خصائص الشريعة الاسلامية بيانه ، وتحديد أصوله ونوعه ، كأصول الاعتقاد ، وأحكام المبادات ، وأحكام المعاملات ، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التي رسم الاسلام للناس طريقها ، وأوضح لهم صراطها المستقيم (١) .

وهذا الانفتاح الفكري هياً للمسلمين سبقاً حضارياً فذا لم يضارعه تقدم حضارى لأية أمة من الأمم ، وحين كانت أوروبا تعاني من تقاليد دينية ضحرفة عن أصول شريعة الله الحققة ، بحيث أقامت السدود أمام رواد الفكر في أوروبا

(١) أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها / عبد الرحمن الميداني / مرجع سابق

وضعتهم من العلم والوصول الى حقائق الكون كانت ديار الاسلام تعج بآلاف العلماء والباحثين ، في مختلف ميادين الكون المادية ، دون أن يجد هؤلاء العلماء الباحثون من أسس حضارتهم ما يصد هم عن متابعة البحث والاستبصار والاختبار والتجربة ، واكتشاف مافى الكون من أسرار وعلوم وحقائق ونظم الهية ، واستخدام ما أودع الله فيه من طاقات ضمن حدود خير الانسان .

" ومن اللطائف أنهم اذا اهدتوا بالبحث والتأمل والتجربة والاختبار والمتابعة الى علوم طبية واسعة أدركوا فيها بديع صنع الله ، واتقانه لكل شئ خلقه ، قالوا : هذه ثمرة من ثمرات حكمة الله فيما خلق من أمراض في الحياة يتعرض اليها الانسان فتدفعه الى البحث عن سبب العلة وصفاتها وأفضل علاج لها " . . . الخ انها حرية الرأي العلمى .

" وهذا الفهم اللطيف وأمثاله استطاع بناء الحضارة الاسلامية أن يرتقوا في درجات الكمال العلمى والعملى ، وأن يسحسنوا تصور حكمة الله الشاملة ، وأن تظمن قلوبهم بالايمان ، ويزيد انشراح صدورهم للاسلام . وعلى هذا المنهج كانوا يسيرون في مختلف أنواع النشاط المادى ، بحثاً وتأملًا واختبارًا وتجربة ، وكانوا في هذا أساتذة منشئى الحضارة الأوروبية المادية والستى يقطف العالم اليوم ثمارها المدهشة " (١) .

لقد كان المسلمون يتفنون في علمهم العلمى بكل ألوانه ، وجه الله ورضاه وخدمة للمسلمين ، لذا فقد أصبح العلم عند المسلمين مطلبه والعناية به والعمل على اشاعته والانتفاع به وتطبيقه سنة درجوا عليها بدافع من عقيدتهم - وهو جزء منها - وكان ذلك للانتفاع به واقامة المجتمع القوى المتكامل . وأيسة ظاهرة غير هذه تعتبر شاذة وليست أصيلة ، وربما كانت لظروف معينة أو نقولا عن أم أخرى واتباعا لأسلوب غير مرغوب فيه " (٢) .

(١) أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها / مرجع سابق / ص ١٥٢ .

(٢) جوانب من الحضارة الاسلامية / د . عبد الرحمن على الحجي / دار القلم

دمشق / ط ١٩٧٩ م ص ٤٨ .

أما آثارهم العلمية التي غطت جميع المساحات ، فلا يسعني هنا أن أفصل القول في ذلك حيث في الفصل السابق ما يفنى عن الترداد . وليس لي هنا إلا أن أقول انهم وجدوا الدافع الأكبر لاقتحامهم كل هذه المجالات من واقع الفهم العميق والدقيق لديهم ، وكفينا هنا أن نستشهد بأقوال باحثين ينوعون بمنجزات الحضارة الإسلامية في جميع ميادين العلوم وخاصة من أهل الغرب .

يقول جون هرمان راندال : * كان العرب في القرون الوسطى يمثلون الطراز الفكري العلمي والحياة العظيمة الصناعية . . . وفي كل الفنون ، يلوح أنهم أخضعوا العلم لخدمة الحياة الإنسانية مباشرة بدلا من اعتباره غرضا مطلقا لذاته فقط ، لقد ورثت أوروبا عنهم ما يحلونا أن نسميه بروح " باكون " التي ترمى إلى مد سلطة الانسان على الطبيعة * (١).

ويقول العلامة المستشرق سيد يو : * كان العرب وحدهم حاطين لسوا الحضارة الوسطى فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال . . ولم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبوابا جديدة لدرس الطبيعة * (٢).

ويقول فرانس روزنتال في كتابه المسمى " استمرار علوم الاغريق القدماء في الاسلام " : ليس يكفي الدافع النفص العلمي أو النظري ليعمل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية ، بل لابد من فهم موقف الدين الاسلامي ذاته من العلم . . وموقفه هذا كان المحرك الكبير للحياة فحسب ، بل للحياة الإنسانية في جميع جوانبها ، وموقف الاسلام هذا هو الدافع الأكبر في السعي وراء العلوم ، وفي فتح الأبواب للوصول إلى المعارف

(١) آثار العرب على الحضارة الأوروبية / جلال مظهر / ط ١ / ١٩٦٠م / من

كتاب تكوين العقل الحديث للمؤلف راندال ص ٦٥-٦٦ .

(٢) نقلا عن / من روائع حضارتنا / ص ٥٣ .

الانسانية ، ولولاها لانحصرت الترجمة في أشياء ضرورية للحياة العملية —
 وحدها * (١) .

يقول كارينسكى : " ان الخدمات التي أدائها العرب للعلوم غير مقدرة
 حق قدرها من المؤرخين ، وان البحوث الحديثة قد دلت على عظم دينا
 للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم . بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات
 القرون الوسطى . وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الاغريق ، بل زادوا
 عليها ، وقاموا باضافات هامة في ميادين مختلفة " .

تقول المستشرقة الدكتورة سيجريد هونكه في كتابها " فضل العرب على
 أوروبا " أو " شمس الله على الغرب " : " لقد شاء الله أن يظهر من الاوروبيين
 من ينادى بالحفيظة ولا يغمط العرب حقهم ، في أنهم حملوا رسالة عالمية ، وأدوا
 خدمة انسانية للثقافة البشرية قد بما وحدنا ، ان هذا النفر من الاوربيين
 المنصفين ، لا يأبه من تحدى المتعصبين الذين حاولوا جهد طاقتهم
 طمس معالم هذه الحضارة العربية والتقليل من شأنها " (٢) .

وما أكثر الشهادات التي تثبت مكانة العلم في حضارة المسلمين ونسب
 تاريخهم الطويل . ان هذه النزعة العلمية في الحضارة الاسلامية لها نزعة
 فريدة لأنها انبثقت من الدافع الذي وفرته العقيدة نفسها ، وذلك فارقت بقية
 الحضارات التي قامت اما على دين يرفض العلم أو قامت على علم يرفض الدين
 أما هذا التوائم فلم يكن الا في الحضارة الاسلامية . وكل شيء في منجزات
 هذه الحضارة ينطبع بهذا الطابع بحيث لا تعارض بين المعتقد وبين الضم
 في الطريق العلمي بل هو الانسجام الكامل حيث صدر الدين والعلم من الله
 سبحانه وتعالى .

(١) من كتاب / محاضرات في تاريخ العلوم / د . فؤاد سزكين / ط ١ مطابع

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية / ص ١٣ .

(٢) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه / مرجع سابق / ص ١٣٤-١٣٥

أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية

ما لاشك فيه أن الحضارات تأخذ من بعضها البعض ويؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها ببعض ، وهذا شئ طبيعي ، فالحضارة اليونانية لم تنشأ من الفراغ بل استمدت الكثير من حضارة الفراعنة وحضارات ما بين النهرين كذلك الأمر بالنسبة للحضارة الإسلامية حيث استمدت من مختلف الحضارات التي اطلعت عليها في الشرق وفي الغرب ما يناسبها ، فقد أخذت من حضارة الصين والهند وفارس واليونان دون أن تجد في نفسها حرجا ما أخذت ، بل ان الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ، بأخذها ما دامت حقيقة . وأكثر من ذلك فقد هضمت هذه الحضارة ما أخذته وطبعته بطابعها .

* ان الاسلام دين ودينا ومجتمع وحضارة وثقافة في نفس الوقت ، واذ كان من الصحيح أن أقطارا عدة من بين تلك التي انتشرت فيها الاسلام قد كانت لها حضارات وثقافات قديمة ذات شأن ، وأن حضارة الاسلام قد تشربتها وتمثلتها بطرق متنوعة ، لكن لا ينبغي الا نفوتنا أن الاسلام في مثله لتلك الحضارات والثقافات قد أمدها بخصائص عامة جامعة ، ووجهة مشتركة في مجالات الصلوة بالله والناس بالعالم . وهكذا أكد الاسلام الوحدة الجامعة للركب الحضاري * دار الاسلام * رغم تنوع اللغات أو التراث التاريخي أو السلالات العرقية . وكان تاريخ الشعوب والاقطار الإسلامية مثلا فريدا لحضارة ذات أساس ديني يربط بين الروحي والمادي ، وقد يوجد جنبها الى جنب مع الثقافات الدنيوية لكنه غالبها ما يمتصها * (١) .

وعلى هذا فان الحضارات تأخذ من بعضها البعض ما يروق لها ويناسبها . والحضارة الغربية ليست بدعا من بين الحضارات ، فقد وفرت لها الحضارة

(١) مذكرات في الحضارة الإسلامية / د. محمد فتحي عثمان ، ص ٥٦ ، دار المعارف السعودية بالرياض ، لطلبة المعهد السنة الاولى .

الإسلامية الشىء الكثير من أصولها ومظاهرها ووسائلها ، حتى ما أخذوه عن اليونان كان عن طريق الحضارة الإسلامية ، وما ترجموه من الكتب والإضافات التي طرأت عليها زيادة على ما أخذوه من علوم المسلمين التي أبدعوا فيها .

ولكن الغرب أنكر الكثير من أصول حضارته الحالية وخاصة فيما يتعلق بأخذهم من الحضارة الإسلامية ، ويبدو أن ذلك راجع لنظرة التعصب الشديدة ضد الإسلام وحضارته ، ولطبيعة العداوة التي تكونت لديهم عبر فترات التاريخ الطويل من العلاقات مع المسلمين والحروب التي دارت في كثير من البلاد والمواقع . فقد نسبوا كل فضيلة لدى المسلمين إلى غيرهم من الأمم وخاصة اليونان ، ونسبوا إلى أنفسهم الكثير من الآراء العلمية والاكتشافات الهامة لديهم ، وقد اعترف عدد من علمائهم ومفكرهم بفضل الحضارة الإسلامية وتأثيرها العميق على الحضارة الأوروبية المعاصرة .

حالة أوروبا قبل النهضة

وإذا أردنا بيان أثر حضارتنا الإسلامية في الحضارة الأوروبية بشكل واضح ، لابد أن نلقى نظرة على حالة أوروبا إبان النهضة الإسلامية مما يتيح المقارنة بين الحضارتين ويوضح بالتالي مدى استفادة الغرب من حضارة الإسلام .

ونستشهد على ذلك بأقوال مفكرهم حيث يقول "جوستاف ليهون" بأن الغرب كان جاهلاً حين كانت الحضارة الإسلامية في أوج عظمتها ، ويذكر أن تأثيرهم العلمي والخلقي والأدبي في الغرب كان بالغاً ، ويضيف قائلاً : "دامت همجية أوروبا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها ، ولم يبدأ في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد ، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ، فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم" .

ويقول "ول ديورانت عن الصليبيين : " ان أهل البلاد قاوموهم مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها في وجوعهم ، وأمرهم بعضها أن يرحل عنها بلا مهل ، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفذت أموالهم ، وهلك منهم بفعل الجوع والطاعون ، والجذام ، والحس ، والمعارك التي خاضوا غمارها في الطريق ، رحب بهم الكسيوس ، ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام ، فانطلقوا في أرياض المدينة ، ونهبوا الكنائس والمنازل والقصور " .

وفي ذلك يقول جوستاف ليمون : " وانا أراذ العرب تصور تأثير الشرق في الغرب ، وجب عليه أن يتمثل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبها المتقابلة ، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقا في بحر من الهمجية ، وقد ظهر في بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا وحوشا ضارية ، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ، ويذبحونهم على السواء ، وأنهم خربوا في القسطنطينية ما لا يقدر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان " .

ويقول ريتشارد كوك : " ان الفكر الجذع الذي تكمن من تشييد مثل قصر الحمراء ومسجد قرطبة يصور لنا الفارق العظيم بين أولئك العرب ، والهمجية المطبقة التي كانت تنفث في هؤلاء الفرنجة والنورماند بما فهم من فظاعة الخلق وسقم المزاج والسيل الفطري نحو القذارة وشظف العيش " (١).

لقد تألقت الحضارة الاسلامية وارتقت الى آفاق بعيدة في الوقت الذي شهدت فيه أوروبا أسوأ أطوارها ، " وبعد أن أغلقت أوروبا العصور الوسطى أكاديمية أفلاطون في اثينا سنة ٥٢٩ م ، قامت مساجد أسبانيا وجامعات فرنسا

(١) نقلا عن : " أثر المدنية الاسلامية في الحضارة الغربية / د . مختار القاضي

وصقلية بفضل العرب وعملهم ، يحمل مشعل الابتكار في العلم والفن والفلسفة ، وظل العرب قرونا متطاولة ، يحملون رسالة العلماء والخبراء والصناع على الأرض جنوب فرنسا واسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية . فقد كان للعرب أسلوب تجريبي ، يحل تشريح الجثة الآدمية ، الأمر الذي كان يحرمه رجال الكنيسة ، ويدعو الى الدقة العلمية في اجراء التجارب ، وعدم التسرع في الانتاج ، الى جانب ملكة التصنيف والتهويب والتفسير " (١) .

ويقول جون هرمان راندال في كتابه " تكوين العقل الحديث " : وعلى الجملة كان العرب في القرون الوسطى يمثلون الطراز الفكري العلمي والحياة العملية الصناعية . . . وفي كل الفنون يلوح أنهم أخضعوا العلم لخدمة الحياة الانسانية مباشرة بدلا من اعتباره غرضا مطلوبا لذاته فقط ، ولقد ورثت أوروبا عنهم ما يحول لنا أن نسميه بروح " باكون " التي ترمى الى مد سلطة الانسان على الطبيعة " . لقد سبق ابن الهيثم باكون في الأخذ بالطريقة العلمية وسما عليه سوا كما يقول الدكتور مصطفى نظيف في كتابه عن ابن الهيثم .

ويقول جوستاف لوبون : " ان العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية عن طريق تأثيرهم الثقافي ، فكانوا أئمة ومعلمين لها ستة قرون " (٢) .

لقد امتد التأثير الحضارى الاسلامى على الحضارة الاوروبية الى جميع المجالات ، من الفكر العلمى الى الفلسفة الى الصناعة والفن المعمارى والموسيقى والى مجال الادب والقصص ، ولم يبق ناحية الا وكان أثر الحضارة الاسلامية باديا فيه ، حتى في نقلهم التراث اليونانى كان عن طريق الحضارة الاسلامية التى حفظت هذه الآثار ونقحتها وأرثت عليها .

(١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه / الدكتور عبد الحليم منتصر /

ط ١٩٨٠ م / دار المعارف / ص ٢٨١ .

(٢) مآثر العرب على الحضارة الاوروبية / د . جلال مظهر / ط ١٩٦٠ /

ص ٦٥-٦٦ .

وسرور الزمن يتكشف مدى التأثير الكبير للحضارة الاسلامية على أوروبا ،
فما كان مستغربا في وقت مضى أصبح الآن حقيقة ماثلة . وأكثر من ذلك فسان
تزايد البحوث والدراسات في هذا المجال سيكشف مدى هذا التأثير .

وعلى عاتق علمائنا وباحثينا تقع مسؤولية كبيرة ، حيث يتطلب الأمر منهم
بذل الجهود الواسعة للكشف عن الصلة الحضارية ومدى التأثير البالغ للحضارة
الاسلامية على أوروبا ، حتى نأخذ الكانة اللائقة بنا وحضارتنا وآثارها في
التاريخ والنهضة الأوروبية على وجه التحديد ، وحتى لا تبقى هذه الجهود
بيد المستشرقين المتعصبين في معظمهم ضد الاسلام وحضارته ، الذي
يلبسون أبحاثهم الثوب العلمي حتى يبد وبصورة جادة ، في الوقت الذي يخفون
تحت أفانين من الخداع واخفاء الحقائق والافتراء على الاسلام وأهله بوعى
وهدون وعى .

وأخيرا نقول سيجيريد هونكه * أن أوروبا مدينة للعرب والمسلمين في جميع
العلوم والفنون * .

دور الترجمة في نقل الحضارة الاسلامية للغرب

لقد لعبت الترجمة دورا كبيرا في نقل الحضارة الاسلامية الى الغرب ،
ان الكتاب أهم وسيلة من وسائل التأثير . وهنا نسوق بعض الملاحظات على هذه
الحركة يلزم ذكرها هنا .

أول هذه الملاحظات (١) ، أن التأثير الذي أحدثه المسلمون في العالم
اللاتيني لم يحدث بمجرد ترجمة الكتب العربية أونتيجة الحروب الصليبية ،
واحتكاك الشرق بالغرب ، وإنما حدث الأثر الكبير بفعل الأخذ والتمثل اللذين

(١) معاضرات في تاريخ العلوم / د . فؤاد سزكين / ١٣٩٩هـ / مطابع
جامعة الامام محمد بن سعود ص ٢٠ ، ٢١ .

بدأ في القرن العاشر الميلادي ، واستمر عددا من القرون ، ولقد تم ذلك بطرق ثلاث وهي : اسبانية وصقلية - ايطالية وبيزنطية .

ويقول الدكتور منتصر أن ثمة أربعة معايير هي الأندلس ، وصقلية ، والشطر الجنوبي من ايطاليا ، والحروب الصليبية ، والدولة العثمانية حين فتحت شرق أوروبا (١) .

والأمر الثاني ان عملية الاخذ والتمثل هذه قد تمت من خلال النظرة العدائية لمن يأخذون عنهم عكس ما حصل لدى المسلمين عند أخذهم ، وتمثلهم حضارة من سبقهم ، ان لم يكن يراودهم هذا الشعور . فالمسلمون أخذوا ذلك من الذين اعتنقوا الدين الاسلامي أو بواسطة مواطنيهم أصحاب المعارف الأجنبية ، أما عند الاوروبيين فقد أخذوها عن المسلمين وهم في حالة عداة سياسي وديني معهم ، وانعكس الأمر بصورة عقد نفسية كأن من نتيجتها فقد ان عنصرى الوضوح والصراحة اللذين كان يتحلى بهما علماء المسلمين .

والأمر الثالث أن عملية أخذ اللاتين من علوم المسلمين قد اتخذت صفة الانتحال ، ولقد بين هذا عدد من العلماء المتخصصين في بحوث كثيرة ، ان أظهروا كيف انتحل علماء لاتين لأنفسهم بحوثا أخذوها من كتب العلماء المسلمين ، أو انتحلوا كتبها كاملة ترجموها الى لغتهم ، زاعمين أنها من ابداعهم وتأليفهم ، كما نقلوا كتبها عربية أخرى ، ثم زعموا أنها لشاهير من الاغريق .

أما أشهر رواد حركة الترجمة فكان " جيرار الكريمنى " الايطالى الذى ترجم الكثير من الكتب المهمة ، وسلك هذا السلك الكثير من تابعيه . وفي ذلك يقول " مايرهوف " في كتابه " تاريخ الاسلام " : " كان جيرار أوف كريمنى من أعظم المترجمين من العربية وأخصبهم انتاجا ، كان من بين ترجماته مؤلفات بالفلسفة

(١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه / مرجع سابق / ص ٢٨٢ .

الأهمية ، وفتح جيران لهاب كنوز المعرفة اليونانية والعربية على مصراعيه ، دفع كثيرا من تابعيه الى أن يملكوا نفس الطريق التي سلكها ، ولذلك فانه يعتبر الأب الحقيقي للحركة العربية في أوروبا ، ومن بين المؤلفات التي ترجمها من العربية الى اللاتينية مؤلفات أبقراط ، وجالينوس ، وتقريبا جميع المؤلفات اليونانية التي ترجمها قبله الى العربية حنين بن اسحق ، كما ترجم مؤلفات الكندي ، وكتاب القانون (في الطب) لابن سينا ، وجراحة أبي القاسم الهامة ذات الأثر العظيم ، وفي الفلسفة ترجم كثيرا من مؤلفات أرسطو والفارابي وثابت بن قرة^(١).

وكما قام المسيحيون واليهود بدور كبير في الترجمة من علوم الهند والافريق الى العربية ، فقد قاموا مرة أخرى بحركة الترجمة من الفكر الاسلامي الى اللغات الأوروبية .

ومن الواضح ان اليهود والمسيحيين استمتعوا في ظل الحكم الاسلامي بالتسامح الذي لم تعرفه الأديان من قبل ، وقد فتحت لهم أبواب الكلمات والجامعات ، وكانوا يجيدون اللغة العربية ويلبسون النزي الذي يلبسه المسلمون ، وقد أتيح لهم في أثناء هذه الدراسة - بجانب الفائدة الفكرية - أن يتعرفوا على أخلاق المسلمين وأن يتحلوا بها .

ولما خضعت أسبانيا لحكم الموحدين ، نفى يعقوب المنصور (١١٨٤-١١٩٩ م) أكثر المشتغلين بالفلسفة وبخاصة من المسيحيين واليهود ، كما أبعد ابن رشد عن بلاطه وعاصمته ، فرحل الفلاسفة والعلماء اليهود والمسيحيون الى المالئك المجاورة ، فدخلوا الجزء الشمالي المسيحي بأسبانيا ، كما دخلوا فرنســــــــــــــــا لينشروا الثقافة الاسلامية التي رحلوا بها . ومن احتفى بهم حفاوة ظاهرة الطليق الفونس السادس الذي كان قد التحق بنفسه بمعاهد المسلمين من

(١) عن كتاب / مآثر العرب على الحضارة الأوروبية / مرجع سابق / ص ٦٥ .

قبل ، وارتوى من معينها ، وعشق ثقافتها ، وسار فردريك الثالث والفونس الحكيم سيرة الفونس السادس في تشجيع العلم والترجمة (١) .

* والفونس العاشر واللقب بالحكيم كان أعظم تلامذة العلوم الاسبانية في أسبانيا المسيحية . فقد بوشر تحت رقابته ورعايته المباشرة بتأليف عدد من الكتب الجليلة ، جمع أكثرها من مصادر عربية يسرها له أعوان من اليهود (٢) .

أما الامبراطور فردريك الثاني ، فقد أسس جامعة في نابولي عام ١٢٢٤ م ، وجعل منها أكاديمية لنقل العلوم العربية الى العالم الغربي ، كما أنه كان يشجع المترجمين على الانتقال الى طليطله للترجمة هناك . وكان هذا الامبراطور من المعجبين بالمؤلفات العربية وكان يجيد اللغة العربية .

وما أكثر من كان يفتد الى اسبانيا الاسلامية للدراسة والاطلاع على حضارة المسلمين هناك ، مما فتح الأذهان على هذه الحضارة ، وكان من الأسباب التي ساهمت في نقل هذه الحضارة الى الغرب ، اضافة الى الهدف الاستعماري الذي دفعهم للاطلاع على الاسلام وحضارته ، لمعرفة كيف يقاومونه . وقد تطور هذا الأمر الى الاسلوب الاستشراقي المعروف في العصر الحاضر ، والذي بدأ في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من واقع استعماري للسيطرة على ديار المسلمين ومقاومة الاسلام .

ولقد تعددت معابر الحضارة الى أوروبا عن طريق الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا والحروب الصليبية وبيزنطة وأخيرا عن طريق فتوحات الدولة العثمانية في شرق أوروبا . * على ان أكبر اتصال بين الفكر العربي (الاسلامي) كان في

-
- (١) الفكر الاسلامي منابعه وآثاره / د . أحمد شلبي / مترجم / ط٢ مكتبة النهضة المصرية / ص ١٣٢ .
 (٢) تراث الاسلام / سيرتوماس ارنولد / تعريب جرجيس فتح الله / دارالطليعة بيروت / ط٢ / ١٩٧٢ م / ص ٥٩ .

الآنديس ، ان توافر فيها التحام الشعبين والثقافتين مع التعايش في الحياة اليومية ، ومكن تسامح الخلفاء الأمويين وملوك الطوائف العناصر المختلفة من مسيحية وإسلامية ويهودية من الاشتراك في تطعيم الثقافة المسيحية اللاتينية بالثقافة الإسلامية العربية * (١) .

ولقد امتد الوجود الإسلامي في الاندلس حوالي ثمانية قرون ، وكان له من التأثير الشديد على أوروبا في مختلف النواحي الحضارية .

* ولم ينته هذا الوجود العربي بسقوط مملكة غرناطة آخر معاقلهم في شبه الجزيرة ، بل استمر بعد ذلك مثلا في المورسيكيين ، أي المسلمين الذين أرغموا على التنصر ، وهم الذين بقوا في اسبانيا حتى القرن السابع عشر الميلادي حين اضطروا للهجرة الى شمال افريقيا . ومن ذلك نرى أن الوجود العربي المادي في شبه الجزيرة ، استمر مائلا ومحسوسا طيلة تسعة قرون على الأقل ، وهي مدة كافية لكي يترك العرب في الشعبين الاسباني والبرتغالي من رواسب حضارتهم ما يزال سمة واضحة لهما حتى اليوم . وكانت اسبانيا بالذات معبرا انتقلت من خلاله الحضارة العربية الى أوروبا وأمريكا .

لقد قدر لاسبانيا (الاندلس) أن تقوم بدور كبير خارج حدودها منذ أوائل القرن السادس عشر ، فمدت نفوذها في اتجاهين أحدهما الى القارة الأوروبية والاخرى الى القارة الأمريكية ، وذلك منذ كشف كريستوفر كولمبس أمريكا . وكان من الطبيعي ان يحمل الفاتحون الاسبان الى العالم الجديد كثيرا مما استقر في دمائهم ونفوسهم من عناصر عربية ، تمثلوها في خلال ثمانية قرون * (٢) .

(١) التوجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب / باشراف الدكتور محمد كامل

حسين / ص ٤٢٥ .

(٢) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه / الدكتور عبد الحلیم منتصر /

مرجعي سابق / ص ٢٨٢ .

التأثير الحضارى فى جميع المجالات

أما مجالات التأثير فقد امتدت لتشمل مختلف النواحي العلمية والفلسفية والادبية ، مما ساهم فى تكوين الفكر الاوروبى بشكل عام وخاصة الفكر العلمى .

ففى مجال الطب الذى تفوق فيه المسلمون ووصلوا فيه الى آفاق بعيدة وكان لهم به اكتشافات بارزة ، كان التأثير الاوروبى ظاهرا فى هذا المجال . فترجمت الكتب الطبية وغدت فى متناول الطلبة والعلماء فى مختلف جامعات أوروبا فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وأصبح العلم العربى هو معيار العلم مطلقا . ومن أعظم الكتب تأثيرا فى هذا المجال هى : القانون فى الطب لابن سينا ، وكتاب الحاوى والمنصورى للرازى وكتاب الملكى لعلى بن عباس وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوى وكتاب التيسير لابن زهر الذى غيرها من الكتب الشهيرة . وما زال أثر العلوم العربية وخاصة الطب والصيدلانية واضحا فى المجالات العلمية الأوروبية ، وما تأثرت به الحضارة متميزا الى الآن ، فهناك الألفاظ والمصطلحات العلمية العربية مستعملة فى اللغات العلمية الحديثة برسمها أو ببعض تحويل فيها لا يخفى أصلها ومصدرها (١) .

وانتقل الطب العربى الى أوروبا مبكرا وأصبحت المؤلفات العربية المترجمة الى اللاتينية هى الكتب الرئيسية لتدريس الطب فى الجامعات الأوروبية . يقول المستشرق " سيد يوهان من الرازى وابن سينا بأنهما سيطرا بكتبهما الطبيـــة على مدارس الغرب زمنا طويلا ، وعرف ابن سينا فى أوروبا طبيا ، فكان له على مدارسها سلطان مطلق ستة قرون تقريبا ، فترجم كتاب القانون المشتمل على خمسة أجزاء ، فطبع عدة مرات لعدة أساما للدراسات فى جامعات فرنسا وإيطاليا (٢) .

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب / مرجع سابق ص ٤٢٦-٤٢٨ .

(٢) من روائع حضارتنا / مرجع سابق / ص ٥٤ ط ٢ ١٩٧٢م الكتب الاسلامى .

ان الاكتشافات الطبية عند المسلمين جعلت دراسة الطب في أوروبا تعتمد على الطب الاسلامي لاكثر من أربعة قرون ، فبخلاف ما نقل عن الطبيب اليوناني ، اكتشفوا عدة اكتشافات بالغة الأهمية ، نذكر منها على سبيل المثال الجرب الذي اكتشف جرثومته الطفيلية " ابن زهر " كما اعتدوا على النبض والبول في تشخيص الأمراض ، وهذلوا مجهودات عظيمة في اكتشاف اسباب الأمراض وأعراضها ، كما عنوا بدراسة أنظمة الطعام ، كما كان لهم الفضل في انشاء وتنظيم المستشفيات ، وتوصلوا في مجال طب الاسنان الى حد بعيد بحيث لا يخرج ما توصل اليه العلم الحديث في هذا الموضوع كثيرا عما كان عند المسلمين ، ما يشهد لهم بالفضل الكبير . ومن هنا كان التأثير كبيرا على أوروبا في المجال الطبي وفي مجال الصيدلة .

ولم يقتصر الأمر على الطب ، فقد أثرت الحضارة الاسلامية في الحضارة الأوروبية في علوم الكيمياء والصيدلة والرياضيات والفيزياء والفلك وفي الدراسات الجغرافية والتاريخية وغير ذلك .

وفي الكيمياء فقد برع المسلمون في هذا الميدان العلمي ، واكتشفوا اكتشافات مهمة ، ما يشهد لهم بالسبق العلمي ، وفي ذلك يقول "ولد يورانت" " تعتبر الكيمياء في صورتها العلمية ابتكارا حققه المسلمون ، ذلك بأن اليونان في هذا الميدان على قدر ما لدينا من معلومات ، قد اقتصروا على التجربة الصناعية والفروض المبهمة ، بينما أدخل العرب على هذا العلم الملاحظات الدقيقة ، والتجربة العلمية المتقنة ، واخترعوا الانبيق ، وحلل العرب كيمياء عددًا هائلا من المواد ، وألفوا ما حث في الحجارة الكريمة ، وفرقوا بين الحواض والقلويات ، واكتشفوا العلاقة بينهما ، ودرسوا ووضعوا مشكلات العقاقير " (١) .

(١) مآثر العرب في الحضارة الأوروبية / مرجع سابق / ص ١١٢ .

وأشهر الكيميائيين العرب هو جابر بن حيان الذي ذاع صيته في أوروبا ،
 وغيره كثيرا لا يحس المجال للتمداد ، ومن جملة اكتشافاتهم نذكر على سبيل
 المثال : الماء الملكي وحامض الكبريتيك وحامض الأزوتيك ونترات الفضة ، وحضروا
 حامض الزرنيخ ، وأكسيد الزئبق وأكسيد الحديد وأكسيد النحاس التي غير
 ذلك (١) .

وذكرت الموسوعة البريطانية عن صناعة ملح النشادر وأن أول صناعته في مصر ،
 ومنها تزودت أوروبا سنين عديدة بهذا الملح ، وكان أهل البندقية شمامسة
 الهولنديون من بعدهم أول من حمل هذه التجارة إلى أوروبا ، وعرفت صناعته
 في أوروبا عام ١٢١٩ م حين أرسل القنصل الفرنسي في القاهرة تفاصيل الطريقة
 في مصر . وكمن من الاسماء العربية دخلت اللغة الانجليزية امثال : كيمياء ،
 قطران ، كحل ، قلوبى ، زرنيخ ، عطر ، زعفران ، اكسير ، قرمز ، نפט ، توتيا
 وغير ذلك كثير مذكورة في معجم اكسفورد اللغوى التاريخى (٢) .

وفى (الفيزيقا) فقد تأثر الغرب كثيرا باهين الهيثم الذى برز فى علم
 البصريات ، وقد ترجم كتابه فى " المناظر " الى اللاتينية ، ويتضمن هذا
 الكتاب نظريات جيدة عن المرايا المستوية ، والمخروطية والاسطوانية والكروية
 والبيضاوية ، وفى الانحراف والانكسار والابصار ، والغرفة المظلمة ، وهو أول من
 استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف ، وقال ان الضوء خاصة جوهريه ذاتية
 لبعض الاجسام مثل الكواكب والنار والشموع والفحم المحترق ، وصفة عرضية
 فى الاجسام المعتمة أو الشفافة ، التى تعكس ضوء الاجسام الاخرى ، وقال
 ان الضوء ينبعث فى خط مستقيم وفى كل الاتجاهات ، ونقد نظرية القدماء التى
 كانت تقول ان الشماع ينبعث من العين ويتجه الى الشئ المرئى ثم يرتد الى

(١) دور العرب فى تكوين الفكر الاوروبى / د . عبد الرحمن بدوى / ط ٢

١٩٦٢ م / مكتبة الانجلو المصرية / ص ٢٢ ، ٢١ .

(٢) مآثر العرب فى الحضارة الاوروبية / مرجع سابق / ص ١١٦-١١٨ .

العين ، واستبدل بها نظرية أخرى تقول : ان الأجسام هي التي تبعث ضوءها الخاص أو المنعكس في كل اتجاه وما تتلقاه العين هو الذي يجعلها تنصر (١) . فأبطل نظرية الشعاع وقدر سرعة الضوء ، وأبطل نظرية السرعة الآتية للضوء .

وفي الرياضيات وعلم الفلك أنجز العرب في الحقيقة أعمالا علمية عظيمة جعلوا من الجبر علما قائما بذاته ، وطوروه تطورا كبيرا ، ووضعوا أسس الهندسة التحليلية ، وكانوا بغير منازع مؤسسي حساب المثلثات الكروية والمسطرة ، الذي لم يكن معروفا قبلهم وحافظ العرب على إبقاء الحياة الفكرية الراقية وعلى دراسة العلوم ، في عصر كان الغرب المسيحي يحارب فيه الهمجية بياس ، أما أوج نشاطهم الفكري ، فقد نعتبه القرنين التاسع والعاشر لكنه استمر حتى القرن الخامس عشر (٢) .

وقد مر بنا موضوع الرياضيات ومدى الخدمات التي استفادت منها أوروبا في مجال الرياضيات عامة والاعداد بصفة خاصة .

أما في ميدان الصناعة ، فقد عرف المسلمون صناعات كثيرة انتقلت فيما بعد الى أوروبا حيث التخلف الصناعي الكبير .

وتذكر هنا أهم الصناعات التي انتشرت في العالم الاسلامي وعرفت بها أوروبا عن هذا الطريق .

وأشهر هذه الصناعات هي صناعة الورق والصابون والسكر ، والزجاج ، والمنسوجات الحريرية والصوفية ، والخزف وغير ذلك من ألوان الصناعة ، وصناعة البارود .

(١) دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي / ص ٢٠ / مرجع سابق .

(٢) تراث الاسلام / كارادي فو / نقلا عن مآثر العرب على الحضارة الاوروبية / ص ١٤٤ .

فصناعة الورق التي عرفها المسلمون من الصين حيث أنشأوا أول مصنع في بغداد عام ٧٩٣ م في عهد هارون الرشيد . ومن هناك انتشر في كثير من حواضر العالم الاسلامي ، وانتقل من الاندلس الى أوروبا ، وذلك يكسبون المسلمون قد عرفوا صناعة الورق قبل أوروبا بأربعة قرون كاملة حيث كانوا يستعملون في أوروبا " الرق " المصنوع من جلد الخراف والمعجول للكتابة عليه (١) .

هذا بالإضافة الى صناعة الساعات ومدى اتقانها ، يدل على ذلك الساعة المهداة الى ملك الفرنجة شارلمان وتعجبهم من تلك الصنعة العجيبة بالنسبة اليهم .

كذلك صناعة الزجاج التي استمرت في النهوض بفضل دعم الخلفاء والأمراء لهذه الصناعة وغيرها من الصناعات . واتخذ المسلمون الزجاج لصناعة الاواني وللزينة ، واستخدموه في صنع الموازين لثبات وزنه ، وطعموه بالمعادن ونقشوا عليه واستخدموه في اضاءة المساجد وتجميل قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين ، حتى اصبحت صناعة الزجاج الطعم المنقوش جزءاً من معالم الفن الاسلامي وقالوا في ذلك حتى نقشوا أشعارهم عليها .

وصناعة المنسوجات الحريرية والصوفية ، فقد تباروا في اتقانها وترقيتها ، وما أن بدأ عصر النهضة في أوروبا حتى كانت صناعة الورق والزجاج ونسج الحرير أولى الصناعات التي انتقلت الى أوروبا وانتشرت فيها (٢) .

وكانت الطرق التي انتقلت بها هذه الصناعة عن طريق الاندلس وصقلية بوجه خاص وعن طريق الحروب الصليبية كذلك . لما دخل المسلمون صقلية

(١) فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية / ١٩٧٨ م / دار الفكر العربي

ص ٩٤ - ١٠٠ . عز الدين فراج

(٢) المرجع السابق / ص ٩٩-١٠٠ .

استغلوا من الناحية الصناعية ثروات البلاد الطبيعية من فضة وحديد ونحاس وكبريت ورخام وحجر صلب الى آخر ذلك ، وأدخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نور ميخ بألمانيا يوجد معطف من الحرير كان يرتديه ملوك صقلية ، محاط بنسيج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هـ ، ١١٢٦ م ، هذا بالإضافة الى ادخالهم الى صقلية صناعتي الورق والسكر واقامة أول دار لصناعة السفن وصناعات نسيج الحرير والكتان (١) .

أما في الاندلس فقد كانت الصناعات الاسلامية قد بلغت أوج عظمتها ، فقدم الأوروبيون من كل مكان اليها لقرئها ، للحصول على ما أنتجته ، وقدم بعض العلماء الاوروبيون ليتعلموا على يد الصناع المسلمين الصهرة كل ألوان الصناعة والفنون ، وذلك انتقلت الصناعة الاسلامية الى أرجاء أوروبا (٢) .

أما في ميدان الزراعة فقد أدخل المسلمون على الاندلس وصقلية الكثير من زراعاتهم ونقل الاوروبيون عنهم ما يختص بأنواع المزروعات وطرق الزراعة والري ، لقد أدخل المسلمون غراسة القطن وقصب السكر وشجر التين والزيتون والبرتقال والليمون الى صقلية ، وأحدثوا في سهيل خدمة الأرض قنوات الري التي لا تزال موجودة ، وكذلك الحال في الاندلس . يضاف الى هذا الابحاث العظيمة في الفلاحة والنباتات الطبية حيث تحدثوا في هذه الكتب عن صنعة فلاحية الارض وكيفية العمل في الزراعة والغراسية ، واهتموا اهتماما خاصا بأشجار الفاكهة ، فبينوا أنواع الغرس ، وطريقة حفر الحفر استعدادا للغرس ، ومواعيد الغراس ، اضافة الى اهتماماتهم بالنباتات الطبية .

(١) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا / أحمد توفيق المدني / ط ١

أم ق سر كوز ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢) فضل علماء المسلمين على الحضارة الاوروبية / مرجع سابق / ص ١٠١

وفى اللغة الاسبانية الكثير من الألفاظ العربية المتعلقة بالنباتات خصوصا الفواكه والأزهار والأعشاب ، * وكان لكتب العرب هذه فى الفلاحة والنباتات أثر هائل فى تقدم الزراعة فى أوروبا ، فضلا عن انتقال معارفهم الزراعية والنباتية بطريق الاتصال المباشر بين الفلاحين فى اسبانيا ، وبين نظرائهم فى جنوب فرنسا ، ومن ثم الى كل أوروبا * (١) .

وفى مجال الفن المعماري والزخرفة فقد كان التأثير كبيرا على أوروبا ، حيث بلغ فى الاندلس وصقلية وفى البقاع الاسلامية المختلفة شأوا بعيدا تشهد الآثار الباقية بمدى التقدم الكبير فى هذا الفن . ولقد ظهر تأثير الفن المعماري الاسلامي فى اسبانيا أولا ثم انتقل منها الى فرنسا ثم الى سائر بلاد أوروبا ، كذلك عن طريق صقلية وجنوب ايطاليا . وعندما استولى الاسبان على الاندلس استعانوا بالفنيين المسلمين الذين ظلوا هناك فى بناء القصور والكنائس والاديرة والقناطر وسائر أنواع المعمار ، وهذا الفن الذى قام به هؤلاء هو عربى خالص تقريبا . كذلك امتد التأثير الى المعمار الذى الطابع الاوربي ، وهو المعمار المعروف بالرومان حيث كان التأثير فى التصميم المعماري وفى الزخرفة المعمارية (٢) . وانتقلت هذه التأثيرات الى فرنسا عن طريق الوافدين من فرنسا الى شمال الاندلس بحكم التجاور القائم بين شمال الاندلس وجنوب فرنسا .

أما فى الزخرفة فقد كان التأثير أعظم كثيرا ، خاصة الزخرفة الكوفية حيث اعجبوا بالخط الكوفى الذى اعتبره مؤرخو الفن أجمل خط عرفه الانسان ، لهذا كان تأثيره عليهم عميقا وسريعا ووجدت زخرفات كوفية فى أبواب وواجهات

(١) تطور العرب فى تكوين الفكر الاوربي / مرجع سابق / ص ٤٠ .
 (٢) دور العرب فى تكوين الفكر الاوربي / مرجع سابق / ص ٤٦ .

كثير من الكنائس في أوروبا في العصر الوسيط ، ومن بين هذه الزخارف والنقوش
تحميدات اسلامية ، نقلها الفنان الاوربي المسيحي دون أن يتبين معناها ،
وأحيانا أخرى نجد الفنان الاوربي قد عبث بالحروف حتى أصبح من غير الممكن
قراءتها لأنه لم يفهم معناها ، وكان يشكل فيها على هواه (١) .

ولو استقصينا نواحي التأثير الحضاري الاسلام على الغرب لأعوزنا ذلك
بمجلدات ، فقد كان التأثير شاملا لمختلف النواحي الفكرية والادبية والفلسفية
والعلمية والفنون حتى مظاهر الحياة اليومية .

ونكتفي أخيرا بذكر نواحي التأثير في مجال العقيدة والأدب ، فهذه
الحركات الاصلاحية الدينية التي ظهرت في أوروبا منذ القرن السابع حتى عهد
النهضة الحديثة كانت متأثرة بعبادى الاسلام وحضارته * إذ قام في القرن السابع
الميلادي في الغربيين من ينكر عبادة الصور ، ثم قام بعدهم من ينكر الوساطة
بين الله وعباده ، ويدعو الى الاستقلال في فهم الكتب المقدسة بعيدا عن سلطان
رجال الدين ومراقبتهم .

ويؤكد كثير من الباحثين أن * لوتر * في حركته الاصلاحية كان متأثرا بما قرأه
للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحى ، وقد
كانت الجامعات الاوربية في عهده لا تزال تعتمد على كتب الفلاسفة المسلمين
التي ترجمت منذ عهد بعيد الى اللاتينية ، ونستطيع أن نؤكد بأن حركته
الفصل بين الدين والدولة التي أعلنت في الثورة الفرنسية كانت وليد الحركات
الفكرية الحنيفة التي سادت أوروبا ثلاثة قرون أو أكثر ، وكان لحضارتنا فضل في
إيقاد جذوتها عن طريق الحروب الصليبية والاندلس * (٢) .

(١) دور العرب في تكوين الفكر الاوربي / مرجع سابق / ص ٤٧ .

(٢) من روائع حضارتنا / ط ٢ / مرجع سابق / ص ٥٢ .

أما في ميدان الأدب فقد تأثر الغربيون بالأدب العربي الأندلسي والشعر الأندلسي والقصص العربي وغير ذلك مما يتصل بهذا الميدان ، وانعكس ذلك على أشعارهم وقصصهم ومؤلفاتهم الأدبية ، ونكتفي بضرب مثل واحد وهو " دانسى " في " الكوميديا الإلهية " التي تعجز بها إيطاليا كلها على أنها أدب خالص من التأثيرات . وإن بالباحثين والنقاد يكشفون الصلة الوثيقة والتأثر بالأدب الإسلامي وقصصه كرسالة الغفران للمعري ووصف الجنة لابن عربي وما ورد عن معراج الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الكتب الإسلامية .

وقد كشف عن هذا التأثير أول مرة المستشرق الإسباني " أسين بلاثيوس " عام ١٩١٩ م حيث قارن بين ما ورد في قصة دانسى وبين ما ورد في المؤلفات الإسلامية وخلص إلى مقدار التأثير الكبير لدانسى بالمصادر الإسلامية .

وقامت أدلة مؤكدة بعد ذلك بثلاثين سنة على يد الإيطالي " تريكو اتشرولى " الذي نشر عام ١٩٤٩ م الترجمتين اللاتينية والفرنسية لكتاب عربي في المعراج كان قد ترجم من العربية إلى الإسبانية القشتالية من أجل الفونسو العاشر الطبق بالحكيم ملك قشتاله وليون ، وأضاف إلى الترجمتين النصوص الكثيرة التي تتضمن معلومات عن الآخريات الإسلامية في كتب المؤلفين الأوروبيين من القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر ، مما يعنى مدى اطلاع الغرب على هذه المعلومات في زمن دانسى ، وذلك يكون قد قدم أداة ثمينة في البحث عن العلاقات الثقافية بين أوروبا والإسلام في العصر الوسيط .

ونشر آخر وهو " سندينو " عام ١٩٤٩ م أيضا ترجمات ثلاث لهذا الكتاب باللغة الإسبانية واللاتينية والفرنسية .

وقد تمت هذه الترجمات الثلاث عام ١٢٦٤ م ، أى قبل ميلاد دانسى بسنة ، وقد ساق اتشرولى شواهد عديدة على معرفة الكتاب هذا (المعراج) في كل أوروبا ومنها إيطاليا .

يتمين من هذه الأدلة مدى التأثير الذي حصل لدانتى من الكتيب الاسلامى ، ومدى انتشار هذه الكتب والحضارة فى أوروبا واقتباسهم منها (١) .

ولا يسمنا هنا أن نستقصى نواحي التأثير اللغوية والادبية والقصصية ، فحسبنا ذلك لأن المقام لا يسمح لنا بذكر تفصيلات أخرى ، ولأن الموضوع من السعة بحيث يحتاج الى جهود كبيرة ومكثفة للكشف عن مدى التأثير الاوروبى فى مختلف المجالات بالحضارة الاسلامية .

ولو قرأنا العبارة المكتوبة بما " الذهب فى سقف مكتبة الكونجرس التى تقول : " ينبوع الاول للحضارة فى العلوم الطبيعية هو العصر العربى الاسلامى " ، لأدركنا عمق التأثير لهذه الحضارة . ونختتم الحديث عن هذا الموضوع بالقول : " ان العلماء العرب والمسلمين هم الذين قدموا لأوروبا زاد نهضتها العلمية " (٢) .

كما تقول ذلك بحق " سيجريد هونكه " مؤلفة كتاب فضل العرب على أوروبا أو شمس الله على الغرب .

(١) دور العرب فى تكوين الفكر الاوروبى / مرجع سابق / ص ٤٩ وما بعد ها .
 (٢) التضامن الاسلامى فى المجال العلمى / بحث مقدم من الدكتور عبد الحليم منتصر لمؤتمر التضامن الاسلامى المنعقد بمكة عام ١٤٠١ هـ .

الغزو الفكري وأبعاده

لقد نظرت أوروبا الى الاسلام والشرق الاسلامي نظرة عدائية ، تأصلت هذه النظرة منذ القرون الاولى لظهور الاسلام ، واستمرت عبر التاريخ الى يومنا هذا ، رغم الدراسات الواسعة التي قام بها المستشرقون في القرن التاسع عشر والقرن الحالي ، وذلك انطلاقا من النظرة العدائية التي تأصلت في نفوسهم ، والنظرة الاستعمارية لبلاد الاسلام في عصر النهضة الى يومنا هذا ، وانا كان هناك منصفون للحضارة الاسلامية وللإسلام وأهله ككل ، فهم قلة يشذون عن التيار العام المعادي لهذه الحضارة ، فهم في الأغلب ينطلقون من نظرة تاريخية حاقدة .

إنهم يعملون بكل وسيلة لهدم الاسلام واضعاف الايمان به في نفوس معتققيه ويتخذون لذلك جميع الوسائل الممكنة ، وأخطرها الناحية الفكرية ، أو ما يسمى بالغزو الفكري ، وهو غزو أخطر من الغزو العسكري ، لأنه يعمل على هدم الشخصية الاسلامية ، واخراجها من الاسلام ، وبالتالي ضياع هذه الشخصية وعدم انتمائها ، وهنا يكمن الخطر .

وللحقيقة فان هذا العداء للاسلام يتشكل في كل عصر منذ بزوغ فجر الاسلام على أيدي اليهود والجاهليين ، وامتد عبر العصور وأشكال مختلفة .

وأخطر ما في الأمر هو التنظيم الدقيق للحملات الفكرية المنظمة في العصر الحاضر ، والتي تتجمع من مختلف الاتجاهات ، ومن أسف أن هذا الغزو الفكري قد فعل بالأمة أكثر مما فعل الجنود المدججون بالسلاح ، أو أنه مهد للاحتلال العسكري فيما بعد ، واستمر بعد رحيل الجندي المستعمر بعد ضمان بقائه بالتأثير الفكري والشرح الذي أحدثه بالشخصية المسلمة .

وفي المجال الحضاري نسفوا كل فضيلة للحضارة الاسلامية ، وسلبوها كل

مميزاتها ، حتى يضعفوا الثقة في نفوس أبنائها بها ، وهاجموا الاسلام ونسبوا
 الاسلام ، وادعوا أنه دين عنصري جاء به شخص ولم يكن وحيا من عند الله ،
 وامتد هذا الهجوم الى كل صغيرة وكبيرة في الكيان الاسلامي مستغلين تفوقهم
 المادي وتخلف المسلمين في هذا المجال ، وأثروا بطبقة من أبناء المسلمين
 بهزتهم حضارة الغرب المادية ، فأخذوا يدعون لتقليد الغرب في نهضتهم
 ونهذ تعاليم الاسلام .

وبدأ التغلغل يتخذ عدة أشكال من مدارس أجنبية ، الى ارساليات
 تبشيرية ، الى دراسات تطعن بالاسلام وحضارته ، وتدعو الى تقليد أوروبا ،
 وكأنهم حريصون على نهضة الشرق ، وهم في الحقيقة يريدون تحطيم هذه البنية
 القوية المؤثرة ، والتي تعتبر أقوى عوامل الاتحاد والتقدم لوأخذوا بها .

ولن أدخل في تفصيل مراحل الغزو من الناحية التاريخية ، فلذلك دراسة
 لا مجال لها هنا ، انما يعنيني ايجاز آثار هذا الغزو الفكري في مراحل الاحتلال
 العسكري الى الوقت الحاضر . ولقد كان التأثير واسع النطاق في تلك الفترة
 وامتد بقوة الى يومنا هذا ، وتغلغل في المجتمعات الاسلامية ، وأوجد طبقة
 متأثرة بالحضارة الغربية بحيث اهتمت عن قيمها ومثلها الاسلامية ، وازداد الأمر
 بأن بدأ التأثير في عامة الناس وظهر على الحياة العامة في هذه المجتمعات
 ما يخشى معه فقد الروح الاسلامية وتأثيرها على الشعوب . ولقد ساهم في كل
 ذلك الضعف الشديد والانهباء الكبير في كيان الأمة الاسلامية وتأخرها الحضاري ،
 اضافة الى الانهزام في الميدان العسكري ، مما أثر في النفسية العامة للأمة
 لأن المغلوب يقلد الغالب . وأخيرا فان القوة المادية التي يتمتع بها الغرب
 والأساليب العلمية المنظمة في الدعاية ضد الاسلام ، قد تركت آثارها السيئة
 في مجتمعاتنا مع ما صاحب ذلك من هريق خلاب لمظاهر حضارة الغرب ، وادعائهم
 بأنهم حملة مشعل الحضارة والحرية . وأدخلوا في روع أبناء الأمة الاسلامية

أن تخلفهم يعود الى تمسكهم بدينهم ، وبالتالي لن يحصل لهم التقدم الا باتباع الغرب وتقليده في مراحل نهضته ، وما صاحبها من حرب للكنيسة التي وقفت في طريق التقدم العلمي ، وفصل بين الدين والدولة وتحويله الى دين شخصي ، وسحبه عن مجال القيادة ، بحيث لا يترك له كلمة في الحكم والتشريع ، وامتدت هذه الحرب لتشمل حتى مظاهر الحياة اليومية من عادات وتقاليد ولباس ، وتحرير المرأة ، وتغيير نظم التعليم ، الى آخر ذلك .

وامتدت الحرب الفكرية لمجمل القيم الاسلامية من أخلاق وفكر ونظم تعليم وثقافة وتشريع وتربية ، وكل ذلك من أجل خلق جيل جديد يعتمد عن عقيدته الاسلامية ولن يجد البديل الا بالمثل الغربية ، وهم بالتالي ليسوا حريصين على ايصالنا الى التقدم العلمي الذي وصلوه ، انما هدفوا لتميع الشخصية الاسلامية بحيث تفقد كيائها ولا يقوم لها قائمة بعد ذلك .

ونتيجة لهذه السياسة المنظمة بدأ تيار التفرج والتغريب والعلمانية اللادينية بالبروز ، ومن أسف لم تكن الحركة الاسلامية المضادة لهذه التيارات على قدر هذا الهجوم ، انما كانت ردودا جزئية غير منظمة تنظيما دقيقا ، مما سهل مهمة التغيير ، ففي الوقت الذي تغلغل فيه الغرب فكريا بالعالم الاسلامي ، وبدأ التأثير يقوى ويشتد ، لم يكن المسلمون متفقين تام الاتفاق على أسلوب الرد المناسب على هذه الافتراءات ، وأسلوب عصري قائم على ايضاح الدين كمنهج متكامل للحياة يؤمن بالعلوم العصرية ويدعو اليها ، ولكن بتوجيه ايمانى حتى يضمن سيرها الصحيح ووضعها في المكان المناسب للحياة لا أن تكون هي القيم المسيطرة على مجرى الحياة الانسانية بدل القيم الایمانية .

لا أقول ذلك من باب تشييط العزائم ولكنها الحقيقة ، ونحن مازلنا الى

العصر الحاضر في حاجة الى مثل هذه النظرة الجادة والرد المنظم الذي يستوعب جهودا جبارة لمواجهة تيار الغزو الفكري المتنامي والشرس .

ان التركيز الاستعماري الاستشراقي يهدف كما قلنا الى تعطل القيم الحضارية الاوروبية ونهذ قيم الاسلام ، والمعركة تدور حول هدف تشكيل حضارى لا سلطان للدين فيها في ديار الاسلام ، لعلمهم أن ذلك بمثابة نزع الفتيل من كيان هذه الأمة حيث يشكل الاسلام أقوى عوامل الوحدة والقوة ، وبالتالي تسهيل السيطرة الغربية .

انهم يريدوننا أن نفقد الثقة بأصالتنا الذاتية النابعة من تمسكنا بقيمنا الايمانية ، واخراجنا من ذلك الى الضياع والسيطرة الغربية الاستعمارية .

وهذا العمل الاستشراقي ينطوي على نزعتين رئيسيتين (١) :

النزعة الاولى :

تكمين الاستعمار الغربي في البلاد الاسلامية ، وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الاوربي والرضا بولايته .

والنزعة الثانية :

الروح الصليبية في دراسة الاسلام ، تلك النزعة لمهت ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الانسانية المشتركة .

ووضوح الرؤية بخصوص طبيعة الغزو الفكري الاستعماري وتفهم أصوله وأهدافه ووسائله يميز لنا الطريق في كيفية الرد عليه ومقاومته وابعاد خطره .

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي / د . محمد البهي / مكتبة وهبه الطبعة الثامنة ١٩٧٥ م / ص ٤٨ .

وان الوعي الصحيح لمفهوم الاسلام وأهدافه ووسائله لتحقيق هـذـه الأهداف يعطينا القوة اللازمة للرد على هذا الغزو ودحره ، وهذا مقصد الدعاة الى الله هذه الأيام وهو الرد على الخصوم من خلال مفهوم واضح للاسلام متكامل يدعو الى خير الانسانية ، ويسعى لتحقيق التقدم الذى يخدم الأمة ويعلى من شأنها . وبالتالي نعبد الثقة بهذا الدين فى النفوس استعدادا لتكميل الدور الحضارى الذى لعبه المسلمون على مسرح التاريخ ، وتصحيحا للمسار الخاطيء الذى تسير عليه البشرية فى العصر الحاضر . وليس لنا -بناء على وضوح الرؤية- أن نشغل أنفسنا بقضايا جزئية نعيرها جل اهتمامنا ونتغافل عن القضايا الكبرى المؤثرة فى وجودنا وكياننا .

فالمطلوب ان ليس هو الرفض الكامل لما جاء به الغرب حتى ندعى الأصالة فى كياننا وفكرنا ، ان ليس من قيمنا الحضارية رفض الخير القادم من الأمم الأخرى ، فلنقبل ما هو صالح لنا ، ولنرفض ما هو ضار بمعقدتنا وسيرتنا نحو التقدم الحقيقى النابع من قيمنا والمسير بأهداف هذه القيم وروحها .

لقد قبل بعضنا حضارة الغرب على علاتها مساوئها وطالبوا بتقليد هـا خيرها وشرها ، وقسم رفضها من مهدئها الى منتهاها ، واعتبر ذلك تمسكاً بقيمه وأخلاقه وایمانه . والحق أن المسيرة الصحيحة تكون بتربط طريق الايمان الصحيح المتميز بتألف المطالب الانسانية روحية وجسدية ، وذلك فنحن مدعوون الى الايمان الصحيح والعمل الصالح والعلم النافع . الايمان كقيم ، والعلم كطريق لتحقيق الحياة الفاضلة فى الارض عبورا صحيحا الى الدار الآخرة .

ونسأل الله أن نعود الى الصفوف الاولى فى القيادة الحضارية الخيرة للعالم حتى نحقق وعد الله لنا بقوله " كنتم خير أمة أخرجت للناس " .

الباب الثاني

بين الدعوة الاسلامية والتقدم المادي

الفصل الاول

مجالات جديدة للدعوة في عصر التقدم المادي

- الداعية وموقفه من تقرير أهمية التقدم المادي .
- سهل تحقيق التقدم المادي في ضوء النظرة الاسلامية .
- العلم الحديث في خدمة الدعوة الاسلامية .

الفصل الثاني

التقدم المادي قوة للدعوة والامة في جميع أمور الحياة

- الاقتصاد نظرة عامة
- قوة في التنمية
- قوة في المجال الزراعي وتوفير الغذاء
- قوة في المجال التجاري
- قوة في الصناعة

الفصل الثالث

وسائل التقدم المادي في خدمة الدعوة وانتشارها

- وسائل الاعلام المسموع والمرئية ودورها في نشر الدعوة .
- الطباعة وعالم الكتاب والصحافة وآثارها في انتشار الدعوة .
- وسائل المواصلات الحديثة وتسهيل عمل الدعوة .

١- "الداعية وسوقه من تقرير أهمية التقدم المادي"

ان الدعوة الى الله واجبة على الأمة الاسلامية بنصوص القرآن ، فأمرها اذن عظيم ، " بها قيام الأمم ، ونساء الدول ، صلاح الشعوب ، جماعات وأفراد ، وديوام الدعوة دوام لعز الأمة وعظمة الدولة ، صلاح المجتمع " (١) وهي العلاج الوحيد لصلاح العالم .

وفي القرآن الكريم آيات تفيد هذا الجواب ، وتبرز الأهمية البالغة للدعوة نذكر منها قوله تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " (٢)

" ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " (٣)

" قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني " (٤)

" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك " (٥)

ومن الاحاديث التي تفيد وجوب الدعوة الى الله :

" ليلغ الشاهد منكم الغائب " (٦)

" والذي نفسى بيده ، لتأمرني بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله

أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " (٧)

سواء كان التبليغ فرض عين على كل مسلم ، أو فرض كفاية اذا قام به البعض سقط الاثم عن الباقين ، فان هذا يدل على الأهمية البالغة للدعوة ، والمسؤولية الكبرى التي تقع على عاتق الدعاة الى الله للقيام بهذه المهمة الشريفة ، التي هي وظيفة الأنبياء والرسل ، ومن بعدهم العلماء بمختلف تخصصاتهم .

(١) مرشد الدعاة ، الشيخ محمد نمر الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ١٤٠١ هـ ، ص ٧١

(٢) آل عمران : ١٠٤ ، (٣) النحل : ١٢٥

(٤) يوسف : ١٠٨ ، (٥) المائدة : ٦٧

(٦) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب ليلغ الشاهد الغائب

(٧) رياض الصالحين ، ص ١٥ ، رواه الترمذي

اننا في عصر بلغ التقدم العلمى مداه ، وقد وفر هذا العلم للانسان
امكانات واسعة في عتى ميادين الحياة ، اقتربت بواسطته المسافات واختصر
الزمن ، وخفف من الام الانسانية ، وسيطر الانسان على الطبيعة وارتاد الفضاء
وامتلك القوة بهذا العلم ، وتشعبت المعرفة الى فروع لا حصر لها ، وصاحب
كل ذلك تغيير كبير في التفكير وطريقة الحياة ، واستجدت مفاهيم جديدة
ونظريات ومذاهب قامت باسم العلم ، أساءت الى نفسها والى العلم . كل هذه
التغييرات أوجبت على الدعاة التزود بالمعرفة والتعرف على معطيات العصر
ومشاكله ومفاهيمه ، لتكون لهم القدرة على مواجهة الاحداث والمستجدات ،
وبالتالى يحسن عرضهم للاسلام وكيفية الدخول الى عقليات الناس ليقتبلوا هذا
الدين عنقناعة تامة ، وهذه فومن لا ينبغي أن تغوت . وأمر آخر يجيب
الاشارة اليه ونحن في طريق الدعوة ، وهو عرض الاسلام ككل ، ولا يكون
ذلك الا بفهم الاسلام ووظيفته في رسم معالم الحياة ، فهو دين ودنيا ،
دعوة ودولة ، عقيدة وشريعة ، لا انفصال وتجزئه بين مضامينه بل
هو كل متكامل . ومن هنا نقول بأن لا رهبانية في الاسلام ، ولا انقطاع
عن الدنيا لطلب الآخرة ، فهذا موقف سلبى يقود الى الخلل في مظاهر الحياة
ويؤدى الى خرابها ، لا الى اعمارها كما هو مطلوب بنص القرآن الكريم " هو
أنشأكم من الارض واستعمركم فيها " (١) . وفي الجانب المقابل حذر الاسلام من
الانغماس في الدنيا ، وطلب لذاتها دون اعتبار للجانب الروحى ، لأن ذلك
مصادمة للفطرة البشرية مما يقود الى المهالك والشرور . على المسلم أن يعطى
كل جانب حقه بتوازن واعتدال لينشأ من ذلك الانسجام الذى يقود الى الحياة
الصحيحة التى أرادها الله للبشر ، " لا نريد المسلم الذى ينسى دنياه
من أجل آخرته ، فيكون عالة على المجتمع بحجة أنه رجل دين وآخرة ، ولا نريد
المسلم الذى ينسى آخرته من أجل دنياه ، فيكون أرضيا تافها في عقلية وروح

(١) هود : ٦١

ووجدانه ، ملحدا في قلبه و عقيدته وشاعره . ولكننا نريد المسلم الذي يعطى لكل من هذه وتلك حقها ، ليحيا عزيزا في الدنيا ، كريما في الآخرة " (١) .

ان الداعية المسلم - وهو في طريق بيانه لأهمية التقدم المادي - يستمد هذا الموقف من الاسلام نفسه ، من أهم مصدره القرآن والسنة ، مع الاستعانة بالعصر الاسلامي الذهبي الذي شهد تطبيقا عمليا لمفاهيم الاسلام وضامينه . لقد أيدت نصوص الدين العلم وطالبت به وكرمت العلماء أيما تكريم ، وقد أوردت النصوص على هذا فيما سبق من فصول هذه الرسالة . ولا حاجة للاعادة هنا ، انما أريد أن أوضح هنا حاجتنا الماسة في هذا العصر الى العلم والتقدم المادي خدمة للدين حيث يوفر هذا العصر - الذي تميز بالتقدم العلمي الهائل - فرصة ثمينة لبيان حقائق الاسلام في ضوء حقائق العلم . وحاجتنا الشديدة كذلك الى هذا العلم وتطبيقاته في سبيل النهوض من جديد بالأمة الاسلامية واستعادة دورها الحضاري العظيم . اننا مطالبون بحاجتين لا تنفصلان اذا ما أردنا أن نكون في مقدمة الصفوف ، أن نتمسك بالاسلام أولا كعقيدة وقيم وأخلاق ، وأن نتمسك بالعلم كطريق ووسيلة لتحقيق التقدم المنشود والنهضة الحقيقية .

ان سعينا لامتلاك العلم والتكنولوجيا لا يقصد به تقليد الغرب والوصول عن طريقه الى الاستمتاع بملذات الدنيا ونهب خيرات الشعوب ، انما نريد العلم لأنه مطلب ايماني أولا ، ولأنه خادم الحياة يوفر القوة والنعمة ويحقق التقدم الصناعي والعمرائي ، ويوفر للانسان الراحة والصحة والغذاء الى آخر تلك المطالب . هذا العلم الذي يخشاه بعض الناس نظرا لارتباطه بالفسرب والفكر الغربي ، وما نشأ عنه من فلسفات ونظريات ومعتقدات أحلت محل الدين ،

(١) الايمان وأثره في نهضة الشعوب ، يوسف العظم ، الدار السعودية للنشر ، ط ٤ ١٣٩٨ هـ ص ٦٩

هذا العلم هو في الأصل علم اسلامي نشأ في ديار الاسلام ، ونما في ظل الدين الاسلامي وسوحى من تعاليمه ، وسار في ظل العقيدة جنباً الى جنب ، بل هو أثر من آثار الثورة الفكرية التي أحدثتها الاسلام ، وفقى قويا ما بقيت العقيدة قوية في نفوس المسلمين ، * وبعد ألف سنة من ظهور الاسلام انقسمت هذه الثورة الفكرية الى شطرين ، فبقى الشطر الديني داخل العالم الاسلامي ، بينما انتقل الشطر الدنيوي الى الغرب حيث ظل يتطور وينمو^(١) وما أحوجنا الآن لاستعادة الشطر المفقود لبناء الحضارة الحقيقية التي تنهض بالمسلمين مسن جديداً .

ان من بعض مسؤوليات الداعية أن ينهض بالامة وينفخ في روحها المعزوم الصادق للعودة الى دينها والى عزتها وقوتها في طريق استردادها لمكانتها السامية في التاريخ . ولاشك أن ذلك يتضمن الأخذ بأسباب القوة اللازمة لصيانة الأمة من أعدائها ، ولنا في رسول الله أموة حسنة ، ففي الوقت الذي كان يبيت في النفوس عقيدة التوحيد كان يرسى قواعد الدولة ، ويستعد لمحاربة أعداء الدعوة ويستجلب السلاح ، ويبحث جماعة للتدريب على بعض أنواع السلاح ، ويأمر بالتداوى لحفظ الصحة ، ويشنى على التجارة والتجار الأمناء ، ويكسرم اليد العاملة التي تعمل وتنتج وتصنع ، واليد التي تزرع ويمعدها بالشواب . والداعية إذ يستلهم من القرآن والسنة هذه المواقف ، فان من واجبه أن يواجه ظروف العصر ومتطلباته ويدعو الى امتلاك القوة المادية لحراسة الأمة وعقيدتها ، وأن يدعم الأمة في مسيرتها نحو النهضة العلمية المادية في جميع المجالات التي تجلب الخير للأمة ، واذا وقف موقفاً مغايراً لذلك فإنه يسىء للدعوة وينفر منها .

(١) امكانات جديدة للدعوة ، وحيد الدين خان ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٣٩٨ هـ ، ص ٣٠

اذ كيف يمكن قبول أمر الدعوة بترك الاسباب وعدم الأخذ بتقدم مادي في الوقت الذي يمتلك فيه الاعداء كل الاسلحة ، ويتفوقون علينا ونحن في حالة ضعف شديد ؟ وان الدعوة للأخذ بالقوة لا تقتصر على السلاح الذي كان معروفا في السابق ، وهذا لا يقول به أحد . " ان مفهوم القوة قد تغير في هذا العصر ، فلم تعد الخيول والسيوف والرماح رمز القوة ، بل انتقلت قوة الخيل الى ما يسمونه بقوة الحصان ، لقد أصبح العلم والتكنولوجيا رمزي القوة والتقدم " (١) . نحن بحاجة الى كل سلاح نستطيع الحصول عليه أو تصنيعه بالدرجة الاولى ، ولن نستطيع التغلب على ضعفنا الا بامتلاك ما يمتلكه الاعداء ، من دبابنة وطائرة وقنبلة ذرية ، وكل ما يستجد في هذا الشأن .

يقول الدكتور عبد الحليم منتصر ردا على سؤال وجهته اليه مجلة الهلال في أعقاب الحرب العالمية الثانية يتعلق بموضوع القنبلة الذرية ، " فلنصنعها ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، كما نشرت له مجلة العربي مقالا تحت عنوان " لماذا لا ننضم للنادي الذري " تسأل فيه عن السبب الذي يدعو العالم العربي الاسلامي الى التأخر في امتلاك هذا السلاح الذي يحمله الآخرون (٢) . ان الآيات التي تدعو المسلمين للأخذ بالقوة تحتاج من المسلمين الى بذل الجهود الكبيرة لتصنيع هذا السلاح ، واجراء البحوث العلمية الواسعة وتطبيقاتها .

قال تعالى في هذا الشأن :

" لقد أرسلنا رسلا بالبينات وأرسلنا معهم الكتاب والميزان ليقسم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز " (٣)

(١) نحو بحث اسلامي ، وحيد الدين خان ، دار النفائس ، ط ٦ ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٢

(٢) التضامن الاسلامي في المجال العلمي ، بحث مقدم لمؤتمر التضامن الاسلامي بمكة المكرمة ١٤٠١ هـ

(٣) الحديد : ٢٥

وقال تعالى : * واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون
به عدو الله وعدوكم * (١)

وقال تعالى : * وخذوا حذرکم ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا * (٢)

يقول الشيخ عبدالرحمن الناصر بن سعدى تعقبا على هذه الآيات :

* أخبر تعالى أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ، ومانع للناس ، فخص
بمنافعه في أمور الحرب ، ثم عم في سائر الأمور . فالحديد أنزله الله
لهذه المنافع الضرورية والكمالية الخاصة والعامة ، فجميع الأشياء - الا النار
منها - تحتاج الى الحديد ، وقد ساقها الله في سياق الامتنان على العباد
بها ، ومقتضى ذلك الأمر باستخراج هذه المنافع بكل وسيلة ، وذلك يقتضى
تعلم الفنون العسكرية والحربية ، وصناعة الاسلحة وتوابعها ، والمراكب البحرية
والهربية والهوائية ، وغير ذلك مما ينتفع به العباد في دينهم ودنياهم .
كما قال تعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وقال تعالى : (وخذوا
حذرکم) ، فهذا يتناول الأمر باعداد المستطاع من القوة العقلية والسياسية
والجادية والمعنوية ، وأخذ الحذر من الاعداء بكل وسيلة وبكل طريق . فجميع
الصناعات الدقيقة والجليلة ، والمخترعات والاسلحة والتخصصات داخلية نفسية
هذا العموم . فهذا الدين الاسلامي بحث على الرقي والقوة من جميع الوجوه
عكس ما افتراه اعداؤه أنه مخدر مفر (٣) . هذا بالاضافة الى قصة سليمان
الوارده في القرآن التي تشهر الى استخدامه القوة والعلم في سبيل اشادة
ملكه العظيم ، ذلك العلم الذي يتحل بتسخير قوى الطبيعة وقواها المختلفة
لصالح قيام الدولة وتمكينها في الارض . وليس غرضي في هذا الموضوع التفصيل
في موضوع القوة ، انما أريد الاشارة اليها والى غيرها من أهداف التقدم
المادى لبيان موقف الداعية من كل هذه الأمور وضرورتها للمجتمع الاسلامي
ولحفظ كيان الأمة والدولة .

(١) الانفال : ٦٥ ، (٢) النساء : ١٠٢

(٣) الدلائل القرآنية في أن العلوم والاعمال النافعة المصرية داخلية
في الدين الاسلامي ، عبدالرحمن الناصر بن سعدى ، المدار
السعودية للنشر ، ص ١٧ ، ١٨

ان التوسع الصناعي المطلوب لا يقتصر على عناصر القوة في صناعة الاسلحة، وانما يشمل كل صناعة مفيدة للأمة. والاعداء يتهمون الاسلام بالجمود، وهم أخذوا بأسباب النهضة الصناعية، ونحن نقول لهم بأن الاسلام حث على العمل الصناعي، وسخر موجودات الكون للانسان، ومن الطبيعي أن التسخير هذا يحتاج في كثير من الجوانب الى جهود علمية والى تجربة واختبار وابتكار واختراع. فالفه أوجد لنا المواد الخام التي نستفيد منها، وذلكها لقدراتنا، ثم أذن لنا بالانتفاع من جميع ما خلق لنا في الارض، وذلك من وجوه لا ضرر فيها، ثم وهبنا من القدرات التي نستطيع بها أن نعلم المساكن ونصنع الأثاث والرياش والملابس، وأعطانا القدرات الفكرية الشاملة من بحث ومعرفة وتذكر وتخيل وابتكار، ومنها القدرات العلمية التي نستطيع بها أن نعالج الأشياء بالاختبار والتجربة والتحليل والتركيب، والجمع والتفرقة، وأن نستخدم قواها وطاقاتها الظاهرة والكميئة، ونوجهها لما نريد. كل ذلك لمنح الانسان القوة والصحة ورفاهية العيش والراحة واختصار الزمن (١). أبعده ذلك مجال لاتهام الاسلام بالجمود ورفضه للتقدم المادي والحضاري؟ ان الاعتراض الوحيد الذي يضعه الاسلام على التقدم المادي، هو استخدام وسائل هذا التقدم في سهل غير صحيحة تضر بالانسان، وأرادها فقط أن تكون مسخرة في سبيل تحقيق الخير والرفاهية الهريئة من الاثم. ان هذا الشرط هو نفس صالح الانسانية وهو هدف نبيل ينق العمل الانساني في هذا المجال ويصح ساره الخاطي.

ان هدف الاعداء في الصاق مثل هذه التهم بالاسلام، تحقيق عدوهم أمور في آن واحد. فهم يهدفون الى حجب الملتزمين بالاسلام عن العمل الصناعي الذي يتوقف عليه التقدم المادي. وبالتالي يبق المسلمون على ضعفهم في الوقت الذي يحافظ فيه الآخرون على تفوقهم وسيطرتهم. وهدف آخر،

(١) أسس الحضارة الاسلاميه ووسائلها، عبد الرحمن حسن الميداني،

وهو صد للآخرين عن قبول الاسلام ، مادام لا يهتم بهذه الامور ولا يبحث عليها ، فكأنه دعوة أخروية لا يهتم بشؤون الحياة . وهذا أمر خطير يقف حائلا دون قبول كثير من الناس الاسلام . والهدف الثالث : هو افساح المجال لمعتقداتهم الفاسده للانتشار ، وتعلق الآخرين بهذه المعتقدات والسير في طريقها ، ومن وراء ذلك تحقيق السيطرة التامة على الشعوب وسلب ارادتها ومقومات وجودها .

وهذا ميدان واسع للداعية المسلم ، يرد على هذه المغتربات بالمنطق والحجة والدليل ، واطهار رأى الاسلام في هذا التقدم وقيادة الحياة . ومقارنة رأى الاسلام ومواقفه بالنسبة للعلم والتقدم المادى بحوقف الكنيسة المسيحية من رجال العلم والتقدم المادى وعلوم الطبيعة ، وكيف أن الأخيرة وقفت صخرة في طريقه هو "لا" ما نشأ عنه العداء الشديد للكنيسة وانفصالهم عنها ورفضهم للدين ككل بعد ذلك . قال المسلمون بكروية الارض وقياس محيطها في حين قتلت الكنيسة أو أحرقت وسجنت من قال بذلك بعد علماء المسلمين بعدة قرون . وعلى الداعية أن يفرق أيضا - وهو في سبيل ايضاح الموقف الاسلامي - بين واقع المسلمين اليوم وبين الاسلام ، لأن انحطاط المسلمين اليوم وتأخرهم في علوم المادة لا يعكس نظرا لاسلام . ان عصور قوة الاسلام هي المقياس الصحيح للوعى الاسلامي الكامل لهذه الرسالة ومضامينها . انهم بالاسلام وهدية من جانب وبالعلم من جانب آخر أحرزوا تقدمهم المعروف ، ولم يكن التقدم الذى أحرزوه أنفذ أثرا من آثار طبائصهم القومية أو العنصرية ، وانما كان أثرا من آثار التربية الاسلامية (١) .

ومن جانب آخر فقد ساهم العلم في تقديم خدمات واسعة للانسان ، من استغلال الطاقات المذخورة في الارض كطاقة الوقود الحفري المأخوذ من الفحم الحجري والغاز والنفط ، واستغلال الطاقة الشمسية وتحويلها الى كهرباء وحرارة تستغل في تدفئة المنازل أو تشغيل الماكينات وأجهزة مختلفة أخرى . حتى

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٩

أن الطاقة النووية استغلت في المجال السلمى ، وفى كل يوم يتسع هذا الاستخدام لتوفير الكهرباء واستخدامها في المجال الصناعى . وفى الزراعة ساهم العلم ساهمة كبرى ، وظهرت بحوث شتى لعلاج أمراض النباتات ودراسات متواصلة وبحوث علمية لاستنباط سلالات أوفر إنتاجا وأكثر مقاومة ، وبالعلم والتقنية الحديثة استطاع الانسان اغذاب الماء المالح ، وبذلك فتح العلم مجالا واسعا لتوفير المياه الصالحة للشرب واستخدامها للزراعة ما أتاح مجالا واسعا لتوفير الغذاء . وفى مجال المواصلات حدثت قفزة هائلة فى استخدام الآلات من سيارة وطائرة وباحرة وقطار ، الى استعمال المواصلات السلكية واللاسلكية . لقد وفرت هذه الوسائل الراحة للانسان واختصار الجهد والزمن ، بفضل هداية الله وتوفيقه للانسان باستخدام العلم .

وقدم العلم الخدمات العظيمة للانسان فى مجال الطب وحفظ الصحة وجلب السمادة للانسان بتخفيف الآلام البشرية وانقاص عنائها . فهذه أدوات التقدم العلمى تنتشر فى المستشفيات ، تقدم المساهمة الفعالة فى تحديد المرض ، وشاهد جهازا للتصوير بالأشعة وآخر لفحص العين وثالثا لاجراء التحاليل الطبية الى آخر ما هنالك مما يعجز عنه الحصر .

لقد سيطر الانسان بالعلم على كثير من الأمراض التى كانت تغتك بالناس وتودى بحياتهم ، وتقدمت صناعة الادوية بشكل مذهل ، وأصبحت الازمنة المختلفة لشتى الأمراض فى متناول الجميع . ومن منا لا يذهب للطبيب لطلب المعالجة ، وهل سلوكه هذا يتنافى تسليمه بالقضاء والقدر؟ انه يطلب العلاج كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كان للمسلمين جولات وجولات فى كل هذه الميادين ، وبذلوا أقصى مجهودهم وتوفروا على العلم يدافع من ايمانهم وأنهم يقومون بكل ذلك تقريبا الى الله سبحانه وتعالى وطلب ثوابه . ومن واجبتنا اليوم أن نساهم فى كسر

هذه المبادئ ونخوض غمارها دون خوف من العلم ووسائله ، ان المؤمن الصحيح الذى يسير بهدى من دينه ، يستطيع السيطرة على هذا العلم وتذليله ليقوم بخدمته ، لا أن يكون عداله كما هي الحال في الغرب، حيث أقاموا هياكل للعلم من دون الله وجعلوه معبودهم بعد أن تخلوا عن دينهم .

ان العلم يسمى لكشف حقائق الكون والسنن التى جعلها الله فيه ، والعلم لا يوجد شيئا من العدم ، انما وظيفته الكشف والاستفادة من هذا الكشف ، ومع تقدم العلم الهائل وما ينتظر له في المستقبل ، لن يمسك بالانسان الا لمعرفة بسيطة (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) . هذا العلم اذن هو من عند الله تفضل به على عباده والدين كله من عند الله ، فالكل من عند الله ، فهل نخشاه بعد ذلك ؟ ولا أريد أن أعدد فضائل العلم في مجال خدمة البشرية ، فلمس هذا غرضي ، انما قصدت التذليل على لزوم اتخاذه وسيلة للنهوض والرقى والتقدم ، محاطا بالعتيدة الدينية وتوجيهها حتى لا يحدث طغيان وانفلات أثناء المسيرة .

ان من واجب الدعاة أن يقوموا بتوضيح الموقف الدينى من كل هذه القضايا وأن يحثوا الأمة لتسلك الطريق العلمى السليم ، لتحقيق نهضتها ونفض غبار التخلف والضعف الذى يعترى جسم هذه الأمة . اننا في هذه المسيرة نحو النهوض نحتاج لأمرين لاغنى لأحدهما عن الآخر ، لنعود الى مركز الدائرة، ذلك المركز الذى ينبغي أن يكون من نصيبنا ، وهذا من واجب الداعية .

الأمر الاول : أن يدعو الى الاسلام كعتيدة وشريعة ، يبين محاسنها وأهميتها في الأخذ بهد الإنسانية الى طريق السعادة في الدنيا والآخرة . ويستعين بكل الوسائل الممكنة والصحيحة من حكمة وموعظة حسنة وجدال بالحسنى ، حتى يبعث القاعة في هذه الأمة بدينها ، ويبعث الاستعداد الروحى فيها .

والأمر الثاني: أن يسون موقف الاسلام وقدرته على قيادة الحياة وتنظيم شؤونها على أفضل صورة. فليست تعاليم الاسلام تقف على جانب واحد ، انما تهبط الانسان بخالفه ، وتقيم حياته في الدنيا بتوجيه العقيدة وتعالمها التي توافق فطرة الانسان ولا تغفل ناحية من نواحي تكوينه. فهي تنظم أموره الدنيوية والأخروية بتوازن دقيق محكم. والوعى التام برسالة الاسلام يقودهم الى ممارسة الحياة دون خوف أو وجل ماداموا مرتبطين بالأصل الايمانى .

ان العالم الاسلامى اذا أراد أن يضطلع برسالة الاسلام ويملك قيادة العالم فعليه " بالمقدرة الفائقة والاستعداد التام في العلوم والصناعات والتجارة وفن الحرب ، وأن يستغنى عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة ، وفي كل حاجة من الحاجات ، يقوت ويكسو نفسه ، ويصنع سلاحه ، وينظم شؤون حياته ، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها ، ويدبر حكوماته برجاله وماله ، ويمخر البحار المحيطة به بسفنه وأساطيله ، ويحارب العدو بهوارجه ودهاباته وأسلحة بلاده ، وتزيد صادراته عن وارداته ، ولا يحتاج للاستدانة من الغرب ، ولا يضطر الى أن يلبأ الى راية من راياته وينضم الى معسكر من معسكراته " (١) .

هذا هو الموقف الصحيح للداعية من قضية التفوق المادى ، يبين موقف الاسلام ويدعو الى حركة تصنيعية لتأمين التفوق العسكرى والاقتصادى . وأى موقف آخر لا يعبر عن طبيعة الاسلام ولا عن طبيعة أهدافه ومقاصده .

والحق أن الاستعمار يعنى مخاطر عودة الاسلام الى حياة المسلمين ، ويحرص كل الحرص على اقصائه من حياتهم حتى يضمن سيطرته عليهم . والمستشرقون يوحى من الاستعمار ، يركزون تهمهم للاسلام بأنه دين آخرى ، وليس له

(١) ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوى ،

علاقة بتنظيم الحياة ، أو يشككون في قدرته على هذه القيادة ، كما هو الحال بالنسبة للدين المسيحي أو الايمان بشكل عام . انهم بهـذا يريدون سلب الاسلام أهم مزاياه ، لذا فإن الاستعمار يسر كثيرا اذا ما رأى المسلمين يميلون الى العزلة وحياة التصوف والانطواء على النفس والاكتفاء بأداء الشعائر . والدلائل على ذلك كثيرة ، وهذا يفسر كثرة الدراسة الاستشراقية للحركات الصوفية في التاريخ الاسلامي واعجابهم بها ، حتى يوحوا بمنطقهم ومفترياتهم أنها تنطبق على الاسلام .

وقد لست بنفسى معاملة الكيان الصهيوني في فلسطين بوافر الاحترام والتقدير لأصحاب التكايا والزوايا ، وهم يمنحونهم من المميزات الشسي* الكثير اذا ما قيس بغيرهم ، ولا سبب يفسر هذه الظاهرة الا سرورهم بهذا الاتجاه المنعزل عن الحياة ، في الوقت الذي يجن جنونهم من موقف اسلامي آخر . * كان الاستعمار يحرص كل عام على معرفة عدد زوار السيد الهدوي ، وكان يطمئن حين يزيد عدد زواره عن مليون الى مليون ونصف ، وكانت التعليقات تصدر الى رجال الشرطة أن يفضوا الطرف عما يجري من مساخر ، وكان تشجيع الموالد والتكايا خطة مرسومة ، لأن هذه الدروشة هي اللون المطلوب الذي يريح المستعمر ، ولو أن المسلمين تحولوا الى التسبيح والصلاة طوال الليل والنهار ، لما غضب المستعمر ولا تحرك ، ولعله يساهم ببناء مزيد من الزوايا والتكايا والمساجد طالما أن من فيها يتركون له الدنيا ويعكفون على طلب الآخرة . انما يتحرك الاستعمار وتحرك أجهزة المخابرات للقتل حين يظهر عالم مسلم في الذرة ، ويطلق كثيرا لو نبغ أحد المسلمين في علوم الدنيا التي سادنا بها الاستعمار وتحكم فيها بسببها* (١) .

(١) جريدة الاهرام ، من مقال لأحمد بهجت ، عدد الخميس ، ١٢ أيار ١٩٨٢م

اننا بحاجة الى دعاة يتفهمون الاسلام على حقيقته ، ويقفون فسي وجه المفتريات والمطاعن التي توجه لهذا الدين ويردون عليها ، ويوضحون موقف الاسلام من قضايا الحياة والعلم والتقدم المادي الخادم للانسانية ، وأنه الدين الذي يرسم معالم الحياة الحقيقية للانسانية ، وأنه الدين الداعي لامتلاك القوة دفاعا عن الحق والحرية الانسانية . ان الظروف التي تمر بها أمتنا ظروف عصية تحتاج الى شد أزرها بالاسلام ، واعادة ثقة ابنائه به بعد طول اغتراب ، ان هو الوجه الحقيقي لهذه الأمة لاستعادة مكانتها واسترداد حقوقها المسلوبة ومكانتها السامية . انه العامل القوي الذي يقف في وجه المعتدى ويوحد الأمة . ولن يكون ذلك الا بالوعي التام لأهداف هذه الرسالة ، ومكانة العلم من تعاليمها وتوجيهها التي تقدم مادي سليم ، وأن هذا العلم علاقه من ضمن علاقات متداخلة بطالبيها بها الاسلام للبناء والتعمير .

ان معالم النهضة التي يرسمها الاسلام بحاجة الى من يزيل عنها بعض الغموض والمواقف الخاطئة ، سواء من جانب غلاة المسلمين المتعصبين الذين نظروا الى العلم بريبة ويطوه بالغرب واعتبروه على ذلك معاديا للاسلام . أو من بعض ابنائه المنتسبين اليه ، الذين أراذوا السير في طريق المستعمر ورفضوا الدين دون تمحيص ، بناء على رفض الغرب له . كذلك الوقوف في وجه المطاعن التي وجهها الاعداء ، واتهامه بأنه دين أخروي فقط وعدم صلاحيته في عصر كهذا . ولا ينهض بهذه المسؤولية الا الدعاة الذين جردوا أنفسهم لخدمة الحق والذين يقومون بالدعوة الى الله على بصيرة .

ان هذا الميدان من ميادين الدعوة فرضته ظروف العصر ، وطبيعة التهم والمطاعن الموجهة للاسلام ، كذلك حاجة المسلمين الى امتلاك الصناعة والتكنولوجيا ليكتمل لهل الفضل ويستعينوا على مواجهة أعدائهم والتغلب

على ضعفهم . ولن يطعن هذا الميدان على ميادين الدعوة الأخرى ،
ولن يكون على حسابها ، إنما طبيعة الموضوع في هذه الرسالة جعلتني
أخصص الكلام في هذا المجال ونسأل الله أن يسوق لهذه الأمة مسنن
يعيد لها أمر رشدها ، وأن يسوق لدعوة الإسلام من يخلص لها .

سبل تحقيق التقدم المادى

ان الأمة الاسلاميه تسر الآن بمرحلة تخلف مادي ، وهذا أمر ملموس في جميع البلاد الاسلامية وقد انعكس هذا التخلف على جميع مظاهر الحياة في الأمة الاسلامية ، وجعلها في موقف صعب في مقابل الأمم متقدمة في النواحي العلمية والتكنولوجية ، فأصبحت هناك دول قوية وأخرى ضعيفة والأولى تتحكم في مصائر الثانية في النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية وفي جميع المجالات ونشاهد مظاهر التحكم حتى في لقمة العيش ، ولن ينتظر من هذه الدول المتقدمة ماديا أن تغسب نظرتها الى الشعوب الأخرى لا على المدى القريب ولا البعيد ، وهذا يسدو أمرا طبيعيا بالنسبة لأناس يحكمون بغير ما أنزل الله ، فلا بد أن يقع التظالم والأثره والاسياد .

والأمة الاسلامية صاحبة الرسالة الخالدة وذات التاريخ المجيد ، لا يليق بها أن تبقى في هذا الموقع المتخلف من حيث أراد لها الاسلام أن تكون في مقدمة الصنوف . انها ان بقيت كذلك فلن تكون متمسكة بما أراد الله لها ، ولن تكون في موضع التكليف الذي شرفها الله به . أراد الله لها أن تتحمل أمانة الرسالة وتبلغها الى الناس جميعا ، ومن واجبها نشر هذه الرسالة بكل مضامينها ، وبالتالي يجب ان تتصدر قيادة العالم الى الخير والعدل والحرية من خلال تبليغها لمنهج الله ابتداءً بعقيدة التوحيد ومسئورا بالنظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والعمرانى وانتهاءً بتفصيلات الأمور ذات الطابع الاخلاقى . وان كنا نسعى للوصول الى مرحلة متقدمة في هذا المجال ، لابد من عبور الهوة السحيقة التى تفمانا عن البلدان المتقدمة صناعيا ، وهذا يقتضى منا جهدا كبيرا متواصلا لا يعرف الكسل أو اللئ . ولكن ما الطريق الذى نسلكه للوصول الى هذه المرحلة .

لقد كثرت الآراء والاجتهادات في هذا السبيل ، وسنعرض لبعض ملامح هذه الآراء غشها وسمينها حتى نصل الى خير السبل لتحقيق ذلك ، لأن وضوح الآراء شيء أساسي لرسم الاهداف والبدء في الطريق الصحيح للوصول الى هذه النهضة والى هذا التقدم . ويبدو أن للزمن قيمة فريدة في هذا العصر بالذات الذي بدأ فيه التسارع التكنولوجي على أشده في أنحاء كثيرة من العالم ، ونحن غافلون تماما عن كل ذلك .

وصلتنا حضارة الغرب والأمة في حالة سبات عميق ، تفصلها هوة عن الغرب وما كان يجري فيه ، وفوجئت مجتمعاتنا بالتفوق الآلي الغربي أثر مجيئه الى الشرق الاسلامي في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، واستمر الحال الى وقتنا الحاضر . وجاء الغرب الينا وعينه على العقيدة التي بشها الاسلام في نفوسنا ، وبخشي من هذه العقيدة أن تعود الينا ونصحو بها ، فقام بمحاولات شتى وبخطط مدروسة ليسلخنا عن الاسلام حتى يؤمن السيطرة على هذه الشعوب التي تدين بالاسلام ، وبالتالي يضمن عدم مقاومته ويضمن استمرارنا في حالة التخلف حتى نبقى سوقا استهلاكيها لمنتجاته وآلاته .

وقد أوجد الاستعمار طبقه من أبناء المسلمين وغيرهم انههرت بحضارة الغرب وأعجبت بها أيما اعجاب ، وأصبح هؤلاء رسل الغرب بالدعوة في السير على طريقته . ويطلق على هذه الفئة بالمتغربين ، وهؤلاء يرون أن تحقيق التقدم لا يكون الا بالتغريب الكامل ، ونسبوا كل قصور فينا الى الاسلام من واقع جهلهم أو عدائهم للاسلام . ويعتبر هذا الفريق " الحضارة كمجرى نهر ، يمكن أن تشق ترعة لمياهه حتى تجري في أرضك ، وترتسوى وترتبط بالنهر في ذات الوقت . وأن كل محاولة للانفصال عن مجرى التقدم هو زيادة في الظلم الحضاري ، وأن الحضارة أو التقدم كل لا يتجزأ ، فلا يسعنا أن ننقل صناعة أوروبا ، ودون الفلسفة الأوروبية ، والسلوك الاوروسي ،

والأخلاقيات الأوروبية ، والقيم والعادات الأوروبية ، وهذا يعني طبعاً الانسلاخ عن جذورنا وعماض حضارتنا * (١) .

وهذا الرأي ضد منطق الأشياء ، ولا يحقق التقدم بطبيعة الحال ، لأن هذا التقدم لابد أن تسبقه عوامل متعددة للوصول الى هذه المرحلة . وأوروبا نفسها ما وصلت الى هذه المرحلة الا بعد زمن طويل من المعاناة والعمل الشاق والأخذ بالعلم وصاحبه تغيرات فكرية واجتماعية ، وبأنتسى هوءلاء وكان الامر في غاية السهولة ، يطالبون بشق ترعة لا يعال الحضارة الهنا دون الحاجة الى معاناة وجهد كبيرين .

ان هذا الرأي عند تطبيق هذه النظرة يتحول الى مجرد نقل لاسلوب الحياة الغربية كقطعة بدء لهذه المسيرة نظراً لصعوبة نقل العلوم والصناعة . والبعض الآخر يقول ان نقل اسلوب الحياة الغربية ، والفكر الغربي سيقوم في بلادنا الصانع . ووصل الأمر بآخرين الى القول بأننا لانحتاج لنقل الصناعة مادنا سنصبح جزءاً من هذه الحضارة نساهم فيها بما أتاحت لنا ظروفنا ، ونستمتع بآخر كلمة فيها دون حاجة بنا الى تكرار نفس الخطوات التي سلكتها هذه الدول . (٢)

ان التجارب التي حصلت عند بعض الشعوب من اتبعوا هذا الطريق ، أكدت أن نقل القيم أو أسلوب الحياة الغربي ، هو الذي يشل القدرة ، بل وحتى الرغبة الجادة في تحقيق التصنيع أو انجاز الثورة التحضيرية الحقيقية . وان دعوة التغريب في الحقيقة لاتهدف الا الى منعنا من تحقيق التحديث الحقيقي ، وأن الدول الغربية المتقدمة ، أو الدول الكبرى ذات مصلحة مباشرة في منعنا من تحقيق هذا التحديث .

(١) ودخلت الخيل الأزهر ، محمد جلال كشك ، الدار العلمية ، ط ١
١٩٧٢ م ، ص ٢٢٧

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ان الاستعمار في كل صوره القديمة والحديثة هو العقبة الكبرى التي حالت دون تحقيق التحديث في الشرق ، لأن ذلك ليس في مصلحتنا ، وقد حاولت الدول الاستعمارية (شرقية وغربية) بشتى الوسائل منع ظهور نهضة حقيقية في بلادنا ، من استعمال للسلاح الى دعاية منظمة لقبول فكرة التفرغ أو التحديث في السلوك والأخلاق وأسلوب المعيشة. أما التصنيع فلا .

ان دعاة التفرغ لا يحرصون بدعوتهم هذه الا على استيراد بعض منتجات هذه الحضارة وهم بذلك يساهمون في القضاء على الروح الأصيلة في الشعوب الاسلامية التي تدفعهم الى النهوض والتقدم ان هم أعادوا الثقة الى أنفسهم . كما أن أعداء التقدم الذي ننشده يحرصون كل الحرص على تجريدنا من العقيدة أولا ، ويطالبون بأخذ الحضارة الغربية جملة فني التكنولوجيا مع الدين ، الصناعة مع الفلسفة مع الفن مع الأدب. وهذا يؤدي بنا الى فقد مقوماتنا الشخصية ، وقد أهم عامل يدفعنا الى دور حضارى متميز .

وليس هناك من أمة استطاعت تحقيق التقدم من خلال اعتناق فلسفة المجتمعات المتقدمة ، وخير مثال نسوقه هنا حال الامة العربية الاسلامية في عهدها الأول ، فقد استمدت من عقيدتها مصدر نهضتها ، وكانت الحساسية بالغة في بداية الأمر من أى تقليد للفرس أو الروم ، بحيث توجه التهم التي هوّلاهم بأنهم جعلوها كسروية أو قيصرية ، وهم بذلك حافظوا على نقاء الحياة الاسلامية وأحاطوها بسياج قوى ما أدى الى قيام حضارة متميزة .

والحفسارة الغربية نفسها كانت في حالة عداة كبير للعقيدة الاسلامية ، وتاريخ حروبها مع المسلمين معروفة ، (الحروب الصليبية) بحيث وضعت سدا أطم المعتقدات الاسلامية في الوقت الذي أخذت من الحضارة الاسلامية ما أعانها على النهوض والتقدم وخاصة في مجال العلوم. كذلك اليابان في

نهضتها الحديثة ، فقد اقتبست التكنولوجيا في نفس الوقت الذي حافظ فيه اليابانيون على معتقداتهم ، وبنوا بجانب كل مصنع معبدا ، وحافظوا على تقاليدهم وعاداتهم وشخصيتهم المتميزة ، ووصلوا الى آفاق من العلم تفوقوا في كثير من جوانبه على الدول الغربية نفسها . فكيف اذن يراد من الامة الاسلامية أن تتخلى عن عقيدتها كشرط أولى لتحقيق النهضة؟ وهو في الحقيقة العامل الرئيسي في تحقيق أى تقدم منشود . " لقد دعا الاسلام معتنقيه الى معارضة التقليد الأجنبي ، وتحرير الشخصية الاسلامية من كل ما يزيئها ، وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعهم متميزه ، وأعلن لذلك حربا لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية ، وحكم على من تشبه بقوم أنه انفصل عن أهله ... ولقد أكد المؤرخون بأن التقليد في مراحل الضعف انما يكون في جوانب الهدم والانحلال ، ذلك أن أصحاب الاسرار العلمية من المستعمرين لا يعطون الشعوب المحتلة غير فترات الموائد وهرق الرغبات ما يعمل على تحطيم المقومات ، وتدمير الاصول الثابتة للنفس البشرية^(١) . انهم يريدون تزييف القيم الاسلامية حتى نتنكر لها ، وهذا يقود الى هدف آخر وهو بث الهزيمة واليأس والشك ، لأنه بتخلينا عن القيم الاسلامية نفقد شخصيتنا وانتمائنا الحضارى العريق ، وهم يفهمون أن الاسلام يعمل على بناء المجتمع علميا وتكنولوجيا من خلال الاخلاق ، وفي اطار العقيدة والايمان بالله ولا يفصلها . فاذا تحطمت القيم والاخلاق ، فقدت الرغبة في الجانب الآخر ، وصاحبنا اليأس وأصبحنا تبعا .

ان كل الدعوات التي تطالب بالتقدم المادى وتقضي الدين من طريقها ، هي دعوات قاصرة عن فهم الدين الاسلامى فيها صحيحا أو أنها تفتح ذلك هدفا من وراء دعوتها ، وهي بالتالى لاتقصد الا زحزحة العقيدة الاسلامية

(١) شبهات التغريب في غزو الفكر الاسلامى ، أنور الجندى ، المكتب الاسلامى
١٨٠ ص ١٩٧٨/١٣٩٨

من نفوس أبنائها حقدا على هذا الدين أو تقليدا للغرب وتأثرا به . وهذه الدعوات مرفوضة وغير صالحة لتحقيق تقدم مشود ، وهي دعوات قاصرة عن محاولة الفهم العميق لأسباب التخلف وأسباب التقدم والرقى .

ان طريقنا لتحقيق التقدم المادى لا يتم الا بتبين أمور مهمة :

أولها : التمسك بالفكر الاسلامى كعقيدة وقيم واتخاذها منطلقا نحو تحقيق هذا التقدم ، وتكون الدافع الاساسى الذى يدفعنا دائما فى طريق البناء ومواصلته دون كلل أو ملل . انه بدون الايمان بهذه العقيدة التى تشكل شخصيتنا وتفكيرنا وأسلوبنا فى الحياة ، لن نجد الدافع الذى يدفعنا الى سلوك هذا الطريق الشاق ، وسنفتقد الرغبة فى البناء الحضارى والدور القيادى . انه الحماية لنا من التخاذل والخسوف والتكاسل ، انه الذى يزرع الثقة فى النفوس لمواصلة العمل الحضارى .

وثانيها : ان هذه الروح الايمانية ستوجه جميع الجهود الى الطريق الصحيح والى الهدف السليم ، وتوهم الطريق القويم ، فهى التى ترسم الاهداف وتوضح معالم الطريق وتوظف كل ذلك فى طريق الخير والتفتح بالقوة اللازمة لحماية الامة ، وتحقيق سعادتها ورفاهيتها ، لا كما تفعل الامم المتقدمة الاخرى التى ما أفزرت الا الدمار والخراب والسمم فى الفساد فى طريق سيطرتها على ثروات الامم والتحكم فى مآثرها لتحقيق اهدافها العدوانية وغرائزها الأنانية .

وثالثها : هو توظيف هذا التقدم لخدمة المجتمع البشرى ، ولبيان عدالة الاسلام وصلاحيه نظامه لكل البشرية ، مما يجعل الآخرين يتعشقون هذا الدين ويسعون الى الانتماء اليه طلبا لسعادتهم فى الدارين .

أما اذا أراد العالم الاسلامى من تحقيق التقدم المادى كما أرادت أوروبا ، ولا يطمح الا فيها تطمح اليه أوروبا من حطام الدنيا ، ولا يؤمن الا بما تؤمن به أوروبا من المحسوسات والماديات ، كانت أوروبا بقوةها المادية أحق بالانتصار

والسيادة من العالم الاسلامي الذي يتخلف عنها في القوة المادية تغلغا شائنا ولا يفوقها في القوة البدنية " (١) .

ان تحقيق التقدم يتم عن طريق عقيدة هذه الأمة وفكرها ، هذه العقيدة وهذا الفكر يتثل بالاسلام ، الذي هو روح الامة ومصدر وجودها واستمرارها ، انه الدين الذي يمتزج فيه الجانب الروحي الاخلاقي مع الجانب المادي الجسدي في الوقت نفسه ، دون انفصال أو تجزئة ، أنه تمازج بلا تقابل . ففي الوقت الذي يسعى فيه لتحقيق مستوى روحى عال للانسان على الارض ، يسعى في الوقت نفسه الى تسخير قوانين الطبيعة لتحقيق نفس الدرجة من التقدم على المستوى المادي (المادى) . انه ذلك الموقف الشمولى المترابط الذى يرفض التقطيع والتجزئ (٢) . وهذا الترابط الشديد بين قيم الروح والمادة ظهر جليا في معالم الحضارة الاسلامية التى حافظت على هذه العلاقة ، ما جعلها حضارة فريدة في التاريخ كله ، برزت في الجانب الروحي وفي جانب تعاملها مع الطبيعة .

والقرآن الكريم عندما يتكلم عن مسألة طبيعية أو مادية ، يربطها بأفعال التقوى والايمان حفاظا على التوازن الذى يرفض الانحراف أو السكون بسين تجرئى الروح والمادة ، ولا تنحرف باتجاه احدهما واهمال الاخرى ، بحيث تبقى حركة دائمة تأخذ الاتجاه السليم ولا تتعادي كما يحصل في كل المذاهب الوضعية أو الديانات المحرفة . يقول تعالى : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبثنا به جنات وحب الحميد . والنخل باسقات لها طلع نضيد " (٣) . يقول الفزوي في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ،

(١) ماذا خسر العالم بنحطاط المسلمين ، ابوالحسن الندوى ، دار القلم ، ط ٩ ، ١٣٩٣ هـ ، ص ٢٨٨

(٢) العقل السليم والروية الحضارية ، د. محمد الدين خليل ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ ، دار الحرمين للدوحة . ص ٢٥

(٣) ق : ٦ - ١٠

وليس المقصود بالنظر مجرد تقليب الحدقة ، فان الحيوانات تفعل ذلك (١) ، ويقول تعالى : " قل سمروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق " (٢). والآيات كثيرة تدعونا الى النظر والتفكر في خلق الله وفي مظاهر الطبيعة مع ربطها ببيان قدرة الله وعظمته ووحدانيته .

وأمر آخر وهو أن الله سبحانه وتعالى هياً الارض لتكون صالحمة لممارسة الدور الانساني ، وهذه التهيئة سبقت وجود الانسان على الارض ، وهذا يدل على القصد والغاية . قال تعالى : " قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم " (٣) . ولو أن الله مهد هذا العالم تمهيدا كاملا للانسان بأن كشف عن قوانينه وأساره ، لأسلم الانسان الى الكسـل ، ان لا يجد الدافع عندئذ من ممارسة الابداع . وفي المقابل لم يجعل هذا العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض يعجز الانسان عن الاستجابة والابداع ، لأن كلا الموقفين ضد كون الانسان خليفة مطالب باعمار الأرض . لم يبق اذن حجة للانسان المسلم من الوقوف السلبي أمام الطبيعة أو الاحتقار أو الاستعلاء لها ، لأن هذه المواقف مرفوضة في نظر الدين الاسلامي ، ولم يبق له حجة في السعي الى تفهم أسرار الطبيعة وتحقيق التقدم العلمي والصناعي ، خاصة وأن هذا الكون موضوع للتسخير والاستفادة ، والانسان من طرف آخر مكرم وسيد ومعطى

(١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، للدكتور عبد الحليم منتصر ، ص ٢٠٣
 (٢) العنكبوت : ٢٠
 (٣) فصلت : ٩-١٢

من الله قدرات عقلية وجسدية وإرادة حرة . * ان الآيات المتعددة في القرآن التي تناولت الحديث عن الكون والطبيعة والعالم وتسخير السماوات والارض ، ووسائل الرزق والكسب والسمي ، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية ، والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشرى على الارض ولأداء مهمته كخليفة جاء لاعمار العالم ، ونداءات التسليح واعتماد القوة المادية - الى جانب القوى الروحية - لصد العدوان ، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة ، وتنظيمات الحياة اليومية المشبعة وغيره كثير ، تأكيد واضح تماما للأهمية التي يوليها القرآن الكريم للجانب المادى ، الا أنه يضع في صميم هذه العلاقات ، ولا نقول في مواجهتها ، ان الرواية الاسلامية ترفض الثنائية والازدواج ، يضع قضايا الروح والقيم والاهداف البشرية العليا التي تحفظ توازن الموقف البشرى في الارض، وتمكسه من أداء مهمة الاستخلاف التي أنيطت به * (١) . والاسلام حين يطالب بالتقدم المادى ، لا يهدف من ذلك الى تحقيق رغبات النفس ، انما يقصد من ذلك تهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله، ما يفضى الطابع الاخلاقي عليه عكس ما نشاهد عند الأمم الاخرى من طلب التقدم المادى والسمي اليه . ولا يقصد في العبادة هنا على معناها المخصوص وهو أداء الشعائر فقط، انما هي تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء وتغدو أشبهه بالبرنامج الشامل الذى ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الارض ، وينحها معنى ، ويسير بها الى هدف واضح مرسوم * (٢) .

ان هذا الموقف الاسلامي يؤمن الغطاء الفكرى والمعنوى للأمة الاسلامية، ويدعوها للعمل على جميع المستويات . ويدفعها للبذل والعطاء ، ويوحدها جهودها ، ويعطيها الدافع لمواصلة التقدم ، ويعطي أعمالها الخيرة الطابع الدينى الذى يثاب عليه المسلم اذا ما مارسه بناء على ما طلبه الله وكلفه به .

(١) العقل السليم والرواية الحضارية ، مرجع سابق ، ص ٢٩

(٢) العقل المسلم والرواية الحضارية ، مرجع سابق ، ص ١٩

هذا هو أول الطريق الصحيح للوصول الى مرحلة التصنيع المطلوب، وهذا هو العنصر الأساسي والعامل الأهم في الدفع الحضاري، ولا يمكننا أن نحقق ثورة صناعية في ظل نظام يرتبط روحيا بالغرب أو الشيوعية، لأن مثل هذه التبعية تشمل قدرة الأمة^(١). وخطوة أخرى في طريق الاسلام نحو الحركة الحضارية والتقدم العلمي، هي تحديد الاهداف ورسم المنهج الأمثل مع ايراد حقائق علمية، ثم تطبيقات علمية تقيمية. والاسلام في دعوته الى العلم والتعلم والحث على العمل الصناعي والعمراني وعلى الاختراع والابتكار رسم الأهداف من وراء كل ذلك، ألا وهي الوصول الى معرفة الله، وتوظيف هذه المعارف وهذه العلوم لصالح الانسان وإعمار الأرض كما أراد الله. أما المنهج الذي سلكه في ذلك، فهو ما يسمى بالمنهج التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة لضمان الوصول الى أحسن النتائج. وقد ثبت أن هذا المنهج هو ابتكار اسلامي وعندهم أخذت أوروبا هذا المنهج لتوصله الى القمة. وما يتعلق بالحقائق العلمية، فقد أورد القرآن الكثير منها، وفي كل يوم يتكشف جوانب من هذه الحقائق وهذا الاعجاز الرائع. أما قضية النماذج التطبيقية التكنولوجية، فهي تبدو في اشارة القرآن الى داود عليه السلام باستعمال الحديد وتعليمه كيف يلون هذه المادة لتصبح صالحة لشتى الاستعمالات الحربية وغيرها. قال تعالى: "ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سبغات وقدر في السرد، واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير"^(٢).

لقد كشف الله له الطاقات وسخرها له لكي يبني ويعمر ويشيد ملكه، وهو نبي مؤمن، وينوجه بالشكر على ما أنعم عليه من هذا الفضل والعلم. ونذكر هنا أيضا قصة نبي القريين حين بنى السد "آتوني زبر الحديد حتى

(١) - طريق المسلمين الى الثورة الصناعية، محمد جلال كشك، دار الارشاد، بيروت ومكتبة الأمل، الكويت، ص ٧٨، وهي محاضرة أقيمت في ندوة التعرف بالفكر الاسلامي بالجزائر عام ١٩٦٩م.

(٢) سبأ : ١٠-١١

إذا ساوى بين الصديقين قال انغخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرع عليه قطرا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقما" (١) .
 وقوله تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " (٢) . " لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز " (٣) .

عند قراءة هذه الآيات والنظر العميق فيها ، لا يبقى مجال للشك في صحة الموقف الاسلامي من قضية التقدم المادي الصناعي ، واعتماد العلم للوصول الى هذه المرحلة . اننا حين نطالب المجتمع الاسلامي بالسير في هذا الطريق لانكون الا منفيين لأمر الله ومطالبين بتطبيق مفاهيم الاسلام بأبعادها الروحية والمادية ، وان أى موقف يخالف هذا المنطق ستوجه التهم الى العقول التي لم تستوعب الاسلام على حقيقته ، لا الى الاسلام ، وبالتالي يجب المطالبة باعادة تشكيل هذه العقول على ضوء المفاهيم الاسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة بالدرجة الاولى . ومن هنا نبدأ بدعوة العقول السليمة بالتوجه الى الطبيعة والكشف عن السنن التي تحكمها حتى تستحيل الطاقة الى حركة وفعل وتطبيق وابداع ، بدل هذا البكون والخوف والترقب .

انه في مرحلة التطبيق العملي لقيام صناعة متقدمة وتقدم مادي عام لا يبد من عملية تغير داخلية ذاتية تمتد الى كافة المساحات وسائر المكونات النفسية الاساسية : العقلية والروحية والجسدية ، لمواجهة الاحداث والتغلب على وعورات الطريق ومواصلة التقدم الحضارى بشكل عام . قال تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٤) . ان عملية التغير هذه لا يبد

-
- (١) الكهف : ٩٦ - ٩٧
 (٢) الانفال : ٦٠
 (٣) الحديد : ٢٥
 (٤) الرعد : ١١

أن تكون شامله متعددة الجوانب ، فلا يكفي بالتزام القيم الخلقية والروحية وحدها ، أو التغيير في الجانب العقلي والمادى ، إنما هو تغيير يشمل كل ذلك (١) .

وفيما يختص بالخطوات العملية لبناء تقدم مادي سليم ، بعد أن أوضحنا الفكر الاسلامي فيها يخص هذا التقدم ، وأنه يوفر الدعم النفسى والفكرى لهذه الأمة لتتطلق بكامل الوشوق في صحة خطواتها ، فإن أول التوجيهات يجب أن تتجه الى العلم ، والاهتمام به ، والحرص على السير في طريقه . وأول المحاولات يجب أن تتجه الى القضاء على الأمية المتفشية بين طبقات الأمة وذلك بفتح المدارس واستغلال جميع الوسائل المتاحة للخلاص من هذا الداء الخطير ، وينبغي أن توضع لذلك برامج زمنية محددة وتخطيط منظم لكل أوجه هذه المشكلة . وعليها في الوقت نفسه تقدير العلم وأهله وتوفير كل جهد ممكن ومناسب لرعاية العلماء وتنمية المواهب المستجدة ورعايتها ، مع بث الروح العلمية لدى الطلاب في مدارسهم وجامعاتهم ، ومراعاة الشاغل الدراسي والنظرفيها لتخدم هذه الاهداف . واليابان نفسها نهضتها الحديثة ، أعلنت من شأن مدرستها وقدرتهم حق قدرهم وأعطتهم رواتب عالية يقارب رواتب الوزراء ، وذلك لوعيهم بالدور الخطير الذى يقومون به نحو تنشئة الجيل الماعد وتوجيهه . والخطوة الأخرى هي الاهتمام بالترجمة لنقل البحوث العلمية الى اللغة العربية في كل فروع المعرفة العلمية ، مع بذل الجهود لايجاد المصطلحات العلمية باللغة العربية ووضع معجم علمى عربى موحد للمصطلحات الفنية المختلفة يكون مرجعا أساسيا لكافة المترجمين . ثم توجيه الاهتمام نحو البحوث العلمية المبتكرة في مجال العلوم الطبيعية ، ومتابعتها وتعريف المختصين بها ليكونوا على اطلاع على تطورات هذه العلوم ومنجزاتها . ثم انشاء مراكز للبحث العلمى مــــع تزويدها بالمراجع والأجهزة حتى يمكنها متابعة البحث وتحقيق التقدم العلمى

(١) العقل المسلم والروية الحضارية ، مرجع سابق ، ص ٣٨

المنشود في العلوم الكيميائية والصناعية وتطبيق التقنيات الحديثة في كل مراحل البحث. (١) ولا بد لتحقيق هذه المنجزات من تعاون الدول العربية والاسلامية وتبادل الخبرات وبذل كل ما يلزم من مال في هذا السبيل ، مع عدم استعجال لنتائج هذه البحوث والمراكز ، لأن مثل هذه الأمور تحتاج الى وقت لهدأ أثرها وانجازاتها بالظهور بشكل فعال . ولدفع هذه الاتجاهات والصناعات نحو التحقيق والنجاح لا بد من ضمها بالمعارف والانسانية المختلفة ، بالاضافة الى ثقافة الأمة من لغة وأدب وتاريخ ، " فالجماعة التي لا تملك حصيلة علمية كافية من ذلك كله ، لا يمكنها أن تتصور وجه الاستفادة من نواثر العلوم والصناعات ، بل لا يمكنها أن تستهدف أي غاية علمية تسيطر على كيانها وورغاتها بالدفع والتحميس " . (٢)

ونحتاج الى تخطيط علمي منظم لكل ما نعمل ، وما نحن في سبيل عمله ، وما نحن بحاجة اليه حتى يسير عملنا وفق هذا التخطيط وضمن رؤية سليمة . انه بدون هذا التخطيط السليم لا يتحقق النجاح المطلوب ، ما يضعنا في مشاكل لا حصر لها . والدول العربية والاسلامية بحاجة الى تعاون فيما بينهما ، في مجال التعاون العلمي وتبادل الخبرات من خلال قيادات تسعى لتحقيق التقدم المنشود وتعمل بجهود متواصلة لتحقيق ذلك ، مع بث الوعي المستمر بين الشعوب الاسلامية لضرورة ذلك ، وزرع الثقة في نفوس الناس بأهمية هذا العمل حتى تتوجه الجهود من خلال الاخلاص والتفحية التي لا بد منها لعبور سليم نحو التقدم المادي . والتحديات المعاصرة تفرض على الأمة الاسلامية سرعة الاستجابة والاتجاه الى مقاومتها ، والتغلب عليها ، وعلى رأس هذه التحديات العدو الصهيوني المترص بالمسلمين ، ان التحدي المتمثل بالعدو الصهيوني يوجب على هذه الأمة أن توحد جهودها وأن تقاوم هذا الغزو ،

(١) يراجع في ذلك بحث الدكتور عبد الحلیم منتصر " التضامن الاسلامي في المجال العلمي " ، مرجع سابق .

(٢) من المسؤول عن تخلف المسلمين ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، مكتبة الفارابي دمشق ، ط ١٣٩٧ هـ ، ص ٦٦

وأن التقدم المنشود يتم من خلال هذه المقاومة ، ومن رفض الوجود الاستعماري على الارض الاسلامية . ومن هنا أصبح من الواجب استغلال الطاقة الروحية في عملية البناء والرقى الحضارى لتحقيق القوة المنشودة كما أراد الله للأمة الاسلامية " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " هذه القوة التي تتنوع من قوة في السلاح الى قوة في الاقتصاد الى قوة في العلم والسياسة كل قوة تلزم الأمة لحفظ كيانها وصيانة حقوقها وأوطانها .

ان طريق التقدم ليس مفروشا بالورود ، بل لابد من الجهد الشاق والعمل المضني المتواصل ، للوصول الى مرحلة متقدمة من التصنيع والتحقيق بالقوة ، ولن يجعل هذه الجهود هينة رغم مشقتها الا هدف واضح مسن وراء البناء الا وهو العقيدة السليمة التي هي عنوان هذه الأمة ، وان هذا البناء هو لصالح الاسلام والدعوة الى الله . ان التقدم المادي الحقيقي يتم عن طريق البدء بحركة التصنيع ، لا باستيراد منتجات الحضارة الغربية ، فان ذلك لا يصنع تقدما ، ولا يتم بعملية تغريب تفقد الأمة روحها ودايمها الى التقدم ، انما يتم عن طريق استغلال الطاقة الروحية للأمة المتمثلة بالاسلام ، ومنهجها الشامل في البناء الحضارى المتميز ، عندها لا مانع من الاستفادة من تكنولوجيا الغرب وتقدمه العلمي ، مع رفض قاطع لفكره وعقائده وأسلوب حياته (١) ، لأنها أمور لا تصنع حضارة أبدا ، بل تكون عاملا هادما لكل تقدم نسمي اليه . انه بالاسلام الذي يشكل عقيدة هذه الأمة وروحها يتم حشد كل الطاقات ، مع الانفصال القام عن عقائد الشرق والغرب ، مع الايمان بمعادلة وصدق هذه الرسالة ، سيكون عمور الطريق الى صناعة حقيقية . وعندما تكتمل لدينا طرفنا المعادلة ، ايمان وعقيدة سليمة مع تقدم مادي سليم ستتحقق لنا القوة المطلوبة لحماية الأمة والدعوة الاسلامية من أعداء مترهبين دائما ، وسيحقق بان الله النصر لهذه الأمة ولعقيدتها ، وتنتشر نسي بقاع العالم .

(١) طريق المسلمين الى الثورة الصناعية ، مرجع سابق ، ص ٢٨-٢٩

العلم في خدمة الدعوة

ان القرآن الكريم حجة الله البالغة على عباده ، وهو معجزة دائمة للخلق جميعا ، والاعجاز العلمي هو جانب واحد من اعجاز القرآن ، وهذا الاعجاز العلمي بالمعنى الواسع ، يشمل الناحية النفسية ، وكيف اقتاد القرآن النفس ويقودها طبق قوانين فطرتها . وتشمل الناحية التشريعية ، وكيف نزلت أحكام القرآن طبق قوانين الفطرة للأفراد والجماعات ، كما يشمل الناحية التاريخية والناحية الكونية .

واظهار الاعجاز في هذه النواحي يتطلب من المسلمين أن يمشروا عن سواعد الجد ويطلبوا هذه العلوم ليستعينوا بها على تفهم آيات القرآن واستظهار أسرارها ، وبالتالي الدعوة الى دين الله القويم ، لأن ما جاء في القرآن يؤيده العلم الحديث ما يعني أنه كلام لا يستطيع بشر أن يأتيه ، فهو اذن من عند الله الذي خلق هذا الكون بقدرته وعظيم حكمته .

ان القضية الاساسية في الدين الاسلامي هي الايمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ولذا كانت أول المهام التي قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام في دعوته الى الاسلام . لقد كانت عقيدة الشرك هي المسيطرة على عقول الناس في الزمن القديم ، وكانوا يعترفون بوجود الله ، ولكنهم يشركون معه قوى أخرى تدبر الكون . يقول تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله " (١) . ولقد استطاع الرسول تحطيم هذه العقيدة ونشر عقيدة التوحيد الخالص ، وذلك يكون الاسلام قد أزال خرافات كثيرة سيطرت على عقول البشر حقا طويلة من الزمن ، وأزاح عن الكون مظاهر التقديس والخوف ، وأحل محل ذلك تسخير الكون للإنسان ، ووضعه موضع

الانتفاع ، وأوجد علاقة مودة بين الانسان ومظاهر الطبيعة . لقد أحدثت هذه النظرة ثورة فكرية شاملة (١) ، وانطلق المسلمون على أثرها من نفس التعامل مع الكون والسعى الى تحصيل العلوم لتسخير منافع هذا الكون لصالح الانسان ، وكما أراد الله سبحانه وتعالى . وأدى ذلك الى كشف الطبيعة أمام البحث والدراسة ما أدى الى بروز حضارة عظيمة .

ومن الناحية العلمية ، فان هذه النظرة الى الكون أبطلت الفكر اللاعلمي الذي كان سائدا من قبل ، والذي كان يتقبل فيه الناس الخرافات كأنها حقائق علمية لا يستطيعون مناقشتها . وامتد هذا التأثير الفكري عبر التاريخ رويدا رويدا ، حتى وصل الى الغرب بطرق مختلفة وأدى الى التأثير من نفس نهضتهم الحالية وفي طريقة تفكيرهم ، حتى وصلوا عن طريق المنهج التجريبي - الذي هو منهج اسلامي - الى ما وصلوا اليه الآن من كشوفات واختراعات وتقدم علمي باهر .

انه بهذا التأثير البالغ بدأت العلوم تأخذ مجراها نحو العمود والتقدم ، وكان من المفروض أن تكون هذه العلوم والاكتشافات الكونية دليلا من البداية الى عظمة الخالق ووحدانيته . ولكن طبيعة العداوة الشديدة الذي وقع بين رجال الكنيسة والعلماء في بداية عصر النهضة الاوروبية وامتد الى أكثر من قرن من الزمان ، قد أدى الى قيام خصام شديد بين الكنيسة ورجال العلم . لقد أذكى نيران هذه العداوة ما قام به رجال الكنيسة من حرب للعلم والعلماء وصلت الى درجة احراقهم ، وهذا أمر معروف ولا يخفى على أحد ، ومن جانب آخر فقد اصطدم العلماء بأمر جاءت في الدين المسيحي نفسه تتنافى مع العقل تماما وتتعارض مع حقائق الكون ، بالاضافة الى عقائد غير مقبولة في الدين المسيحي وخاصة عقيدة التثليث وصكوك الغفران والخطيئة الى آخر هذه الأمور المحرفة والمنافية للدين المسيحي كما جاء من عند الله . وكان من نتيجة ذلك أن حصلت القطيعة بين رجال

(١) امكانات جديدة للدعوة ، وحيد الدين خان ، دار النفايس ط ١٩٧٨ م ، ص ٥ وما بعدها .

العلم والدين المسيحي مثلا برجال الكنيسة وبعض تعاليمه الآتفة الذكر ، وهذا الموقف أدى بالعلماء الى تطرف كبير عندما رفضوا الدين ككل وآمنوا بالعلم وحده ، وأقاموه مقام الاله الذى نفاه البعض من تفكيرهم .

وهذا الموقف يختلف تماما بالنسبة الى الدين الاسلامى ، فالآيات الكونية فى القرآن ليس فيها شيء مما أضل الغرب عن دينه ، ولا فى موقف المسلمين وعلماهم ما يمكن أن يشابه موقف رجال الكنيسة ، بل العكس هو الصحيح .

لقد كانت موجة الالحاد على أشدها فى بداية عصر النهضة أثناسا المارك الطاحنة بين رجال العلم والكنيسة ، وامتدت موجة الالحاد الى يومنا هذا ، ولكنها بكل تأكيد أخفما كانت عليه فى السابق بعد أن انتهت معارضة الكنيسة وخسرت المعركة ، ونسج الآن شهادات كثير من العلماء يؤيدون بها وجود الخالق خاصة بعد أن تقدم العلم مراحل كثيرة فى هذا القرن (١) .

والقضية الأساسية الموجودة الآن فى الغرب بعد غرثهم الطويلة عن الدين أنهم يعتبرون الدين من العوامل الاجتماعية التابع من علم الانسان وليس من علم الدين . ولو درسوا الدين على أساس أنه من عند الله الذى يدبر شؤون الكون ، لوجدوا أن الدين حقيقة أبدية مثل قوانين الطبيعة والحياة .

لقد أبطل القرن العشرون الكثير من النظريات التى سادت فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر والتي حاولت تفسير الكون بمختلف النظريات مستبعدة فكرة وجود الله من ذهنها . ولكن القفزة الكبرى فى المجال العلمى هذا القرن بينت فساد هذه النظريات كمنظرة تعدد القوى والنظرية الميكانيكية للكون ونظرية دارون ، وبدأوا يقترحون بهذا العلم من حقائق الدين . واننا مهوون الآن الى تقديم الاسلام الى الغرب بصورة واضحة وببساطة ومنطق علمى سليم يؤمنون به ، وبذلك نكون قد عرضنا المفاهيم الاسلاميه

(١) يراجع فى ذلك كتاب " العلم يدعو للايمان " وكتاب " الله يتجلى فى عصر العلم "

في ضوء العلم الصحيح الذي يتوافق مع الاسلام ولا يعارضه . والديــــن الاسلامي هو الدين الوحيد الذي يقف شامخا أمام العلم من دون الأديان الأخرى ، وليس هناك من تعارض مطلقا بين العلم الصحيح والديــــن الاسلامي . والغرب الآن يبحثون عن الحقيقة بعد غربتهم الطويلة بعيد يــــن عن الله وعن الفطرة السليمة ، ولا بد من دعاة الى الله يتجردون الى هذا العمل يجمعون بين الفهم الدقيق للاسلام واطلاع جيد على العلوم الحديثة حتى يكسبوا هذه المعركة .

ونحن في دعوتنا لاتخاذ العلم وسيلة للدعوة الى الله ، نحذف من اعتبارنا ما ارتبط بهذا العلم من فلسفات ومذاهب لا علاقة للعلم بها ، ولا تقوم في الوقت نفسه على أساس علمي أهدأ . فالعلم أساسا يبحث عن الحقيقة ، وهو كطريق للوصول الى الحقيقة ، لا علاقة له بكفر الكافرين والحاد الملحدين ، " انه علم منوح من الله للبشر ، فلا خلاف بين الاسلام والعلم الحديث ، انما الخلاف يمكن أن يوجد بين الاسلام والعلماء الذين ينحرفون عن خط العلم بادخال الهوى عليه ، متمثلا في مناهج غير علمية يستخدمها للوصول الى حقائق علمية " (١) .

ان الحديث عن العلم واستخدامه لصالح الدعوة يتجه الى شعبتين : الشعبة الاولى تتجه الى الرد على العلم الحديث من خلال المنطق العلمي نفسه لايضاح الفكرة الدينية في ضوءه وصولا الى التفسير الصحيح للديــــن والاعتناع به ، والرد على موجة الاحاد بالمنطق العلمي . والشعبة الأخرى تتجه الى استخدام ما يثبت من هذا العلم في ايضاح ما جاء في القرآن الكريم من آيات كونية ، حيث وفر التقدم العلمي مجالا لا بأس به في فهم آيات قرآنية يستعصى فهمها بدون هذا العلم ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه

(١) الاسلام والكون ، د. عبدالغنى عود ، دار الفكر العربي ، ط ١٩٧٧ م ، ص ٩٨

لا ينبغي تطبيق كل ما جاء به العلم على آيات القرآن في طريق التدرج على صحة هذا الدين ، والمجال يجب أن يكون فيها مثبت لا في ظنيمات العلم ، وهذا الطريق يمتد الى آفاق بعيدة ، وفي كل عصر يكتشف الانسان أن في القرآن معجزات لا تبلى على الدهر. اننا لانهدف من ذلك التوفيق بين العلم الغربي وما جاء في القرآن من باب التسليم بكل ما جاء به العلم الغربي هذا ، لأنه ليس كل ما جاء به الغرب يعتبر من المسلمات العلمية ، واذا استشيدنا بالكشوف العلمية لاثبات صحة قضايا الدين الاسلامي ، فاننا لانكون بذلك قد أيدنا وجهة نظر أصحابها الذين قد يستخدمونها في تدليل معاكس. ونأتى بمثال على ذلك ، فالعلماء الغربيون توصلوا الى أن الكون يسير على قوانين ثابتة ميكانيكية ، واستخدموا هذا الاكتشاف وهذه المعرفة في التدليل على وجهة نظرهم وهو أن هذا الوجود لا حاجة له لاله يتحكم فيه ، فكأنهم أرادوا بهذا الكشف أن يمنحوا فكرهم الالحادي دليلاً يؤيده ، وهو في الواقع من وجهة النظر الاسلامية والفطرة السليمة دليل قوي على وجود الخالق الذي أودع في هذا الكون هذا النظام البديع وهذه السنن التي لا تتبدل ولا تتغير.

ان المنطق العلمي مطلوب للرد على هؤلاء وفي توضيح نقاط الخطأ في منهجهم وبالتالي تدعيم قضايا الدين الاسلامي . لقد رفضوا فسي السابق قبول أي شيء يخرج عن نطاق المشاهدة والتجربة، ولكن الكشوف العلمية المتتالية زعمت هذه النظرية، لأن " الاشياء التي لم نتكسب من مشاهدتها أكثر بكثير من الاشياء التي شاهدناها حتى الآن ، لدرجة أن النظرية العلمية الحديثة التي تسمى نظرية الثقب الاسود (Black Hole Theory) تؤكد أننا لانشاهد من الاجسام الكثيفة أكثر من ٣٪ ، أما الاجزاء السابعة والتسعون الباقية فلانستطيع مشاهدتها .

وإذا كان الكون يتكون من حقائق لانشاهد معظمها مباشرة ، فما هو السبيل لمعرفة الاشياء الأخرى التي لانشاهد ها ؟ ولتسهيل هذا اعتمد العلماء على الاستنباط في وسائل المعرفة الى جانب الملاحظة* (١) .

ويقول اينشتين في ذلك : " لقد تقلصت دائرة التجربة في التعامل مع الحقائق الكونية الأبدية واتسعت دائرة التأمل " . وعلى هذا فان الايمان بحقائق الكون يتم بمشاهدة ظواهره ، وبذلك يكون العلم الحديث باستخدامه التفسير الاستنباطي قد قدم الدليل العلمي على صحة العقائد القرآنية من حيث وجوب الايمان بالغيب .

وقالوا ان كتلة الكون كانت ساكنة في البداية ، ومن المعروف أن جسم الساكن لا يمكن أن يتحرك الا بموتر - وهذا منطوق على - ولكنهم هربوا من الايمان بالله - عزوا هذا الموتر الى الصدفة وكأن الصدفة العمياء بدليل عن فكرة الخالق ، وهذا أمر عجيب ، فكيف صنعت الصدفة كل هذا النظام بعد الحركة الأولى وهذه الحكمة وهذا القصد ، ان المنطق العلمي السليم يقتضى القول بأن المحرك الحقيقي لكل ذلك هو الله جل جلاله الذى أودع في هذا الكون هذا النظام الدقيق العجيب ، والذى يستشف من وراء الحكمة بالغيب والقصد الواضح . وقد سخر كثير من العلماء من القول بالصدفة وأثبتوا علمياً أن امكانية الصدفة حتى في وجود خلية حية واحدة تكاد تكون معدومة تماماً ، واستخدموا الاسلوب الرياضى في تفنيد القول بالصدفة . فكيف اذن بالصدفة تصنع هذا الكون العجيب وهذه الحياة المعقدة .

وقالوا ان هذا الكون أزلى ، ولكن العلم حديثاً قد اكتشف أن العالم قد خلق في وقت وزمن محدد وأنه سائر الى الفناء لا محالة ، وأن الطاقة الموجودة في الكون ستنفذ يوماً ما ، وهذا في حد ذاته دليل على أزلية الخالق لا على أزلية الخلق كما قالوا قديماً . " وكان الانسان القديم يعتقد أن عدداً من القوى تدبر ظواهر الكون المختلفة من طبيعية وكيميائية وحياتية .

(١) الشريعة الإسلامية وتحديات العصر ، وحيد الدين خان ، دار النعاس ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٤٤

ثم أخبرنا نيوتن بأن ثلاثة قوى تدير الكون وهي : قوى الجاذبية والمغناطيسية والذرية ، ولكن اكتشاف الجزيء المسحور في الذرة مؤخرًا ، قد قضى على فكرة تعدد القوى التي تدير الكون . والاعتقاد يقوم الآن على الفكرة القائلة بأن قوة واحدة مسؤولة عن جميع ظواهر الطبيعة ووظائفها . وهكذا قضى على كل أساس علمي يدعو للشرك ، ولم يعد للإنسان من خيار سوى الاعتراف بالتوحيد^(١) .

وسعى العلماء في القرن التاسع عشر الى اكتشاف قانون للحياة الانسانية على نمط قانون الكون ، واعتقدوا أن للحياة هذه قانونا مشابها لقانون الكون ، وبحثوا طويلا ، ولكن دون أن يتوصلوا الى شيء من ذلك ، ويعود هذا الاخفاق الى أنهم كانوا يبحثون عن هذا القانون في غير مكانه ، ونحن إن اتفقا معهم بأن قانون الحياة البشرية أهدى مثل قوانين الطبيعة والأحياء ، إلا أن المسكان المقرر لمعرفة هذا القانون هو الوحي الالهي وليس العلوم الانسانية التي لا تعطينا سوى معلومات جزئية عن الحقائق . وقد اعترفوا بالقصور الانساني لبلوغ هذا الهدف ، لأن الانسان لا يملك الوسائل الكافية لتحقيق ذلك من حيث الامكانيات البيولوجية والعقلية .^(٢) واذا اعترفنا بأن الحصول على القانون البشري لا يتم الا عن طريق الوحي الالهي ، فلا بد من الاعتراف بأن قوانين الكون هي نفسها ذات مصدر الالهي أيضا . " لخلق السموات والأرض أكسبر من خلق الناس " .

وان اخفاق القانون الوصفي ليقدم لنا الدليل على ضرورة أخذ القانون من المصدر الالهي ، ويضرب المفكر الاسلامي الكبير وحيد الدين خان على ذلك مثلا واقميا حول المشكلة الاقتصادية ، وأن سببها الاول هو النظام الرأسمالي ، واستشهد بسلامة الاقتصاد الاسلامي الذي استمر أكثر من ألف سنة ، أما النظام

(١) امكانيات جديدة للدعوة ، وحيد الدين خان ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٨-١٩

(٢) الشريعة الاسلامية وتحديات العصر ، وحيد الدين خان ، دار النفائس ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٩ ، ٢٠

الرهوى فى الدول الرأسمالية الصناعية فقد أحدث خلخلة كبيرة ومفاسد لا حصر لها ، وعندما أراد ماركس أن يصحح الوضع ، ألقى نظام الملكية بدل الغاء النظام الرهوى الذى يمثل السبب الحقيقى فى الظلم الاقتصادى الرأسمالى . وعلى ذلك فلم تحل المشكلة بل ازدادت سوءا . وهذه السدول النامية تعاني من أزمة خطيرة نتيجة اقتراضها المال بالشروط الرهوية التى ترهقها كل عام . (١)

ان كل تقدم على سلوم أراد الله أن يكون مجهرا يرى فيه عظمة الصنعة ، وروعة القدرة ، فيزداد الناظر ايمانا بربه . وهذه الاكتشافات العلمية الحديثة تظهر آيات الله الكامنة فى الكون ، وقد وعد الله سبحانه وتعالى باطلاع البشر على جزء من آيات الله فى الآفاق والأنفس فى قوله تعالى : " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (٢)

انما يجرى فى الخلية الحية من تفاعلات وتحليلات كيمياوية لما يعجز العقل البشرى عن تفهمه ، ولو أراد العالم الكيميائى أن يجرى تفاعلا واحدا مما يجرى فى الخلية دون أن نشعر ، من اذابة وغاز وتحويل من مركب الى آخرون تحليل للمواد ومن عمليات الهناء والهدم لمركبات وأحماض وقواعد لاحتياج العالم الى عشرات المختبرات وعشرات المواد والمحاليل والعناصر ، ولكن ذلك كلسه يجرى فى الخلية الحية دون رقيب الى الله سبحانه وتعالى .

ان العلم فى كشفه عن سنن الكون وفطرة الكائنات يثبت بالبرهان بعد البرهان على وحدة الكون من ناحية وعلى وجود الله ووحدانيته سبحانه من ناحية أخرى ، وكل ما كشفه العلم يقدم الدليل تلوالدليل على وجوده سبحانه وتزيد دلائله وحدانيته ظهورا وتوكيدا يذهب بشك المتشككين من أهل الأهواء ان هم رجعوا

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٥

(٢) فصلت : ٥٣

الى عقولهم والى متابعة العلم ولو قليلا . " ان العلم بمجهوده المتصل
يكشف السر بعد السر عن وحدة الكون ونظامه ، ويزيد كل سر يكشفه
برهان وحدانية الله خالق الكون توكيدا ورسوخا يدخل باليقين والايان بالله
على كل نفس ، ويغزو بالاقناع حتى نفوس الملحدين " (١) .

وواجب الدعاة الى الله أن ينظموا هذه المعلومات تنظيها علميا
لتسهيل الاستفادة منها في الدعوة الى الله ، وهذا العمل يحتاج الى
جهد كبير ، يبدو التفسير الواضح فيه الى الآن . ونسأل الله أن يسوق
لهذا العمل رجالا تتوفر فيهم النية الصادقة والعزم الأكيد والاخلاص الكبير
لنشر دعوة الحق على نطاق عالمي واسع .

وقد أورد القرآن الكريم حقائق تتعلق بالكون والنفس البشرية ، والهدف
الاساسي هو التذليل على وجود الله ووحدانيته وعظمته وحكمته ورحمته ، وليست
بقصد تفصيل قواعد العلوم . والعلم الحديث باكتشافاته الباهرة قد أتاح فرصة
كبيرة لفهم هذه الآيات أكثر مما فهمت بالسابق ، فأصبح من الواجب علينا
الكشف عن وجه اعجازها حتى يتبين صدق هذا الدين وأنه من عند الله وأن
اعجازه يمتد الى كل عصر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وانني اذ أذكر
شواهد قليلة ، أحرص كل الحرص على اختيار النماذج ولا أذكر منها الا ما
كان يقينيا ثابتا من العلم ، مستبعدا الفروض والنظريات التي لا تزال موضع
فحص وتحيص . واذا كان هناك من تناقض ، فانه يعود الى الفهم الانساني
لا الى وجود تناقض على الحقيقة . ان هذه المحاذير لا تعني عدم الخوض
في هذا المجال والابتعاد عنه ، فانه ما لاشك فيه ان كثيرا من الآيات
بات فهمها قريبا للانسان أكثر من العصور السابقة . وكم من الآيات
فسرت قديما على غير وجهها الصحيح نظرا لقصور العلوم في تلك الاوقات
عن تصور هذه الآيات ، وهذا ليس عيبا في المفسر . المهم أن يكون القصد
سليما والجهد قدر المستطاع .

(١) الاسلام في عصر العلم ، د. محمد احمد الغمراوي ، دار الكتب الحديثة ،
ص ٧٩

- ١- قال تعالى : " مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان " (١)
- " وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا " (٢)
- هذه الظاهرة الطبيعية كانت معروفة عند الانسان منذ أقدم العصور ، وهي أنه اذا ما التقى نهران في سمراتى واحد ، فمما أحدهما لا يذوب في الآخر ، لكن قانونها لم يكن معروفا في السابق ، وقبل بضع عشرات من السنين وعن طريق المشاهدات والتجارب تبين أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة يسمى " قانون المط السطحى " وهو يفصل بين السائلين ، لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله ، وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون ، الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : " بينهما برزخ لا يبغيان " . (٣) وكان هناك تصور أنه لا اختلاف بين بحر مالح وآخر مالح ، فوجد أن صفات البحر الاحمر تختلف عن المحيط في ملوحتها وحرارتها وكثافتها وأحيائها المائية . وفي عام ١٩٦٢م اكتشف حاجز عند باب المندب من نوع ثالث ثابت وهو يذهب ويحى ، ولكنه يبقى فاصلا بين الاثنين (مرج البحرين يلتقيان) . وفي منطقة الخليج عند مصب شط العرب فسي مياه الخليج التقطت صور جوية تبين منها منطقة عمارة عن حاجز بين المائين ، والاسماك لاتدخلها من الطرفين ، فهي عمارة عن حجر كما ورد في القرآن . (٤)

(١) الرحمن : ١٩ - ٢٠

(٢) الفرقان : ٥٣

(٣) الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ، المختار الاسلامي ، ط ٧ ، ١٣٩٧هـ ، ص ١٩٦-١٩٧

(٤) عن محاضرة للشيخ عبدالمجيد الزندان في المعهد العالي للدعوة الاسلامية بتاريخ ١٤٠٢/٦/٢هـ ، بعنوان العلم في خدمة الدعوة.

٢- وقال تعالى : " الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها " (١)
 " خلق السموات بغير عمد ترونها " (٢)

والاعجاز القرآنى فى مثل هذه الآيات أنها تطابق ما كان يراه الناس قديما وما يرونه حديثا ، فالرجل القديم " كان يشاهد عالما كبيرا قائما بذاته فى الفضاء " ، مكونا من الشمس والقمر والنجوم ، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة . والرجل الجديد يجد فى هذه الآية تفسيراً لمشاهداته ، والتي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد فى الفضاء اللانهائى ، بيد أن هناك عمدا غير مرئية تتشيل فى قانون الجذب العام وهى التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء فى أمكنتها المحددة " (٣) .

" واعجب معنى من اعجاز الاسلوب والمعنى معا فى قوله تعالى :
 (بغير عمد ترونها) فى كل من خلق السموات ورفعها ، فلو قيل (بغير عمد) فحسب لكان ذلك نفيًا مطلقا للعمد ، مرئية وغير مرئية ، والنفي المطلق يخالف الواقع الذى علم الله أنه سيهدى اليه عباده بعد نحو ألف وخمسين عاما من اختتام القرآن ، فكان من الاعجاز المزود أن يقيد الله نفي العمد فى الخلق والرفع بقوله (ترونها) ، والضمير المنصوب فى ترونها يرجع أولا الى أقرب مذكور وهو (عمد) فيكون المعنى بغير عمد مرئية ، أى بعد من شأنها وفطرتها ألا تــــرى ، والفعل المضارع فى اللغة يشمل الحال والاستقبال أو هو حال مستمر ، لأن القرآن مخاطب به الناس فى كل عصر " . واذا أعيد الضمير السى الساء كان المعنى أن السماء ترونها مخلوقة مرفوعة بغير عمد ، وتكون العمد هى ما يعهد به الناس فى أبنية الارض ... وكلا الوجهين مفهوم من التعبير القرآنى طبق اللغة وان كان الاولى فى اللغة هو الوجه

(١) الرعد : ٢

(٢) لقمان : ١٠

(٣) الاسلام يتحدى ، مرجع سابق ، ص ١٩٨

الأول الذي يحوى الاعجاز العلمى: (١)

٣- قال تعالى : " فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم " (٢)

لقد أقسم الله بمواقع النجوم ، وبين لنا فى الآية الثانية عظمة السر المودع فى المقسم به . وانه مهما تقدم علم الفلك فلن يستطيع الانسان أن يدرك عظمة ذلك القسم .

" ان الاجرام السماوية لا يحصيها العد ولا الحساب ، هناك مثلا ملايين السدم وملايين المجرات ، وفى كل سديم أو مجره ملايين النجوم ، وان لم يكن بالفعل فى السديم فبالمجرة ، أى أن كتلة السديم صالحة أن يتكون منها ملايين النجوم ، وكل سديم وكل مجرة وكل نجم فى سديم أو مجرة ، له حالته من الحركة فى ذلك ، أو من السكون ، نتيجة لقوة الجاذبية الواقعة عليه طبقا لقانون الجذب العام ، أى طبقا لقانون الكتل والمسافات ، بحيث تكون نتيجة قوى الجاذبية الواقعة على الجرم السماوى ، نجما كان أو مجرة أو كوكبا ، أن يأخذ الجرم حالته من الحركة أو من السكون على اختلاف تلك الحالات التى لا يحصيها عد ، فهل فى مقدور العقل البشرى مهما بلغ من القوة ومن العلم أن يدرك عظمة ذلك التقدير ، وهو الظاهر للتأمل فى سر ذلك القسم الذى وصفه الخالق المقدر ، سبحانه ، بأنه عظيم " (٣) ولانسى هنا أن نذكر الآية الكريمة التى توضح أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس على جلال آيات الله فى خلق الانسان . قال تعالى : " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٤)

(١) الاسلام فى عصر العلم ، محمد احمد الغمراوى ، دار الكتب الحديثة ،

سنة الطبع غير مذكورة ، ص ٣٦٢

(٢) الواقعة : ٧٥-٧٦

(٣) الاسلام فى عصر العلم ، مرجع سابق ، ص ٣٦٩

(٤) غافر : ٥٧

٤- قال تعالى : " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء" (١) .

في هذه الآية إشارة إلى صعود الانسان إلى السماء ، ولكنها أخذت في السابق من باب المجاز لا على أنها حقيقة . وأمر آخر يفهم من هذه الآية على ضوء العلم الحديث حيث الارتفاع في الجو لمسافات عالية بسبب ضيقا في التنفس ، وشعورا بالاختناق يزداد ان كلما زاد الارتفاع ، حتى يصل الضيق إلى درجة حرجة وصعبة جدا ، وذلك راجع لسببين : الاول انخفاض نسبة الأوكسجين في الارتفاعات العالية ، فهي تعادل ٢١٪ تقريبا من الهواء فوق سطح الأرض ، وتنعدم نهائيا في علو ٦٧ ميلا . والثاني : انخفاض الضغط الجوي ، وينخفض هذا الضغط كلما ارتفعنا عن سطح الارض مما يؤدي لنقص معدل مرور الهواء عبر الاسناخ الرئوية إلى الدم ، كما يؤدي انخفاض الضغط لتمدد غازات المعدة والأمعاء ، التي تدفع الحجاب الحاجز للأعلى فيضغط على الرئتين ويهيق تمددها ، وكل ذلك يؤدي لصعوبة في التنفس ، وضيق يزداد حرجا كلما صعد الانسان عليها ، حتى أنه تحصل نزوف من الأنف أو الفم تؤدي أيضا للوفاة. (٢)

٥- قال تعالى : " وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون" (٣)

* كشف بعض علماء الحشرات الالمان عن أن بعض العناكب تنسج خيوطا دقيقة جدا ، ان أنها تنسج بيتها من خيوط ، كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحد من هذه الخيوط الاربعة مؤلف من ألف خيط ، وكل واحد من الالف يخرج من قناة خاصة

(١) الانعام : ١٢٥

(٢) مع الطب في القرآن الكريم ، د. عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ، مؤسسة علوم القرآن ، ط ١٤٠٢ / ١٩٨٢ م ، ص ٢١ - ٢٢

(٣) العنكبوت : ٤١

في جسم العنكبوت ... وأن الكيفية التي خلق الله بها في جسم العنكبوت أفتقّب يخرج منها ألف خيط في آن واحد ... لتدعو العاقل والعالم والمؤمن الى التفكير في عظمة الخالق* (١)

ولا أريد أن أذهب بعيدا في ضرب الأمثلة فهي كثيرة ، وليس هد نفسي من ايراد بعضها الا تبيان أهمية العلوم الحديثة في مجال إثبات صحة الدين في عصر أصبح العلم فيه متقدما ، وهذه فرصة لا يجب أن تفوت ونتغافل عنها ، فدين الله يشكل معجزة أبدية خالدة ، ومن واجبنا كشف الاعجاز العلمي في القرآن وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه موحى من الله سبحانه وتعالى . ان العلم الحديث خادم للدعوة الاسلامية ولصالح نشرها على المستوى العالمي ، ونرجو الله أن يبسر لهذا الدين من يقوم بالدعوة اليه على بصيرة . ان هذه الاكتشافات العلمية تظهر آلاء الله الكامنة في الكون ، وهي تصدق النبوة القرآنية . قال تعالى : * سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بريك أنه على كل شي شهيد* (٢) ولا نريد من وراء هذا العمل مجرد التوفيق بين الاسلام ومعطيات العلم في العالم الغربي ، انما الأمر مجرد استخدام لهذا العلم في ايضاح المقصود من بعض الآيات القرآنية التي يشكل فهمها بدون هذه المعلومات المتوفرة حديثا ، فالسعي الى تقريب الاسلام من الحضارة الغربية شي والاستعانة بالعلم لايضاح المقصود من بعض الآيات الكونية شي آخر .

(١) العلوم الطبيعية في القرآن الكريم ، يوسف مروة ، دار ومكتبة الهلال بيروت ، ص ٢٠٩-٢١٠

(٢) فصلت : ٥٣

الفصل الثاني

الاقتصاد نظرة عامة

مقدمة

ان الدعوة الاسلامية دعوة عالمية لخير الانسانية ، ويقع على عاتق المسلمين مهمة عظيمة وهي مهمة مشرفة تحتاج الى جهود جبارة وصبر ومثابرة ، ولا بد أن نتسلح بكل الامكانيات المتنوعة لحماية الدعوة والأمة صاحبة الدعوة . والتقدم المادي لا شك أنه يوفر القوة والحماية اللازمة لهذه الدعوة . ولا يكون ذلك الا بامتلاك الوسائل المؤدية الى التصنيع الحربي ، والاقتصادى ، والتنميشية الزراعية ، وتوفير الغذاء والصحة ، والحفاظ على مصادر المياه ، وغير ذلك .

وحتى نكون متفوقين في هذه المجالات ، لا بد من السير في خط علمي منهجي واضح للوصول الى هذه الاهداف ، ولا يقعدنا بعد الشقة بيننا وبين غيرنا من الأمم التي سبقتنا في هذه المجالات .

ونحن ان نبرز هذه الجوانب الاقتصادية نؤكد أن تجلية موقف الاسلام من كل هذه القضايا ودعوته الى التفوق فيها ، دليل على تفوق النظرية الاسلامية لأنها نظرة الفطرة السليمة وهي بالتالى تسمح على كل المذاهب الاقتصادية الوضعية . من هنا يقع على كواهلنا - كدعاة الى الله - مهمة عظيمة وهي تصحيح المسار الاقتصادي الحالى وعرضه بصورة متكاملة حتى تبرز الفروق بينه وبين غيره من المذاهب ، وهذا كله عائد لمصلحة الدعوة الاسلامية ولصالح انتشارها ونسب ذلك قوة لها .

ان الاهداف التى توجه النمو المادى لدى الدول المتقدمة فى هـذـه المجالات أدت الى خلق جوانب مميته فى حياة الانسانية ، بينما ترسم الشريعة الاسلامية الاهداف الخيرة من وراء امتلاك هذه القوى المادية لصالح البشرية

جمعا .

أما كيف أن التقدم المادى قوة للدعوة الاسلامية ، فذلك هو موضوعنا
فى هذا الفصل نجليه بالقدر الذى يعيننا الله به .

ان الدعوة الاسلامية - وخصومها كثر - لا بد لها من قوة تحرسها وتحميها
ويتمثل ذلك أولا بامتلاك القوة العسكرية بمختلف جوانبها ، وهذا أمر ظاهر
لا خفاء فيه من قطعة السلاح البسيطة الى امتلاك القنبلة النووية ، ثم لا بد
من الصناعة الاقتصادية التى توفر للأمة متطلباتها ولا تدعها فى حاجة الآخرين
يتحكمون بالمسلمين فى وقت الشدة . ولماذا نترك هذا الأمر وقد حثنا الله
على ذلك ، وضرب لنا الأمثلة بالأشياء وتعلمهم صناعات كثيرة ، وذكر الله لنا
أن هذه الصناعات ، كانت بتوجيه من الله للبشر .

ان الهدف من خلق الناس هو عبادة الله " وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون " (١) وهذه العبادة لله تضعنا فى الموضع الصحيح فى هذا
الكون فلا سلطان الا سلطان الله ، وبذلك نتحرر من كل عبودية للبشر ،
والانسان الاسلامى حتى يعبد الله على الوجه الصحيح لا بد من أن تتكامل
أمر كثيرة فى حياته ، حتى يتوفر له الجو الصحيح لممارسة هذه العبادة
بفهمها الشامل الواسع ، والتى تعنى أن كل حركاته وسكناته وتوجهاته
يقصد بها وجه الله ، لا بد له من ممارسة دوره الصحيح فى الحياة كما رسم له
الله ذلك . وحتى تتاح له العبادة بحرية لا بد من اقامة العدل ودعم قيم
الحق ، وهذا يحتاج الى قوة فى جميع الجوانب لحماية دينه ومعتقده من
اعتداء المعتدين ، وحتى لا يقع تحت طائلة العوز من أعدائه لا بد له من تنمية

(١) الذاريات : ٥٦ .

الحياة بجوانبها المختلفة .

وما خلق الله في الأرض من شئ الا لعلنا نذكره . فالإنسان المخلوق على تلك العبادات ، وهذه الشرائع والخيرات تحتاج الى جهد وعمل وتطوير وتحسين وطرق استغلال حتى تكون صالحة للاستعمال . فالإنسان المسلم وهو يؤدي دور العبودية لله انسان عامل نشيط متحرك " يتجرد لاقامة سلطان الله تعالى على ضميره أولا واقامته في محيطه الاجتماعي ثانيا ، وفي كل مكان على قدر ما أوتي من طاقة معنوية وحسية فيقيم سلطان الله في أرض الله ، ومن الهدى بهي أن أى معارضة لذلك فردية أو جماعية ، ظاهرة أو خافية هي معارضة باطلية ، لأنها من جهة ضد الحق والعدل والخير قطعا ، ولأنها من ناحية أخرى دخيلة تريد اقامة سلطانها دون سلطان الله فيما حوله ، فهي حرب لله ، وهنا ينشأ للإنسان واجب تهتم باعتباره خلق لاقامة سلطان الله في الأرض ، هو مقاومة أو مجاهدة تلك المعارضة . وهذا يقتضيه أن يجعل كل وقته ومواهبه وكل ثروته خلقها الله في الأرض - وفي مقدمتها المعادن - لتلك المجاهدة " (١).

وعلى هذا فأعمار الأرض بالصناعة وغيرها ليست مقصودة لذاتها ، بل لهذا المقصد الذي يشرف كل شئ في الوجود أن يكون عاملا له ، وموجهها اليه : اقامة أحكام الله في الأرض . ولو كان المقصود بالاعمار مجرد اشباع الرغبات وتوجيهها نحو الشهوات والاهواء ، فانها ولاشك تؤول الى تخريب وفساد .

وعلمنا في هذا الفصل أن نتطرق الى مختلف الجوانب الاقتصادية من صناعة وزراعة وتجارة ، والغذاء وضرورة توفيره والحفاظ على مصادر المياه وتطويرها واستغلال كل طاقة ممكنة في ذلك والعناية بالصحة العامة التي غير ذلك من الأهداف الخيرة .

(١) الثروة في ظل الاسلام / البهي الخولي / دار الاعتصام ط ١٩٧٨ م ١٦٥ ص ٦٥ ،

ان الأمة اذا كانت قوية فى صناعتها وزراعتها وتجارتها واستغلال ثروتها وأرضها وفى توفير غذائها وصحتها فلاشك أن المسلمين همستفيدون من كل ذلك قوة فى أنفسهم ، ودعا لدعوتهم وحمايتهم وتأمين انتشارها الى كل بقاع العالم ، وتلك رسالتنا .

ونتاول فيما يلى تلك الأمور مبتدئين بالسؤاله الاقتصاديه بشكل عام ، ثم نتاول الكسلام عن الصناعة والزراعة والتجارة وتوفير الغذاء والماء والصحة للمجتمع المسلم ، ونهين رأى الاسلام فى كل ذلك مستعينين بمصدر رئيسه الرئيسيين : القرآن والسنة . ثم نهين بشكل موجز التقدم الذى حصل فى التاريخ الاسلامى لهذه الجوانب ، وأخيرا نهين على الاهمية فى هذا العصر بالذات لهذه النواحي الاقتصاديه .

لقد أحدث ظهور الاسلام ثورة شاملة فى عالم الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وأنه بثورته الشاملة هذه ، قد أحدث نوعا من الوعى التاريخى دفع بالشعوب التى اعتنقتة دفعا قويا الى تغيير كثير من الأوضاع ، وجعلها تحس بدورها الحضارى العظيم المنتظر ، والا سلام رسم للمسلم دوره القيادى فى الحياة حين جعله خليفة فى الأرض ، ووضع له نظاما شاملا للحياة بجميع جوانبها ، وترك لعقله وارادته اكمال الطريق ، وذلك يكون الاسلام صالحا لكل زمان ومكان لمرونة قواعد الاساسية طبعته بطابع الصلاحية هذه وأعطتسه الدفعة القوية لأن يكون مسيطر على زوايا الحياة بالكامل . ونحن هنا نستشنى بالطبع العقيدة الاساسية حبيب رسما الله بجميع تفاصيلها بحيث لا توجد زيادة لمستزيد .

وهذا الشمول فى الاسلام جعل الاقتصاد غير معزول عن الاجتماع والسياسة وقيم الحس والروح فى تلاحم وامتزاج فى واقع الحياة . والا سلام فى جميع هذه الجوانب يرسم للبشرية طريق السعادة فى الدنيا والآخرة .

ونلاحظ أن هناك مذاهب شرقية وغربية في الاقتصاد تدعى بصحة مذاهبها . رغم ما نراه من نقص كبير في هذه المفاهيم وما نراه من شرور من جراء اتباع هذه السياسات الاقتصادية ، فأصبح واجبا علينا أن نجلى الذهب الاسلامي والمفاهيم الاسلامية التي دعا الى التمسك بها ليستقيم مسار الحياة ، وأن غير ذلك هو الباطل الذي يؤدي الى فساد الحياة ودمارها . واذ كان وضوح الهدأ يعتمد على حسن عرضه وتبيان صلاحيته ، فلا بد لنا من توضيح هذه الأمور لتكون دعما للدعوة تزيدها وضوحا لدى الآخرين وأنها هي الصالحة للبشر .

من هنا يقع علينا الواجب في تجلية النظرة الاسلامية خصوصا بعد ما رأينا من الشرور التي وقع بها العالم من جراء السياسات الاقتصادية الوضعية من فقر مدقع وغنى فاحش وسوء توزيع للثروة وتظالم الى غير ذلك من الشرور .

ان التنمية الاقتصادية وامتلاك الثروة يتحكم في مسارها الهدف المرسوم من ورائها ، فاذا كانت هذا ، فاحد ذاتها كانت النتائج سلبية ، وان كانت وسيلة لهدف أصح كانت نعم العون في الحياة الى الوصول لهذا الهدف الأصح .

والثروة في المذاهب الوضعية هدف تسعى اليه ، وعندئذ لا تهتم الوسيلة للوصول الى هذا الهدف ما ينتج عن ذلك ما نرى من تظالم بين الأمم والأفراد ، ولو نظرنا الى وجهة نظر الاسلام في هذا الموضوع لتبين لنا " أن الثروة في ظل الاسلام هدف من الأهداف المهمة . ولكنه هدف طريق لا هدف غاية ، فليست الثروة هي الهدف الأصيل الذي تضعه السماء للانسان الاسلامي على وجه الأرض ، وانما هي وسيلة يؤدي بها الانسان الاسلامي دور الخلافة ، ويستخدمها في سبيل تنمية جميع الطاقات البشرية ، والتسامي بانسانية الانسان في مجالاتها المعنوية والمادية ، فتسمية الثروة والانتاج لتحقيق الهدف الاساسي من خلافة الانسان في الأرض هي نعم العون على الآخرة ، ولا خير فبين لا يسعى اليها ،

وليس من المسلمين بوصفهم حملة رسالة في الحياة من تركها أو أهملها .

وأما تنمية الثروة والاستايج لأجل الثروة بذاتها ، ووصفها المجال الاساسى الذى يمارس الانسان فيه حياته ويغرق فيه ، فهى رأس كل خطيئة ، وهى السبب تبعث الانسان عن ربه ، ويوجب الزهد فيها .

فالا سلام يريد من الانسان الاسلامى أن ينسى الثروة لمسيطر عليها ، وينتفع بها فى تنمية وجوده ككل ، لا لتسيطر عليه الثروة ، وتستلم منه زمام القيادة ، وتمحو من أمامه الاهداف الكبرى .

فالثروة وأساليب تنميتها التى تحجب الانسان المسلم عن ربه ، وتسيئه أشواقه الروحية ، وتعطل رسالته الكبرى فى اقامة العدل على هذا الكوكب ، وتشد به الى الأرض لا يقرها الاسلام . والثروة وأساليب التنبيه التى تؤكد صلوة الانسان الاسلامى بربه المنعم عليه ، وتبني له عبادته فى يسر ورخاء ، وتفسح المجال أمام كل مواهبه وطاقاته للنمو والتكامل ، وتساعد على تحقيق مثله نفسى العدالة والاخوة والكرامة هى الهدف الذى يضعه الاسلام أمام الانسان الاسلامى ويدفعه نحوه (١) .

ولو نظرنا الى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الخصوص لرأينا بعضها يرغب فى امتلاك الثروة ويمدح الغنى والاقبال على الدنيا ، وبعضها يبين الضرر الذى يقع من الاقبال على الدنيا فى آخرة الانسان .

قال صلى الله عليه وسلم " نعم العون على تقوى الله الغنى " وحدث بسنت " نعم المال الصالح للرجل الصالح " وجاء فى الحديث " ليس منا من ترك دنياه لآخرته أو آخرته لدنياه " ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب دنياه أضر بآخرته " .

(١) اقتصادنا / باقر الصدر / ص ٦٠، ٦٢، ٢٧٢ ، دار الكتاب اللبناني .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"تمس عبد الدينار تمس عبد درهم تمس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش".

فالثروة نعم العون على الآخرة ، وهي رأس كل خطيئة ، وذلك ناتج عن الهدف من وراء الثروة ، فان كان الهدف هدف طريق فهي نعم العون ، وان كانت هدف غاية بعد ذاتها فهي رأس كل خطيئة^(١).

نظرة في النظام الاقتصادي الرأسمالي والشيوعي

وقبل الكلام عن الاقتصاد الاسلامي ورأيه في التنمية نورد بايجاز خصائص كل من النظام الاقتصادي الرأسمالي والاقتصاد الشيوعي .

فالنظام الاقتصادي الرأسمالي يقوم أساسا على الحرية للفرد في أن يعمل ما يريد ، من الأعمال التجارية والصناعية وما يتبعها من معاملات ، وأن ينتج ما يشاء وأن يتعامل مع غيره بكل ما يستطيع من حرية . والاسس التي يستند عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي ثلاثة هي^(٢):

أولا : المصلحة الشخصية كهدف ، لان واقع الانسان ان لا يعمل اذا لم تكن له مصلحة شخصية تدفعه الى العمل .

ثانيا : المزاحمة كوسيلة ، لأن الانسان مسير بخلقه أكثر من ذكائه وعقله ، فلا بد له لكي يتقحم مصاعب العمل من منافس .

ثالثا : الحرية كشرط ، لان فقدان الحرية يقتل المنافسة ويشل النشاط ولا يحقق المنفعة الشخصية . ولقد نشأ عن ذلك مشاكل اقتصاديية خطيرة منها تكديس الانتاج وتضخمه ، والمشاكل الكثيرة التي نشأت بين العمال وأصحاب العمل ، وكذلك الفروق الهائلة بين الطبقات .

(١) - اقتصادنا - المرجع السابع ، ص ٦٠٥ - ٦٠٦

(٢) روح الدين الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٣١٨

أما النظام الاقتصادي الاشتراكي فقد انبثق من مشاكل النظام الرأسمالي وانتقد أصحابه مبدأ الحرية الشخصية في الاقتصاد ، وقالوا ان هذه الحرية الشخصية قد جعلت الثروة مكدسة بيد الأقلية وبذلك خضعت الاكثية الى مشيئة هذه الأقلية وتحكمها ، كما أن الرأسمال قد أشاع بين الطبقات الفقيرة البؤس والظلم ، زيادة على ما ينشأ من أزمات اقتصادية وفوضى حيث ينتج الفرد ما يشاء نوعا وكما .

والنظام الاشتراكي الاقتصادي ينقسم الى قسمين : اشتراكية اصلاحية واشتراكية ماركسية (٢) .

والاشتراكيات الاصلاحية تصدر عن فكرة واحدة ، هي كونها محاولة لعلاج المساويء التي يعاني منها المجتمع الرأسمالي ، فهي عبارة عن صرخة ألم ضد مآس الرأسمالية . ولكنها تنطلق من منطلق مصلحة الجماعة وتغليبها على مصلحة الفرد ، فهم يتخذون من الجماعة نقطة البداية للنظام الاقتصادي وينكسرون انسجاما طبيعيا بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية (٢) .

أما الاشتراكية العلمية أو الماركسية فهي حسب تصورهم تمثل مرحلة حتمية من مراحل التطور وهي تعبير عن التطور التاريخي فهي تالية للرأسمالية . وهم ينكرون الملكية الفردية ويقولون انها أكثر من الاشتراكيات الاصلاحية ، فالمسهم مصلحة الجماعة والفرد يمثل مصلحة الجماعة ، ما يناله بقدر ما يحتاج . والقوى المنتجة في نظرهم .. وهي الآلات والأدوات والأفراد - هي العامل الذي يحدد جميع العلاقات القانونية والاجتماعية والسياسية القائمة في المجتمع . والماركسية تؤمن بأن كل شكل من أشكال الانتاج يفرض - وفقا لقانون التطور -

(١) الاقتصاد الاسلامي مدخل ومضاج / دكتور عيسى عده / دار الاعتصام /

ط ١ ١٩٧٤ م الكتاب الاول / ص ٢٠٩ .

(٢) يراجع في ذلك : الاقتصاد الاسلامي / مرجع سابق ص ٢٠٨-٢١١ .

نوعا خاصا من التوزيع ، وهو النوع الذى ينسجم مع ذلك الشكل من الانتاج ونواتج نموه وتطوره . بذلك يرون أن نظام التوزيع يتبع دائما شكل الانتاج ، ويتكيف وفقا لحاجاته ، وهذه التبعية قانون طبيعى صارم للتاريخ . وهم يفسرون حركة التاريخ تفسيراً اقتصادياً مادياً (١) .

ولست هنا بصدد تفصيل القول فى هذه المذاهب ولكنها نظرة سريعة الى أهم معالمها لنبين أهم خصائص الاقتصاد الإسلامى وملامحه الكبرى ومدى ما يرسخه من معالم لصالح المجتمعات البشرية وحتى يجنبها الشرور الناتجة من اتباع المذاهب الاقتصادية الوضعية ، فهو نسيج واحد ، فيه من الرأسمالية أحسن ما لديها ، وليس فيه عيوبها ، وفيه من الاشتراكية خيرها دون شرها . وليس قولنا هذا من باب التبعية أو ميله لهذا المذهب أو ذاك لانما هو مذهب اقتصادى مستقل بفاهيمه عن المفاهيم الأخرى ويتميز بملامح فريدة لا توجد فى غيره من المذاهب .

خصائص الاقتصاد الإسلامى

أول هذه الخصائص أنه مبنى على أسس اعتقادية قائمة على تصور عام للوجود وما يتولد من هذه الأسس واقع إيمانية نفسية تدعم النظام وتؤيده وتساعد على تنفيذه ، فهو نظام مرتبط بالإيمان العميق بالله ، وهذا أساس صالح يحتاجه من ينظر فى الاقتصاد الإسلامى (٢) .

كذلك فإن هذا الأمر يقودنا الى تبين موقع الانسان فى الكون وأنسبه مستخلف من الله فى هذه الأرض لعمارته واستثمار خيراتها ، وأن الكسبون مسخر لهذا الانسان وهذا يلغى على عاتقه مهمة الانتفاع من هذا التسخير ،

(١) الاقتصاد الإسلامى / المرجع السابق ص ٢١٦ وكذلك / اقتصادنا / مرجع

سابق ص ٦١٠ .

(٢) الاقتصاد مبادئ وقواعد هامة / د محمد المبارك / دار الفكر ط ٣ ١٩٨٠ م

ص ١٥٧ .

ولذا فان السعي والانتفاع امثال لأمر الله واستفادة من نعمه المعروضة ،
والاعراض عنه انحراف وشذوذ .

قال تعالى : " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من
الرزق . . . " (١)

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا
الله ان كنتم اياه تعبدون " (٢)

٢- والوفرة في الطبيعة مبدأ اساس في الاقتصاد الاسلامي ، على عكس
ما تذهب اليه المذاهب الاخرى التي ترى في بخل الطبيعة ، ومبدأ
الندرة شيئاً أساسياً في مذاهبها .

قال تعالى في سورة فصلت : " قل أنتم لتكفرون بالذي خلق
الارض في يومين وتجعلون له أنداد ان ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي
من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين " (٣)
لذا نحن ننطلق في اقتصادنا من هذا المبدأ الذي يتيح لنا الطمأنينة ،
ولا يبقى سوى السعي والعمل والاستثمار والجهد الدائب في استغلال مصادر
الطبيعة وغير ذلك وكلنا ثقة بأن الطبيعة لن تبخل علينا ماد منا في سعي
وجهد دائب .

والحقيقة أن الندرة التي نلمسها في دنيا الواقع فمنشؤها من تكاسل
الناس في السعي والجهد وسوء التوزيع وتوجيه الانتاج الى نواح تضر بالمجتمعات
كالتركيز على صناعة أسلحة الدمار وغير ذلك (٤) . ثم يأتي ظلم الانسان فيما
يتفق من الثروة من حيث التوزيع وكفرانهم للنعمة سبب آخر في خلق المشكلة .
يقول تعالى : " الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء
فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ، وسخر
(١) الاعراف : ٣٢ ، (٢) البقرة : ١٧٢ ، (٣) فصلت : ٩-١٠
(٤) الاقتصاد الاسلامي ، د. عيسى عده ، مرجع سابق ، ص ٣٢-٣٤

لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر اثمين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلولم كفار * (١)

"فإن هذه الآيات الكريمة بعد أن استعرضت مصادر الثروة التي أنعم الله بها على الإنسان أكدت أنها كافية لاشباع الإنسان وتحقيق سؤله (وآتاكم من كل ما سألتموه) فالمشكلة الواقعية لم تنشأ من بخل الطبيعة ، أو عجزها عن تلبية حاجات الإنسان . وإنما نشأت من الإنسان نفسه كما تقرره الآيات (إن الإنسان لظلولم كفار) . فظلم الإنسان في توزيع الثروة وكفرانه للنعمة بعدم استغلال جميع المصادر التي فضل الله بها عليه استغلالا تاما مما سبب المزاج والمشكلة التي يعيشها الإنسان البائس منذ أبعد عصور التاريخ * (٢)

٣- ومن خصائص هذا النظام أن هدفه أخلاقي ومرتبط بتحقيق العدالة للمجتمع ولذا نجد أن تدخل الدولة المسموح به في هذا النظام إنما كان لتحقيق هذه العدالة كلما أحست الدولة بانحراف الاقتصاد الذي يظلم أو الاعتداء على الآخرين ، ومن هنا نجد بعض القيود على الملكية الفردية - والتي هي أصل من أصول هذا النظام - حتى لا تكون وسيلة للعطيان أو التعدي وحتى لا يختل النظام الاقتصادي . وهذا يجعل للنظام الإسلامي خصائص متباينة عن المذاهب الأخرى رأسمالية أم اشتراكية .

٤- والنظام الاقتصادي الإسلامي يتصف بثبات الاتجاهات والأسس ومرونة التطبيق والاساليب وقابليتها للتبدل بحسب الاطوار والظروف .

٥- ولقد وضع الاسلام مبادئه التشريعية في المجال الاقتصادي تنظم العلاقات

(١) إبراهيم : ٣٢ - ٢٤

(٢) اقتصادنا ، باقر الصدر ، مرجع سابق ، ٩ - ٦

المالية وتحدد الحقوق وتفرض الواجبات ، وذلك يتميز عن الأديان الأخرى بأنه لم يكتب بالنصائح الأخلاقية فقط بل مزج ذلك بالهادى التشريعية التى تتخذ صفة الإلزام والتنفيذ ويتم ذلك عن طريق القضاء والسلطة (١) .

(أ) أول هذه الهادى التشريعية هى العمل والذى يعنى فى المجال الاقتصادى " الاحتراف القائم على مزاولة اليد لأشياء باتت الآلـة تعوضها فى أكثر الأحيان ، وان كانت اليد هى التى تحرك الآلـة وتنظمها حتى الآن " (٢) .

ولقد أشاد القرآن بالعمل باليدى فى مثل قوله تعالى : " ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون " (٣) -

وكذلك الأحاديث التى أشادت بالعمل باليدى ، واستشهدت بها بقسم منها فى باب العمل وأثره فى الحياة فى الباب الاول ، وفى الحديث الشريف " من أحيا أرضاً فهى له " .

والحق أن الاسلام حث على العمل بجميع أنواعه المادى والمعنوى ، وربط به كرامة الانسان ونأته عند الله ، وذلك خلق الارضية الصالحة للانسان المسلم حتى يعمل فى الحياة الأعمال الصالحة وينتج ، وأعطى مقاييس خلقية وتقديرات معينة من العمل والبطالة لم تكن معروفة من قبله ، وأصبح العمل فى ضوء تلك المقاييس والتقديرات عبادة يثاب عليها المرء ، وأصبح العامل فى سبيل قوته أفضل عند الله من المتعبد الذى لا يعمل ، وصار الخمول أو الترفع عن العمل نقصا فى إنسانية الانسان وسببا فى فساده .

(١) الاقتصاد هادى وقواعد عامة / مرجع سابق / ص ٣٠-٣٣ .
 (٢) معالم الشريعة الاسلامية / د صبحى الصالح / ص ٣١٦-٣١٧ .
 (٣) يس : ٣٥

(ب) والأمر الثانى هو الملكية ، والاسلام يحترم الملكية الفردية الى حدود بعيدة وهى الأساس فى النظام الاقتصادى الاسلامى لأن ذلك المبدأ يوائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولكن هذه الملكية ليست مطلقة من كل قيد ، وذلك لأن الملكية المطلقة من كل قيد هى ملكية الله للكون ، أما ملكية الفرد فهى مقيدة بقيود فرضها الله ويمثل ذلك فى ما يلى (١) :

أولاً : يجب أن يكون احراز الملكية بطرق مشروعة .

ثانياً : أن لا يقع ضرر من جراء الملكية .

ثالثاً : أن يحسن المالك القيام بأمرها ، فاذا كان سفيهاً أو مذنراً أو احتجراً أرضاً ولم يستثمرها فوق ثلاث سنين فليس له حق التصرف .

فالملكية الفردية أمر من مشيئة الله يجب أن ترعاه الدولة ، وتوجه اليه نفس عمارة الأرض ، فهى ليست مجرد وضع اقتصادى يختاره أناس ويعرض عنه آخرون ، بل هى استجابة ضرورية لقانون أو غريزة فطرية وهى بذلك جزء من كيانه المعنوى ، يجد نفسه مدفوعاً الى تحقيقها بالوسائل الممكنة . وهنا نلاحظ المشاكل التى وقعت فى النظام الاشتراكى من جراء الغاء هذه الملكية من فتور فى العمـل ومن عدم وجود الدافع الفطرى للانتاج الى آخر هذه القضايا .

كما أن النظام الرأسمالى عندما أطلق هذه الملكية الى حدود بعيدة نشأ عن ذلك التعدى والظلم والاستغلال ونشوء الطبقات والفوارق الكبيرة بينها .

اذن الملكية فى الاسلام أساس موافق للفطرة ، ولكن الانسان لتلبية هذه الملكية قد يطفى من سبيل تحقيقها ويتعدى، ولذا لابد من وضع القيود التى تمنع هذا الطغيان حتى تسير العدالة بالشكل السليم . وذلك يفسر فى الاسلام من الرأسمالية بخصوص الملكية ، ان يستقل الاسلام بفهمه الخاص لذلك بعيداً عن المفهوم الرأسمالى والاشتراكى معا ، ان هذه القيود التى ترد لا تمنع

(١) الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة / مرجع سابق ص ٧٧-٨٠ .

حرية التملك ، انما تضع الضوابط لها حتى لا يكون هناك تظالم أو انحرافات سيئة على الافراد والمجتمعات .

ان الاسلام يحارب تكديس الثروة في يد فئة قليلة ، وهو بذلك يخفف من طغيان رأس المال . ومن هذه الاجراءات التي اتخذها في سبيل تحقيق ذلك هو فرض نظام الزكاة على هذه الأموال لانفاقها على الفقراء والمساكين وأصحاب الديون والأرقاء وغيرهم . وهي ركن من أركان الاسلام يجب القيام به وواجبه التحصيل . كذلك فرض الاسلام نظام التوريث منعا لتكدس الأموال مما ساعد على توزيع الثروة في المجتمع الاسلامي ، ووسع دائرة الانتفاع بها .

ثم تأتي الوصية لتقلل من مساويء تكديس رأس المال ، وهي قريى الى الله تعالى وقد وضع الاسلام لها تشريعا معينيا بحيث لا تزيد على الثلث ، وليس للوارث الحق فيها حتى لا يحوز هذا الوارث الحقيقين معا ، وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا وصية لوارث) وحض الاسلام على الصدقة والانفاق على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة وهذا كله يؤدي الى عدم تكديس الأموال .

وقد حرم الاسلام كنز الأموال وتوعد المكنزين لهذه الأموال بقوله سبحانه وتعالى : "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحس عليهم في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون" (١) .

واكتناز المال يؤدي الى تعطيل استغلال الموارد الاقتصادية وبالتالي تأخر التنمية وما ينشأ عن ذلك من أضرار . وهذا المكنز اذا عرف أنه سيدفع في كل سنة وبالتالي فان ماله سيفنى ولا شك أنه سيدفع الى استثمارها ، وهذا ما يريد الاسلام .

(١) التهمة : ٣٤-٣٥ .

وحرّم الإسلام الربا لأنه يجبر ويلاّ على الأمم والشعوب والأفراد ويزيد الغنى غنى والفقير فقرا ويؤدى الى تركز الأموال بيد أصحاب رؤوس الأموال ونفى ذلك بلاء عظيم ، زيادة على تعطيل الأموال من حيث يريد الإسلام أن يتحول رأس المال هذا الى رأس مال منتج يساهم فى المشاريع الصناعية والتجارية . قال تعالى : " يحق الله الربا ويرى الصدقات " (١) .

وقال تعالى محذرا من الربا : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تهتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون " (٢) .

كذلك من الامور التى تقيد الملكية أن لا يكون كسبها عن طريق غير مشروع كالسرقة والنصب والقتال والربا والخش والرشوة وما شابه ذلك .

والإسلام حينما يشرع ذلك إنما أراد المحافظة على الأموال العامة وصيانتها واطمئنان أصحابها عليها وبالتالى توظيفها لصالح المجتمع المسلم ، لأن الإسلام يحرص على التنمية والاستثمار مادام ذلك فى صالح الفرد والمجتمع .

وفى سبيل الحفاظ على أموال الأمة أقر الإسلام جملة تشريعات منها : الحجر على السفهاء ومنعهم من التصرف فى أموالهم حتى لا تذهب هدرًا دون فائدة . قال تعالى : " ولا تؤولوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا " (٣) .

وطالب الإسلام اختبار اليتامى قبل دفع الأموال اليهم حتى لا تضيع بغير معرفة . قال تعالى : " وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافا هدارا أن يكبروا ، ومن كان

(١) البقرة : ٢٧٦ .

(٢) البقرة : ٢٧٨-٢٨٠ .

(٣) النساء : ٥ .

غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا " (١) .

كذلك كتابة العقود المالية كالدين وما جرى مجراها من الأمور المالية قصد بها الحفاظ على الحقوق والاموال من الضياع .

قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا تدابرتهم فليمنهم الى أجل مسمى فاكتبوه " (٢) .

وحرم الاسلام أكل أموال الناس بالباطل .

قال تعالى : " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس ^{بالأف} وأنتم تعلمون " (٣) .

وحرم التلاعب بالمكاييل والموازين .

قال تعالى : " ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " (٤) .

ومن التشريعات الاسلامية المتعلقة بالنظام الاقتصادي والتي تؤدي الى الحفاظ على حق الملكية المنفصية وضبطها بحيث لا تطفئ هذه الملكية على صالح الآخرين ، وبالتالي تنشيط الاستثمار وتوجيهه ، تدخل الدولة في المجال الاقتصادي ، وينمذد دورها في اقامة العدل ومنع الظلم ، وتنظيم الحياة الاقتصادية بما تتحقق به مصالح الناس في أمور معاشهم وتنمية الشريعة لصالح جماعة المسلمين في حدود أحكام الشريعة من غير تجاوز أو ظلم .

-
- (١) التيسار : ٦ .
 (٢) البقرة : ٢٨٢ .
 (٣) البقرة : ١٨٨ .
 (٤) المطففين : ٣-١ .

كذلك على الدولة في هذا الجانب أن تقوم بتأمين الخدمات العامة وتحقيق المصالح المتعلقة بشؤون حياة الناس الدينية وتنشيط الحياة الاقتصادية كفتح الطرق وبناء الجسور وكل ما يسهل على الناس أمور تجارتهم وزراعتهم وصناعاتهم . وهذا التدخل للدولة له نظام خاص ينفصل عن مفهوم تدخل الدولة عند الذاهب الأخرى ، فالتدخل في النظام الإسلامي هدفه تحقيق التوازن بين الفرد والجماعة وتحقيق العدالة ومنع الظلم وتحقيق التكافل الاجتماعي (١) .

(ج) ومن المعالم للاقتصاد الإسلامي من التشريعات للحفاظ على الطبقات الفقيرة في المجتمع بما يسمى بعبء التكافل الاجتماعي ، حيث دعا القرآن إلى القضاء على الفوارق بين الجماعات وحث على الانفاق في سبيل الله وعلى مصلحة الطبقة المحتاجة ، ورغب في الانفاق ووعد المنفقين بحسن الثبوت والأجر العظيم في الآخرة . وفي ذلك جملة من الآيات الكريمة .

قال تعالى : " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل " (٢) .

وقال تعالى : " وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب " (٣) .

وقال تعالى : " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا " (٤) .

وبين الله في آيات قرآنية أن المال مال الله وأن الناس مكلفون بالانفاق مما رزقهم الله من الأموال التي جعلهم خلفاء في التصرف فيها .

(١) الاقتصاد الإسلامي وقواعده / مرجع سابق ص ١٢٢-١٢٧ .

(٢) البقرة : ٢٦١ . (٣) البقرة : ١٧٧ .

(٤) الانسان : ٩٠٨ .

- قال تعالى : " وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " (١) .
 " وآتوهم من مال الله الذي آتاكم " (٢) .

وقال تعالى حاضاً على الاحسان : " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً
 فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط " (٣) .

كذلك باب الكفارات باب واسع للانفاق وكل ذلك في مصلحة الفقراء .
 وفي هذا نرى مدى اسهام الاسلام في القضاء على الفقر وتقليل الفوارق
 بين الطبقات لينشأ المجتمع نشأة صالحة يؤدي دوره في الحياة كصاحب عقيدة
 مساوية تهدف الى نشر الخير والمحبة وتسودها العلاقات المتينة والروابط
 القوية في جميع المجالات .

والحق يقال ان الانفاق الذي دعا اليه الاسلام لصالح التكافل الاجتماعى
 لم يكن من باب التطوع فقط بل ان هناك تشريعات ملزمة في هذا الباب تتمثل
 بآيات وأحاديث شريفة كثيرة في هذا الباب ، وذلك لا يصح دعوى القائلين
 بقصور الاسلام في ذلك وأن تشريعاته لسد هذه الثغرات تترك للتطوع فقط وكأنها
 من أواحيان غير ملزم .

ففي نطاق الاسرة أوجب الاسلام على الرجل النفقة على زوجته واولاده
 القاصرين كذلك على الاقارب المحتاجين بسبب عجزهم عن الكسب .

يضاف الى ذلك كفالة المحتاجين من أفراد المجتمع في الدولة الاسلامية
 كفريضة الزكاة التي تقوم بجمعها الدولة وهي تشريع الزامى على الاغنياء ، والخراج
 على الأرض وما يؤخذ على المعادن الظاهرة والباطنة ، كذلك الضريبة التي تدفع

(١) الحديد : ٧ .
 (٢) النور : ٣٣ .
 (٣) البقرة : ٢٤٥ .

للدولة من قبل أهل الذمة مقابل حمايتهم ، ثم الغنائم التي تؤخذ من العدو والحرب . والمشور على التجارة وما يفرض على الأغنياء عند الحاجة للانفاق على الصالح العامة كشؤون الحرب أو للمحتاجين اذا لم يكن هناك كفاية من بيت المال .

وهذه كلها تقوم بها الدولة الاسلامية بقوة سلطانها (١) .

أما التنظيم التطوعي فهو أيضا خاضع للضمير الديني والتقوى ، ويـزاد الانفاق كلما قوى الايمان في النفوس .

ان هذه التشريعات وهذه التنظيمات الاقتصادية قصد منها خير المجتمع وتقدمه ورفاهيته وامتلاكه القوة التي بها يحيى دعوته ومجتمعه ، وحث الاسلام المجتمع المسلم لتنمية ثرواته بالقدر الذي يستطيعه وطالبه بالانفاق الانتاجي وفضله على الانفاق الاستهلاكي حرصا على تنمية الانتاج وزيادة الثروة . وأوجب على المسلمين الحصول على أكبر قدر ممكن وأعلى مستوى من الخبرة الحياتية العامة في كل الميادين ، ليمتاع للمجتمع الاسلامي امتلاك جميع الوسائل المعنوية والعلمية والمادية التي تساعد على دوره القيادي للعالم ، بما فيها وسائل الانتاج وامكاناته المتنوعة .

والاسلام حين أقر التنمية ربطها باليسر والخير العام ولهذا فهو يرفض من أساليب التنمية ما يتعارض مع ذلك . وهذه المفاهيم الاقتصادية الاسلامية تضعنا في الجانب الصحيح في ممارسة دورنا كخلفاء في الأرض وفق شريعة الله مما يتيح لنا أن نصون الحياة من العبث والفساد والمظالم التي تحييق بالبشرية من جراء بمدها عن الله والأخذ بتعاليمه جميعها ومنها المفاهيم الاقتصادية .

(١) الاقتصاد مبادئ وفواعد عامة / مرجع سابق ص ١٣٨-١٤٥ .

وما دنا قد اطلعنا على رأى الاسلام فى ذلك فسوف نتكلم عن الاقسام الاقتصادية الثلاثة من صناعة وزراعة وتجارة مبتدئين بنظرة الاسلام الى كل فرع من هذه الفروع ومدى التقدم الحاصل فى التاريخ الاسلامى، ونخلص الى مدى حاجتنا الآن الى كل هذه الفروع للنهوض بها الى المستوى اللائق بما يحقق لنا القوة والاكتفاء الذاتى وبالتالى نجلى موقف الاسلام فى نظرتة الى أمور الحياة هذه وفى ذلك دعم للدعوة الاسلامية وقوة معنوية ومادية .

قوة في التصنيع

لما كان الاسلام دينا عاما شاملا يصلح لكل زمان ومكان ، فقد جاءت تشريعاته ملاحظة مع المتغيرات الزمانية والمكانية ، وفيه من الأمور الثابتة التي لا مجال للزيادة فيها كأصول العقيدة ، وفيه من العرونة الشيء الكثير بحيث رسم الخطوط العريضة لأصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد وترك لدى الفكر استنباط الجزئيات والتشريعات التي تستمد من الاصول العامة لمبادئ الاسلام .

ولا شك أن الاسلام يطلب من أتباعه أن يتمتعوا بالقوة في جميع جوانب الحياة ، لأنه لا يدمع الحق مثل القوة ، فلا بد للحق ، ومن يحمل لواء الحق ، أن يتمتع بالقوة التي يستطيع بها أن يحس الدعوة من طبع الطامعين وكيد الكاذب بين نسي الداخل والخارج .

والقوة تكون على أشكال متعددة وأفانين مختلفة فهي قوة في الاقتصاد من زراعة وتجارة وصناعة ، وقوة في الصحة العامة وفي الغذاء وتوفير الحادرات التي تؤمن للأمة كل متطلباتها الاقتصادية والعسكرية . وهنا نخصي الكلام عن القوة الحربية والصناعية ، وهي الأظهر في هذا المجال .

مكانة القوة والعلم في دهم الدعوة

وقبل أن نوضح أهمية القوة العسكرية وتوفير السلاح لا بد لنا من النظر في آية من القرآن الكريم تطالبنا في الأخذ بالقوة ما أمكننا ،

قال تعالى : * واهدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف الله اليكم وأنتم لا تظلمون * (١) .

(١) الانفال : ٦٠

وفي اللغة فان التكثير يفيد العموم ، ولفظة " قوة " هنا - والله أعلم -
 تفيد كل قوة ممكنة .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : " أمر الله تعالى باعداد آلات الحرب
 لمقاتلتهم حسب الطاقة والامكان والاستطاعة " وقد فسّر الرسول صلى الله عليه
 وسلم القوة بالرئيس ، ويستشهد بحديث الرسول : " ألا ان القوة الرئيس ، ألا ان
 القوة الرئيس " واعداد القوة بأقصى درجات الاستطاعة يحتاج الى طريق طويل
 من الجهد الدائب والعمل المستمر والبحث المتواصل عن كل ما يمكن من أجل
 امتلاك القوة هذه ، ولا شك أن العلم بصناعة السلاح والتدريب المتواصل
 والبحث عن المعادن وتصنيعها كل ذلك سهل لا مثلك القوة التي تريد لها
 لحماية الأمة وردع المدوان ، " انه يجب على المصمك الاسلام اعداد المعدة
 دائما واستكمال القوة بأقصى الحدود الممكنة ، لتكون القوة المهدية هي القوة
 العليا في الأرض ، التي ترهبها جميع القوى المبطلة ، والتي تتماح بها هذه
 القوى في أرجاء الأرض ، فتهايب أولا أن تهاجم دار الاسلام ، وتستسلم كذلك
 لسلطان الله فلا تمنع داعية الى الاسلام في أرضها من الدعوة ، ولا تعد أحدا
 من أهلها ، ولا تعد على حق الحاكمية واستعباد الناس ، حتى يكون الدين كله
 لله " (١) .

ويقول سيد قطب في موضع آخر إن الاسلام " يتخذ للنصر عتد الواقعية
 التي تدخل في طول المعصية المسلحة ، فهو لا يخلق أبحارها بتلك الاتساق
 العالية الا وقد أمن لها الأرض العلية التي تطحن عليها أقداسها ، وهيا لها
 الاسباب العلية التي تعرفها بطريقتها وتؤديها تجاربها " .

" فلا استعداد بها في الطوق فرضة تصاحب فرضة الجهاد ، والنص بأسر

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب / دار الشروق / ط ٤ ١٣٩٢ هـ ج ٣

بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسماؤها ، ويخص " رباط الخيل " لأنها الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة
 أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين ما سيوجد مع الزمن لخاطبتهم بسجيوالات سحرية - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - والمهم هو عموم التوجيه (١) .

ويعد سيد قطب يعد ذلك المطلوب من هذه القوة في حقل الدعوة ، ويتلخص ذلك فيما تضمنه هذه العقيدة للذين يختارونها من حرية في الاعتقاد وعدم التعرض لهم بسبب هذا الاعتقاد ، كذلك فإن هذه القوة ترهب أعداء هذا الدين حتى لا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام ، وأخيرا فإن المطلوب من هذه القوة أن تلقى الرعب في قلوب الأعداء حتى لا يفكروا في الوقوف في وجه الهدى الإسلامي وهو ينطلق لتحرير البشرية من قيود وهوانق تمنع وصول الحق ، وإزالة من يتخذ لنفسه صفة الألوهية ويحكم الناس بشرائعه حتى تكون كلمة الله هي العليا (٢) .

فالتقدم في وسائل امتلاك القوة هو في حقيقة الإسلام قوة للدعوة الإسلامية وحمايتها ، ومطلوبة لحماية كيان الدولة التي تحمل راية الإسلام ، كذلك العلم مطلوب هنا لأنه ركن آخر يدعم الدولة ويقويها ، وقد فضل الله نبيه " طالسوت " وجعله ملكا على بني إسرائيل ، نظرا لما يتمتع به من قوة وطم ، واختاره على هذا الأساس مع أنه كان على ما يبدو دونهم في المال .

قال تعالى في كتابه العزيز : " قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم " (٣) .

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب / دار الشروق ط ٤ ١٣٩٧ ج ٣ ص ١٥٤٣

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) البقرة : ٢٤٧ .

فالقوة والعلم ركنان مهمان لتأسيس الملك الصحيح الذى يؤدى الى الحفاظ على كيان الأمة وأداء رسالتها على الوجه المطلوب .

ومعطينا القرآن فى موضع آخر طكا عطيا وبين لنا مكانة القوة فى هذا الموضع ، يمثل ذلك فى قصة سليمان عليه السلام ، وذلك فان الله يريد أن تكون عطمين فى بناء المجد ، لا كلاميين ، ولا نظريين . فما القوة هنا ؟ وما كثافة الجند ؟

قال تعالى : * وجند لسليمان جنود من الجن والانس والطير فهم يوزعون * (١) .

والآية توضح لنا كثرة عدد هم وتزاحمهم ومحافظةهم على النظام وتسيير الصفوف ، فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم . وهذه الجنود الكثيفة التى لم يعرف لها مثل فى تعدد أجناسها تحت الرعب فى جميع الآفاق ، حتى يدخل الوجمل فى قلوب النمل فعلا عن غيره .

قال تعالى : * حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * (٢) .

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، وأنها لا يقف لها شئ فى الأرض فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : * ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون * (٣) .

هذا التصوير الرائع للجند على ايجازه لم يدع ناحية من نواحي الجند الا ألم بها ، كثرة العدد ، النظام ، عظمتهم بتعدد الأجناس فيه ، القائه الرعب فى قلوب المخلوقات ، حتى السير فيها والتي لا قصد للجنود اليها * (٤) .

(١) النمل : ١٧ .

(٢) النمل : ١٨ .

(٣) النمل : ٣٧ .

(٤) تذكرة الدعاة / المبنى الخولى / دار القلم / ط ٥ ٩٧ هـ ص ٤٦ ، ٤٧ .

وإذا انتقلنا خطوة أخرى بعد أن تبين لنا الأمر بإعداد القوة ، لوجدنا آية في سورة الحديد توضح لنا مدى الأهمية البالغة لمادة الحديد ، ويمثل ذلك في (البأس الشديد) باستخدام الحديد كأساس للتسلح والاهتمام العسكري ، (والمنافع) باستخدامه في كافة أوجه النشاط الحضاري .

لقد غدا الحديد في عصرنا الراهن ، وسيلة من أهم الوسائل في صياغة القوى الدولية سلماً وحرماً . ان الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن تهرب أعداءها بما يتحدها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل ، وتستطيع أيضاً أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لمصنعاتها وفناها^(١) .

قال تعالى : " لقد أرسلنا رسلاً بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز " (٢) .

جاء في تفسير الرازي لهذه الآية : " الكتاب إشارة الى ما ذكر الله نفي كتابه من الأحكام القضائية للمعدل والانصاف ، والميزان إشارة الى حمل الناس على تلك الأحكام المبنيّة على المعدل والانصاف وهو من شأن الطولك ، والحديد إشارة الى أنهم لو ترددوا لوجب أن يحطوا عليها بالسيف " (٣) .

ثم بين مكانة الحديد في تفسيره وأنه محتاج اليه في الزراعة والحياسة والبناء وحماية الدولة وأكثر مصالح العالم لا تتم الا بالحديد .

(١) - التفسير الاملاي للتاريخ / د . صادق الدين خليل / دار العلم للملايين

ط ١ ١٩٧٥ م ط ٢ ١٩٧٨ م ص ٢٢٣ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

(٣) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي ج ٢٩ تفسير سورة الحديد / ط ٢

دار الكتب العلمية طهران .

° فنحن بازا° نص كرم يخطط لحضارة مثلى ، قوامها الحق والعدل ، ويقرر للحديد - ولغيره من الثروات والمعادن - مكانة الحق من دعم قيم تلك الحضارة وأهدافها ° (١) .

وفي نص الآية توجيه لاستخدام حاسة الحديد وتبيان لأهمية هذا المعدن في المجال الصناعي والحربي لتدعيم القوة وحماية الدعوة وأخيرا للانضاح في شتى المجالات الواسعة للحياة .

ونلاحظ التداخل والارتباط في هذه الآية بين ارمال الرسل وانزاله الكتب معهم ، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، حين انزال الحديد الذي يحمل في طياته اليأس ، كذلك التأكيد على أن هذا كله انما يجرى° لكن يعلم الله (من ينصره يرسله بالذهب) و (أن الله قوى عزيز) .

وهذا التداخل والارتباط يوضح لنا أنه لا بد للمسلم من أن تحميه يده المؤننة القوية التي تعرف كيف تحسب من الحديد وتستخرجه من باطن الأرض لصنعه بعد ذلك من أجل حمايته ونصرة دينه ، وإذا تخلى عن هذا الموقف فانسه يكون قد تخلى عن موقفه من حماية الدولة والدعوة ، ويكون قد اهتمد عن هذه المواقف القرآنية التي تطالبه بالاعتماد الواسع على حصار القوة واليأس .

ومناسبة الكلام من هذه الآية نورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :
° بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصفار على من خالف أمري - ومن تشبهه يقوم فهو منهم ° (٢) .

(١) الثروة في ظل الاسلام / البهي الخولي ط ٢ ١٩٧٨ / دار الاعتصام

ص ١٥ .

(٢) حديث شريف : رواه الامام أحمد وأبو داود .

وهذا الحديث يوضح لنا المقصود من قوله (فيه بأس شديد) أي السلاح بأنواعه المختلفة .

هداية الله للإنسان في مجال الصناعة

على أن الكثير من الصناعات كانت بهداية الله للإنسان ، وهو ضربه إلى أنبيائه ، كصناعة السفن والدرع واللباس والأثاث ، وكانت الآيات صريحة في ذلك ، بل إن الله سبحانه وتعالى أشار في آيات أخرى إلى تطبيقات عملية في مجال الصناعة بما يسمى اليوم " بالتكنولوجيا " كما في قصة نبي القريش والتقدير في السرد عند صناعة الدرع الحربية .

فالمثل الصناعي مطلوب من المسلمين ، وحض عليه الإسلام ، وخاصة الجانب الخير النافع وترك ما دونه ، ويمثل هذا الحض أولاً في تسخير ما نسي السماوات وما في الأرض للإنسان ، كما مر ذكره في الباب الأول عند الكلام عن مركز الإنسان في الكون المادي ، كذلك الحث على العمل حيث دعا القرآن إليه بآيات كثيرة مر ذكرها ، وأحاديث نبوية شريفة (١) . ومن الطبيعي أنسه لا يمكن الاستفادة من هذا التسخير بدون السعي الجدى والعمل المستمر ، والعلم بقوانين ومن استخراج المعادن وتصنيعها .

هذه التعامل الإسلامية كان لها أبلغ الأثر في نفوس المسلمين ، فأقبلوا على أنواع الصناعات يتفنونها ويحاولون التفوق فيها على غيرهم من الشعوب ، ولا سيما بعد أن استتب لهم الأمر ، ووجدوا - على أثر الفتوح - فرص العمل والتصنيع متاحة للجميع .

بالإضافة إلى الآيات السابقة فإننا نستعرض بعض الآيات الأخرى توضح لنا صحة هذه النظرة الإسلامية في الصناعة والتصنيع .

(١) يراجع في ذلك فصل مركز الإنسان في الكون المادي والعمل ودعوة الإسلام إليه .

قال تعالى : واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا
انهم مبغضون * (١) .

فصناعة السفن على ذلك لم تكن معروفة ، انما يهدى الله ووحيه ورعايته
تتم هذه الصناعة .

قال ابن كثير في تفسيره للآية : (واصنع الفلك) يعنى السفينة (بأعيننا)
أى برأى منا (ووحينا) أى تعلمنا لك ما صنعناه (٢) .

ومع ذلك عرف الانسان هذه الصناعة ، وتطورت على مدى الأيام حتى
وصلت الى ما هي عليه الآن .

أما صناعة الدروع فقد علمها الله نبيه داود وطلب منه اتقان الصنع ، وذلك
بأنه يبرسرها ، حتى لا تنفذ منها السيوف ، فكان الله سبحانه وتعالى يتسبر
فيها الهبة لمحاولة الابداع في مثل هذه الصناعات ، وابتكار غيرها ان كان ذلك
في المستطاع .

قال تعالى : * ولقد آتينا منا داود نفلا ، باجبال أهي معه والطير ،
وألنا له الحديد ، ان اعدل ما يهفات وقدر في السرد ، واصلوا صالحا ، انسى
بما تعلمون بحير * (٣) .

ودل تعالى : * وهلمنا صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم
شاكرون * (٤) .

وقال تعالى : * وجعل لكم سراويل تقمكم الحر وسراويل تقمكم بأسكم * (٥) .

-
- (١) هود : ٣٧ .
(٢) تفسير ابن كثير / دار المعرفة بيروت ط ١٩٦٩ م .
(٣) ميسا : ١٠-١١ .
(٤) الانبيا : ٨٠ .
(٥) النحل : ٨١ .

من هنا نرى أن الاسلام قد سبق الطريق نحو التصنيع واتقان الصنعة
الى أبعد الحدود ،

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا
أن يتقنه " وينطبق ذلك على العمل الصناعي كما ينطبق ذلك على غيره من
الاعمال .

وهذه الصناعة الحربية كانت بتعليم من الله لنبيه داود حتى يدفع عن
المؤمنين بأس الكافرين ، ويحس الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى حتى تكسبون
كلمة الله هي العليا .

ويرد في القرآن الكريم ذكر بناء البيوت وصنع الاثاث والبراميل ، وقصد
من الله على الناس بما وهبهم من قدرة على هذه الصناعات ، ولولا هذه
القدرات الممنوحة من الله أصلا لما استطاع الانسان عمل ذلك ، فهو السبب
أوجد المواد الخام ، وهو الذي سخرها لنا ، وأمرنا بالانتفاع بما حولنا من
مواد ، وهو الذي أوجد فيها القوى العقلية التي تستطيع أن تستفيد من هذا
المنوع بالطرق المختلفة وتطوره ، بحيث يصبح قابلا للفائدة أكثر من وجوده
على حاله في الطبيعة . وهذه القدرات كلها من الله سبحانه وتعالى (١) .

التجربة الصناعية

ومن الجوانب التطبيقية في المجال الصناعي ورد ذكر الحديد والنحاس
في عملية بناء السد التي قام بها " ذو القرنين " بمعونة من الله سبحانه وتعالى
مضافرة الجهود المختلفة لعملية بناء هذا السد العجيب .

(١) أميس الحضارة / عبد الرحمن الميداني / ص ٣٢١ وما بعدها .

قال تعالى : * وسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا
مكننا له فى الأرض وآتيناها من كل شىء سيبا * (١) .

قال ابن كثير فى تفسيره : * انا مكننا له فى الأرض * أى أعطيناها ملكا عظيما
مكننا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكن والجنود وآلات الحرب والبحارات* (٢)

ومعطينا سيد تطب فى تفسيره لهذه الآيات صورة واضحة ننقلها هنا
عن كيفية بناء السد والمواد المستخدمة وطريقة استخدامها ، بحيث أصبح السد
بهذه المتانة المعروفة .

رأى ذى القرنين أن أسير طريقة لاقامة السد * هى ردم العربيين الحاجزين
الطبيعيين فطلب الى أولئك القوم المتخلفين أن يحمينوه بقوتهم المادى
والعضلية . . فجمعوا له قطع الحديد ، وكوسها فى الفتحة بين الحاجزين ،
فأصبحا كأنهما سد فتين تغلفان ذلك الكوم بينهما ، وأصبح الركاب بمساواة
القيمتين * قال انفخوا * على النار لتسخين الحديد * حتى اذا جعله نارا*
كله لشدة توجبه واحمراره * قال : آتوني أفرغ عليه قطرا * أى نحاسا مذابا
يتخلل الحديد ، فوجد أن اضافة نسبة من النحاس اليه تضاف مقاومته وصلابته .
وكان هذا الذى هدى الله اليه ذى القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد مبقيا
للمعلم البشرى الحد يفتخرون لا يعلم عدوها الا الله .

ونظر ذى القرنين الى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذ المظهر
والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد اليه العمل
الصالح الذى وفقه اليه . وتبرا من قوته الى قوة الله . وذلك تنتهى ههنا
الحلقة من سيرة ذى القرنين النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله فى الأرض
ويسرله الأمباب ، فهجتاج الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ،

(١) الكهف : ٨٣ وما بعدها .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٠٠ ص ١٠١ .

أما ينشر العدل في كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدراً عنهم
العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التصحيح والاصلاح ،
ودفع العدوان واحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يد من
الى رحمة الله وفضل الله (١) .

ونلاحظ هنا أخيراً أن ما يقدمه الانسان من أعمال ومنجزات يجب ألا يكون
هدفاً بحد ذاته ، فالأعمال الصناعية المطلوبة هنا تعتبر وسيلة لتهيئة الحياة
حتى تكون صالحة لعبادة الله وحده ، واجتاد الظروف الجيدة حتى يمسارس
الانسان وظيفته وهي الاستخلاف واصار الأرض ، وتكون الدنيا بذلك مصحراً
سليماً الى الآخرة حيث هي مكان اختبار لتسلك الانسان بما أراد الله منه .

أما في التجارب الوضعية فان الهدف من وراء التقدم الصناعي يختلف عنه
في الاسلام ، ولذا نرى الدمار والحراب في الواقع الحالي نتيجة التقدم
الصناعي الهائل في المجال الحربي ، لأنه لا يحد هذا الجانب الاخلاق
كما هو في الاسلام ولا تسير الاهداف الخيرة .

ومن خلال النظر في آيات الله وأحاديث الرسول الشريفة تبين لنا قوة
الدفع للعمل الصناعي في الاسلام من الناحية النظرية ، حيث وفرت النصوص
الدفع اللازم في هذا الاتجاه وغيره ، وذلك من خلال الطلب بالتأمل العميق
في الكون وصولاً لادراك قدرة الله ، ونصوص الاسلام توحى بقيام مجتمع متنامسك
بالتالي يحتاج لتوفير كل ما يلزم لقيام هذا المجتمع . والامر الثاني هو اللفت
المباشر الى الكون وما به ، وتسخير الموجودات للانسان ، والطلب من المسلمين
لمحاولة الكشف عن السنن التي تحكم الاشياء ، وهذه الامور تندرج تحت
(المعرفة العملية) .

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب تفسير قصة نبي القرنين / ج ٤

وأخيرا التطبيق العملي كما تبين لنا من خلال الأمثلة القرآنية عن الحدود
وتسليمه وإدائه بالنار وظهوره بخلطه بالنحاس كما تبين في قصة نبي القرنين .

تطور الصناعة في العهد الإسلامي

كان من المستحيل أن لا تترك هذه التعامل الأثر الكبير في نفس
المسلمين ، فزاهم وقد أهلوا على أنواع الصناعات بتقنونها وبحاولون الضيق
فيها على غيرهم من الشعوب ، ولا سيما بعد أن استتب لهم الأمر ، ووجدوا
فرص العمل والتصنيع متاحة للجميع .

فصناعة السيوف ومعرفتها واستعمالها كانت منتشرة في عصر الرسول صلى
الله عليه وسلم ، فقد عرفوا بعض أنواع الأسلحة ، كالسيوف والرماح والسهام
والدروع والنبال والمخار ، زيادة على استعمالهم النجنيق ، حيث يقول نبي
ذلك ابن هشام : " ان النبي عليه السلام كان أول من رص في الإسلام
بالنجنيق ، رص أهل الطائف " (١) .

ويقول كذلك عن آلة استعملت يوم الشدوخة عند جدار الطائف وهي
الدبابة ، وهي مصنوعة من الخشب المغطى بالجلد يدخلها الرجل ويقرب بها
إلى الجدار لينقبه ويكون في حماية من نبال الخصم .

وما سبق ذكره من آيات يوحى باستعمال المسلمين ضررها من السلاح
مقتومة ، ويوحى بأن على المسلمين الابتكار والابداع في مجال الأسلحة . أما
التدريب على السلاح فقد كان يحث عليه الرسول عليه السلام ، وخاصة الرماية ،
حيث قال محمداً على حسن الرماية : ارموا واركبوا ، وان ترموا أحب إلى من
أن تركبوا " (٢) .

وانطلق المسلمون بعد ذلك في مجال الصناعة إلى حد وديعة ، وبدوا أن

(١) السيرة النبوية لابن هشام / المجلد الرابع / دار احيا التراث العربي -

بغروت / ص ١٢٦ .

(٢) الترفيب والترهيب للسندري .

لا اختلاطهم بالبروم والفرس أثرا في تسمين اسلحتهم وأزيائهم العسكرية (١) .

ثم تقدم المسلمون في المجال الصناعي الى حدود بعيدة وخاصة ما يحتاجه المجتمع سواء كانت صناعات حربية أم صناعات أخرى كالآثاث والاواني المنزلية والسجاد واللباس ، وصناعة السفن وصناعة الورق واستخراج الممادن ، ومثل الآلات اللازمة في الجراحة والآلات الفلكية والساعات ، والقناطر على الأنهار وطواحين الهواء الى آخر ذلك .

وننقل هنا بعضا مما جاء في كتاب النظم الاسلامية حول هذا الموضوع ،

لقد تطورت الصناعات في العصور الاسلامية المتعاقبة تطورا سريعا ، فعرفت في العصور الأولى صناعات خاصة للنسيج والتطريز . ونموا من النباتات أنواعا من الأصباغ ، و عرف المسلمون في العصور الأولى كيف يمزجون بين صبغتين فأكثر لينشئوا لونا جديدا .

وقد اشتهرت العراق بصناعة الفخار . . . و عرفت بخداد بشكل خاص صناعة القاشاني (او الكاشي) وهي الصناعات الزجاجية الدقيقة .

واشتغل أهل حران بصناعة الآلات الفلكية ، وأهمها الاسطرلاب لقياس ارتفاع النجوم ، والشمس والقمر . واشتغلوا أيضا بصنع الموازين الدقيقة ، مثلما أتقنوا فن النجارة ، حتى صنعوا النوافذ بطريقة تدخل الألواح من غير حاجة الى استعمال الدر والماس .

و عرف العراقيون صناعة السفن ، ونموا القوارب للنزهة حتى قال الخطيب الخدادى أنه كان في بخداد وحدها ٣٠٠٠ زورق .

وفي عهد الفاطميين برعت مصر بالحفر على الخشب ، كما برعت بالنسوجات

(١) النظم الاسلامية نشأتها وتطورها / د . صبحي الصالح / دار العلم للملايين - بيروت ط ٢ ص ٤٠٣ .

الزخرنية وهنى المصريون باستخراج زيت الزيتون وزيت السمسم ، وصناعة الصابون والشمع ، وعرفوا كيف يستخرجون السكر وينشكون لذلك المعاصر السلطانية .

أما أهل الشام فاشتغلوا بصناعة الورق ، والجلود والحرير ، وكانوا ماهرين فى فن التجليد ، ولا سيما تجليد الصحاف بأنفس أنواع الحرير كالأطلس والديماج .

وأما الأندلس فقد ساعدت كثرة غابات البلوط والصنوبر فيها على صناعة الأدوات المنزلية ، وبناء السفن ، كما كان توفر الزيتون فيها عاملا كبيرا فى تقدم فنهم فى استخراج زيت الزيتون . واعتنى أهل الأندلس بصناعة الورق والفخار والخرف .

وقد اخترع العرب نحو ٢٨٠ آلة جراحية كان يستخدمها الأطباء فى المستشفيات ، ومع العرب فى الصيدلة وتحضير الأدوية : كالزهرراوى أكسير جراحى الاسلام ونخرا الجراحة العربية وابن البيطار وداود الانطاكيوس وسن الهم .

والعرب بوجه عام أول من عرف الترشيح والتقطير والتحويل والتبخير والتذويب والتعليق . كجابر بن حمان والرازى وغيرهما .

ومن أطرف ما يستحق من رقى الصناعة فى بلاد العرب أن معظمهم صرف الاصناف والنفقات ولا سيما فى العصر العباسى . فكان لكل حرفة شعارها ومراسمها ، وكان لكل صناعة نقيها ومثلها . ولا يستغرب هذا اذا قننا بما ذكره عن النقباء حتى فى عصر النبى عليه السلام ، ان كان لكل منهم مثالا لناحية برع فيها فى ذلك العصر النبوى الكريم^(١) .

(١) النظم الاسلامية / مرجع سابق ص ٤٠٤-٤٠٨ .

ويحدد آدم متر في كتابه " الحضارة الاسلامية " أصناف الملابس وأنواعها من كتان وقطن وحرير ومراكز الصناعة لهذه الملابس ، ويحدد صناعات أخرى كالحصر والحطير والطواحين المائية على الأنهار ، وصناعة الورق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وآلات القياس كالاسطرلاب وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة كذالك صناعة السبح في القدس (١) .

وقد انتجوا حامض النتريك ، وحامض الكبريتيك . . والبوتاسيوم وسيلسول الأمونيا وكلوريد النشادر ونترات الفضة وكلوريد الكبريت ونترات البوتاسيوم والكحول والقلوي وكبريتور الزرنيخ الاصفر والبوراكس . فضلا عن ذلك فقد كانت هناك فنون كثيرة أخرى شائعة في ظل الخلافة العباسية مثل التقطير والتبخير والتكرير واستخدام الصوديوم والكريون والبوتاسيوم والكلوريد والأمونيا . ومن الاختراعات الرائعة للعلماء المسلمين صناعة الساعات وخاصة تلك التي تتحرك بالماء أو الزيت أو حتى بالشمع المحترقة (٢) .

الحاجة الى الصناعة في هذا العصر

أما في العصر الحاضر فحاجة الامة الاسلامية الى الصناعة الحديثة والاقتصادية على السواء حاجة قصوى ، فهذه الامة التي لا تمتلك هـذـه الصناعات تقف في طويرة الصنوف مهما كان موقعها الحضاري في التاريخ ، ومهما تتمتع به من مادي سامية ، وذلك لأن الهدأ اذا لم تدعمه قوة تقف من ورائه فلن تكون له الخلية . وهذا منطبق الوقائع في التاريخ كله .

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري في عصر نهضة الاسلام . المجلد الثاني ص ٣٥٤ وما بعدها . ترجمة محمد عبد الهادي ابوريسند / الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت / ط ١٣٨٧هـ . ١٩٦٧ .

(٢) انجازات الحضارة الاسلامية في ميدان العلوم والفنون / الندوة العالمية للشباب الاسلامي / امتياز حكيم . ١٣٩٩هـ .

وهذه الأمم التي تمتلك الصناعة المتقدمة تمارس سيطرتها على العالم ،
وتتحكم في مصائر الشعوب المستضعفة تستند لها وتستغل خيراتها وتمارس
في حقها أهدح صور الاندال والسيطرة .

وإذا كانت هذه هي صورة الواقع الذي نعيشه ، فهل نقف مكتوفي الأيدي
أزاء كل ذلك ، أم أننا سوف نسمى إلى التغيير من واقع ما يأمرنا به الإسلام
من امتلاك القوة والسعي الدؤوب لا ممتلك السلاح وتأمينه ، بل وصناعته واتقان
صناعته إلى أبعد الحدود .

انهم يمارسون الضغط على الدول الإسلامية في سبيل بيعها بعض السلاح ،
في الوقت الذي لا يخرجون من هذا السلاح إلا ما قد أصبح نظرياً في صورة
لا يفيد كثيراً ، أو أنفق طريقة إلى عبور المتحف بعد فترة قصيرة من الزمن .
لأن السلاح في هذا العصر يظهر كثيراً ، بحيث يكون في خلال عشر سنوات
قد انتهى ليظهر مكانه سلاح فعال أكثر منه قوة وتقدماً .

فلا اختراعات متواصلة والتطور مذ هل . وليس علينا إلا أن نبدأ البداية
الصحيحة ولو بدأنا من الخطوة الأولى لتكتمل بعد مائة عام ، لأن الخطوة
الأولى الصحيحة مع التصميم على المواصلة بدافع عقيدة قوى سيوصلنا بأذن الله
إلى مرحلة التصنيع المطلوب . وأي موقف آخر نسيكون مخالفاً لما يطالبنا
الإسلام به بحيث يضمننا في موضع المتخاذلين المقصرين والمفرطين في شمس
الله وما أمرنا به .

إن الزمن يمر ونحن فاقلون عن أهميته البالغة ، وكل يوم يضيغ ونحن على
حالتنا هذه سيؤدي بنا إلى زيادة الفرق في التفوق التقني الهائل بيننا وبين
العالم المتقدم في المجال الصناعي ، وسيبائلنا الله سبحانه وتعالى على
تخريفنا في أمره لنا بإعداد القوة في قوله تعالى : " واحدوا لهم ما استطعتم
من قوة " وهذا العمل ليستحق منا كل جهد عقلي وهدني . ويتضافر الجهد

سيحقق ان شاء الله ما تصبو اليه هذه الأمة في نهضتها المباركة وتقدمها
التقني .

اذن علينا أن نضع نصب أعيننا أننا نعمل أولا لتحقيق ارادة الله سبحانه
وتعالى في امتلاك القوة الحربية حفاظا على هذا الدين من أن تمت اليأسه
الايدي بالاعتداء . وقوة تصان بها الاوطان والعباد لتنفيذ شرع الله حتس
تكون كلمة الله هي العليا . ولا ننسى أن القوة في أمة من الأمم تكون سببا من
أسباب اعجاب الآخرين ورهبتهم للامة التي تمتلك هذه القوة وتعلقا بعباد لها
نظرا لموقعها من القوة ومركزها القوي .

اننا بحكم الاسلام مسؤولون عن تنفيذ أمر الله بنشر الدعوة لنضع البشرية
في الموضع الصحيح من اتباع شرع الله وأن نكون في موقع الصدارة لهذه الأمم .
وان المواقف السلبية ستؤدي بنا الى الهزيمة والخذلان ، ولن ينصرنا الله
الا اذا أخذنا المعادلة من طرفيها : ايمان بالله عميق . وعمل صالح نافع .

ومادام الله راقدا في علينا الصناعات تحدنا الاخلاق الاسلامية وفي حدود
هذه الشريحة السعاه ، بلن تكون الصناعة الا في خدمة الحق ومن أجل صيانته
ولن يستتج هذا العمل الصناعات الشااكل التي حدثت في أوروبا من طفيلمان
ومظالم وفرور وحب للسيطرة وعصرية تسمى للضوق والصراع الطبقي وغير ذلك .

والدعوة الاسلامية لن تكون بخير ما لم تدعها القوة ، وهذا أمر لا خفاء
فيه . والسعي لا امتلاك كل جديد من السلاح هو أمر طبيعي أيضا . فلا يمكن
أن نبقى نحارب الاعتداء بأسلحة قديمة كالسيف والرمح والخيل ما كان يستعمل
في السابق ، وليس ذلك من باب الاقتداء ودهمه ، لأن الاقتداء الصحيح يكون
في التجرد والخشية واثار الآخرة . أما تأمين الحقيقة في العصر الحاضر
فقد استحدثت له وسائل متطورة حديثة لا حصر لها ، ويجب على حملة الرسالة

اتقان هذه الوسائل جميعها ، والا ضعنا في سبب الريح وسهل على الأعداء السيطرة علينا بتفوقهم الكاسح في هذه الوسائل .

وأقرب مثال على ذلك ما تعانيه الأمة الإسلامية من وجود إسرائيل دولة مدججة بالسلاح الحديث المتطور كطليحة استعماريه في منطقتنا العربية ، تسمى لبسط السيطرة على حساب أراضي المسلمين . لقد حققت الانتصار علينا بهذا السلاح المتطور الذي تمتلكه رغم قيمها الفاسدة ومعتقداتها البالية وأخلاقها الفجيرة . ونحن في الجانب الآخر لا نمتلك مثل هذه الأسلحة إضافة إلى التخلى والقصور في جانب الأخذ بالمعقيدة الإسلامية التي هي بعينها من مركز القيادة والتوجيه . وحتى لو امتلكتنا هذه المعقيدة فلا بد لحمايتها من هذا السلاح والسعى لا ملاحه ، بل ستكون هذه المعقيدة هي أكبر دافع للتوجه إلى كل سلاح وامتلاكه واتقان استعماله إلى أبعد الحدود . وقد رأينا الموقف القرآني من الصناعة والصناعة الحربية بالدرجة الأولى حماية لهيكل المعقيدة ولأوطان المسلمين من كل معدة أثم .

ان هذه المعقيدة قد وفرت لنا كل دعم ممكن للانطلاق في البناء الحضارى وتركيز التوجه نحو الصناعة وخاصة صناعة السلاح الذى لا يعرف الوقوف عند حدود . وطننا أن نرى خطورة هذه القضية فالسلاح يتطور باستمرار ، وقد بدأ مساره التصاعدي على يد المسلمين يوم اكتشف العالم السلم " حسن الرماح " قوة التفجير الكامنة في البارود الذى أخذته أهرها عنهم وطوروه في عصر النهضة بحيث بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحروب ، وأخذ يتطور باستمرار حتى وصل إلى ما نشاهده الآن .

في الوقت الذى بدأت فيه أهرها تتقدم في صناعة السلاح تخلى العالم الإسلامي عن إيجابيته واندفاعه العلمي حين تخلى عن الإسلام وخف تأثيره ليس

الامة ، وخطى يوم صديق ما استفاق منه الا على أصوات المدافع ووقع القنابل
عند ما بدأ الحرب مرحلة استنصاره العسكري في الفترة الاخيرة عند ما تأهب
للاقتضاض على تركة الدولة العثمانية .

لقد تطورت صناعة السلاح الى آفاق بعيدة بدأ بمندقية وانتهى بقنابل
ذرية وهيدروجينية ونووترونية وما بين ذلك من دبابات ومصفحات ومدافع
ثقيلة وقنابل فسفورية ومخلوطة وطائرات حربية وصواريخ بمختلف أنواعها
وأحجامها . حين وأخر نسمع عن اكتشاف جديد في عالم السلاح ،
وسرعان ما ينشأ سلاح ضار له عند الخصم وهكذا هم في بحث دائم عن كل
جديد في عالم السلاح ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً ، وبدد القصور عندنا
منتهاه ، ومازلنا في مرحلة الذهول والحيرة وفوضى الطريق مع أن الوقت
حين جدا في عالم اليوم .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما موقف المسلمين من هذا الضيق
الكاسح في جانب الأعداء ؟ وما هو دورنا الآن بعد أن وضحت الحقيقة
وما نعانيه من مؤامرات الأعداء وأطماعهم في منطقتنا ؟

ولو حكينا عقيدتنا في هذا الموضوع لكان الجواب في غاية الوضوح ، وهو
أن نبدأ ولو من نقطة الصفر وندع لأجيالنا القادة قادة الهداية نحو هذا
التوجه الصناعي ولن نحلم بتحقيق هذا التقدم بيوم وليلة ، بل لابد من بذل
الغرق والجهد والدموع وتضامر جهود الأمة جميعها واستنارة الهمم لبذل
مزيد من التضحية والعمل الجاد وتوفير كل مستلزمات هذا العمل بشتى تفرقاته
من جهد ومال وعلم وطمأنة .

يجب أن نتفق على هدف موحد وننتقل من المنطلق الصحيح الذي يسدع
للأجيال فرصة ليكملوا الطريق فلا تقاس أعمار الأمم بجميل من الأجيال ، فإن لم

نستطع انجاز المطلوب في جيلنا فلندع لمن بعدنا شيئا يستندون عليه
وهذا ما سيكبر الهنا، ويملو حتى نحقق يوما ما هذا الطوبى .

ان العقيدة السليمة هي اعظم افع لهذا العمل لظهوره بشكل متوازن
وصحيح ولن تدمر كل هذه الجهود الا في ظل هذه العقيدة الموجبة
والدافعة الى التضحية والبذل والعطاء ، عندنا ينشر الجميع بأنهم يؤدون
علا مطلقا في شريعة الاسلام مثابرين عليه عند الله فهو عبادة مادام
قصدوا حماية دين الله وأوطان المسلمين ومادام سعيهم لصالح الأمة
الاسلامية وتحقيق العزة والنفعة لأبنائها .

ان الدعوة الاسلامية لن تكون بخير ما لم تكن هناك قوة تدعمها ، ان
السلاح الذي يحس الدعوة من الاهداء ويدخل الرهبة في قلوبهم سيكون رمزا
للخير ورمالة سمة للعالم لا فولا يكتم الحق ويسمى الى الفتن . انه عنوان
المجد ورمز الفخار واطلاء الحق وساداته أينما كان . انه في صالح البشرية
جمعا، ولن يكون الا ضد الشر والطغيان والفساد .

هذا هو موقف العقيدة الفعالة المؤثرة ، وان أي موقف مغاير لذلك
سيكون موقفا سلبييا من التسليم، ينفذ العقيدة فعاليتها وحيويتها وتأثيرها
ولن يكون هذا الموقف مقبولا من العقيدة نفسها . وسيؤثر ذلك على الاسلام
نفسه ودعوتة لأن الضعف لا يمنع الا ضعفا أشد في مجالات أخرى .

ان الحق الذي لا تدعمه قوة سينهزم وستكون الفرصة مثلى للاعداء
ليفعلوا ما يشاؤون . انهم يسمون بكل قوة لا يقاومنا في مرحلة الضعف هذه .
ضعف في العقيدة وفي السلاح . ويركزون على أن تصورنا المادي مبهين
عقيدتنا ومن أسف أن يكون من أبناء هذه الأمة المنتسبين اليها من يروج

لهذه الأهمية . مع أن تحليلنا السابق قد وضع كيف أن عقيدة الإسلام
تشكل أكبر الدافع للترقي في جميع المجالات وخاصة في مجال القوة .

انهم يريدوننا أن نبتعد عن هذه العقيدة لأنها مصدر الالهام للبنيان
الحضارى ، وهوود تنا لهذه العقيدة منمنطق القوة لا محالة . وهـذا
ما يخشاه الأعداء فهل نحقق غشيتهم هذه ؟

قوة في لمجال الزراعى وتوفير الغذاء

المجال الزراعى

اكتسبت الزراعة أهمية كبيرة منذ أقدم العصور ، لأنها تلبى للانسان حاجات ضرورية لا بد منها ، ولقد تطورت الأساليب الزراعية عبر التاريخ ومازالت تكتسب المزيد من العناية والتطوير نحو التحسين الزراعى وتوفير المواد الغذائية خصوصا في هذا العصر حيث النزاهد السكانى الهائل والذي لا بد من مواجهته بتخطيط على سليم وعمل دائم من أجل التنمية ، والا فان المشكلة ستفاقم وتشكل بذلك خطورة كبيرة على الانسان .

ونظرة الاسلام الى الزراعة والعمل الزراعى تتبين من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وتاريخ الدولة الاسلامية ، وهى نظرة تتميز بالبحث على التنمية الزراعية من غرس واعمار الأرض واستغلالها أحسن استغلال ، والمحافظة على مصادر المياه من أنهار ومياه جوفية ومياه الأمطار ، كل ذلك تحقيقا لأمر الله فى اعمار الأرض وتوفيرا لمتطلبات الحياة الانسانية لأن فى ذلك قوة للأمم ودعما لها فى اقتصادها بحيث لا تقع فى عوز الدول الأخرى حيث تتحكم الدول الغنية بالدول الفقيرة ما قد يؤثر على استقلالها وعقيدتها .

لقد أشار القرآن الكريم الى الأرض وأنواعها ، والى النباتات وتنوعها ، والى الماء وأهميته فى الزراعة ، والى اليد العاملة ومهارتها مما دفع المسلمين الى الزراعة بحيث أصبحت أكثر المهن تعاطيا مما جر على أصحابها الخيبر والنماء ، ومارسوا الزراعة وهم واثقون من واقع الآية التى تقول : " وقدر فيها أفواتها" (١) ، وقد أشارت الآيات الكريمة الى جوانب متعددة من المسألة الزراعية (٢) ، بحيث تنفوق هذه التعاليم على مثيلاتها من أحدث العلوم الزراعية

(١) فصلت : ١٠ .

(٢) كيف السهيل الى المد - علم الانسان وعلوم القرآن / خير الله طلفاح / الجزء

الثانى الطبعة الثانية / مؤسسة المطبوعات العربية ص (١٧٦ - ١٧٧)

في العصر الحاضر . فقد اهتمت الآيات بمشروعات الري ، وطالبت بالبحث عن المياه الجوفية وتقنين مياه الشرب ، واصلاح الأراضي البور والصحارى ، بحيث رست خطوطا عريضة لسياسة زراعية حكيمه أخذ بها المسلمون مما ادى الى نشاطهم الكبير في المجال الزراعي .

يقول تعالى في سورة الرعد (٣-٤) : " وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بما واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون " .

وفي سورة النحل (١٠-١١) : " هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون يثبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون " .

والرسول الكريم دعا في طائفة من أحاديثه الى العناية بالزراعة والغرس مما حمل المسلمين على الاعتناء بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها مما ادى الى نهضة زراعية كبيرة ، وقامت الدولة الاسلامية بواجبها في هذا المجال فأنشأت القنوات وبتت السدود الى غير ذلك مما ساهم في هذه النهضة العظيمة .

قال صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن يغرس غرسا أو يزرع زراعا فيأكل منه طير أو بهيمة الا كان له به صدقة " (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : من كانت له أرض فليزرعها ، فان لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ، ولا يؤجره اياها " (٢) .

(١) رواه مسلم في "باب فضل الغرس والزرع" ، والبخارى تحت نفس العنوان .

(٢) تهبذيب ابن القيم لسنن أبي داود ج ٥ ص ٥٦-٥٧ .

- وقال : * من أعمار أرضا ليست لأحد فهو أحق * (١)
 * من أحياء أرضا ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق * (٢)
 * عادى الأرض لله ولرسوله ثم لكم من بعد ، فمن أحياء أرضا ميتة
 فهي له ، وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين * (٣)

ولقد وجه الرسول في أحاديثه السابقة إلى العناية بالزراع خاصة لدى مقدمه إلى المدينة المنورة ، وذلك لأن أرض المدينة كانت صالحة للزراعة من ناحية ، ولأن المهاجرين من مكة كانوا مضطرين إلى كسب قوتهم بمشاركة اخوانهم المزارعين الأنصار من ناحية ثانية ، يضاف إلى ذلك الاعتبار القرآني بأن الزراعة عمارة للأرض كما أمر الله بالدرجة الأولى (٤) .

ونرى من هذه الأحاديث أن ممارسة العمل الزراعي يؤدي إلى التحسين المادي وإلى احياء الروح الديني لأنه عمل عبادي ينال صاحبه أجرا من الله . فالزراع يحقق ارادة الله باستخراج ما في الأرض من غلات وخيرات ، وهو بذلك انسان نشط ، يدفعه ايمانه إلى التسمية ومضاعفة الانتاج حتى لا تنقضي في الكون أرض بدون استصلاح واستثمار .

وتركز الأحاديث السابقة على احياء الارض الميتة ما يعنى التوسع النفسى في الزراعة ، بدل تعطيلها وعدم الاستفادة منها ، وأعطت الحق بتملك الأرض عن طريق احياء حيث جعل الاسلام الأرض لمن أحيائها ، وقد تدلل الفقهاء القول في هذا المجال واشترطوا اشتراطات لاعتبار الأرض مواتا أن تكون بعمدة

-
- (١) البخارى * باب الحرث * والترمذى * باب الاحكام * .
 (٢) حد يث حسن غريب / الترمذى * باب ما ذكر في احياء أرض الموات * .
 (٣) هراج ابى يوسف / عن ليث عن طاووس .
 (٤) النظم الاسلامية / د صبحى الصالح / مرجع سابق ص ٣٨٢ .

عن العمران لكي لا تكون مرفقا من مرافقه ، أو يتوقع أن تكون من مرافقه (١). وجاء في الموطأ أن الاحياء لا يحتاج الى اذن الامام في الارض البعيدة عن العمران (٢) .

والمهم في الأمر هنا - ان كان الاحياء باذن أو بدون اذن - أن الاسلام يبحث على الاحياء واستثمار الأراضي ، وكم في العالم الاسلامي من أراضٍ تنتظر الاعمار والاصلاح والجهد والعمل .

قال تعالى في سورة ق (١١) : " رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج " .
وفي سورة السجدة (آية ٢٧) : " أولم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز " .

لقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زراعا وصناعا متقنين (٣) ، وقد تأثروا بآراء الاسلام في ذلك ، فهم مطالبون بالزراعة والفرس حتى النهاية كما جاء في الحديث : " ان قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فان استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها " (٤) .

ويقول محمد الغزالي : " ما يظن الناس في الزراعة ؟ يظنونها عملا عمرانيا بحتا ؛ لكن الاسلام يرتفع بها الى مرتبة أسنى ، مادام الفرس والحصاد يكفلان مصالح العباد ، ويضمنان شبع العاني والمحتاج . ان فلاحه الأرض - والحالة هذه - ايمان وجهاد ، وصلاة وزكاة ، وقد جهل بعض الناس هذا المعنى ، واستنكر أن يشتغل كبار الرجال بالزراعة " .

ثم يبين حكم الزراعة من الناحية الشرعية فيقول : " وقد تكون الزراعة نافلة

(١) التكافل الاجتماعي في الاسلام / محمد ابوزهرة / ص ٤٨٤-٤٧٢ دار الفكر العربي (د.ت)

(٢) الموطأ ص ٢٩٥-٢٩٦ .

(٣) الايمان والحياة / يوسف القرضاوي / ص ٣٠٩ / مرجع سابق .

(٤) رواه احمد والبخاري .

في بعض الظروف ، لكن اذا ارتبطت بها أقوات الجماهير ، وميرة الجيوش فهي
فريضة من الفرائض ، يعتبر التقصير فيها وترك الآفات تعد وعليها ، خيانة لله
ورسوله " (١) .

ومعروف في الفقه الاسلامي أن فروع الكفاية اذا قام بها البعض سقط الاثم
عن الجميع ، والا فان المجتمع بكامله يأثم ويعتبر مقصرا (٢) .

ومن جوانب الاهتمام بالمسألة الزراعية في الاسلام نضرب مثلا بالاهتمام
بعنصر الماء الذي يشكل مادة الحياة للكائنات الحية كلها " وجعلنا من الماء
كل شيء " (٣) ، فهو مطلوب للزراعة ولا استعمالات لا حصر لها ، وهو أرخص
موجود وأعز مفقود . وعلمية النظرة الاسلامية للماء من حيث تكونه واستمرار
جريانه ، فقد ذكرته الآيات متفجرا من الحجارة والصخور " وان من الحجارة لما
يتفجر منها الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء " (٤) . ووصفته الآيات
منهرا من السحاب الذي تشيره الرياح : " وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من
السماء ماء " (٥) .

وفي موضع آخر : " ألم تر أن الله يزجي سحابها ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما
فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها جرد فيصيب به
من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار " (٦) .

" وهذا الوصف العلمي الدقيق لتكون الماء واستمرار جريانه ينطوي على سر

-
- (١) كيف نفهم الاسلام / محمد الغزالي / دار الكتب الحديثة / ص ٦٧ وما بعدها
(٢) الموافقات للامام الشاطبي في كلامه عن فروع الكفاية / ج ١ / ١١٩-١٢٤
(٣) الانبياء : ٣٠ .
(٤) البقرة : ٧٤ .
(٥) الحجر : ٢٢ .
(٦) النور : ٤٣ .

لنافع الماء وتحذير من غيظه وجفائه ، وإذا الماء مادة استراتيجية ، وإذا السيد
الريانية تدبر أمر هذه المادة وتدبر معها للأحياء بلطف وحنان طعامهم الذى
يقوم أود هم ويحفظ صحتهم " (١) .

قال تعالى : " فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا
الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة
وأبا متاعا لكم ولأنعامكم " (٢) .

وعلمية النظرة للماء تتمثل فى أنه مصدر للطاقة حيث تولد الطاقة الكهربائية
عن طريق الشلالات وساقط المياه مما يخفف من استهلاك البترول .

والاسلام ينظر الى الماء على أنه ملكية عامة نظرا لحاجة الناس الشديدة
اليه ، فقد ورد فى الحديث الشريف : " الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ
والنار " .

وقد تناول فقهاؤنا هذا الموضوع بتفصيل كبير وفصلوا القول فى ذلك علاوة
على اهتمامهم العام بالماء كمصدر حيوى لا يستغنى عنه كائن حى .

ويستتبع الاهتمام بالماء الاهتمام بمشروعات الري هنا السدود للمحافظة
على الماء وتنظيم الاستفادة منه ، وصيانة هذه المادة الاستراتيجية وحفظها
من التلوث خدمة للانسان وتوفيرا لهذه المادة حتى تستغل فى المجال الزراعى
على أوسع نطاق .

قال تعالى : " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل
زندا رابيا " (٣) .

(١) الندوة المغربية لعام ١٩٨٢ م / من مقال الدكتور صبحى الصالح : الماء
عنصر الحياة الاول .

(٢) عبس : ٢٤-٣٢ .

(٣) الرعد : ١٧ .

ويقول عن المطر : " ولقد صرفناه بينهم ليعذروا فأبى أكثر الناس
الا كفورا " (١) .

وعن سد مأرب : " لقد كان لسبأ في سكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل
الحرم ودلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل " (٢) .

وطالب بالبحث عن المياه الجوفية : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فسلكه ينابيع في الأرض " (٣) . " ومن الطبيعي أنه لا بد من العمل على اكتشاف
هذه المياه الجوفية والبحث عنها لغرض الحصول عليها في أغراض الزراعة " (٤) .

وحول تقنين المياه نقراً قوله تعالى : " وما ننزله الا بقدر معلوم " (٥) .

وقوله تعالى : " والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا " (٦) .

ومن هنا وجب علينا معرفة نوع التربة والأرض حتى تعطى الكمية المناسبة
من الماء ، لأن الإسراف مضر للأرض وللنبات ، ولا يتم لنا ذلك الا بالعلم
والمعرفة بهذه الأمور والشؤون الزراعية عامة .

ويجب علينا واجب الحفاظ على الماء ولا نصرفه الا وفق الحاجة حتى لا يضيع
سدى ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم ردا على سؤال عن الاقتصاد في الماء :

-
- (١) الفرقان : ٥٠ .
(٢) سبأ : ١٥-١٦ .
(٣) الزمر : ٢١ .
(٤) كيف السبيل الى الله / خير الله طلفاح / الطبعة الثانية ١٩٧٦ م / مؤسسة
الطبوعات العربية / بيروت ص ٢٣-٢٤ .
(٥) الحجر : ٢١ .
(٦) الزخرف : ١١ .

فى حال توفره : " نعم وان كنت على نهر جار " (١) .

والأهمية الكبيرة للماء فى مجال الزراعة تهد وفى رى الأراضى واحياء الموات ،
ذلك الأحياء الذى أوجبه علينا الرسول الكريم فيما مر من أحاديث ، وتتاول هنا
بضعة آيات تدلنا على هذا السبيل كقوله تعالى : " وترى الأرض هامدة ،
فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " (٢) .

وقوله : " ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد " (٣)

وقوله : " أولم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز " (٤) .

وقوله : " رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج " (٥) .

لذا وجب التوجه الى هذه الثروة واستغلالها وتنظيم الاستفادة منها
والتقريب عنها وحفر الآبار واعذاب الماء المالح وبناء السدود على الأنهار ،
فهى نعمة كبيرة امتن الله بها على عباده فى قوله تعالى : " ولو أن أهمل
القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض " (٥) .

وإذا انتقلنا الى التاريخ الاسلامى لرأينا مدى العناية التى توافرت عند
المسلمين فى المشرق والمغرب على الزراعة والنبات والماء وبناء الجسور وغير ذلك .
ولم يقتصر العرب فى معرفتهم من جهة تاريخ النبات على ما قده من أسماؤها
وذكروه من صفاتها . . بل اشتغلوا كذلك بالنبات من حيث زرع ونموه ، وتسميده ،
وحصاده ، وأوقات ذلك كله ، والكيفية فى عمله وهو ما يسمى بالفلاحة " (٦) .

(١) رواه أحمد بن حنبل / ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) الحج : ٥ .

(٣) ق : ٩ .

(٤) السجدة : ٢٧ .

(٥) الاعراف : ٩٦ . (٦) ق : ١١ .

(٦) تاريخ النبات عند العرب / د . احمد عيسى / ط ١ / ١٩٤٤ م / مطبعة

الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر / ص ٩٥ .

وفى كتاب الفلاحة لابن العوام الاشبيلي يذكر فى باب " ملح مستظرفة " تعمل فى بعض الأشجار والخضر " كيفية العمل فى بعض الاشجار حتى تثمر فى غير أوقاتها وتحويل لون الورد الى الأصفر والعنب حتى يتشكل الثمر بالشكل الذى تريد وباطالة الحب وتنظيمه وتلوينه . وفى باب آخر فيما يربح الأرض ويصلحها من الحبوب والقطنى اذا زرعت فيها ، وفى اختيار البذور والزرايع ، ومعرفة الجيد منها ، ليعلم الثابت السالم من الذى أصابه منها آفة وفسد .

كذلك فقد أنشأ العرب " حدائق للتجارب الزراعية فى بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها ، وقد توصلوا فى تجاربهم الى ادراك الاختلاف التفاضلى بين بعض النباتات كالنخيل ، كما استطاعوا تقسيم النباتات على أساس مصدر نموه ، وما اذا كان ينمو طبيعيا كبعض نبات الصحراء ، أو ينمو بطريق البذور والزراعة كأكثر النباتات ، أو بطريق عقل منه كالقصب " (١) .

وبالنسبة للماء وللمنشآت المائية برز الاهتمام بها بشكل بارز ويمثل ذلك فى الأرحاء المائية والنواعير والساعات المائية الى الشبكات المائية التى عرفتها بعض العواصم الاسلامية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب (٢) .

وفى زمن السلطان على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠-٥٣٧) اخترع المهندس عبيد الله بن يونس شبكة رائعة لسقى العاصمة وقد كافأه على ذلك السلطان مكافأة هامة .

ولقد كرمت مدينة اشبيلية المهندس المغربى (الحاج يعيش) الذى نجح فى جلب الماء من عين الغبار ، وقام لأول مرة فى تاريخ الأندلس بتشبيد خزان

(١) الفكر الاسلامى منابعه وآثاره / تأليف م.م. شريف / ترجمة احمد شلبى /

ط ٢ ١٩٦٦ م / مكتبة النهضة المصرية / ص ٧٨ .

(٢) الندوة المغربية عن الماء والتغذية وتزايد السكان عام ١٩٨٢ م / من مقال عبد الهادى التازى (الماء - الغذاء - الانسان فى التراث الاسلامى والتاريخ المغربى) .

للماء اهتزت له المدينة سرورا واعتباطا . وقد بنى المهندسون القنوات المائية بحوادٍ بنائية بلغت قرونا طويلة دون تأثير الماء عليها ، إضافة إلى بناء الجسور والسدود من أجل التحكم في الشروة المائية (١) .

وفي العصر الحاضر نلص أهمية الماء وحاجتنا الشديدة إليها بحيث يمكن القول ان المستقبل للدول التي تتوفر فيها كميات هائلة من الماء في آخر القرن (٢) .

وننقل هنا احصائية عن مدى الحاجة إلى الماء من مقال : " الماء والتنمية لأحمد عرفه " جاء فيه ما يلي :

تقدر الحصة الفردية من الماء ١٢٠ لترا يوميا لسكان المدن و ٢٥ لترا لسكان القرى عام ١٩٨٠ م ، وقد كانت الحصة عام ١٩٥٥ م ٨٠ لترا يوميا لسكان المدن و ٥ لترا لسكان القرى .

ويبلغ استهلاك الماء الصالح للشرب بنسبة ١٠٪ من الاستهلاك العام . ويرتفع الطلب من الماء من ٧٠٠ مليون متر مكعب إلى ٢ مليار عام ٢٠٠٠ م ، بينما يرتفع الطلب في العالم القروي من ٢١٠ مليون متر مكعب إلى ٤٠٠ مليون ، أي الضعف . وفي العالم الحضري من ٤٨٠ مليون إلى ١٦٤٠ مليون متر مكعب . وفي عام ٢٠٠٠ م يحتاج الفرد في الدول النامية إلى ١٢٠٠ لتر في السنة ، بينما في أوروبا يحتاج إلى ٢٥٠٠ لتر . أما في أمريكا فحصته ٥٠٠٠ لتر ، كل ذلك يحتاج لتوفير كميات إضافية من الماء لا يستهان بها .

ولقد كشف عن نهر في صحراء الربع الخالي تحت الأرض بطول ٨٠٠ كم

(١) المرجع السابق .

(٢) الندوة المغربية / من مقال عبد المالك الشرقاوي / الاشكال الديمغرافية بين سندان التغذية ومطرقة الماء .

وعرض ٦٠ مترا وعمق يتراوح بين ٢٠-٦٠ مترا (١) ، ولو التمسنا الرزق فـسـى خبايا الأرض كما يأمرنا الرسول الكريم ، وتقيدنا بالآية الكريمة : * واشوا فسـى مناكـمها وكلوا من رزقه * لا استطعنا الوصول الى مرحلة متقدمة فى توفير الغذاء من الزراعة واعمـار الأرض ، منذ لكـنكون قد أدبنا واجبين واجبا دينيا وهو اعمـار الأرض كما أراد الله وواجبا نحو مجتمعنا المسلم بتوفير الضروريات الغذائية له .

ان الزراعة فى العصر الحديث تحتاج الى جهود عظيمة وعمل دائب وعقل علمى وتخطيط شامل واجراء التجارب والفحوصات المستمرة ، وادخال الوسائل الحديثة والميكنة فى الزراعة واستعمال كل ما يفيد ويزيد الانتاج بشرط الحرص على عدم بروز أضرار أخرى أشد من التى نحاول تلافيها ، لأن الهدف يحكمنا فى النتيجة ويمنعنا من مجرد الكسب على حساب صحة الانسان .

ويمكننا القول ان الزراعة اليوم * تعتمد على مجموعة كاملة من العلوم فسـى مقدمتها علم النبات وعلم الوراثة ثم دراسة المحاصيل والحشرات وعلوم الحيوان والبكتريولوجيا ثم علم الكيمياء فى معظم فروعها . ولكل علم من هذه العلوم بحوثه المستفيضة التى تؤدى الى تطبيقات عملية هى فى النهاية أساس الزيادة الضخمة التى يسجلها الانتاج الزراعى * (٢) .

ان استزراع واستنبات سلالات اكثر مقاومة للآفات وأوفر انتاجا للمحاصيل انما هى مهمة علمية أساسية .

ان المستوى الحضارى الذى أوصلنا اليه ديننا الحنيف يفرض علينا التوجه الى الناحية الزراعية ويمدنا بالقدرة على صياغة أساليب العمل لمواجهة متطلبات الزراعة والتفوق فيها خدمة للأمة الاسلامية ولل البشرية والتالى لدعوة الاسلام .

(١) عبد الهادى النازى / الماء - الغذاء - الانسان - / مرجع سابق .

(٢) الزراعة فى خدمة السلام / حسنى ناشان / دار الكرنك ١٩٦٥ م ص ٣٥ .

الغذاء

ان الكلام عن المسألة الزراعية يستلزم منا الكلام عن الغذاء وضرورة توفيره ، لأن الزراعة يقصد من ورائها توفير الغذاء الكافي للإنسان لاستمرار حياته ، فهى عنصر أساسى فى تكوين الانسان وحفظ حياته . ويجب توفير الغذاء المتكامل حتى تتحقق الفائدة منه ، فليس كل طعام يصلح للتغذية السليمة " ويفترض علماء التغذية احتواء الوجبات الصحية على مواد الكربوهيدرات مثل النشويات وذلك لمداد الجسم بالطاقة الحرارية اللازمة ، كما يجب احتواء الوجبات على الدهون والزيوت والبروتينات مثل اللحوم والبيض واللبن حتى يتمكن الجسم من بناء خلاياه الحية ، كل ذلك الى جانب الماء والفيتامينات والأملاح المعدنية " (١) .

والعالم اليوم ينقسم الى قسمين متمايزين عالم غنى وعالم فقير ، وهم نفسى حالهم هذا لا يلوح أمل فى حل المشكلة لأن الأهداف الرئيسية عند الدول الغنية لا تضع فى اعتبارها أحوال الفقراء ، بل مزيد الكسب هو هدفهم فأنسى للمشكلة الحل السليم .

والصهم فى مجتمعنا الاسلامى أن نوفر له الغذاء الكافى حتى يعمل الجميع وينتجون ويزاولون أنشطتهم البشرية بكفاءة واقتدار ، وأنهم بدون ذلك لا يقومون بوظائفهم الحقيقية لأن الهدف يصبح هو الجرى وراء تحقيق الحدود الدنيا من الحياة ، والفقير لا يترك للإنسان فرصة التفكير السليم والعمل المثمر . فالغذاء يوفر الحاجة البيولوجية للإنسان وهذا شئ أساسى ، وهو أسلوب اجتماعى ينتظم به الفرد فى عقد المجتمع يعطى ويعمل بنشاط مهمة عالية .

والاسلام فى موقفه الواضح من مسألة الغذاء وضرورة توفيره لتلبية الحاجات الأساسية للحياة لا يتخذ أساليب ملتوية فى المسألة الغذائية ولا يهدف الى

(١) الارض والزرع وأحلام الجياع / د محمد نبهان سويلم / من مجلة الفيصل

تحقيق الكسب فقط من وراء التنمية الغذائية ، انما يريد أن يمد اليد الحانية للإنسانية لانتشالها من وعدة الفقر والمجاعة ، ولن يتخذ التغذية سلاحا للضغط على الشعوب الفقيرة للسيطرة عليها كما تفعل الدول الغنية الآن حيث أحكمت الدول المتقدمة قبضتها على حاصلاتها ، ورفعت من أسعارها ، واعتبرت فائض الغذاء قوة ضغط وسلاحا ذا فاعلية في ردع من يعصى لهم أمرا (١) .

الاسلام يسعى لتأمين الغذاء للبشرية جمعاء وقد طمأنهم الى أن مافى الأرض كفيهم جميعا حيث يقول " وقد ر فيها أقواتها " .

ونحن في سعينا لتوفير الغذاء للأمة نقوى به سواعدنا على البناء ونحمي الاسلام ودعوتنا وأوطان المسلمين ، وبذلك نخرج من سيطرة الدول الغنية التي تمارسها على الدول المحتاجة وفوق ذلك نقوم بما أمر به الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم .

واليوم نرى أن مشكلة الغذاء أخذت أبعادا جديدة من حيث زيادته الطلب على المواد الغذائية نظرا للكثرة الهائلة من البشر وتزايد السكان السريع. ونورد هنا احصائية من مقال الاستاذ عبد المالك الشراوى : " كان سكان العالم عام ١٨٠٠ م مليار نسمة ، وفي احصاء هيئة الأمم عام ١٩٨٢ م ارتفع العدد الى ٥ر٤ مليارات ونصف ، والتوقعات عام ٢٠٠٠ م سيرتفع العدد الى ٧ مليارات نسمة ، والمشكل لا يكمن في عدد السكان بقدر ما يكمن في وتيرة التزايد المتسارعة (٢) . واحصائية أخرى تكشف لنا عن سوء توزيع الغذاء في العالم حيث تتمتع قلة من البشر بمعظم الغذاء بينما الكثرة تتضور جوعا . ان ٢١ر٤٪ من الدخل العالمي يفتسها ٧٤٪ من سكان العالم بينما يحتفظ ٢٦٪ من سكان

(١) الارض والزرع وأحلام الجياع / د محمد نيهان سويلم / من مجلة الفيصل

عدد ٢٠ سنة ١٣٩٩ هـ ص ١٤٩ .

(٢) الندوة المغربية / عبد المالك الشراوى / الاشكال الديمغرافية المغربية

بين سندان التغذية ومطرقة الماء .

العالم بحصة الأسد وهي ٧٨.٦٪ ، والنسبة للمواد الغذائية فان نصيب الدول النامية تشكل ٣.٠٪ فقط من مجموع الموجودات (١) .

وحقيقة أخرى عن المساحات المزروعة نورد مثلا عليها قارة آسيا ، حيث تبلغ مساحة الأرض الزراعية فيها بدون الاتحاد السوفياتي ٢٨.٢٪ من مساحة الأرض الزراعية في العالم ، ومع ذلك فانها أقل من أن تفي بحاجة سكانها الذين يقدرون بأكثر من ٥.٦٪ من سكان العالم . وهذه المساحات المزروعة تبلغ حوالي ١٣٪ من مساحة آسيا الكلية ، وأن ٦.٠٪ من تلك المساحة غير صالحة ، وأن حوالي ٢.٥٪ منها تحتلها المروج والمراعي والغابات (٢) . ويختلف الأمر من قارة لأخرى .

وفوق ذلك فان الانتاج الزراعي موزع الاهتمام بين انتاج الغلات والمحاصيل الزراعية وبين الخامات الزراعية ، اضافة الى توزيع المحاصيل الزراعية الغذائية بين الضروري كالقمح والشعير والذرة والارز والكمالي كالكاكاو والبن والسمسم والبقول السوداني والفواكه والخضروات . وكل ذلك يساهم في تفاقم مشكلة الغذاء وزيادة حدتها (٣) .

ولاشك أن الصعوبات التي تعترض توفير الغذاء كثيرة ، وسعي الانسان الدائم سيمتثلب على الكثير منها ، ولكن في نفس الوقت ستتسأ عقبات جديدة ، فلا بد ان من مواصلة الكفاح والكبح والجهد العلمي المنظم للتغلب على المشاكل قدر المستطاع .

ونحن نرى في الدول المتقدمة ما يراها استغلت أراضيها بشكل منظم

-
- (١) المرجع السابق .
 (٢) الموارد / د صلاح الدين الشامي وفؤاد محمد الصقار / منشأة المعارف
 بالاسكندرية / سنة الطبع غير مذكورة / ص ٢١٠ .
 (٣) المرجع السابق . ص ٢١٤-٢١٨

وفعال وذلك بفضل الدراسات والابحاث التي تقوم بها واستعمال الاسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية ، وادخال الميكنة فى العمل الزراعى . وما قاموا به من تجارب لتحسين الأنواع المزروعة كالتجهيز والانتخاب واختيار الأنواع الأكثر انتاجا وتحسين خواص التربة وقد راتها الانتاجية والتجارب العديدة على النباتات لايجاد أنواع تقاوم الظروف البيئية واستعمال الهبوت البلاستيكية وغير ذلك من الوسائل التي تؤدي الى زيادة الانتاج بشكل كبير . وخلصوا القول أنهم سخروا العلم فى خدمة الزراعة لتوفير الغذاء ونجحوا فى هذا السبيل نجاحا باهرا .

ونحن فى عالمنا الاسلامى - وان كنا أحسن حالا من كثير من دول العالم الثالث - نواجه الكثير من المصاعب فى توفير الغذاء لشعبنا نتيجة للتخلف العلمى والقصور العلمى ، مع العلم أن الدين الاسلامى يحثنا بكل مناسبة على التفوق العلمى والنشاط العلمى ، وعلينا القيام ان بمجهودات كبيرة لتذليل العقبات القائمة فى سبيل التطوير الزراعى للحصول على الغذاء الكافى . ونختصر هنا المشاكل التي تعترض طريق توفير الغذاء والتي هى عامة فى دول العالم الثالث ، حيث الزراعة متخلفة من نواح متعددة تتمثل فى الأنواع الرديئة من البذور ، مع تعرض المزروعات للآفات الزراعية التي تقضى على كثير من المحاصيل ، اضافة الى الاستهلاك غير الاقتصادى للماء ولجوء كثير من الدول الى الناحية الصناعية وغالبا ما يكون ذلك على حساب الزراعة والأراضى الزراعية مما أدى الى تخلفها واهمالها . كذلك فإن العصر الحديث قد جلب معه مشاكل تلوث البيئة نتيجة الاكثار من استعمال المبيدات والكيماويات وتلوث الهواء والماء مما أثر على انتاجية المزارع والحقول (١) ، وزحف الصحراء الذى يشكل

(١) الأرض والزرع . . وأحلام الجياع / مرجع سابق ص ٤٩ .

خطرا كبيرا حيث تزداد رقعة الصحراء اتساعا كل عام على حساب المناطق شبيهة الجافة ، حيث يبلغ ٦ ملايين هكتار سنويا ويزحف التصحر في أمريكا وآسيا من ٣-١ كيلو متر بينما يصل في افريقيا من ٣-٦ كيلو مترا (١) .

ازاء هذه المشاكل يتحتم علينا أن نأخذ الاساليب العلمية لزيادة التسمية الغذائية واستعمال كل الاساليب الناجحة في سبيل تحقيق توسع أفق لحياء الأرض غير المزروعة والتوسع الرأسى لزيادة انتاج الأرض المزروعة من توفير المياه وتوفير السدود واتباع أفضل الطرق في الزراعة والعناية بالمحاصيل وتوفير الامكانات اللازمة للحصول على أوفر محصول زراعى .

ولا ننسى ونحن في سبيل التوجه الى التسمية الغذائية من الالتفات الى البهار واستغلال ثرواتها الكامنة وخاصة الثروة السمكية الهائلة خاصة وأن القرآن الكريم قد لفت انتباهنا الى ذلك حيث يقول تعالى : " وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها " (٢) هذه الثروة الهائلة التى تؤمن للانسان باستمرار غذاؤه جيداً يتمثل في البروتين الذى يبنى أنسجة الجسم التى تتجدد باستمرار .

كذلك الثروة الحيوانية وضرورة الاهتمام بها وتسميتها الى حد بعيد لأنها تؤمن للانسان أيضا كثيرا من احتياجاته الغذائية كالألبان ومشتقاته واللحوم ، ولا يخفى مدى أهمية الحيوانات في توفير هذا الغذاء الذى تتوفر فيه الكثير من العناصر الغذائية التى لا يستغنى عنها الانسان وخاصة الأطفال حيث يحتاجون الى الحليب الذى يشكل غذاؤه كاملا وصحيا لهم .

(١) الندوة المغربية لعام ١٩٨٢م من مقال تصورات عامة حول الأمن الغذائى / ادريس بن صارى / أحمد عائق .

(٢) النحل : ١٤ .

ونحن في طريق التنمية لا بد من أن ننتبه الى عدة أمور ضارة بالتغذية ، حيث نشأت هذه المشاكل من جراء السعي لتوفير الغذاء في الدول المتقدمة صناعيا ، فهم في سبيل زيادة الانتاج استخدموا بكثرة المضادات الحشرية والمواد الكيماوية ، وأعطوا المضادات الحيوية للحيوانات لمقاومة الامراض وزيادة الوزن مع اختصار الزمن ، وقد أفرز كل ذلك مساويء للأرض وللانسان مما أدى الى تلوث المياه والترية والمأكولات ، وفقدت المواد من قيمتها الغذائية نسبة كبيرة . وكذلك المواد الغذائية المصنعة أضافوا لها اضافات لتحسينها وقبولها مما جعل فيها نسبة من السموم تضر بالانسان (١) .

هذا بينما ترسم السياسة الغذائية في الاسلام الأهداف النبيلة في السعي لتوفير الغذاء ، ولا تسمح بأن يكون الكسب على حساب صحة الانسان وعافيته ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " ، ويحرم الاسلام الكسب الحرام وينزل بصاحبه أشد العقاب .

حقا ان مسألة التغذية أمر مهم في نظر الاسلام لا بد من السعي لتوفيره ، وفي سبيل ذلك حث الاسلام على العمل وطالب بالزراعة واصلاح الاراضى وشجع على التوسع الزراعى واستغلال الماء في سبيل ذلك ، وهذا يكون علينا واجب كبير نحو السعى المتواصل لتحسين الوسائل المؤدية الى زيادة الانتاج لمواجهة المتطلبات الغذائية المتلاحقة ، حتى نؤمن هذا الصدر الحيوى للانسان والضرورى لاستمرار حياته ، وذلك نوفر للانسان المسلم فرص الحياة الكريمة ، ونؤمن له ما هو حريص على الاستمساك به وأغلى ما لديه وهو حياته . وذلك يكسبون مستعدا لتحمل مسؤولياته الكبيرة كمسلم نشط متحرك في هذا الكون المسخر له

(١) دراسات في بعض مشاكل تلوث البيئة / دكتوراه عايد بشاره / الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٣ م ص ٨٠-٨١ .

يستعين به على استمرار حياته والقيام بدوره الحضارى مستعينا بمبادئه دينية قائما بواجبه نحو هذا الدين متمسكا به وداعيا الى الله على بصيرة .

والانسان المسلم ان تكاسل عن السعى فى الأرض لتوفير متطلباته الحياتية سيصير مقصرا فى تجربته محاسبا على هذا التقصير ، لأنه يجرب ذلك الضعف على أمته بالتكاليفه وكسله . نريد للانسان المسلم أن يكون قويا ، وفى توفير الغذاء تتوافر له عناصر القوة الجسدية التى يستعين بها على مقاومة الفساد فى الأرض والبهنى والعدوان .

وهكذا نرى أن السعى لتحسين الزراعة ومتطلباتها مهمة يجب القيام بها ، وعلى المسلمين أينما كانوا أن ينهضوا بهذه المسؤولية لتوفير كل ما يلزم لهم حتى يوفروا لأنفسهم احتياجاتهم فى هذا الجانب ، حتى لا يقعوا فى عوز الدول الاستعمارية بشتى أصنافها ، وفى ذلك حماية للأمة الاسلامية ودعما لموقفها ، لأن الدول الاستعمارية هذه تحاول فرض سيطرتها على الدول المحتاجة فى العيش ، وتحاول أن تخلق شروطها مع كل شحنة من حبوب . ونحن نرى كيف أن تجارة القمح مستغلة أسوأ استغلال حيث تمارس الدول المصدرة لهذه المادة الاستراتيجية ضغوطا لا تقاوم على الدول المحتاجة لها .

ونحن فى عالمنا الاسلامى نتساءل عن السبب الذى يمنعنا من استغلال مساحات هائلة من الاراضى الزراعية المتوفرة لدينا والتى تنتظر العاملين فى هذا الحقل المهم ، وليس لذلك من تفسير سوى فقد الهمة على العمل والتراخى والكسل ، وذلك راجع الى عدم تمثلنا لهذا الدين الذى رأينا موقفه من العمل الزراعى ومطالبته بتأمين الغذاء واستصلاح الاراضى .

ان العودة الى الاسلام سيكون لها مردود شامل على كل نواحي حياة هذه الأمة ومنها المجال الزراعى ، فان فى مبادئه ما يوفر الدعم العقيدى

للإنطلاقة الزراعية الكبرى في عالمنا الاسلامي المتراخي الاطراف .

اننا بهذه الجهود سنوفر القوة الاقتصادية للامة الاسلامية ونحرر من الضغوط التي تمارس علينا من الدول الأخرى المصدره لهذه المواد ، وفي ذلك قوة للامة الاسلامية وحماية للدعوة من الأعداء وأطماعهم في عالمنا .

قوة في مجال التجارة

والتجارة هي الفرع الثالث من فروع المسألة الاقتصادية التي تشكل مجموعها دعما قويا للامة وتوفير حاجياتها . ولاشك أن التقدم المادي ووسائله يمضي الى تطوير العمل في كل هذه المجالات بما يحقق الانجاز الاكبر في تلك الميادين ما يوفر الجهد والوقت . لقد دخل العلم في كل هذه الفروع ، وأصبحت حاجة الناس اليه شديدة في هذا العصر، وان لم يتوفر لنا العلم فسيكون نصيبنا الفقر والتأخر والمرض وسيطرة القوى الكبرى الى آخر ذلك من الشرور .

اننا بسيرتنا الموجهة بالتوجيه الاسلامي كعقيدة وقيم وأخلاق ، وبالعلم منها وطريقا سنحصل على القوة الاقتصادية وتوفير الاحتياجات المختلفة ، وذلك نصبح في المواقع المتقدمة من العالم بان الله .

ان التجارة من أشرف الأعمال ، وهي اذا ميزت في جميع المعايير كلها وجدت بها أفضل وأسهل للناس في الدنيا (١) . انها وسيلة شريفة للكسب واحراز ملكية المال . والانسان بحكم وجوده في الدنيا مطلوب منه السعي لكسب قوته وتصريف شؤونه حياته ، فهو محتاج الى أشياء كثيرة ، محتاج الى منزل مهيئ وثوب منسوج وغذاء مصنوع ، والى ما يقبضه من عدوه والى ما يقاتل به ، ومحتاج عند المرض الى أدوية مركبة من عقاقير وأشربة ، وكل واحد من هذه الحاجات يحتاج الى أنواع من الصناعات حتى تتكون ثم حتى تتم . (٢)

(١) الاشارة الى محاسن التجارة، لابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من علماء القرن السادس الهجري ، تحقيق البشري الشورجاني ، مكتبة الكليات الأزهرية عام ١٣٩٢ هـ ، ص ٦٩ . وهو كتاب مستأثر في بابه ما يدل على تقدم النظرة الاقتصادية عند علمائنا .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

والكسب التجارى مشروع فى الاسلام ، قال تعالى : * يا أيها الذین آمنوا لا تأکلوا أموالکم بینکم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراضی منکم* (١) ، وقال تعالى : * وأحل الله البيع وحرم الربا * (٢) .

والفرق بین التجارة والربا کبیر من حیث ضرر المخاطره حیث یفالسب التاجر المشاق من جراً نقل البضائع بینما الربا یأتى الکسب فیہ عن طریق الانتظار وهو کسب مأمون وبالتالى عواقبه وخیمه على المجتمعات التى تتعامل به . اضافة الى الفرق الخلقى بین التجارة والربا ، ان عن طریق التجارة تتم الفائدة للمشتري والبائع .

والرسول صلى الله علیه وسلم مارس التجارة فى بداية حیاته ، ان ذهب قبل البعثة الى الشام بتجارة للسیدة خدیجة بنت خویلد مع غلامها مهسرة (٣) . ومن المعروف أن التجارة كانت حرفة العرب المختارة ، وكانت قریش ترحل رحلتین : رحلة الشتاء الى الیمن والحیفة ، وأخرى نحو بلاد الشام وبلاد الروم فى الصيف ، والى ذلك یشیر القرآن : * لا یلاف قریش ایلافهم . رحلة الشتاء والصیف . فلیمهدوا رب هذا البیت الذی أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف * .

ولقد ضرب الرسول علیه الصلاة والسلام مثلاً فى مبادئ التجارة ، * وحدد علیها معنى التجارة وأسالیبها ، واذنا طبقنا القاعدة المسلم بها فى أصول الفقه (لا ضرر ولا ضرار) فلانتردد فى أن نقول ان التجارة فى بعض نظمها فسى بعض دول العالم حرام ، وكل ما هو مضر لیس شرعياً ، لا فى الدین ولا فیما ینبغى أن یسن المشرع القوانين واللوائح * (٤) .

-
- (١) النساء : ٢٩
 (٢) البقرة : ٢٧٥
 (٣) سیرة ابن هشام ، المجلد الاول ، دار آحیاء التراث العربی ، سنة الطبع غیر مذکورة ، ص ١٩٩
 (٤) الحضارة العربیة الاسلامیة ، د. على حسن الخریوطلى ، مكتبة الخانجسى بالقاهرة ، سنة الطبع غیر مذکورة ، ص ١٧٦

والتجارة التي مارسها الرسول صلى الله عليه وسلم هي بعد لولها العمام،
اذ هي مبادلة البضائع ونقلها، وليس كما يفهم منها الآن، وتتميز تجارتها
عليه السلام بالنزاهة والأمانة والصدق، ولم يكن يهدف الى جمع المال الكثير
كيفما اتفق كما هي حال التجارة اليوم في كثير من الأقطار في العالم.

وقد عنى الرسول عليه السلام بالدعوة الى الاشتغال بالتجارة ضايته بالدعوة
الى الزراعة، والى كل حركة ايجابية ابتغاء كسب الرزق الحلال، وفي الحديث:
"التاجر الصدوق الأمين مع النسيين والصد يقيين والشهداء" (١).

وقال تعالى: "والله يقدر الليل والنهار، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم،
فاقرأوا ما تنيسر من القرآن، علم أن سيكون منكم مرضى، وآخرون يضربون فئس
الأرض يتخسون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله" (٢).

ان الله يعذر الكادحين في ميدان التجارة، ويعفيهم من قيام الليل
كما يعفى الفرسان الذين يقاتلون سحابة النهار. وفي ذلك اشادة لمن يعمل
في ميدان التجارة مادامت تقوم على أسس سليمة يقصد صاحبها الخير وخدمة
الاقتصاد الاسلامي (٣).

وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا
الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون، فاذا قضيت الصلاة
فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلمكم تغفلون" (٤).

فحياة المسلم في يوم الجمعة، عمل وبيع وتجارة قبل الصلاة، ثم سعس
الى ذكر الله والصلاة ثم انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله بعد انقضاء
الصلاة.

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن، الترهيب والترهيب للبخارى،
طبعة المنيرية، ج ٣، ص ٢٨

(٢) المزمل: ٢٠

(٣) كيف نفهم الاسلام، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ص ٦٨

(٤) الجمعة: ٩ - ١٠

ولا يسعنا ذكر المزيد من الأقوال المشهورة حيث بالكتاب ما يكفي، إضافة إلى كتاب تلبس ابلبس لابن الجوزي ، وإن كان أكثر ما ورد في ذلك منقولاً عن الخلال السالف الذكر.

وإذا نظرنا إلى واقع الأمة الإسلامية في الميدان التجاري ، لوجدنا أن التجارة وصلت إلى درجة بعيدة من الرقي والتقدم في أساليبها وتنوعها واكتشاف السبل الكثيرة لتنظيمها ورقبها ، واكتشاف طرق المعاملات المتقدمة ، مما يدل على مدى اندفاعهم في الميدان التجاري وأخذهم بهذه المهنة الشريفة التي أباحها الإسلام والتي عادت عليهم بالخير الكثير.

وليس في ذلك عجب فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان تاجراً مارس التجارة حتى تولى الإمارة ، كذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي امتدت تجارته إلى إقليم الفرس . وثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم جميعاً وغيرهم كثير.

لقد كانوا يمارسون بأنفسهم أعمالهم التجارية ، ونادراً ما كانوا يجسدون الفرصة للراحة والاستجمام ، بل حتى الاغتسال من عرق الطريق التصيب من أجسادهم لكثرة تنقلهم وحركتهم . فكان الناس يقولون لهم " هلا اقتلتم " (١) . ومع تقدم الزمن اتسع نطاق التجارة من حيث الاستيراد والتصدير وخاصة في العصر العباسي ما استدعى قيام مؤسسات أو شركات مصرفية حتى رجح المستشرق الفرنسي ماسينيون أن أصل نظام المصارف في أوروبا إنما يرجع إلى المسلمين (٢) . وكان لهذا التوسع الكبير في التجارة أن ابتكروا الكثير من النظم المالية المتعددة ، وكان لهم وكلاء يكتبون اليهم بحال السوق في أقاليمهم ويقرضونهم المال إلى آخر ذلك من الأساليب التي تسهل الأعمال التجارية.

(١) معالم الشريعة الإسلامية ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٢٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٨

ولقد ساهم الفقه الاسلامي مراحل التطور المختلفة في النظام التجاري، ونظموا العقود والمعاملات بشكل مدهش كعقد المراهجة وعقد التولية وعقد السلم والمضاربة والمفاوضة والضمان وغير ذلك مما هي مذكورة في كتب الفقه الاسلامي بحيث لم يتركوا حالة من الحالات الا وابدوا فيها رأيهم الصائب من واقع الفهم العميق للاسلام ومضامينه وأهدافه.

وهناك عدة عوامل أدت الى كثرة الاشتغال بالتجارة وتوسيع نطاقها اضافة الى الحث على التجارة، فهذا الموقع المتوسط الذي يتمتع به العالم الاسلامي في ذلك الوقت، ومرور الطرق التجارية العالمية من اراضيه، وتنوع الانتاج الصناعي والزراعي، ووحدة النقد المالي وأصول المعاملات التجارية^(١)، اضافة الى تشجيع خلفاء المسلمين واهتمامهم بالتجارة بحيث وفروا الأمن للطرق التجارية، وحفروا الآبار وأقاموا الناصر في المرافئ والثغور، وأنشأوا الأساطيل لحماية السواحل من المغيرين وقرصان البحر^(٢).

امتدت التجارة الى بقاع مختلفة من العالم شرقا وغربا بحيث أسسوا المستعمرات من شاطئ افريقيا حتى جزائر الأرخميد الهندي، وتوغلوا في بلاد الصين وشمال افريقيا ونقلوا البضائع عبر المتوسط الى الاندلس وصقلية واطاليا وفرنسا. وامتدت تجارتهم الى بحر قزوين والبحر الأسود، وتوغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطئ البلطيق وداخل السويد.

أما السلع التي كانوا يتجرون بها فهي كثيرة ومتنوعة، فالعاج والتوابل من الهند والخزف من الصين والجلود والفراء من روسيا، والسجاد من ايران والعاج من الحبشة وافريقيا الشمالية، والزجاج والنسيج وزيت الزيتون من بلاد

(١) الثقافة الاسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية، محمد فايز القصري،

ط ١ ١٩٢٩، مطبعة زيد بن ثابت، ص ١٤٠-١٤١

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي، أبو زيد شليبي،

مكتبة وهبة، ط ٣، ١٩٦٤م، ص ٢٥١

الشام ، والسلع المستوردة من الأندلس وأوروبا فكانت الذهب والفضة والنحاس والزيت والكبريت (١) .

لقد وصلت التجارة في العصور الاسلامية الى الذروة من حيث النشاط الكبير والتوسع في البلاد وتنوع المواد المتجر بها بحيث يمكننا القول بأن التجارة الاسلامية وخاصة في القرن الرابع الهجري * مظهر من مظاهر أبهة الاسلام ، وصارت هي السيدة في بلادها ، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية ، وكانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الاسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكالمة على الأقل (٢) .

لقد كان للأخلاق والتواضع والصدق عند التجار المسلمين أكبر الأثر في اكتسابهم الثقة مع الذين يتعاملون معهم بحيث أنهم قدموا القسوة الحسنة في معاملاتهم وأمانتهم والثقة بهم ، وهم بذلك حملة رسالة ، اضافة الى الاعمال التجارية التي يمارسونها . ان سلوك المسلم الصحيح من العوامل المهمة في تشيير الدعوة الحسنة واقبال الناس على تفهم الاسلام مادام هو لا أصحابه . وهذا ابن فضال الرحالة يحكى لنا : أن بلغاريـا وروسيا كانوا يكرمون وفادة التجار عليهم الى حد أنهم كانوا عند استقبالهم ينثرون الدراهم تحت أقدامهم اشارة الى التأهيل والترحيب بهم ويتهجـون بقدمهم ابتهاجا عظيما (٣) . ويقول آدم متز : " لقد نشأ عن هذا التقدم التجاري ازدهار الجاليات الاسلامية في كثير من الاطراف التي تغلب عليها غير المسلمين ، فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقتلون حرم غير المسلمين فيهم ، ولا يتولى

(١) الثقافة الاسلامية وأثرها في النهضة الاوروبية ، مرجع سابق ، ص ١٤

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تأليف آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، المجلد الثاني ، مكتبة الخانجي ودار الكتاب العربي ، ص ٣٧١

(٣) نقلا عن : " تقدم العرب في العلوم والصناعات " ، عبد الله بن عباس الجراي ، ط ١ ، ١٩٦١ م ، دار الفكر العربي ، ص ١٠٧

حدودهم ولا يلام عليهم شهادة الا المسلمون ، وان قلوا* (١) .

ان هذه الأخلاق العالمية هي التي حملت هو* لا* الأوام على قبول رئاسة المسلمين رغم قلتهم في تلك النواحي ، وهذا يدل على مساهمة التجار فسو نشر دعوة الاسلام وان كانت تأتي في بعض الاحيان على غير قصد .

لقد استفاد المسلمون من تجارتهم - فضلا عن الغنى والثروة المألقة خبرة بشؤون الحياة ، ومعرفة بأخلاق الناس ، وسخروا العلم للأفادة منه فسو المجال التجاري فكثرت عندهم السفن التي تجوب البحار واستخدموا البوصلة البحرية للرحلات العلمية والتجارية والتي هي من اختراعهم ، ولم يدخروا جهدا علميا لتطوير وسائل التجارة وتسهيلها ، وبذلك فقد أضافت التجارة قسوة للمسلمين من حيث الخبرة العلمية والعملية وتوطيد الاقتصاد وتدعيمه بتوفير المواد التي يحتاجها الناس وجلبها من مختلف الاقطار وتعدير الفاسق الى الخارج .

يضاف الى ذلك ان دعوة الاسلام اكتسبت قوة وانتشارا في بلاد لم يطأها جيش اسلامي ، وهذه مفخرة للدعوة الاسلامية التي استطاعت الوصول الى تلك الاطراف ، وكان للتجار الأوفياء لعقيدتهم نصيبا لا بأس به في هذا الميدان .

وفي ختام الكلام عن التجارة أحب أن أوضح أن التجارة في الاسلام تقوم على شروط التراضي بين الطرفين المتعاقدين ، وأن يكون موضوع العقد تجارة نافعة حلالا ، ان يحرم الاسلام الاتجار بما هو حرام ، وتلك من أخلاقيات الاسلام الذي يريد القضاء على الفساد في جميع مظاهره من الأرض لا أن يتحقق الربح كيفما اتفق . ولو أن الأمم تعاملت بالتجارة كما يريد الاسلام لما نشأت هذه المفاسد المتعاطمة من جراء عمليات التجارة العالمية التي تحكمها الأهداف الأنانية والتي لا ينظر أصحابها الا الى مصالحهم الشخصية دون اعتبار بالنتائج والعواقب . وهذه التجارة العالمية تحتاج الى أخلاقيات

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متر ، المجلد الثاني* مرجع سابق ، ص ٣٧٤

الاسلام ومبادئه في المجال التجاري لتصحيح مسار التجارة العالمية والتخلص من آثارها السيئة في العالم . والمسلمون هم أولى الأمم بالتقيد بهذه المبادئ والأسس حتى تحقق لأمتنا القوة الاقتصادية المرجوة ، وحتى نعطي للعالم صورة واضحة المعالم عن الأهداف التي يرسمها الاسلام لصالح البشرية .

ان السعى المطلوب للعمل التجاري يوفر للأمة الاسلامية متطلباتها وحاجياتها وهذا هدف نهيل من أهداف التجارة في الاسلام ، وفي ذلك تأمين للأمة من الوقوع في الأزمات من جراء نقص الغذاء أو غيره ما تحتاجه الأمة ، ولقد اكتسبت التجارة في العصر الحديث أهمية بالغة نظرا لتزايد أعداد السكان في العالم وتزايد مطالبها الغذائية والصناعية ، ولقد وفر التقدم المادي وسائل النقل السريعة من قطارات وسفن تجوب البحار والمحيطات الى طائرات وشاحنات . وبذلك يكون العلم قد ساهم في تطوير العملية التجارية من حيث السرعة في تلبية المتطلبات والكميات الضخمة التي ينقلها عبر مساحات شاسعة . وأصبحت مهنة التجارة مهنة علمية قائمة على تخطيط منظم . وان في ممارسة المسلمين للتجارة بالشروط التي وضعها الاسلام وبالأهداف التي رسمها لتشكل قوة ودعما للأمة الاسلامية وعقيدتها من حيث تأمين احتياجاتها المستمرة .

قوة نسي المحسنة

يهدف الاسلام الى تقوية الجانب الروحى فى الانسان وذلك بصحة اعتقاده فى الله والايان الكامل بكل ما أمر به الله سبحانه وتعالى ، وفى نفس الوقت فان الاسلام يهتتم بالجانب الآخر من الانسان ألا وهو الجسد بحيث يكون هناك توازن بين متطلبات روحه وجسده نظرا لما بين الروح والجسد من الصلة المتينة .

وهذا الاهتمام نابع من تكامل الاسلام ونظرته الواقعية للحياة حيث وجه الاهتمام لطرفى المعادلة فى الانسان روحه وجسده ، ورفض تغلب طرف على الطرف الآخر لأن فى ذلك مفسدة كبيرة ولا بد عندها من اختلال التوازن وانحراف فى مسار الحياة يؤدي الى فسادها وخرابها من حيث أراد الله اعمارها .

وقد اهتم الاسلام بصحة الجسد ودعا الى المحافظة عليها حتى يستطيع الانسان السلم القيام بدوره فى الحياة ومواجهه الانسانى كعضو فى الهيئة الاجتماعية . ومن الهديسى أن الانسان الذى لا يتمتع بالصحة سيكون ضعيف الارادة مضطرب التفكير ولا يستفاد منه فى واقع الحياة التى تحتاج الى كدح وعمل وجهاد متواصل فى سبيل الهدأ والعقيدة واعمار الكون بمشيئة الله .

ومن هنا كان مدح القرآن الكريم لقوة البدن مع سلامة النفس ومثانة الأخلاق المتوفرة فى موسى عليه السلام " يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين " (١) واختيار طالوت ملكا على اسرائيل كان لاجتماع العلم وقوة الجسم .

وجاء فى حديث الرسول الكريم تفضيل المؤمن القوى على المؤمن الضعيف فى قوله :
" المؤمن القوى خير وأحب الله من المؤمن الضعيف " (٢) .

هذا المدح للقوة لا بد أن يكون نتيجة للعناية بصحة الجسد حتى يتمتع الجسد بالقوة اللازمة ، والا فكيف تكون القوة بدون العناية بالصحة ؟

(١) القصص : ٢٦

(٢) رواه مسلم

ولكن وقبل أن نضى فى الكلام لا بد من التنبيه على أن أمر العناية بالصحة ومدح القوة لا تقصد لذاتها كما يكون عند كثير من الناس الذين يعيشون بلا هدف ولا رسالة، إنما هى مطلوبة مرغوبة واجبة للمؤمن لتكون إحدى وسائله لتحقيق الرسالة وأداءه - الأمانة فيها يرضى الله، وينشر الخير ويجعل الحياة، الدنيا على قصرها أو طولها - فترة من الحياة الفاضلة السعيدة الهانئة يعرف عليها العلم والمعرفة والسلام والوثاق . فالمسلم صاحب رسالة وله موقف من الحياة وعليه واجب كبير هو نشر هذه الرسالة والدعوة لها فى كل مكان ولا بد أن يكون هناك صراع فى الأرض ما دامت الأهداف متباينة، والمقاصد متباعدة وهنا تبرز قيمة المؤمن فى عقيدته وفى جسده وفى فكره وروحـه لأن جميع هذه القوى مطلوبة فى معركة الصراع بين الحق والباطل .

أن وضوح الهدف فى الاسلام من ناحية بناء القوة الجسدية والحفاظ على صحة المجتمع من الآفات، يزيد من عبء المسؤولية علينا للعمل فى هذا المجال الحيوى، ويدعونا الى تضافر الجهود وتحمل المسؤولية الفردية والجماعية فى هذا السبيل .

ان الدول التى لا تعتنى بالصحة بفرعها العلاجى والوقائى، وتدع الأمراض تفشك بأبنائها لى دول متأخرة متخلفة تفقد أهم ثروة لديها وهى الثروة البشرية القادرة على العمل والانتاج وحماية كيان الأمة ومعتقدها .

والحق يقال - وان اختلف الهدف - ان الدول المتقدمة فى النواحي المادية تهدى كبير الاهتمام فى نواحي الصحة المختلفة : الصحة العامة وصحة البيئة، ومكافحة الأمراض السارية، وتلقيح المعرضين للمرض وتحصين الأفراد ضد الأوبئة والحجر الصحى والثقافة الصحية والاهتمام بالتغذية وتدارك آثار سوء التغذية إضافة الى تقديم الطب العلاجى بجميع أشكاله وصوره . انهم يحملون باستمرار ويبدلون الجهـود المستمرة فى جميع تلك المجالات مستعينين بالعلم فى ذلك والتخطيط والدراسة المستمرة . والكثير منا يحس بهذا الواقع فى بلادهم ويتأسف أشد الأسف لقصور المسلمين عن ذلك مع أن دينهم الحنيف أمر بكل ذلك منذ ألف وأربعمائة عام أو يزيد .

ان الاهمال في الصحة يؤدي الى اضعاف القوى البشرية ، وبالتالي يضعف الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري ويستنزف المال ، والاسلام لا يرضى بكل ذلك لنا أو بعضه . لذا لا بد من عرض مختصر لموقف الاسلام من تلك المسألة المهمة فسي حياة الناس في كل العصور .

وكما ذكرت من قبل ان الاسلام يوازن بين متطلبات الروح والجسد ولا يهتمل جانباً ويهتم بالجنب الآخر بل يهتم بالطرفين ، ونقرأ هنا قوله تعالى : " وابتغ فيما آتاك الله الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا " (١) . وقال صلى الله عليه وسلم : " ان لبدنك عليك حقاً " (٢) .

وامتدح الرسول الكريم الصحة في قوله : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراخ " (٣) ، فالصحة نعمة من الله تستوجب شكره سبحانه وتعالى ، ولا يقدرها حق قدرها الا صاحب العلة التي تضمنه وتحرمه من النشاط والحركة . والتالي تؤدي به الى الفقر مادام قد فقد الحركة في الحياة والسعي للعمل الشريف .

وقد اهتم الاسلام أولاً بما يسمى الآن بالطب الوقائي لأن الوقاية من الأمراض أسهل من علاجها وكما يقال " درهم وقاية خير من قنطار علاج " . ومن مظاهر هذا الاهتمام التركيز على العناية بالنظافة بجميع أشكالها وصورها ، وقد جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم من الايمان في الحديث الذي يقول : " النظافة من الايمان " .

والطهارة في الاسلام مطلوبة في مواطن كثيرة لأنها تحفظ الجسم وتبعد عنه الامراض والجراثيم وتزيل عنه الاوساخ والرائحة . وجاء في الحديث : " طهروا هذه الأجساد طهركم الله " (٤) ، والاسلام شرع الوضوء قبل القيام الى الصلاة في قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين " . هذا الى جانب الاضافات التي سنهها الرسول الكريم في الوضوء .

(١) القصص : ٧٧ ، (٢) رواه البخاري وسلم في صحيحيهما

(٣) رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، ورواه الترمذي وابن ماجه

(٤) رواه الطبراني عن ابن عمر

وقد تبين أن عملية الرضوء تقى العيون من اصابته بالرمد ، لأن العين تغسل بالماء النظيف عدة مرات في اليوم ، كذلك فان غسل المنخرين بماء بارد من أهم أسباب الوقاية من الزكام المتكرر ، وفائدة غسل الوجه والأذنين والأيدي ظاهرة لكثرة ما يصيب الوجه والأجزاء المعرضة عادة من الأمراض الجلدية والالتهابات ، فان غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية لها ، وقد اتضح أخيراً أن كثيراً من الجراثيم تصيب الانسان بطريق اختراق الجلد أيضاً . ولا شك في أن الغسل المتكرر من الوقايات الميسطة الفعالة لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع الجراثيم من الوصول الى داخل الجسم (١) .

ومن الجوانب الأخرى للعناية بالنظافة قص الأظافر والشعر والتطهر من النجاسة والحفاظ على الاسنان وتنظيفها ، لأن كل ذلك ينفع الجسم ويحفظه من الجراثيم ، وبالتالي يتمتع بالصحة المطلقة ، وهذه الأمور كلها عرف الطب ضرورتها ولزومها للحفاظ على الصحة والوقاية من الأمراض . وفي كتب الطب التفصيلات لمن أراد الاطلاع والمعرفة .

ونخص الحديث هنا عن جانب واحد مهم اهتم به الاسلام نأتى به على سبيل المثال لنتبين مدى نظرة الاسلام السليمة الى أمور الصحة واهتمامه بها ، اننا نخصص الحديث عن العناية بنظافة الفم والأسنان حيثورد حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة " (٢) .

لقد وجه الرسول الكريم المسلمين حتى يعتنوا بنظافة الفم والأسنان حيث أن الاهمال فيها يؤدي الى الاصابة بأمراض كثيرة تسبب الصداع الدائم وتسبب التهاب الجيوب الأنفية ، وارتفاع طفيف في الحرارة ولكنه دائم مما يتسبب عنه الكسل والخمول وفقدان النشاط والعزوف عن القيام بالعمل . كذلك فان أمراض الأسنان تؤدي الى اضطراب دائم في المعدة ، والتهابات حادة وزمنة في جدار المعدة ومن نتائجها تكسبون الآلام وسوء الهضم . وتتفأ أيضاً عن أمراض الاسنان آلام روماتيزمية في بعض المفاصل

(١) روح الدين الاسلامي ، غفيف عبد الفتاح طيارة ، ط ١٧ ١٩٧٨ م ، دار العلم للملايين ، ص ٤٣٢

(٢) رواه البخارى وسلم عن أبي هريرة

عند وجود الخراجات ، أو بقر الجراثيم في الفم . وقد تسبب التهابا بالشبكة فسي العين ، وحض خراجات الرئة (١) . والسواك الذي طلب الرسول استعماله في تنظيف الاسنان أجريت عليه بحوث تبين منها مقدار الأهمية البالغة للسواك نظرا لما يحتويه من مواد مهمة ، وقد كتبت فيه رسالة جامعية (٢) جاء فيها عن السواك أنه من النباتات الطبية وفيه بلورات سيليس ، وحمضات ، و مواد عطرية ، وأملاح معدنية ، و مواد صغوية ، ونشوية . وان مادة السواك لها تأثير مضاد للحوية مثل البنسلين (٣) .

ان العناية بالاسنان والحالة هذه واجبة لأن نظافتها مهمة كما لاحظنا وان تمت النظافة بالسواك فذاك والا فالفرشاء أو غيرها مادام المهم هو الحفاظ على نظافة الفم والاسنان ، فلنا ان نستعمل كل الطرق في سبيل الحفاظ على الصحة والنظافة الدائمة .

وفي مجال التغذية أمر الاسلام المسلم أن يأكل من طيبات ما رزق الله ولا يقرب الخبيث من المآكل تقيدا بأمره تعالى أولا وتحقيقا للفائدة الصحية من وراء ذلك . قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله " (٤) ، وقد تبين بالتحليل العلمي وتقدم وسائله المادية مدى الاضرار الحاصلة من تناول ما حرم الله من الطعام . وفي نفس الوقت فان ما حث عليه من المآكل والمشارب وسين فيه المنفعة الغذائية والعلاجية ، استطاع العلم الحديث أن يخبرنا بهذه الفوائد لهذه المطاعم والمشارب ، وبين مدى فعاليتها العلاجية كالعسل على سبيل المثال (٥) .

(١) أحاديث في الصحة ، الدكتور نبيل الطويل ، المكتب الاسلامي ، ط ٣ ١٩٧٧ ، ص ٤٤

(٢) عنوان الرسالة (السواك) للدكتور صلاح الدين الحنفي ، نقلا عن " أحاديث في الصحة " ، ص ٤٧

(٣) أحاديث في الصحة ، ص ٤٧

(٤) البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣

(٥) يراجع في ذلك كتاب: روح الدين الاسلامي ، مرجع سابق من ص ٤٣٤ الى ص ٤٤٢

ومن هنا يترتب علينا الاهتمام بشأن الغذاء والعناية به ضرورة معرفة الغذاء الذى نتناوله ودرجة نظافته ومقدار فائدته الى آخر ذلك حفاظا على الصحة العامة للمجتمع ولبقاء الأجسام محافظة على صحتها ونشاطها . وأنقل هنا بعض التوصيات الواردة فى ندوة التلوث التى انعقدت عام ١٩٧٢م جاء فيها : المطالبة بعمل دراسات وأبحاث عن أثر الملوثات على المحاصيل والمزروعات وإذاعة نتائجها للاستفادة منها . والمطالبة بالحد من استعمال المبيدات ، وعدم إباحة استعمالها الا بعد أن تثبت بالتجربة فائدتها مع كل الاحتياطات اللازمة للوقاية من أضرارها ، وكذلك دراسة أمراض الانسان والنبات والحيوان الناتجة عن التلوث ، والعمل على التوصل الى طرق علاجها . والحد من انشاء مصانع داخل الاراضى الزراعية حتى لا تلوث المخلفات والملوثات الماء والنبات والحيوان . اضافة الى مختلف مشاكل التلوث المتنوعة (١) .

ومن جوانب الطب الوقائى التى اهتم بها الاسلام ما يعبر عنه الآن بصحة البيئة ، نقرأ هذا الحديث الشريف : " طهروا أنفسكم ولا تشبهوا باليهود " (٧) . وفى هذا الحديث قواعد عامة تتعلق بالمسكن وما حوله بحيث يكون حسن التهوية تدخله الشمس ويخلو من الحشرات والجراثيم بعيدا عن الأوساخ والقاذورات حتى لا تنتقل منها الجراثيم الى المنازل ، وهذا يقتضى نظافة الشوارع والمساحات العامة ، والتى هى الآن من المسؤوليات التى تقوم بها الجهات المسؤولة فى الدولة ، ويكسبون من اختصاصها طلب مواصفات معينة للبناء حفاظا على الصحة العامة ، الى تفسير ذلك من المهمات التى تقوم بها الجهات المسؤولة فى هذا الشأن " (٨) .

(١) ندوة التلوث ، آثار وأخطاره وطرق الوقاية منه فى العالم العربى المنعقدة عام ١٩٧٢م ، تحرير د. جمال حسنى السمره ، القاهرة عام ١٩٧٣م .

(٧) رواه الترمذى ، وهو حديث حسن .

(٨) أحاديث فى الصحة ، مرجع سابق ، ص ٣٥-٣٨ .

ومن الأسس المهمة في الطب هذا العصر نظام الحجر الصحي أو العزل، حتى لا تنتقل العدوى من المريض إلى السليم. وقد سبق أن وضع الإسلام قواعده الأولى في الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا نزل وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها" (١) كذلك الحديث: "لا يورد مريض على مصح" (٢) والحديث: "فر من المجذوم فرارك من الأسد" (٣).

وهذا ما يؤكد صحة النظرة الإسلامية منذ بداية نزول الرسالة على آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ما يزيد في تأكيد صحة الرسالة وأنها من عند الله سبحانه وتعالى، إذ لم يكن وقتها الطب متقدما ليعرف مثل هذه الأمور الدقيقة والتي ما تحصل إليها الإنسان إلا في العصور المتأخرة بعد تقدم العلم الكبير.

ولقد وردت آيات وأحاديث تنهى عن ممارسات أو أشياء تضر بالصحة كشراب الخمر أو أكل لحم الخنزير أو أكل لحم الميتة والدم والمتخفق والموقوذ وما أكل المسبح، إضافة إلى ممارسة الزنا أو الاتصال بالحائض. فكل هذه الأمور تبين للعلم الحديث أنها فعلا تسبب الخطر على الصحة وتضربها، مما يعني حرص الإسلام على صحة الإنسان وقوة بنيته وسلامته من الأمراض حتى تبقى الفرصة متاحة له للعمل في الحياة وأداء واجباته بنفس راضية سعيدة لا يكدرها ألم أو يعوقها مرض. وحتى يتمكن من أداء مهمته المكلف بها وهي الدعوة إلى الله.

أما إذا حصل المرض فنجد أن الإسلام يطالب المسلم بالتداوي والبحث عن الدواء الشافي من العلة، ولا شك أن في ذلك حثا للمسلم على البحث والتجريب لاستخراج الدواء، ونطالع هنا الحديث النبوي في هذا المجال في قوله صلى الله عليه وسلم: "تداؤوا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير واحد هو الهرم" (٤).

(١) رواه مسلم (٥) رواه أصحاب السنن

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه أحمد في المسند عن أسامة بن شريك، رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية مسلم : " لكل داء دواءه ، فإذا أصاب داء الداء برىء باذن الله عز وجل " (١) .

وحديث آخر : " ان الله هبزل وجل لم ينزل داءه ، الا أنزل له شفاه ، علمه من علمه وجهله من جهله " (٢) .

هذه النظرة السليمة للإسلام في مجال العلاج الطبي لها أقوى الدوافع لنا للبحث عن الأدوية لعلاج المرضى تخفيفاً لآلامهم حتى يكونوا أعضاء في المجتمع الإسلامي بلا عوائق وحتى تتكامل العافية في روحه وجسده اذ بدون ذلك لا ينشأ النشأة السليمة .

من هنا نرى أن نظرة الإسلام للصحة متكاملة ، فما على المسلم الا أن يعتنى بصحته بشرط الاعتدال ، لا أن تكون الصحة هدفاً الذي ما بعده هدفه بل لبناء الجسم السليم القادر على العطاء في الحياة حفاظاً على دينه وقيده ، وبناء لأركان الدولة الإسلامية التي تحتاج للمساعد القوية والفكر السليم الذي يقوم على أسس الدين الحنيف ، وأعماراً للأرض كما أوجب الله حتى تكون راية الإسلام خفاقة ، وحتى يكون منهج الله هو المنهج الممارس في دنيا الناس كافة . وهذا كله عائد لمصلحة الدعوة الإسلامية وتأمين القوة الجسدية لها والدعم الفكري بصحة النظرة الإسلامية إلى الحياة وموقفه من جميع جوانبها .

وان التقدم المادي الذي وفر لنا وسائل المحافظة على الصحة ومقاومة المرض يقدم لنا الدعم المباشر في سبيل المحافظة على الصحة التي لا بد منها فسي تأدية مهام الانسان وبمباشرة ممارساته المتعددة في الحياة . لقد استطاع الانسان بالعلم أن يقضى على الكثير من الامراض كانت تفتك بالبشرية كالطواعين والأوبئة والجدرى الخ .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه احمد في المسند والطبراني ورجالهم ثقاة ، وابن ماجه والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم .

ومن يستعرض تاريخ المسلمين فانه يدهش من الانجازات العظيمة في سبيل
المحافظة على الصحة ، والتقدم الكبير في المجال الطبي من حيث طرق
الوقاية وأساليب العلاج والبحث عن الدواء واختراع الوسائل المساعدة للبحث
عن الدواء واجراء التجارب الحية على ذلك . ان حضارتهم الراقية تشهد
لهم بذلك . فالمستشفيات منتشرة في كل بقعة من بقاع الاسلام ، وكثرة الاطباء
والعلل والأمراض التي اكتشفوها واكتشفوا طرق علاجها ، كل ذلك يدل دلالة
على سير المسلمين على هدى تعاليم الاسلام في كل شؤون الحياة .

الفصل الثالث

وسائل الاعلام المسموعة والمرئية ودورها في نشر الدعوة

ساهم التقدم المادي مساهمة كبرى في تطوير أجهزة الاعلام بحيث أصبحت في العصر الحاضر قوة لا يستهان بها في نشر الآراء ونقل المعلومات وتداول الأخبار. وهذه الوسائل هي من وحي التقدم العلمي الهائل في العصر الحديث. أما الاعلام نفسه فهو قديم قدم البشرية احتاج اليه الانسان منذ القدم وان كان بوسائل بسيطة في بداية الأمر، ثم أخذت تتطور عبر الزمن وقبل العصر الحاضر كانت أهم وسائل الاعلام تتشمل في الخطابة والشعر والندوة والاجتماعات في الاسواق ثم تطورت في العصر الحاضر الى المذياع والتلفاز والصحف ووكالات الأنباء والاقمار الصناعية وغير ذلك من الوسائل الحديثة التي تنوعت وتطورت من واقع التقدم العلمي الهائل في جميع المجالات ومنها وسائل الاعلام الحديثة هذه.

والاعلام كما يعرف حديثا بأنه فن الاتصال بالجمهور بواسطة مجموعة من الوسائل بهدف التأثير والتعريف بالحقائق، يلعب دورا حاسما على المستوى الدولي، وان دوره الآن في معركة الحياة هو الدور الأول الذي يسيطر على جو المعركة ويحدد مصيرها ويقرر نتائجها ويقرر أهدافها، ولم يمسد خافيا ما تمارسه أجهزة الاعلام من سيطرة على مجريات الحياة وتأثيرها العميق في الجماهير الغفيرة من الناس التي ارتبطت بأوقات طويلة من يومها بهيمنة الأجهزة، ولم يعد في وسع أحد الاستغناء عنها والعيش في عزلة، فانه بذلك يحكم على نفسه بالانحزال من العالم.

فالاعلام " ضرورة بشرية لا يستغنى عنها، ذلك أن الاعلام هو وسيلة الحاجة العاسة الى ممارسة عمليات الاتصال بين الانسان والجماعة. فلو فقد الاتصال بين الناس لتعذر ظهور الحضارات البشرية، ولما تحققت الانجازات المختلفة بلغة التفاهم والتنظيمات الاجتماعية والتعاون الاقتصادي والمواهب

الفكرية والفنية المختلفة ، كما تعذر ظهور الانجازات التكنولوجية السنتي
تستمتع بها الأجيال البشرية قد يمها وحد يشها^(١) .

لقد كان للحروب الكبرى في القرن العشرين دور مؤثر في بروز الحاجة
الماسة للاعلام ، خاصة في فترة الحرب العالمية وما تلاها من أحداث ، وذلك
لتقوية الروح المعنوية في الجبهة الداخلية للدول المتحاربة ، وفي نفس
الوقت تحمل لضعاف هذه الروح ضد الخصم ، وهذا فقد اتست بالدعاية
أكثر من التزامها بنقل الحقائق وتصوير الواقع . ومن واقع الحرب هذه سارت
المياسات القومية الى دفع الاطراف المتحاربة للاتجاه الى الدراسات النفسية
والى طرق التأثير في النظم الاجتماعية بهدف الوصول الى التأثير على نفسية
الجناهير والنهمل من المعنويات للطرف المعادي . وفي الحرب العالمية
الثانية ظهر للاعلام دوره الخطير بصورة أوضح على يد هتلر واستغلاله الاعلام
بصورة فعالة للدعاية له في الداخل والتأثير على خصومه في الخارج ما دفع
الآخرين الى زيادة الدراسات العلمية حتى أصبح الاعلام قطاعا علميا واسعاً
جدا^(٢) .

وانتقل الاعلام بعد ذلك الى دول العالم الثالث ، وبرز الاهتمام
به حديثاً ، ولم يعد هناك من دولة لا تمتلك هذه الأجهزة على تفاوت
بينها في تحديث الأجهزة وامتلاك كل الوسائل المتاحة في هذا المجال الحيوي ،
وقد أنشئ في كل دولة وزارة متخصصة للاعلام نهطت بها هذه المهمة لتحقيق
الاهداف المرسومة لهذه العملية الاعلامية من حيث حاجتها الى حمل وجبهة
نظر الحكومة في الداخل والخارج ، أو لمهمة التثقيف وتوجيه الرأي العام
الى آخر ما وراء ذلك من أهداف . لكن موطن الخطورة في اعلام دول
العالم الثالث لا يكمن في امتلاكها لأحدث الأجهزة الاعلامية الحديثة
في حد ذاتها ، ولكن من حيث نقص الامكانات الفنية المتعددة في تشغيل هذه
الأجهزة والسيطرة عليها ، ومن حيث فنيات الاعلام نفسه والوقوع تحت

(١) من قضايا الاعلام في القرآن ، رمضان لاوند ، مطابع الهدف ،
سنة الطبع غير مذكورة ، ص ٩

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩-١٦١

سيطرة الاعلام في الدول الكبرى وفي المادة الاعلامية نفسها وامكانياتها فسي الوقوف أمام الاعلام المتقدم في الدول الأخرى التي تمارس هيمنة اعلامية خطيرة تضمن من ورائها أن تتحكم في نقل المعلومات وتعالجها بطريقة الخاصة.

وإذا كان الأمر كذلك فما السبيل لمجابهة هذا الاعلام الطاغى ؟ هل يكون ذلك بالابتعاد عن الاعلام ، فان كان الأمر كذلك فنحن نقدم خدمة للاعلام المعادى حيث يترك له المجال ليصول ويجول بلا رقيب، وذلك يودي الى ممارسة دوره بشكل لا يقاوم. ان الأهم من ذلك هو امتلاك وسائل الاعلام والسيطرة عليه لأنه يودي خدمات لا يستطيع انكارها أحد اذا ما وجه توجيهها سليما ، الى جانب ما يودي من خدمات تثقيفية وما يساهم به فسي مجال حل كثير من المشاكل التي تعترض الدول النامية.

وإذا خصصنا الكلام عن الدول الاسلامية فان لها سهاما كبرى في المجال الاعلامي من حيث توجيه الاعلام الى الوجهة السليمة واستخدامه في نشر القيم الاسلامية وطبعه بطابع النظام الاسلامي الشامل.

لقد استحدثت لتأمين الحقيقة ووسائل مدنية وعسكرية لا حصر لها وبجانب على حملة الرسالة اتقان هذه الوسائل. وفي هذا المعصر قامت أجهزة للدعاية تخدم عتي الطل والنحل بأساليب فائتة، فأذا لم نسايقها ونسبق، ظلمنا ديننا ، وأضعنا حقنا وكان علينا وزر المفرطين.

وهل أن نحض في بيان موقف الاعلام الاسلامي وأهميته، لا بد من اطلاق موجز على نظريات الاعلام وعلى الدور الذي تمارسه أجهزة الاعلام للدول المتقدمة التي تمتلك أحدث الأجهزة في هذا المجال الحيوي ، الى جانب المهارة والسرعة والاساليب البارعة التي تؤثر في جميع أنحاء العالم ، وذلك حتى نتفهم مواقعنا ازا هذه النظريات الاعلامية وما تمارسه من ضغط مستمر وتأثير واسع وحرب خفية مستمرة.

تتلخص النظريات الاعلامية فيما يلي :

١- نظرية السلطة :

سادت هذه النظرية في مجتمعات القرن السادس عشر والسابع عشر والخصائص التي تميزها مازالت موجودة الى يومنا هذا في بعض الدول الحديثة . وتتميز هذه النظرية بتحكم السلطة في وسائل الاعلام وتوجيهها الوجهة التي تردها ، فهي ناطقة بلسان السلطات بحيث تخدم مصالحها ، وتنع من المدور اذا كانت صحافة أو تستمر وفقا لمسدى خدمتها للسلطات أو عدم قيامها بهذه المهام .

٢- نظرية الحرية :

قامت هذه النظرية في القرن الثامن عشر وازدهرت في القرن التاسع عشر ، وقد نقد أصحابها نظرية السلطة ، وقالوا ان الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة تكون بترك الآراء تتعارض وتتنافس بحرية . وذلك فان الصحافة تشكل سلطة قوية تراقب السلطة التنفيذية ، ويستطيع أى شخص أن يملك جريدة أو مجلة . ولكن هذه النظرية قد تومى الى إحداث الفوضى نتيجة هذه الحرية المطلقة .

٣- نظرية المسؤولية الاجتماعية :

قامت هذه النظرية بعد ظهور مخاطر نظرية الحرية وتركيز الاعلام بيد قلة قليلة قد تعمل لمصلحتها الاقتصادية وتحجب الكثير من الحقائق عن الشعب . ومن هنا برزت فكرة المطالبة بأن تكون أجهزة الاعلام مراعية لمسئوليتها الاجتماعية وأن كل حرية يقابلها مسؤولية ، ومن هنا كانت المطالبة بانشاء هيئة اختيارية للاشراف على انحراف الصحافة وابرار النواحي التي تخدم فيها المصلحة العامة .

٤- النظرية السوفيتية :

ان جهاز الاعلام عندهم جزء لا يتجزأ من جهاز الدولة الشيوعي ووظيفته هي زيادة وحدة الفكر بين أعضاء المجتمع وتعليم المبادئ الماركسية وتفسير الاحداث على ضوء تلك المبادئ ، كما أن من وظائفها جذب التأييد الشعبي لبرامج الدولة المختلفة مثل زيادة الانتاج . وحرية التعبير عندهم لأولئك الذين يؤيدون النظام ، ويتم الانتقاد أو المناقشة للامور الفرعية فقط أما الاساسيات والمبادئ فلا نقاش فيها أبداً . وللإعلام عندهم أهمية قصوى حيث يسعى لتحقيق الاهداف التي وضعها النظام ، وهو يسرى الى كل قطاعات الشعب وتنظيماته على جميع المستويات (١) .

ان الدراسة لهذه النظريات السائدة في الاعلام لا تدعونا الى انتقاس واحدة منها مهما كانت حسناتها ، لأن لكل هذه النظريات ظروفها الخاصة من أوضاع أصحابها وايدولوجياتهم ، ولا يخفى أن أغراضهم وأهدافهم تتشعب تشعب الظروف والاحداث والتغيرات الاجتماعية ، في الوقت الذي نمتلك فيه نظرية في الاعلام متميزة ذات أهداف واضحة محددة تناسبها أحوال البشر في كل زمان ومكان ، انها نظرية تتعق بالروية الواضحة . عبر التاريخ كله ، انها من عند الله خالق البشر والعالم بأسرار النفس الانسانية وخفاياها وما يصلح لها دائماً . وهي تهدف الى الوصول بالمجتمعات الى الحق والخير وتحقيق الاهداف النبيلة والنهوض بالمجتمعات وتحقيق أهدافها على جميع المستويات الخيرة .

(١) نظم الاتصال ، الجزء الاول الاعلام في الدول النامية ، جيهان احمد رشتي ، دار الفكر العربي ١٩٧٢م ، ص ٨٨ وما بعدها .

لقد وفر التقدم العلمي التكنولوجي امكانات هائلة في الأجهزة الاعلامية من اذاعة وتلفاز وأجهزة تسجيل متعددة وأقمار صناعية واتصالات سلكية ولاسلكية وحاسب الكتروني الى غير ذلك من هذه الأجهزة المعقدة والتي أتاحت للبشرية مجالاً واسعاً في عالم الاتصالات استخدمت لأغراض شتى فيما يفيد الانسانية ويضرها ، وذلك حسب التوجيه والأغراض التي يسعى المرسل لتحقيقها .

ان هذا النمو في مجال الاتصالات وصل قته باستخدام الأقمار الصناعية في الستينات والسبعينات من القرن الحالي ، " حتى أن الفضاء الخارجي أصبح الآن مزدهراً بالأقمار الصناعية مثل شوارع المدن الكبرى " (١) . كذلك الذبذبات التي اخترق الحدود والذي تبت موجاته الى جميع أنحاء العالم ما جعل صوت الدولة يصل الى أي مكان في العالم يبلغ رسالته الاعلامية بنقل الفكر والمعلومات دون ما طاق يعمقه عن الوصول الى أي مكان . ان الموجات الاذاعية قادرة على اختراق كل أنحاء العالم في أقل من لمح البصر ، بحيث أن موجة الأثير تدور حول الكرة الأرضية في نحو ثمن ثانية ، لا يقف في سبيلها حدود أو حواجز سياسية أو طبيعية ، ولذا فإن الذبذبات يعتبر أقدراً وسائل الاتصالات في سرعة نقل الأخبار . كذلك التلفاز الذي جذب قطاعاً كبيراً من الجمهور حيث يمتلك العناصر الثلاثة المؤثرة في خيال الجماهير وهي الصوت والصورة والحركة . وهو وان كان مازال محدوداً بالحدود الإقليمية الضيقة ، إلا أن الأقمار الصناعية ستتيح المجال له ليعبر الحدود أيضاً في المستقبل القريب على نطاق واسع .

لقد بلغ التقدم التكنولوجي مراحل متعددة ونحن غافلون عن كل ذلك وكأن الأمر لا يعنيننا ، مع ان واجبنا أن نكون في أول الصفوف لامتلاك هذه

(١) الاعلام الدولي بالراديو والتلفزيون ، جيهان رشدي ، دار الفكر العربي ،

الوسائل وتسخيرها في صل الخير.

ان التقدم الكبير الذي حصل في أجهزة الاتصال والاعلام تدعونا الى الصحوة السريعة وامتلاك زمام المبادرة ، ولنلق نظرة سريعة على تقدم هذه الوسائل نقطف ذلك من كتاب " الصحافة والتكنولوجيا " الذي جاء فيه :

" بتقدم وسائل الاتصال والاعلام تقلص حجم الأرض واختصرت المسافات، وتوفر للانسان المزيد من الوقت والمعرفة. وهذه الوسائل أشبه بجهاز صبي غير منظور يخرق جسم الأرض برا وبحرا وجوا. لقد كان الناس قديما يهتدون بواسطة الشمس والقمر والنجوم، أما اليوم فيتم الاتصال بين البشر عن طريق الأقمار الصناعية، إذ تطورت وسائل الاتصال من صوت في الهربة ، وطبول في الأدغال ، وحمام زاجل يقطع المسافات ، الى أول اتصال تليفرافي عبر الاطلس عام ١٨٦٦م ، الى الاتصال التليفوني عام ١٨٢٦م ، الى البث الاذاعي ١٩٢٢م الى أول كابل تليفوني عبر الاطلس ١٩٥٦م ، الى قمر صناعي ١٩٦٥م يكون حلقة الوصل بين الولايات المتحدة وأوروبا لأغراض الاذاعة والتلفزيون والتلفون ، الى ثلاثة أقمار صناعية أطلقت الى الفضاء ، وركزت في مواقع مدروسة لكي تغطي معا جميع أنحاء العالم، حيث تتوفر محطات الاستقبال .

ونتيجة للتقدم التكنولوجي في ميدان الاعلام ، جاء العقل الالكتروني ليؤمن موجات الكترونية بين المرسل والمستقبل تقطع بلمح البصر آلاف الكيلومترات، بحيث تخرج تلك الموجات الالكترونية في الطرف الاخر من المعورة جريدة كاملة ، ثم اعدادها في الطرف الأول .

لقد دخل الدماغ الالكتروني في مجال التعليم أيضا ، تسهلا لهمة المعلم والطالب معا ، وقد أصبح في استطاعة طالب العلم الحصول على جميع المعلومات التي يريدها بسرعة مذهلة، فيخفضه على زر صغير يحصل على

الصورة أو النص الذي يريد في أى كتاب وفي أى مكتبة في العالم، كما استخدم في تسهيل التعليم التلفزيوني، حيث يستطيع معلم واحد تدريس أعداد كبيرة من الطلاب في أماكن مختلفة باستخدام دورة تلفزيونية مغلقة. وأصبح بالإمكان استخدام أشعة ليزر - وهي موجات متماسكة - في مجال الاتصالات التلفزيونية بواسطة شعاع واحد من هذه الأشعة. وهكذا فإن التعاون بين الإنسان والآلة أخذ في الازدياد (١).

وتقول الدكتورة اجلال خليفة :

" سوف تزداد أعداد المستقلين لأجهزة الإرسال زيادة كبيرة فتشمل أغلب سكان العالم من يقرأ ومن لا يقرأ، لأن الأيام القادمة سوف تشهد انتشار الأقمار الصناعية وتعدد ما يحيط بنحصر الإرسال من خلالها، وسيؤدي ذلك إلى زيادة عدد محطات الاستقبال لها في البلدان المختلفة، فإن موانع الغد للأجهزة الإلكترونية تستعد لصناعة محطات صغيرة يمكن للمؤسسات الخاصة والنازل الكبيرة والعمارات استقبال ما ترسله محطات الأقمار الصناعية مباشرة من مواد صحفية سموعة ومرئية، هذا بخلاف ما يحدث الآن إذ تستقبل برامج مواد إعلامية من هذه الأقمار الصناعية من طريق محطات أرضية مركزية نائية" (٢).

والسؤال الذي يتبادر للذهن بعد هذه القراءة السريعة لتقدم وسائل الاتصال الذي وفرته التكنولوجيا الحديثة هو ما موقفنا من امتلاك هذه الوسائل وهذه الأجهزة المتقدمة، إن انقسام الرأي عندنا حول استخدام هـستـنـذة الوسائل يعود فيها يبدو إلى النظرة إليها من زاوية ما تقدمه من برامج تستشير بها الفرائز الكاشفة والضرب على أوتار شهوات النفس. وهذا صحيح ولا يخفى ما يتركه من أثر سيء على جيل الشباب. ولكن يجب أن تتسع النظرة إلى جميع

- (١) الصحافة والتكنولوجيا، الاتحاد العام للصحفيين العرب، السلسلة الإعلامية - ٥ - ١٩٨١م، ص ١٤، ١٥.
- (٢) الوسائل الصحفية وتحديات المجتمع الإسلامي المعاصر، د. اجلال خليفة، مكتبة الانجلو المصرية، ط ١٩٨٠م، ص ١٣١.

المجالات التي تتيحها وسائل الاعلام وهي مجالات مفيدة لا يستطيع انكارها أحد . فهذه الأجهزة ليست دائما مجلب ضرر ، ان الأمر يعود إلى التوجيه السليم والتخطيط الواصي لدور هذه الوسائل اذا ما أحسن استغلالها خاصة في مجال الدعوة إلى كلمة الحق إلى الدين الاسلامي إلى الله سبحانه وتعالى . ويجب أن لا تكون النظرة إلى وضع أجهزة الاعلام الحالي في العالم عاقبة عن استخدام الواصي لهذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة اهداف هذا الدين ولعالم نشره على النطاق العالمي . لقد سهلت أمر نشر الدعوة بعد أن كانت الجهود مضمية في هذا الميدان ، وهذه الأجهزة تقدم نفسها اليينا وتدعونا إلى مجالها لا لنسمر على نفس الخط الحالي ، بل لتفسير المسار الاعلامي إلى ما فيه الخير والحق وجمع الكلمة والبناء والتعمير . انها مسؤولية كبيرة تقع على المسلمين وخاصة الطبقة الواعية منهم للتوجه إلى المجال الاعلامي لاجداث التغيير المطلوب في مهام هذه الأجهزة ، وفي توجهاتها وأهدافها الخيرة .

ونحن إذاً نرى هذا المجال الحيوي ، نكون قد أتقنا المجال للشكر أن يفتو وللحق أن ينزوي تاركاً دوره للباطل ، وهذا أمر لا ينبغي السكوت عليه ، خاصة وأن دعوة الاسلام توجب علينا مسؤولية نشر الدعوة وابلغها والاعلام بها . وما حياة الرسول الكريم الا جهاد متواصل من اجل نشر الدعوة بشتى السبل المتاحة .

ان الواجب الملقى على الرسول الكريم ، وعلى أمة الاسلام من بعده ، يقتضي حمل هذه الأمانة وتبليغها إلى الناس كافة ، ونشرها على النطاق العالمي . وقد وردت نصوص كثيرة توضح هذه المهمة ، كما جاء في قوله تعالى : " يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً " (١) .

فالدعوة هي مهمة الرسول الكريم الرئيسية .

وقال تعالى : " ما على الرسول الا البلاغ " (٢)

(١) الاحزاب : ٤٥ ، ٤٦

(٢) المائدة : ٩٢

وقال في موضع آخر : " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته " (١) .

ان الاعلام بالاسلام والدعوة اليه مهمة رئيسية للرسول الكريم ، وليس عليه بعد ذلك مسؤولية هداية الناس أو ضلالهم ، مادام قد قـــام بالمسؤولية الملقاة عليه وهي مجرد التبليغ .

ان وسيلة الدعوة هي الكلمة ، لا اكراه ولا مغبوط تمارس ، انها دعوة بالحسنى ولا سهيل لذلك الا الاعلام بالكلمة الطيبة والابلاغ بالحقيقة الالهية ، وينهج الله في قيادة البشرية على افضل نهج وأقوم سبيل في جميع شؤون الحياة .

وهذه المسؤولية لا تقف عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل تنسحب على الأمة بجمعها كل في حدود طاقته ومعرفته ، وهذه المهمة قد ألتج عليها القرآن مرارا وتكرارا ، والقيام بها على وجهها الصحيح عبادة يشاق عليها فاعلمها من الله ، وهي لا تقل أهمية عن سائر العبادات الأخرى كالصوم والزكاة ، بل اننا لا نجد في القرآن الحث على الصيام الذي هو ركن من أركان الاسلام مثلما نجد من الحث على الدعوة الى الله . وان التقصير في ذلك يورى الى عدم الامتثال بأوامر الله في ابلاغ الدعوة الى الناس كافة .

ومن واقع المسؤولية بهذه المهمة الرئيسية فقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم باعلام الناس عن هذا الدين بشتى الوسائل المعروفة في عصره ، ولم يسقط هذه الوسائل التي كانت معروفة في ذلك العصر ، ولكنه لم يبق هذه الوسائل على حالها بل عدل من سارها لخدمة الحق وطور من أهدافها بعد أن كانت تستغل لبع الخلفات واشغال الفتن وتعويق الشرور المنتشرة بين العرب . ومن أبرز هذه الوسائل :

١- القصيدة الشعرية :

كانت القصيدة الشعرية وسيلة اعلامية ناجحة في العصر الجاهلي ذات تأثير قوى ، ولكنها كانت تستغل للتنافر بالحسب والنسب واطهار القوة والسيطرة والتنافر بالكثرة العددية وارهاب الخصم الى آخر ذلك ما يثير الاحقاد والفتن . وكان الشاعر لسان حال القبيلة يدافع عنها ويمرز بطولاتها لتكون مرهبة الجانب بين القبائل الاخرى . وعند ما جاء الاسلام استغل صاحب الدعوة هذه الوسيلة الناجحة ذات التأثير الفعال ووجهها وجهة سليمة لتخدم الحق وتدافع عن العقيدة وترد على الخصوم ، فكان الشعراء يقومون بهذا الدور خير قيام وعلى رأسهم حسان ابن ثابت وعبدالله بن رواحة . " والرسول عليه الصلاة والسلام كان يحتسب الاعلام بوجه عام والشعر بوجه خاص من أهم وسائل التخذيذ أو الحسب النفسية ، فهو قوة ضرورية لساندة القوات العسكرية وللفت في عضد العدو وتحزيق صفوفه " (١) .

٢- الخطابة :

كان للخطابة شأن كبير في حياة عرب الجاهلية أيضا ، وبرز من بينهم خطباء على درجة كبيرة من القوة الفنية ، ولقد استثمر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الوسيلة لنشر حقائق الاسلام ، لكن الخطابة في الاسلام قضت على كل لون قديم من خطابة الجاهلية لا تتفق مع روح الاسلام . ووضع الرسول أسس الخطابة وتقاليدها في صلاة الجمعة والأعياد ومواسم الحج ، وخطبة الوداع تعتبر من الخطب المشهورة للرسول الكريم لخص فيها الكثير من حقائق الاسلام . وامتد هذا الأثر للخطابة الى كل العصور الاسلامية اللاحقة وخاصة في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ، حيث برز خطباء على درجة كبيرة من الاتقان ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(١) الاعلام الاسلامي ، د. ابراهيم امام ، ط ١٩٨٠ م ، مكتبة الانجلو المصرية ،

٣- الاسواق :

كانت الاسواق في الجاهلية ملتقى الشعراء والخطباء ومسند را
لاستقاء الأخبار وتبادل المعلومات ، ولما جاء الاسلام استغل الرسول
صلى الله عليه وسلم هذه الوسيلة الفعالة لاطلام الناس في هذه الاسواق
بحقائق الاسلام ، فكان يتردد عليها يدعو الناس بها الى الاسلام .

٤- الاتعال الشخصي :

أهم الوسائل للاعلام هي الاتعال الشخصي ذات التأثير الفعال
في نفس المتلقي نظرا لما تتمتع به هذه الوسيلة من مميزات مؤثرة فقد
لا تتوفر في أى وسيلة من الوسائل الأخرى حيث يتاح لها الفرصة للمواجهة
والاخذ والرد والتاثير الكبير من المتواجهين . وهذه الوسيلة ذات أشر
بعميد في تحقيق أهداف رسالة الاسلام ، ولم تفقد قيمتها بالرغم من ابتكار
الوسائل الاعلامية الحديثة. وقد مارس الرسول هذه الوسيلة منذ البداية
حيث كان يلتقي بالأشخاص سرا في بداية الأمر ثم عن طريق الرسائل
التي بعثها مع أشخاص الى الملوك في البلاد المجاورة، ولقاءاته الشخصية
مع أفراد القبائل التي تفد الى مكة وذهابه الى الطائف .

هذا بالإضافة الى الوسائل المبتكرة التي استحدثها الاسلام نفسه
واقترضها رسالته كخطبة الجمعة ودروس الوظ والأذان ومواسم الحج
والعمرة إضافة الى الجهاد ودوره الكبير في نشر الدعوة ، وكذلك
القصص القرآني والقصص النبوي مع تميزها عن مفهوم القصة الحديث سن
حيث الالتزام والدعوة الى الخير . كذلك لعبت المكتبة الاسلامية دورا بارزا
في مجال الاعلام بالاسلام وخاصة المكتبات الملحقة بالمساجد ثم ما تبع
ذلك من تطورات في عالم المكتبات .

وهكذا نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعان بالوسائل المتاحة في عصره بعد أن وجهها الوجهة السليمة ، وصحح من سارها الخاطيء ، وأوجد لها مفايز جديدة تتفق ونشر الحق ، وبلوغ الهدف السليم . ولو أن الوسائل المعاصرة كانت متوفرة في ذلك العصر لاستخدمها المسلمون دون تردد ، وسخروها في خدمة الحق والاعلام به ، لأن هذه الوسائل تفيد أو تضر بحسب الاستخدام ، وما يث عن طريقها من مضمون اعلامي .

ان عصر التقدم التكنولوجي قد أتاح لنا وسائل اتصال على درجة كبيرة من الأهمية ، والتي يتوفر فيها من السرعة والانتشار الواسع ، كالإذاعة والتلفاز والأقمار الصناعية وآلات التسجيل والحاسب الإلكتروني . لقد باتت خطيرا ما تمارسه هذه الوسائل في كل مكان ، من تأثير بالغ على عقلية الناس وتشكيل آرائهم وتوجهاتهم . الى جانب انتشار هذه الوسائل على نطاق عالمي ، بحيث أصبحت الدول القوية اعلاميا تبت اعلامها الى مختلف بلدان العالم لاجداث التأثير المطلوب ، والذي يخدم قضاياها وينشر فكرها ومعتقداتها ، وما تقوم به من فزو فكري على نطاق واسع يضغط على عقلية الجماهير المسلمة ، ويؤثر فيها ، خاصة في غياب اعلام اسلامي مقابل لذلك الاعلام . الى جانب وسائل الترفيه ، والضرب على أوتار الشهوات ، مع تغليف كل هذه البرامج بنوع من الموضوعية أو المسحة العلمية والفنية لاخفاء الهدف الحقيقي من وراء هذا الاعلام - خاصة وأنهم قد ضبطوا العملية الاعلامية بشكل محكم - سعيا لتحقيق أهدافه بانحلال هذه الأمة تسبيدا للسيطرة عليها من كسل الوجوه .

ان واجبتنا ازاء هذه الوسائل وحسن استخدامها يجب ان يرتكز على الخطوط
التالفة :

أولا ، التوجه الى هذه الأجهزة والسيطرة عليها من جميع النواحي العلمية
والفنية والاتقان الجيد ، والتخطيط المستوعب للقضية الاعلامية من
جميع جوانبها ، وتوجيه كل ذلك لخدمة الاسلام والأمة الاسلامية ،
واستنهاض الهمم والنفوس نحو التمسك بدين الحق ، ونحو البناء
والتميز من واقع مسؤولية الانسان المسلم ودوره في الحياة كخليفه
مطلوب منه أن يلعب الدور المكلف به على أتم وجه . انه مطالب
بعملية البناء لهذه الأمة على أسس الايمان والمعتقد السليم ، وهذا
دور كبير يجب أن يقوم به الاعلام بشتى وسائله وطرقه وأدواته ،
بحيث يوجه دعوته الى جميع فئات المجتمع ، مع التركيز على عنصر
الغياب بمعالجة قضاياها والعمل على حلها ، واستثارة همم وتوجيه
طاقاته نحو البناء ، والى حماية الأمة من الأخطار المحدقة بها ،
بدل أن تتركه فريسة سهلة لوسائل الغزو الاعلامي العالمية .
اننا مطالبون بتبشير الشباب بحقائق الحياة وموقعه منها ودوره
الكبير خاصة في الظروف الحالية العصيبة التي تمر بها أمتنا في
صيانة جسد الأمة الشخن بالجراح وتوجيه كل ذلك لطلب الحق
من خلال العرض الجيد للاسلام من مختلف الوجوه وكيفية معالجته
لكل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهن مزاياه من
كل هذه النواحي المهمة . ويتم كل ذلك من خلال عرض موضوعي
على يعتمد على المناقشة الهادئة والهادفة والدعوية بالحجج
والبراهين والمنطق السليم .

انه من غير المعقول أن يتجاهل المسلمون وسائل الاعلام التي تقوم بكل ذلك وتحول تيار الفكر الى فكر اسلامي جـاد يستثمر الطاقات ويوظفها لخدمة الأمة بدل أن تضع مع وسائل الاعلام المعادية لهذه الأمة والهادفة لمعتقد ها خاصة من نفوس الشباب ، " فالاعلام طاقة كبرى ، وقوة خطيرة، وعليها أن نبذل كل المحاولات الجادة الصادقة في سبيل الاستفادة من وسائل الاعلام وتحويلها الى أجهزة بناء للمجتمع الاسلامي ، كما كانت تستخدم وسائل الاتعال الشخصي والجمعي من شعر وخطابة وقصص وغيرها في تاريخنا الاسلامي المجيد . فليس علاج الموقف العصيب الذي نشأ عن الاتعال الجماهيري هو هدم المبالة ، أو مجرد الرفض السلبي . ولا ينبغي أن نقف مكتوفي الايدي ازاء هذا الغزو الفكري والثقافي الرهيب من وسائل الاعلام المعصرية ، وانما علينا أن نبليغ الدعوة الاسلامية الى عقول الناس وقلوبهم في جميع أنحاء العالم" (١) .

ثانيا : ان الخط الثاني الذي يجب أن تعتمده وسائل الاعلام الاسلامية هي الرد المباشر والحازم على المفتريات التي توحى بها أجهزة الاعلام العالمية لهدم الاسلام وفقد الثقة به من نفوس الشباب والطبقات الأخرى للأمة ، كل ذلك في أسلوب علمي منطقي يعتمد الأتقاع والمقابلة بين النظرة والنظرة ، ويجب التركيز في الرد على الشيوعية ورفض الاستعمار وكشف خططه وأساليبه ، اضافة الى بيان أخطار الماسونية في العالم الاسلامي وما تخطط له من كيد للاسلام والمسلمين . ويجب ان تنظم هذه المعركة تنظيمها دقيقا باستيماب هذه القضايا والرد عليها ردا حازما وعلميا لا خطبة تلقى في

(١) الاعلام الاسلامي ، د. ابراهيم امام ، مكتبة الانجلو المصرية ،

التحذير من هذه أو تلك ثم نضى لا أثر لكل ذلك.

ثالثاً :

الذى يجب ان تتميز به اجهزة الاعلام الاسلامى هو معالجة القضايا جميعها على ضوء المفاهيم الاسلامية سواء كانت أخبصاراً سياسية أو عسكرية أو أزمات اقتصادية أو حوادث طبيعية أو قضايا اجتماعية ، ان كل هذه القضايا يجب ان تعالج من خلال نظرة اسلامية واعية لا يعمد الحياة والمصير بحيث تعطى التفسير السليم لكل ظواهر الحياة هذه مستوحاة من وحى الله من كتابه وسنة رسوله . اذن ليس معنى الاعلام الاسلامى أن يكون هذا الاعلام مقتصر على مواضيع دينية خصوصية كالصلاة والحج والصوم وما يتعلق بكل ذلك ، انه اعلام متكامل ومتقن لكل العمليات الاعلامية من تفهم للنفس البشرية ومن دراسات علمية لوسائل التأثير على المجتمعات وأحسن الطرق لا يعمد حقائق الاسلام، وطرائق معالجته لأمور الحياة، مع بيان الأهداف الاسلامية - من خلال هذه المعالجة - وصولاً الى الاقتاع والتأثير الفعال بالجماهير العريضة ، وبث الروح العالية فيها للاقبال على الاسلام واعتناقه عن قناعة تامة بدوره فى رسم الأبعاد الصحيحة للحياة وما تقوم اليه من خير واعمار وصلاح وخاتمة حسنة فى الآخرة حيث يلقى الانسان الجزاء الأوفى .

رابعاً :

وهو اخلاقيات الاعلام الاسلامى فى استعمال هذه الوسائل الحديثة حيث لا يتورع الآخرون من استخدام كل المخرجات لقبول آرائه من خلالها ويمارسون كل الضغوط لا يتراز هذه المواقف، بحيث أصبح الاعلام العالمى دعابة أكثر منه اعلاماً حقيقياً . وهذه الوسائل التى يستخدمها الاعلام البشرى من التواء وتحايل وضغط الى آخر كل ذلك نابع من الهدف الذى يكمن وراء العملية

الاعلامية بشكل عام . ان هذا الاعلام البشرى يهدف الى تحقيق مصالحه الشخصية ويدعو الى ايدولوجيات صنعها الانسان لنفسه لا توأم الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لذلك فهم يلجأون الى كل وسيلة بغض النظر عن قربها أو بعدها عن الجانب الخلقى . بينما يهدف الاعلام الاسلامى الى تمييز الناس كافة بحقيقة عبوديتهم لله سبحانه وتعالى والدعوة الى دين الاسلام الذى لا يصلح غيره لقيادة المجتمعات البشرية نفسها ، فالدين الاسلامى يصحح حركة الناس فى الحياة ليمش الانسان أسعد حياة له فى الأرض فى الوقت الذى تتعارض فيه المذاهب والآراء ضد بعضها البعض والفتنة ظلم واستبداد واستعمار وقتل واعتداء وشروع لا أول ولا آخر لها .

خامساً : والاعلام كما يقال " هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة ، والحقائق الثابتة ، التى تساعد على تكوين رأى صائب فى واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ، بحيث يعبر هذا الرأى تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاههم وميولهم " (١) .

وبذكر تعريفها آخر يقدمه " أوتوجروت " للاعلام بقول فيه : " الاعلام هو التعبير الموضوعى عن عقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت " .

والحقيقة ان الاعلام الاسلامى هو اعلام يستند الى حرية الكلمة وحرية التفكير ويتسلح بقول الحقائق ويستعين بالمصارحة فى التعامل مع الآخرين . وما انه اعلام موجه من السماء فلا سلطة دنيوية عليه من حزب او حاكم او جمهور ، انما سهمه قول الحق الآتى من

(١) الاعلام الاسلامى المرحلة الشفوية ، د. ابراهيم امام ، مرجع سابق ، ص ٢٩

عند الله سبحانه وتعالى وليس هو مجرد تعبير عن رغبات الجماهير ومقلتها ، انما هو موجه لهذه العقلية وهذه الرغبات لتكون كلها في الطريق الصحيح بدون ممارسة الضغوط أو كبت الحريات .
 اما أجهزة الاعلام المختلفة فهبما تحقيق أهدافها بأى وسيلة كانت ولو بممارسة الضغوط أو استثارة الغرائز أو كبت الحريات أو أى وسيلة أخرى . وهذا فرق كبير بين من يستعمل الأجهزة الاعلامية لخدمة الحقيقة والخير ولا يسلك في سبيل ذلك الا كسبل سلك شريف ، وبين من يمتحن الكذب والافتراء وكل الوسائل الملتوية لتحقيق فكرته ، وتحقيق سيطرته الاستعمارية على الشعوب المستضعفة لامتصاص خيراتها بعد تفرغها من عقيدتها وشخصيتها المتميزة .

وكلمة أخرى في هذا الموضوع وهي أنه يجب علينا أن نفرق بين اقتباس العلوم المادية والتقنيات المتطورة ومنها وسائل الاعلام الحديثة ، وبين الانتاء الى الشخصية القومية الغربية والاستغلال برموزها المعنوية وقيمها التاريخية (١) . اننا بحاجة لهذه الوسائل لا لنهت من خلالها ما يسرده الغرب صباح مساء من أجل أحكام سيطرته علينا، ولكن لنجعل المادة الاعلامية مصبوغة بالصيغة الاسلامية وموصولة برؤية أساسية عامة تكون بمثابة الخيط الاستراتيجي للعملية الاعلامية من خلال التصور الاسلامي الشامل لكل القضايا .

انها مطلوبة لأنها صوت سموع على نطاق عالمي نستطيع من خلاله ابلاغ الدعوة الى كل الناس أينما كانوا . وما أجمل أن يتعاون العالم الاسلامي في انشاء مؤسسات اعلامية نشيطة على المستوى العالمي تمارس أعمالها بحرية ، وتتوفر لها الكفاءات النادرة القادرة على قيادة هذه العملية المعقدة ، بدل أن تظل أجهزتنا جيبسة لا صوت لها أو يلفها القصور والمعجز من جميع

(١) من قضايا الاعلام في القرآن ، رمضان لاوند ، مرجع سابق ص ١٧٥

وجسوه العملية الاعلامية. ونسأل الله أن تتضافر الجهود لخروج هـذـه
المؤسسات الاعلامية التي تستغل أحدث الآلات الاعلامية لخدمة الحق، والرد
على المغتربات، ونشر حقائق الاسلام وموقفه من القضايا المعاصرة، مما يتيح
للجميع الاطلاع على الاسلام والتعرف على مزاياه، وبالتالي سيطرته على كل هذه
المذاهب الوضعية وما تجلبه من أضرار للبشرية وآلام للانسانية .

الطباعة وعالم الكتاب والصحافة وأثارها في انتشار الدعوة

ظهرت الطباعة الحديثة على يد المخترع الألماني جوتنبرغ عام ١٤٥٠م. وقد سبقت ذلك محاولات لم يكتب لها النجاح في الصين وفي غيرها، ولكنها اكتسبت على يد هذا المخترع طورا جديدا فتح عهدا واسعا لتطور الطباعة فيها بعد. وقد أحدث هذا الاكتشاف آثارا بالغة في عالم المعرفة وانتشارها إلى قطاعات واسعة بين الناس، بعد أن كانت مقصورة على عدد قليل منهم، نظرا لصعوبة النسخ باليد، وارتفاع التكلفة والجهد المبذول فيها.

لقد أحدثت ثورة فكرية على نطاق واسع مما سهل تناقل الأفكار وانتشارها بسرعة كبيرة، مما ساهم في سرعة تشكيل عالم جديد، وعقلية جديدة بكثرة ما تدفعه من الكتب إلى أيدي الناس، ولا يخفى ما للكتاب من أثر في تشكيل ثقافة أمة من الأمم إلى جانب العوامل الأخرى المؤثرة. وفي كل مرحلة من مراحل الحياة ييسر الله للإنسانية من الوسائل التي تستعين بها على مواجهة متطلبات الحياة وما يساهم في تطويرها ومتابعة مراحل النمو واستدعيمه التجمعات البشرية والتقدم الإنساني.

لقد ساهمت المطبعة الحديثة باختصار الجهد الإنساني آلاف المرات أو يزيد، واختصرت الزمن الذي كان النساخ يقضونه في الكتابة اليدوية، التي بجانب ترسيخ دائرة تعاطي الكتاب حيث كانت قلة قليلة قادرة على امتلاك الكتاب. ففي أوروبا حيث ظهرت الطباعة وتقدمت صناعة الكتب، بدأت ملامح التحول والانقلاب في عالم الكتاب وتداوله في أيدي قطاعات كبيرة من البشر، إضافة إلى تقدم صناعة الورق واستخدام لب الخشب مما وفر كميات كبيرة من الورق جيدة النوعية ورخيصة التكاليف. كل ذلك طبع أوروبا بطابع جديد متميز ساهم في تقدم المعرفة وانتشارها.

كذلك ساهمت المطبعة الحديثة وظهور كتابات متعددة بلغسات محلية عامة ، فن تكوين اللغات الاوروبية الحديثة وتثبيتها ما أدى الى اماتة اللغة اللاتينية وبرز هذه اللغات كما نشهد الآن (١) . ونسب فضون مائة عام على اختراع الطباعة ، ظهرت تحولات خطيرة في أوروبا خلقت عالما جديدا وعقلية جديدة تماما (٢) .

وكان لا اختراع الطباعة وتطورها أثر حاسم في ولادة الصحافة ، فهسب أثر من آثارها ، ومع تطور الطباعة وتقدمها تطورت الصحافة من حيث انتشارها واتساع نفوذها وتطور فن الاخراج الصحفي كل ذلك مرافق للتقدم التكنولوجي الذي صاحب تقدم أجهزة الطباعة التي وفرها التقدم العلمي بحيث أصبحت الصحافة تلعب دورا خطيرا في تشكيل الرأي العام وما تقوم به من اطلاق الجماهير العريضة على الأحداث الجارية في العالم .

كانت المطبعة في بداية الوقت آلة يدوية بسيطة تطورت الى آلة بخارية بعد اختراع قوة البخار ، ثم ظهرت الآلة الدوارة ، وفي كل حين نرى ونسمع عن ادخال تعديلات في فن الطبع وفي تقدم آلات الطبع وان كانت كلها لم تخرج عن الفكرة القديمة الاساسية للطباعة . وهكذا نرى أن تقدم الطباعة وأجهزتها قد أثرت تأثيرا شديدا في عالم الكتاب والصحافة .

دور الكتاب في نشر المعرفة :

تعتبر الكتابة فنا حضاريا خالعا ، وقد مارست الكلمة المطبوعة تأثيرها القوي في الجماهير بأشكال مختلفة . وتتميز الكلمة المطبوعة بالعمق في التفكير ، والصبر على البحث ، لأن المادة المطبوعة تحمل في طياتها

(١) ظهور الكتاب ، لوسيان فانر وهنري جان مارتان ، ترجمة محمد سميح السيد ، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ، ١٩٧٢م ، ص (٨١)

(٢) المرجع السابق ، ص ٥

الرأى المدروس ، وتتيح المطبوعات للقارىء فرصة للتأمل والتمعن فى المطبوع الذى بين يديه أكثر من مرة . وهو فى كل مرة يزداد تثبتا من الفكرة ويتمكن من قلبه وجوه الرأى فيها ، وهو ما لا يتاح للمستمع الى مذبغ نفسى الراديو او التلفاز او السمع الى محاضر أو خطيب (١) . ان الكلمة المكتوبة - اذا ما تميزت بجودة الاسلوب والعرض الجيد - لها قدرة على قيادة القارىء والتأثير فيه .

أما عن أهمية الكتاب فى مجال التأثير الثقافى وتكوين نفسية الأمة ، فلا بد أن يستعرض انتباهنا أولا القرآن الكريم الذى أحدث تأثيرا بالغا فى تكوين الأمة الاسلامية ومعتقداتها ونفسياتها ، حيث شكل هذه الأمة وطبعها بطابع خاص . لقد ربط الشعوب الاسلامية ، وشكل جسرا قويا يربط كافة الشعوب الاسلامية برباط متين ، وشكل حضارة متميزة لدى هذه الشعوب جميعا ، وكون تراثا فكريا خالدا تغلغل فى أعماق الأمة عبر القرون ، ومان وحدة هدفها وتوجهها الحضارى الفريد . ان تعاليمه قد شكلت وحدة ثقافية ومقائدية واحدة فى خطوطها العريضة . وما تفرع عن القرآن الكريم من الدراسات وآلاف الكتب التى ألقت لخدمته ساهمت أيضا فى هذا المسد الفكرى الواحد وهذه النفسية المتقاربة منذ ظهوره حتى العصر الحاضر .

لقد اعتنت الأمة الاسلامية بالكتاب عناية فائقة ، وتضافرت جهود عظماء لخدمة الكتاب ورسائله التثقيفية ، ووجهوا عنايتهم الى الورق ، ونسوا أول مصنع فى بغداد ، ثم انتشرت هذه الصناعة المهمة فى بقية أنحاء العالم الاسلامى ومنها الاندلس حيث انتقلت هذه الصناعة من هناك الى أنحاء أوروبا . وهذه المعانع سهلت صناعة الكتاب ويسرت تداوله فى المجتمع . وأنشئت دور

(١) الاعلام الاسلامى وتطبيقاته العملية ، د. محيى الدين عبد الحلیم ، مكتبة الخانجي بمصر ، ط ١٩٠٠ هـ . ص ٤٨

الوراثين لنسخ الكتب وبمعها . كما أنشئ في بغداد أول مكتبة بالمعنى المتعارف عليه الآن ، وهي مكتبة "بيت الحكمة" ، وحت على عشرات الألوف من الكتب ، ونظمت تنظيمها دقيقا ، ووضعت لها فهرس ، كما كان نظام الاستعارة سموحا به مع أخذ ضمانات لإعادة الكتب المستعارة .

يقول الدكتور عبد الحلوم منتصر في دور المكتبات في الاسلام :
 " لقد كانت الكتب قبل اختراع الطباعة غالية الثمن ، ولا يقننها الا الأغنياء ، لأنها كانت مخطوطات باهظة التكاليف ، ولذلك لجأ القادرون من محبي العلم الى انشاء المكتبات ، يجمعون فيها الكتب ، ويفتحون أبوابها للراغبين... ولقد اتفق المؤرخون على أن هذه المكتبات كانت تؤدى ما تؤدى به معاهد العلم والجامعات والجمعيات العلمية في الوقت الحاضر" (١) .

وانتشرت المكتبات في كل مكان ، في بغداد والموصل والبصرة والقاهرة ودمشق وفي مدن الأندلس ، ويتحدث المؤرخون أن هذه المكتبات كانت منظمة تنظيمها دقيقا ، ولها فهرس منظمة تنظيمها دقيقا . يقول ابن سينا : انه اطلع على مكتبة السامانيين في بخارى ، واختار بضعة كتب ، وطلب أن يطلع عليها ، فأحضرت اليه في الحال ، ويقول انه رأى من الكتب ما لم يقع اسمه قط لكثير من الناس ، وما كان رأى من قبل ولا رأى من بعد (٢) .

وكان بالمكتبات العامة والخاصة المترجمون والنساخ ... وقد روى أنه كان بمكتبة بنى عامر بطرابلس الشام ، مائة وثمانون ناسخا يتبادلون العمل ليلا ونهارا ، بحيث لا ينقطع النسخ . الى جانب عنايتهم بتجليد الكتب (٣) .

-
- (١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، د. عبد الحلوم منتصر ، مرجع سابق ، ص ٥٥
 (٢) المرجع السابق ، ص ٥٧
 (٣) المرجع السابق ، ص ٥٨-٥٩

لقد لعب الكتاب دورا خطيرا في التاريخ الاسلامي ، وكان له ابلغ الأثر في الحركة العلمية والأدبية والثقافية على مستوى العالم الاسلامي الكبير واكسب حركة التقدم العلمي التي استمرت قرونا طويلة، ولو أتمسح للمسلمين فرصة معرفة الطباعة الحديثة لكان للكتاب شأن أكثر من ذلك، نتيجة للروح العلمية السائدة في المجتمعات الاسلامية. ونرجو أن تعمود الأمة الى سابق عهدها من حب للمعرفة واكتساب العلم ، حتى يسود الكتاب في عصرنا الحاضر دوره النشط في عالم المعرفة والثقافة وحركة التقدم العلمي ، ويومئى دوره الآن من خدمة للدين الاسلامي ونشره على النطاق العالمي .

وفي نطاق موضوعنا ، فان الكتاب وسيلة مهمة من وسائل الاتصال بالجهابير، وان شاركه غيره من الوسائل الحديثة كالمصحافة وأجهزة الاعلام المختلفة ، الا أن مكانته تبقى سامية ، فهو وسيلة الثقافة العالمية ، ومن طريقه يتكون الرأي العام المشترك الذي يساهم في حركة البناء والتقدم .

وقد انتشر الكتاب في العصر الحاضر انتشارا هائلا بفضل تقدم وسائل الطباعة الحديثة ، وسهولة الحصول على الورق بكميات وفيرة جيدة النوعية ورخيصة التكاليف خاصة اذا ما قورنت بما كان عليه الحال قديما . لقد أصبح اقتناء الكتاب سهلا ميسورا لرخص ثمنه وصغر حجمه وكثرة المطبوع منه ، وانتشر التعليم من طريق الكتاب الى جميع فئات المجتمع مما ساهم في التقليل من الأمية الى حد كبير .

لقد لعب التقدم التقني دورا كبيرا في صناعة الكتاب وفي سهولة نقله من مكان لآخر من أقصى الارض الى أقصاها ، مما سهل من تبادل المعلومات على مستوى الأرض جميعها . وسهل التقدم التكنولوجي في مجال الكمبيوتر عملية التخزين وأصبح باستطاعة الانسان أن يطلع على ما يريد بواسطة هذا

الكمبيوتر ، ذلك الاختراع الانساني الكبير . وهكذا لعبت التكنولوجيا دورا كبيرا في تسهيل تداول الكتاب والاستفادة من عالم الكتب والمعرفة (١) .

لقد أدى تطور هذه الوسائل الى تبادل المعلومات بسهولة ، وانتقالها من وسط الى وسط آخر ، وهذا مجال واسع يجب توجيه العناية اليه نظرا لما يوفره من امكانات واسعة لنشر الدعوة على المستوى العالمي ، ما دام واجبا هو حمل أمانة هذه الرسالة وتبليغها الى الناس كافة . وما زال الكتاب له دور كبير في ذلك . وهكذا يكون التقدم المادي في وسائله خادما للدعوة ، يسهل انتشارها . ومن هنا يجب أن توجه الدعوة للعناية بانشاء مطابع حديثة الأجهزة مع السعى لايجاد الفنانين والكوادر الفنية القادرة على تسخير العطية من أولها الى آخرها .

دور الصحافة في نشر الدعوة :

تلعب الصحافة هي الأخرى دورا هاما في تكوين الفكر المشترك للأمة ، وفي تكوين رأى عام حيف تطلع كل صباح على الجماهير الغفيرة تطالعهم بشتى ألوان المعرفة . وقد أصبحت وسيلة ضرورية لاطلاع الناس على مجريات الاحداث العالمية والوضع السياسي في مختلف جهات العالم ، وما تنقله من تحليلات لهذه الاوضاع والاوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية . ان الصحافة وليدة الطباعة الحديثة . ولم تكن بمعناها وشكلها الحالي الا بعد اختراع الطباعة ، فقد عرفت انجلترا أول صحيفة عام ١٦٢٢م ، وصدرت أول صحيفة يومية في عام ١٧٠٢م ، أما في أمريكا فقد عرفت الصحافة

(١) الوسائل الصحفية وتحديات المجتمع الاسلامي المعاصر ،
دكتوراه / اجلال خليفة ، ط ١٩٨٠م ، مكتبة الانجلو
المصرية ، ص ٣٣-٣٥

في عام ١٦٩٠م (١). وبعد ذلك انتشرت في أرجاء أوروبا ومختلف جهات العالم. وقد ساهم في انتشار الصحافة وكثرة اعدادها، تقدم وسائل النقل وتطور نظام البريد والواصلات بشكل عام بحيث أصبحت ذات فعالية قويسة حتى أطلق عليها اسم السلطة الراححة .

وفرت التكنولوجيا ووسائل التقدم المادى للصحافة الآلات المتطورة من حيث الطباعة، فاستخدم الحاسب الالىكترونى الذى يرسل المادة الصحفية من مكان الى مكان مهما كان بعيدا عبر الأقمار الصناعية طبقا لبرنامج خاص به من قبل سكرتير التحرير، وأصبحت تظهر طبعات للصحيفة في أماكن نائية عن بعضها البعض. كذلك دخلت أشعة الليزر في موضوع الكتابة بحيث يطبع ست عشرة صفحة بمساحة واحد سنتمتر مربع من اللدائن الشفافة (٢).

لقد تقدمت وسائل التسجيل وخزن المعلومات، وهذا سيومى الاستخدام شرائط من اللدائن لتسجيل معلومات عن علوم معينة، عن أصول الكتابة أو الكيمياء الحيوية أو الجراحة، فيباع الكتاب ومعه شريط فيديو كاسيت عليه فنون الكتابة عند كبار المتخصصين، كل يشرح وجهة نظره وما عنده من معلومات، مينا بالصوت والرسوم والبيانات، الخطأ والصواب لمساعدة محبى الكتاب وفنون الأدب. وهكذا سوف يحدث لبقية العلوم الانسانية والطبيعية والتطبيقية. وسيومى هذا الى زيادة ثقافة الأفراد، وتمكين الفرد الواحد من اتقان أكثر من لغة وأكثر من علم، كنتيجة لزيادة صناعة أجهزة التسجيل وتقدمها بحيث تصبح في حجم صغير، وسوف تظهر لها العديد من الاستخدامات والتطبيقات، وتشحن جميعا من مخزن الحاسب الالىكترونى للمعلومات الذى سوف يتم استخدامه ويكثر في الاستعمالات الخاصة في المنازل وأماكن التجمع

(١) الوسائل الصحفية، د. اجلال خليفة، مرجع سابق، ص ٩

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٨-١٧١

الجاهري مثل المستشفيات (١). كما ساعد اختراع نقل الرسائل عن طريق التلفزيون في تقدم الصحافة.

وتلعب الصحافة في هذا العصر دورا خطيرا في شتى المجالات التعليمية والثقافية، وفي المجال العقائدي والسياسي والاقتصادي. وبناء على ذلك يجب العناية بالصحافة الاسلامية مادة واخراجا، والاهتمام بكل الجوانب الصحفية المطلوبة لتصبح هذه الصحافة في المقدمة بما تمتاز به من التزام الحق والخير والالتزام الموضوعية والمعالجة السليمة للاحداث، مع ابقاء الصحافة حرة لا ضغوط عليها حتى تتمكن من نشر الحقيقة بأسلوب جيد، وحسني يقبل عليها الجمهور نتيجة اكتساب الثقة والاتقان الجيد والموضوعات الحساسة التي تعالجها بنظرة العقيدة الاسلامية. لاشك أن كل ذلك سيؤدي مردوده الفعال في الاقال على هذه الصحافة وبالتالي الاقال على الاسلام الذي تتلوه هذه الصحيفة.

والمادة الصحفية شئ مهم بالنسبة للقارىء، ومعالجات الاسلام للقضايا التي تمس حياة الناس مباشرة وتسهم في حلها ضمن المنظور الاسلامي لهذا القضايا مع بيان ميزات النظرة الاسلامية عن بقية المذاهب الوضعية القاصرة من حل مثل هذه المشاكل.

ولا يفوتني هنا أن أتوه بأن الصحافة الاسلامية لا يجب أن تقتصر على موضوعات دينية بالمعنى المتبادر للذهن، ولا يجب أن تهمل فنيات الصحافة من اخراج وتبويب وما الى ذلك، ان المطلوب صحافة يعمل بها من يتخصص تخصصا عاليا في هذا المجال الى جانب معرفته بالدين الاسلامي معرفة جيدة ووعي عميق برسالة الاسلام وأهدافه في رسم الطريق السليم للبشرية في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والعلمية.

(١) المرجع السابق، ص ١٦٦ - ١٦٧

والواقع الذي نعيشه الآن هو تفوق كبير في امكانيات الصحافة الأجنبية مع قصور كبير في صحافتنا الاسلامية المتخصصة وغير المتخصصة . والسؤال الذي يطرح هنا هو ما دور صحافتنا ازاء الامكانيات الهائلة في الصحافة الاجنبية والتي تستخدمها في ممارسة غزو فكري منظم لبلاد الاسلام ؟ ان هذه الصحافة تستخدم الوسائل الحديثة التي بواسطتها تستطيع الوصول اليها وجذب الشباب خاصة الى ساحتها بما تتميز به من فنيات حديثة في وسائل الطبع والتوزيع وادعاء الموضوعية واهداء الحقيقة مع أن أهدافها المرسومة هي نزع الثقة من نفوس الشباب المسلم بهدف ابعاده عن دينه وبالتالي ممارسة السيطرة على خيرات هذه الشعوب وضمان صحتها ازاء ما تمارسه هذه الدول . ونحن في قولنا هذا لا ننكر الآثار البعيدة المدى التي وفرتها الصحافة في الجوانب الأخرى من تعليم وثقافة ومعرفة وتسهيل كل ذلك الذي أهدم الحدود ، اضافة الى اطلاق يوبي على مجريات الأحداث العالمية . ولكنها تعالج أمورنا السياسية والعقيدية بمنظار السيطرة الاستعمارية والحق على هذا الدين وأهله ، ومن يطلع على هذه الوسائل لا بد أن يخرج بهذا الانطباع الواضح رغم تخليفهم اياه بمعرض موضوعي في الظاهر .

ان هذا التأثير الكبير للكتاب الاجنبي والصحافة الاستعمارية ، كان من واقع غياب الوسائل المقروءة عندنا التي لم تتمتع حتى الآن بالشروط المطلوبة لاحداث التأثير على أبناء الأمة الاسلامية وجذبها الى ساحتها . اننا بحاجة الى اعادة نظر في وسائلنا هذه من جميع الوجوه .

أولا : يجب امتلاك كل التقنيات الحديثة في مجال صناعة الكتاب والصحافة خاصة وقد رأينا ما قدمته هذه الوسائل من تسهيلات عجيبة من حيث السرعة والانتشار . ولا يكفي هنا امتلاك هذه الأجهزة ، بل لابد من السيطرة عليها واتقان استعمالها والتحكم فيها من منافسة الدول الأخرى لتضعنا على قدم المساواة في التأثير العالمي

حتى لا يبقى صوتنا محصورا في بقعة ضيقة، لأن من واجبنا
نشر معتقدنا وفكرنا على المستوى العالمي .

ثانيا : وجود فئة متخصصة في هذه المجالات الى جانب وعيها العميق
برسالة الاسلام ودوره في قيادة الحياة مع رسم الاهداف الواضحة
لهذه الوسائل حتى ينطلق العمل بناء على تخطيط علمي سليم
منظم تنظيما دقيقا ومستويا للقضية الصحفية بصورة عريقة .

ثالثا : المنطلق الاسلامي الواضح في هذه الوسائل ، من حيث
اهتمامها بمعالجة قضايا الأمة الاسلامية ككل ، مع التركيز على
اثارة هم المسلمين للعمل على العودة الى الاسلام بشكل فعال
ومحاربة هذا السكون في جسم الأمة الاسلامية لاعادة الفعالية
الحركية لهذا الدين الذي يعمل على انشاء حضارة مثلى متقدمة
في كل المجالات العقائدية والاقتصادية والسياسية والعلمية
والثقافية والعسكرية الى آخر ذلك .

رابعا : التركيز على المفهوم الاسلامي الواسع ، وعدم اقتصار
هذه الوسائل على معالجة القضايا الدينية بالمفهوم المحدود لتخرج
الى معالجة كل القضايا المطروحة من خلال المنظور الاسلامي
للأحداث والوقائع وتحليلها بناء على التصور الاسلامي لهذه
الأحداث . فهي صحافة متكاملة لكل الشروط الفنية للصحافة من
طباعة جيدة واخراج ممتاز وتبويب وترتيب وتعليق وتحليل ، وتوزيع
سريع ، ومضمون يجذب الجمهور بعمقه ووضوح أهدافه دون ممارسة
ضغوط نفسية او عقلية على القارئ ، تخاطب الفطرة بالمنطق
والحجة والبرهان .

خاسا : التزام الحقيقة والدعوة الى التسك بها ، والتفتح بحرية
 قدرة على معالجة القضايا بصورة واضحة لكسب ثقة قطاعات
 واسعة من الأمة ومن خارج الحدود تودى الى إحداث التغيير
 المطلوب بناءً على الأهداف المرسومة لهذه الوسائل وهي تبليغ
 الحقيقة الالهية واطلاع الناس على رأى الاسلام فى قضاياهم
 وفى حياتهم .

سادسا : أن تستخدم هذه الوسائل الى جانب ذلك فى قضايا
 التعليم والتربية والثقافة واطلاع الناس على كل جديد فى عالم
 المعرفة وتبصيرهم بما يفيدهم منها وما يساعدهم على رقيهم
 الفكرى بشكل ينسجم مع رسالة الاسلام وأهدافها فى نواحي المجتمعات
 وتقدمها .

سابعا : التعدى للغزو الفكرى الاستعمارى والى الآراء والمذاهب
 الهدامة كالشيوعية والماسونية وكل المذاهب التى تسعى للنيل
 من هذه الأمة ، وتستخدم لهذا المنطق السلم والعرض المستوسب
 للدين والفهم العميق لمفاهيمه على جميع المستويات ، وتفنيد
 هذه المذاهب وهبان الخلل فى تفكيرها والقصور الذى يمتورها
 مع هبان الاساليب المتبعة عندهم لتفليل الشباب خاصة ، وضرهم
 على أوتار اثاره الشهوات والدخول من هذه المداخل الشيطانية .
 وهبان أن العلم الصحيح والدين الصحيح يتناقض مع هذه المواقف
 ولهذه المذاهب ووسائلها . اننا لا نخشى على عقيدتنا من
 مذاهب فاسدة اذا ما أحسننا عرض مبادئ الاسلام بصورة واعية
 وبالمنطق العلى السلم ، فالاسلام يتحدى كل هذه التيارات
 والمذاهب بمختلف مناحيها وجوانبيها .

ثامنا : التوجه الى فئة الشباب بصفة خاصة واستثارة همهم وزرع الثقة في نفوسهم وانهم حماة هذه الأمة والمدافعون عن عقيدتها وأرضها ، وعليهم تقع مسؤولية كبيرة في البناء والتعمير والتنمية ، كل ذلك من خلال التبشير بالموقف الاسلامي من كل هذه التشنجات وكيف عالجها معالجة سليمة تؤدي الى الخير والعزة والمهنة والسؤدد .

تاسعا : ان عدم الوعي لدور هذه الوسائل وانصرافنا عنها ، أدى الى اللجوء الى الوسائل المعادية للاقتباس منها والاطلاع عن طريقها على مجريات الأمور وبالتالي ينال من يقل على هـنـذه الوسائل جانبا من السموم التي تتضمنها من خلال ادعاء الموضوعية والتابـس بقول الحقيقة والاغراء بالمظاهر الخداعية . وكم من فرص فانتنا ولم نستعملها في أحداث وقعت بيننا لعدم ايماننا بدور هذه الوسائل . اننا لو أحسنا استفلالها لاقترب جمهورنا من دينه أكثر ولتوجه اليه عن قناعة عميقة بأنه هو الملجأ الوحيد للخروج من كل المصائب والآلام التي تلف هـنـذه الأمة المبتلاة بشتى أصناف المشاكل والاعداء . كان من الواجب التوجه الى ربط الاحداث بالنطق الالهي والدعوة اليه واجتماع الأمة على توحيد فكرها الأصيل وبیان موقفه من هذه الاحداث وطريقة معالجته لها وأنه المنقذ الوحيد لهذه الأمة وخلصها ، وهو جامع شتات هذه الأمة وموحدها مع ربط كل ذلك بفقرات التاريخ الاسلامي السابقة لاستنهاض الهمم وتجميع القوى لتصحيح المسار الخاطيء الذي نتردى فيه .

وهكذا نرى أن الكتاب والصحافة المقروءة إذا ما اتخذت خططا واضحة واهدافا سليمة يرسمها الاسلام، واستغلت جميع الامكانات المادية المتاحة لاجراء عملها بشكل متوازن، فانها تؤثر في المجتمع لاشك فسي ذلك. ان الافعال على هذه الوسائل أمر يجب أن يسعى اليه بكل الوسائل المشروعة، لأنها لا تكون في فراغ وليس لها أثر الا بجمهور يقبل عليها. وإذا ما تحقق ذلك، فان فكر هذه الأمة سيتشكل - بمساعدة الوسائل الأخرى - وفق هذا الهدف المرسوم، ما يساعد في تقوية معتقد هذه الأمة ويقوى من وحدتها، وينسج فيها روح المسؤولية تجاه هذه العقيدة وما تتطلبه في واقع الحياة من ممارسة وفق ارادة هذه العقيدة وتوجيهها. وهذا هدف عظيم يجب أن تتوجه اليه وسائلنا المقروءة لتحقيقه.

انه لا ينبغي أن تترك صحافتنا تملأ صفحاتها بكل ما هب ودب - تقليدا للغير - من أخبار عن أحداث الأزياء العالمية وشذوذ الغرب في عاداته وتقاليد وأفعاله، الى جانب الاخبار التي تتعذر الصفحات الأولى عن الفنانين وتنقلاتهم. اننا بحاجة الى عرض مواضيع تهتم الأمة الاسلامية ككل، وتعالج قضاياها الشائكة وهمومها اليومية، بحيث تنمى روح المسؤولية لا أن تسعى لقتل هذه الروح بمعرضاتها السخيفة وبخاعتها الرخيصة. ويجب التوجه الى الكتاب بحيث تنتقى مادته وتركز معلوماته بما يفيد حياة الأمة في نكرها وعقيدتها وتقدمها العلمي وثقافتها العالية، وان لا يسمح للكتب الرخيصة بالتداول ومعرضاتها التافهة بترجمات غريبة شاذة تهتم بالجنس والافكار الهدامة التي تنال من روح الأمة وسوها.

يجب أن نسعى للسيطرة على كل الوسائل التكنولوجية الحديثة من النواحي العلمية والفنية وأن نتحكم في المضمون الذي ننشره حتى يتوجه الى الافادة وتقديم العبره النافعة فالذي يتمكن من الوسائل التكنولوجية

الاعلامية الحديثة ، يستطيع السيطرة على المحتوى ، وبالتالي يمكنه استخدام هذا المحتوى . وحتى نخرج من السيطرة الحالية للوسائل المعادية سواء كانت سموعة كالمذياع والتلفاز أو مقروءة كالمحافة والكتاب ، الى جانب ما تقوم به وكالات الانباء العالمية من احتكار للمادة الاخبارية - ينهض انشاء مؤسسات صحفية اسلامية بجميع تخصصاتها وامكاناتها ، حتى يكون لها كيان مستقل وقادرة على الحركة واسماع صوتها للعالم بفعالية وكفاءة ويسدون أن تستطيع الدول المسيطرة على أجهزة النشر العالمية من أن تمارس ضغوطها عليها . واذا ما نفذ ذلك فانه سيتمح فرصة عالمي للاطلاع على الاسلام بشكل فعال وستكون المقارنة بين هذه الوسائل الاسلامية المتكاملة في النواحي الفنية وما تتضمنه من معلومات ومعالجات لا تستهدف سوى الحقيقة والسلوك المستقيم ، وبين غيرها من الوسائل العالمية ذات جدوى ومردود يخدم الحق والدعوة اليه وقوله . انه بدون ذلك نكون قد ساهمنا في قوة تأثير الصحافة الأجنبية وفرضها لآرائها ومعتقداتها على العالم الثالث خاصة وبالتالي تحقيق الهيمنة والسيطرة التي يسمي اليها بكل وسائله . وهذا مرفوض في المبدأ الاسلامي لأن السيادة يجب أن تكون للحق ، وواجبنا هو القيام بنشر هذا الحق وجعله المسيطر والمهيمن . هذا هو دورنا فهل نقوم به؟

ان المواقف السلبية التي يتخذها البعض من الوسائل التي وفرتها العلوم الحديثة وتطبيقاتها ، بمقاطعتهم وانصرافهم عن الكتابة فيها ، يلحق أكبر الضرر بالدعوة الاسلامية ، ويفسح المجال لفئات أخرى تنفذ سمومها دون أن تجد في طريقها من يقاومها مقاومة ايجابية . ومن جهة أخرى فان هذه الأجهزة الحديثة من سجلات وأشرطة وفيديو ساهمت في تقديم المعرفة بمختلف أنواعها ، وساهمت في نشر العلم والثقافة على المستوى العالي . فقط

يتطلب الأمر منا في احسان استخدامها في الأمور المفيدة وتحقيق الأهداف النبيلة. وأعتقد أن هذه المواقف المعادية لاستخدام هذه الوسائل من واقع استخدامها في الغالب فيها يفسد الأخلاق.

والواقع أن ذلك يعود لطبيعة المادة المعروضة التي من الممكن التحكم فيها، عدها لن يشك انسان في قيمتها، ومدى ما تحققه من خدمات متقدمة. ومثال على ذلك ما نلسمه من استخدام لبعض هذه الوسائل من قبل وزارة المعارف السعودية لخدمة الاهداف التعليمية التي ساهمت في تقريب هذه العلوم والثقافات الى أذهان الطلاب. كذلك استعمال الجامعة للتلفاز في القاء محاضرات في أسام البنات عن طريق دوره مغلقة.

وهكذا نرى أن هذه الوسائل التي وفرها التقدم المادي قد خدمت أهدافنا نبيلة لا يسع أحد انكارها.

وسائل المواصلات الحديثة وتسهيلها عمل الدعاة

منذ ظهور الانسان على مسرح الحياة في الأرض سعى الى التقليل من اذنه الحاجة الى تأمين فوائده ، ووسائل حيا الاطلاع والمعرفة . وهذا التقليل أكسبه معرفة بأماكن جديدة ، ومع مرور الزمن وتكاثر الجنس البشري ، بدأ يحرر مساحات من الأرض الواسعة يستغلها في الزراعة والرعي . ومع تقدم الزراعة وتربية الحيوان ، سعى الى تبادل المنافع مع الآخرين ، ولا يكون ذلك الا بالتقليل ، وذلك بسداد في السعي الجاد عن وسائل نقل أكثر فعالية من القوة العضلية ، فبدأ باستخدام الحيوانات لهذا الغرض . ومع التطور الحضاري البطيء ، بدأ يفكر بوسائل جديدة ، حتى انتهى الى استخدام المجلة التي بواسطتها أصبحت الحركة سهلة وميسرة ، وذلك بدأ عصر جديد في وسائل النقل ، وقفزة كبرى بالنسبة الى تلك العصور .

وفكرة المجلة هذه ، مازالت الى يومنا هذا تستخدم على نطاق واسع ، وهي الأساس في المواصلات الحديثة من سيارة وقطار وطائرة . وذلك فقد شكّل اختراع المجلة إضافة مهمة من وجهة النظر الحضارية لتطوير وسائل المواصلات وتسهيلها .

وانذا انتقلنا الى العصر الحديث ، فاننا نشاهد ثورة في عالم المواصلات ، وقفزة كبرى هائلة . فقد هبّ الله للانسان في هذا العصر من وسائل المواصلات ما يناسب حاجة الناس والتجمعات البشرية ، وما تقتضيه ظروف الحياة والتبادل التجاري الواسع النطاق ، فكان تطوير المواصلات يواكب التقدم الحضاري للانسانية بما يسهل عليها أمورها ويوافق طبيعة الظروف المتغيرة والاحتياجات المتطورة . ولا نستطيع أن ننصّر هذه الاهداد الهائلة من البشر والتجمعات الكبرى وحاجتها الى تبادل المنافع والمصالح بدون وسائل مواصلات فعالة تتوفر فيها السرعة والسهولة .

ومن واقع التقدم الحضارى وحاجد الانسان الى وسائل سريعة ، بدأ الانسان فى التفكير الجاد لتطوير الوسائل القديمة ، وبدأت هذه الوسائل فى الظهور براً وبحراً ، فكان القطار والسكك الحديدية التى ساهمت فى حركة النقل الواسعة للبضائع والمنتجات الزراعية والصناعية وللأفراد ، ما أدى الى تقريب المسافات وسرعة العبء والتأثير الثقافى ، وغير ذلك من الآثار العميقة لحركة النقل المتقدمة .

ثم ظهرت السيارة كوسيلة من وسائل النقل البرى ، واحتاج الأمر الى تعبيد الطرق ورصفها لتسهيل الحركة عليها ، وتأمين السرعة المطلوبة . وذلك يكون الانسان قد حقق قفزة كبيرة فى عالم المواصلات ساهمت فى تشكيل المجتمعات الحديثة ، ولدى انشاء المدن الكبرى وسرعة التأثير الثقافى . واكبر كل ذلك استغلال مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية ، وتشغيل الحركة الصناعية نظراً لسهولة النقل الى أماكن بعيدة . ولولا هذا التقدم فى المواصلات لما حصل كل هذا التوسع فى كل هذه العيادى المختلفة .

أما التنقل فى البحار والمحيطات ، فقد تطورت هى الأخرى من سفن تسير بقوة الريح صنوعة من الخشب ، الى سفن صنوعة من المعادن تتميز بالخاصة ، وتسير بقوة البخار والوقود ، وأخيراً بالطاقة النووية . وقد ساهمت هذه الوسائل الحديثة فى حركة التنقل البحرى ، وأخذت تجوب البحار والمحيطات تنقل المسافرين وتحمل البضائع والصنوعات والمنتجات الزراعية .

بعد أن حقق الانسان هذه الانتصارات فى البر والبحر ، بدأ يتطلع الى الفضاء ، وأخذت المحاولات تتكرر الى أن استطاع الانسان الطيران فى الجو بشكل فعال . وقامت أول رحلة جوية عبر الأطلنطى عام ١٩١٩ م بعد ست عشرة ساعة طيران قطع فيها الطياران اللذان قاما بهذه الرحلة ألفاً وتسعمائة ميل .

وهكذا تم صير الاطلنطي بعد ستة عشر عاما من اختراع الطائرة . وهذا زمن قصير نسبيا ، في الوقت الذي استغرقت فيه الجهود لتطوير السفن والسيارة أكثر من ذلك . وظل الانسان في سعي دائم لتحسين هذه الوسائل عاما بعد عام ، ونحن نلمس التقدم في هذه الوسائل في زمن قصير نسبيا ، بحيث توفرت فيها عوامل الراحة والسرعة والاتقان الفائق .

وترجع أسباب تقدم المواصلات الى العوامل التالية :

- أولا : البحث عن الغذاء لدى المجتمعات البسيطة .
- ثانيا : ترويج التجارة الإقليمية والدولية أوجب السعي لوسائل حديثة يتوفر فيها عامل السرعة ووفرة الحمل .
- ثالثا : تقدمت هذه الوسائل لخدمة أهداف سياسية وعسكرية للدول المختلفة .
- رابعا : تطلب الحاجة الى السفر لأفراض شتى ، من زيارة الأماكن مقدسة أو سياحة وترفيه ، أو بقصد التحصيل العلمي وغير ذلك .

هذه هي أهم العوامل بشكل عام التي دفعت الانسان في مختلف العصور . ونرى أن حاجة الأمة الإسلامية لطلب هذه الوسائل كان بالإضافة الى ذلك حاجة المسلمين الى نشر الدين الاسلامي والدعوة اليه في بقاع الأرض المختلفة .

ويشهد على ذلك رحلاتهم وتقلاتهم الواسعة في مختلف الأرجاء ، في السلم وفي حرب . وأن كتاباتهم الجغرافية كانت بهذا الصبح الاطلاع على البلدان والأقاليم بقصد معرفتها وحصرفة مكانها لبع الدعوة بينهم . وكانت هذه الجهود تذل على نطاق الدولة أو الافراد وذلك من واقع الشعور بالسؤولية تجاه دينهم وأمتهم .

واستمرت الجهود البشرية في سبيل الحصول على أفضل وسائل المواصلات

وأبصرها .

بعد أن حقق الانسان نجاحات واسعة في عالم الطيران ، بدأ عصر الصاروخ والمركبة الفضائية . وقد حقق أول وصول للقمر عام ١٩٦٩ م في الرحلة الشهيرة التي قام بها الأمريكان . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بحثت بمركبات الى الفضاء العميق ، الى المريخ والى كوكب الزهرة ، وبحثت بمسائل الى الكواكب البعيدة يستطلع الأخبار ، سعياً وراء الحصول على معلومات جديدة من الفضاء الواسع والكواكب البعيدة .

هذا هو طموح الانسان في عالم المواصلات ، يسخرها في سبيل مصلحته وفي سبيل تقدم المعرفة . انه بالعلم يستطيع الانسان تسخير الموجودات التي خلقها الله لمعالج وجوده وتسهيل أمره ، وارضاه لطموحه الذي لا يقف عند حد ، بل يستمر في سعيه الدائب .

والآن نعود الى القرآن الكريم نستقري آياته التي تخص وسائل النقل واستعمالها لمعالج الانسان . فقد امتن الله سبحانه وتعالى على الانسان بهدايته له باستخدام الحيوانات كوسائل مواصلات يستعين بها على قضاء حاجاته ، وتسهيل أمر تنقلاته ، وحمل أمتعته سعياً لجلب الرزق وطلب المنفعة وما يدفع عنه المشقة وأعباء التنقل .

قال تعالى : * والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون * (١)

وقد استنتج الدكتور الخراوي من قوله تعالى في نهاية الآية (ويخلق ما لا تعلمون) أن الله قد دل على المخترعات الحديثة ، وأنه سيسهل أمور المواصلات بخلق وسائل جديدة سريعة تحل محل الوسائل القديمة نظراً لحاجة الانسان الواسعة الى هذه الوسائل .

(١) النحل : ٨ .

ان تقدم وسائل المواصلات وتطورها يتيح التطور الحضارى عند المجتمعات البشرية ، والله سبحانه وتعالى يسر للانسان فى كل مرحلة من مراحل حياته ما يسهل عليه اُمورها . ولولم يحصل تقدم فى وسائل المواصلات بما يساوى تقدم الانسان فى المجالات الأخرى لحدث خلل كبير فى توفير الحاجات وتبادل المنافع مع الآخرين . والأمر بيد وعندها صعب التصور وفى غاية التعقيد .

ان الغفل كله يعود الى الله سبحانه وتعالى فى تطور وسائل المواصلات ، وذلك بما أنعم عليه من نعم ما يفتق . وتتخل هذه النعم بصور شتى .

أولاً : امتن الله على الانسان بتسخير ما فى السماوات وما فى الأرض ، ولولا هذا التسخير والتطويح لاقتصر علم الانسان على الناحية النظرية ، ولما استطاع تطبيقها ولا اختراها فى الناحية العملية .

قال تعالى : " وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً ^(١) "

ثانياً : بعد هذا التسخير العام ، امتن الله علينا بتذليل سطح الأرض والبحر للركوب .

قال تعالى : " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فاشقوا فى مناكبها
وكلوا من رزقهِ وإليه النشور . " ^(٢)

وقال تعالى : " وترى الفلك مواخر فيه ولتتفنوا من فضله ولعالمكم
تشكرون " ^(٣) .

وقال تعالى : " ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجري
فى البحر بأمره " ^(٤) .

-
- (١) الجاثية : ١٣ .
(٢) الطسك : ١٥ .
(٣) النحل : ١٤ .
(٤) الحج : ٦٥ .

وما خلق الله من مواد الأرض ومناصرها ، جعلها على صفات وخواص تجعلها صالحة لكل ما يعمل الانسان منها لتحقيق اغراضه ومنافعه . ولولا التسخير ما استطاع الانسان اختراعا ، ولا حقق استفادة ما حوله ، ولعاش كما يعيش الحيوان يأكل ويشرب ولا يزيد .

ثالثا : ان الله سبحانه وتعالى هو خالق الاختراعات ، وان خلقها على يد الانسان بهدى الله وتعليمه .

قال تعالى : "قال أتعبدون ما تتحتون والله خلقكم وما تعملون" (١) .

" فان كان الله سبحانه هو خالق ما عمل قوم ابراهيم من أصنام ، فهو سبحانه أيضا خالق ما عمل الانسان ويعمل من اختراعات ، ولنذكر انما القاعدة الاصولية ، قاعدة أن الصبرة بصوم اللفظ لا بخصوص السبب" (٢)

والسفن من صنع الانسان ، ومع ذلك فقد من الله على الناس بتسخيرها لهم ، لما أودعه من سنن ، سهلت له عملية الاستفادة . فقايسون طفوس الأجسام هي سنة من سنن الله ، ولولاها لخرقت كل سفينة ، وحطل كسل اختراع للإنسان . وجرى السفن في البحر يحتاج مع الطفو الى قوة دافعة ، ولقد من الله على الناس بالريح في اجراء السفن حيث كانت الريح هي القوة الدافعة الكبرى ، كذلك النار التي اتخذها الانسان وسيلة لدفع السفن عن طريق ضغط البخار ، فقد من الله على الانسان بأنه أوجد لها ما يجلسار ما يحترق .

قال تعالى : " ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور" (٣) .

(١) الصافات : ٩٦،٩٥ .

(٢) الاسلام في عصر العلم / مرجع سابق / ص ٤٣٦ .

(٣) الضوى : ٣٣،٣٢ .

وقال تعالى : * أفأرأيتم النار التي تورقون ؟ أنتم أنشأتم شجرتها لها
أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للذوقين فسيق باسم ربك
العظيم * (١) .

فلا يقدر على تحريك الريح وإسكانها إلا الله . كذلك النار التي
اتخذها الإنسان وسيلة لدفع السفن ، فقد من الله على الإنسان بأن
أوجد لها ما يهبها ما يحترق . . .

* وكما أن الفلك قد سخرها الله للإنسان مع صنع الإنسان لها ،
فكذلك غيرها من اختراعات الإنسان سخرها الله له بهداه إلى صنعها من
ناحية ، ولجربها على سنة أو سنن الله فيها من ناحية أخرى . وليس هناك
اختراع إلا وهو يجري على سنة لله لولاها ما جرى وما كان * (٢) .

رابعاً : انه يهدي الله وتوقيفه وتعمليه تتم هذه الاختراعات وهذه الاكتشافات ،
هأنه تعالى يملكها الإنسان ويستخدمها .

* والآنسان بحسب اختراعاته ويقدرها بما علمه الله ، ويمنعها
ويقتنها بما أقدره الله ، لكن ذلك لا يتحقق ولا يكون إلا في الوقت الذي
قدره وأراده الله ، فسبق انسان انساناً أو أمة إلى علم أو اختراع ، ذلك
كله ، كما قدر الله كنهه وكيفه ، قدر زمنه ، لحكمة يعلمها ، تجلي منها
ما تجلي ، وسيتجلى خافئها بعد للناس * (٣) .

والمسلمون في تاريخهم المشرق ساحوا في الأرض ، وشوا في مناهجها
حاطين معهم رسالة الاسلام إلى الناس جميعاً ؛ ركبوا البحار وقطعوا الفياض
والقفار مستخدمين وسائل المواصلات المتوفرة من حيوانات الركوب والسفن

(١) الواقعة : ١١ - ٧٤ .

(٢) الاسلام في عصر العلم / مرجع سابق / ص ٤٣٨-٤٣٩ .

(٣) المرجع السابق / ص ٤٣٦ .

الشراعية سواء في حرب أو سلم . بل طُوروا في هذه الوسائل ما وسعهم الجهد . واخترعوا البوصلة البحرية لتهد بهم الى معرفة الجهات ، وكان الهدف الرئيسي من سياحتهم في أقطار الدنيا هو نشر رسالة الاسلام . وهكذا يجب أن يفسر تاريخ الجهاد الاسلامي كله ، حيث أزالوا عن طريق الحرب أو معاهدات الصلح ، السلطة المتحكمة في رقاب العباد وقولهم ، حتى اذا ما أزاحت هذه الكوابيس ، تركوا الناس في حرية تامة لاعتناق الاسلام أو البقاء على أديانهم دون ممارسة أي من الضغوط ، وذلك أنه لا اكراه في الدين .

ونظرا لحاجة الدولة الاسلامية لتنظيم شؤونها ، فقد اقتضى الأمر معرفة المسالك والمسالك لدراسة أنحاء هذا الطلك الواسع والتعرف عليه ، ولتنظيم شؤون الخراج ، وتبادل الحاصلات الزراعية والصناعية ، والى تنظيم البريد ووسط البلاد بعضها ببعض ، وخاصة بمركز الدولة والخلافة . ومن هنا نشطت الرحلات والبعثات ، واشتهر من بينهم رحالة عرفوا في التاريخ بما دونوه من الكتب وصفا لهذه البلاد في داخل حدود الدولة الاسلامية وخارجها ، " ودرسوا المسالك المؤدية لهذه البلاد تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة بين سكانها ، ولتوثيق الروابط بين السلطة المركزية وبين حكام الأقاليم " (١) .

وقد اشتهر في الدولة الاسلامية في عهد الأمويين والعباسيين نظام البريد الذي بدأ تنظيمه في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وازداد تنظيمه في عهد معاوية بن أبي سفيان . أما في عهد الخلافة العباسية ، فقد وصل الأمر الى تنظيم هذه الشبكة الرائعة من الخطوط البريدية في أنحاء الدولة ، وتجهيزها بالخيول الجيدة المخصصة لهذا الغرض ، فكان الخطاب ينطلق كالسهم من بلدة على حدود الصين ، حتى يصل الى بغداد دون أن يتوقف في الطريق وهو منطلق

(١) تطور الفكر العلمي للمسلمين / محمد الصادق ضيفي / مكتبة الخانجي بالقاهرة / ١٩٧٧م / ص ٢٥٤ وهو يذكر ذلك عن كتاب "الجغرافيون العرب للشهابي" .

بسرعة مد هشة محتسبا زمن وصوله بالساعة واليوم (١) .

وقد نظم استخدام الحمام الزاجل الذي يشبه التضاريف في العصر الحاضر من حيث السرعة ، ووضعت محطات لهذا الحمام للاستراحة ، ومن ثم مواصلة الرحلة . هذا بالإضافة الى استعمال النار حيث قضا من مركز الى مركز حتى تصل الى دار الخلافة بسرعة كبيرة وذلك عند الأمور الخطيرة التي تستدعي سرعة التبليغ . وذلك نرى أن الدول الإسلامية قد استخدمت حتى الوسائل في عالم المواصلات وأولتها العناية الفائقة في سبيل خدمة الدولة وقضا مصالحها في زمن السلم أو الحرب .

ان الدافع الأول لتثقل المسلمين كان من واقع ايمانهم بواجب التبليغ لهذا الدين على مستوى الدولة والأفراد ، بالإضافة الى حاجتهم للتثقل من أجل الوصول الى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث المسجد ، فاحتاجوا الى معرفة الطرق والمحطات المعدة للاستراحة . وذلك نشأت المعرفة الجغرافية ، وظهرت مؤلفات كثيرة في هذا المجال .

وهكذا نرى أن المسلمين قد وجهوا عنايتهم الى وسائل المواصلات ليستعينوا بها على التثقل من أجل هدف ديني نبيل وهو نشر الدعوة الإسلامية وأداء مناسك الحج . هذا بالإضافة الى مصالح أخرى كثيرة ما همت في حركة التثقل كالمصالح التجارية وتبادل المنافع والرحلة في طلب العلم .

والآن ، بعد هذا التقدم الهائل في عالم المواصلات ما نشهده الآن ، ونستخدمة في تنقلاتنا وأسفارنا ، فاننا بحاجة ماسة لا تملك هذه الوسائل وتوجيه العناية بها خدمة للدول الإسلامية في حفظ كياناتها وأمنها ، والمحافظة

(١) نظام البريد في الدولة الإسلامية / د . نظير حسان سعداوى / ١٩٥٣ م
دار مصر للطباعة ص ٥ .

على مصالحها الاقتصادية ، وتسهيلا لتقلل الدعاة في شتى الأقطار . فقد وفرت هذه الوسائل كل أسباب الراحة واختصار الزمن في الوقت الذي كان يلاقي فيه الدعاة قدما المشاق والمصاعب الجمة قبل اكتشاف هذه الوسائل .

ولكن لو نظرنا الى أمر انتشار الدعوة والنشاط في سهيل نشرها قد يمسا وحديثا ، لرأينا أن ما قدمه أسلافنا في هذا السهيل أضعاف ما قد شاء في العصر الحاضر رغم توفر هذه الوسائل الآن . ان الأمر يبدو في طبيعة الحركة القويمة والايان الصادق في نفوسهم ، ولو اجتمع لنا هذا الايمان مع هذا التسهيل الكبير في هذا العصر الذي وفرت وسائل المواصلات الحديثة ، لأحدثنا حركة مهمة في شأن انتشار الدعوة على النطاق العالمي .

اننا عن طريق هذه الوسائل المتقدمة نستطيع بلوغ أقصى أقطار الأرض للقيام بواجبنا نحو التبليغ والدعوة وايصال هذه الرسالة الى شعوب الأرض .

ان رحلاتنا الى أقطار عديدة بغصد التجارة والملاج والترفيه نشيطة ، ولا نجد صعوبة في ذلك مهما بعدت الشقة ، ولكن الرحلة للدعوة الى الله تهد وقاصرة عن كل ذلك الى حد بعيد . وما ذلك الا لقصور في حركة الدعوة ، وان كنا نستثنى بعض الجهود التي تمارسها دولنا الاسلامية أو أفرادا وهبوا عطيم لله ، ان المطلوب هو حركة منظمة لهذه الدعوة ، ونرجو أن تقوم دولنا الاسلامية بخطوات عملية فعالة ، وأن تتبنى هذه الدعوة بصورة منظمة ومزيد من الدعم والانفاق بسخاء عليها . وستكون النتائج بالغة الأهمية باذن الله ، وان كنا لا ننتظر ظهورها بصورة سريعة .

ان هذا العصر الذي يصطرح فيه الآراء والذاهب البعيدة عن ضهج الله ، وحد طول هذه الغربة عن الله ، بدأت الفطرة من جديد تتلص طريق الحسق ، وهذه فرصة للدعاة الى الله ليرزوا جهودهم على النطاق العالمي لتقدم الاسلام .

لكل هؤلاء عسى أن يعودوا إلى الله سبحانه وتعالى . وذلك أمر نبي غاية الأهمية .

وهكذا نرى أن وسائل المواصلات الحديثة وكذلك وسائل الإعلام وهنسى من نتائج التقدم العلمي التكنولوجي من الممكن أن تساهم - إلى جانب خدماتها المتعددة - بأمر الدعوة وانتشارها ، حيث وفرت الجهد والزمن . فهل نستغل هذه الوسائل ونستخدمها فيما يعود علينا بالفائدة الدينية والأخرية ؟

- - - - -

الغائبة

- نتائج البحث
- المقترحات

((نتائج البحث))

عند ما تناولنا بالبحث موقف الدعوة الإسلامية من التقدم المادي ، كان على أن أبدأ بموقف الإسلام من العلم ، لأن العلم هو أساس التقدم المادي وهو ركيزته الأولى لأنه بدون السير في طريق علم سليم لا يتحقق هذا التقدم بالمعنى الذي ذكرته في المقصود من التقدم المادي .

وقد رأينا أن الإسلام يحض على العلم بشموله لأنه ضرورة من ضرورات الحياة للنهوض على جميع المستويات لتحقيق مصالح الأمة الإسلامية ودعم قضاياها .

وعند ما يكون العلم في خدمة الحق وفي خدمة المجتمع لا بد أن يرتبط بالأصل العقدي حتى لا ينفلت ويشكل خطورة على المجتمعات من حيث أريد به جلب المنفعة ودرج الضرر .

وهذا . بحثنا لموقف الإسلام من العلم تبين لنا مدى أهمية هذا العلم في نظر الإسلام ودعوته منذ بداية الطريق إلى سلوك طريق العلم بعيداً عن الظن والتخمين والتقليد الأعمى والتعصب للرأى إلى آخر كل ذلك .

ولم يكف الإسلام بالبحث على العلم ، بل إنه رسم معالم الطريق العلمي السليم بما يسمى " المنهج العلمي " وهو المنهج التجريبي . وقد رأينا خطوات هذا المنهج واضحة من خلال استعراض كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . وذلك يكون الإسلام قد فتح الطريق واسعا إلى تقدم المعرفة الإنسانية وانطلاقها الكبير للكشف عن سنن الله في هذا الكون .

لقد سلك المسلمون هذا الطريق نظراً لتأثرهم بالقرآن والسنة ، واتضح معالم المنهج التجريبي في أبحاثهم ودراساتهم ولم يقتسوه من أي جهة أخرى لأن خطوات هذا المنهج لم تكن موجودة قبل ظهور الإسلام ، لا عند اليونان ولا عند غيرهم من الأمم . وهذا البيروني العالم الكبير يبين في مؤلفه " تحقيق ما للهند من حكمة مقبولة في العقل أو مرذولة " أن عند الهنود علما ولكنهم

ستفرق لا يجمعه جامع وأن عند اليونان طما بالكليات وليس عند هم ما لدى الهنود من جزئيات كثيرة ، واختار لنفسه طريقا آخر تتميز كته جميعها بخطواته ، ألا وهو المنهج التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة . وهذا المنهج واضح عند كثير من العلماء المسلمين من ذكرنا في فصول هذه الرسالة أولم نذكر كجابر بن حيان وابن الهيثم والرازي وابن سينا .

ان الفضل في كشف هذا المنهج يعود الى الاسلام نفسه الذي استقى منه طوائنا خطواته ، وذلك حققوا السبق في مجال حيوى جدا أدى الى تقدم العلوم بسرعة كبيرة ، خاصة عندما انتقل هذا المنهج الى الغرب وحققوا من طريقه تفوقهم الكاسح كما نشهد في هذا العصر .

لقد أحدث القرآن الكريم ثورة فكرية شاملة على جميع المستويات بدءا بمقيدة التوحيد وآثارها البالغة في تحرير الفكر الانساني ، ومرورا بمقائده الأخرى وتشريعاته المتعددة التي فطمت مساحات الحياة كلها ، وانتهت برسم معالم طريق المنهج التجريبي ، طريق العلم الصحيح .

ان هذا الايضاح لموقف الاسلام من العلم ودعوته اليه مهم جدا حيث يشكل المدخل الصحيح لفهم الموقف الاسلامي والدعوة الاسلامية من قضية التقسيم المادي .

لقد جاء الاسلام ليكون خاتم الأديان السماوية ، ورسالة عامة لجميع البشر ، وجاء في زمن بدأ التهيؤ فيه لقبول الرسالة الخاتمة ، وكان القرآن يمثل المعجزة الدالة على مر العصور . وقد رسم الاسلام الطريق المستقيم للإيمان الصحيح وحالج قضايا الحياة جميعها من سياسة واقتصاد واجتماع ولم يدع ناحية من نواحي الحياة الا رسم خطوطها وأبان عن أصولها ، وقد رسم العقيدة بكل دقائقها وتفصيلها وكذلك العبادات ، وترك للبشر مجال الاجتهاد في الجزئيات الأخرى

حسب مقتضيات كل عصر ومتطلباته . وما دام الاسلام هو الرسالة الخاصة بالصالح لكل زمان وكان والمهيمن على الحياة ، كان لابد أن يوجه الاهتمام الى المسألة المادية كما وجه الاهتمام الى المسألة الروحية . ان كون الاسلام ضيق حياة البشرية لا يمكن أن يترك المسألة المادية دون عناية ، من هنا نلحس اهتمام الاسلام لهذه القضية منذ بداية الطريق حيث صحح وضع الانسان نفس الكون المادي وسخر له موجودات الكون وطالبه باعمار الأرض وحثه على ممارسة العمل ، وكان لابد لكل ذلك من علم وتخطيط منضبط . وفي مقابل ذلك أوجد لدى الانسان قدرات عقلية وجسدية كفيلة بالقيام بهذه المهمة ، مع الارتباط الدائم بالله سبحانه وتعالى والتقيد بمنهجه حتى تتجمع الجهود في تيار الخير ولصالح حياة الانسان دائما .

لقد رأينا كيف حث الاسلام على طلب العلوم النافعة ، لأنها تساعد الانسان في كشف السنن المودعة في كون الله وتساذه في أداء مهمته كخليفة في الأرض مطلوب منه اعمار الكون كما يريد الله . وطالب الاسلام الانسان المؤمن بالعمل الصالح والزراعة وتأمين الغذاء والمحافظة على الصحة والتحقق بالقوة العسكرية واهداه القوة حسب مقتضيات كل عصر . وقد وردت آيات كثيرة توضح هذه القضايا وتحث على سلوكها تحقيقا للخير وحماية الدولة الاسلامية ودموتها وتحقيقا لصالحها الدينية والأخرى .

أما حاجة الدعوة الاسلامية للتقدم المادي فقد تبين لنا من خلال البحث أن هذا التقدم المادي ضروري للدعوة من عدة وجوه :

أولا : الرد على مفترقات الاديان بأن هذا الدين هو دين آخرى لا علاقة له بالحياة ولا يصلح لقيادتها وسابرة تطوراتها وأحوالها المستجدة . وهذا الغرض محض ، ان انطبق على غيره من الاديان فلا ينطبق على الاسلام بالذات ، خاصة وأن الاسلام لم يهمل ناحية من نواحي الحياة

الا وقد اهتم بها ورسم معالمها ووطئها بالمادى، الاسلامية .

اهتم بالناحية الروحية والناحية الجسدية ولم يهتم طرفا منها حتى تكامل الحياة على الشكل الا مثل . وهذا الأمر يهم الدعوة الاسلامية غاية الاهمية ، ومما عدها على عدم قضاياها على المستوى العالى ، لأن الناس لا يهتمون على دين لا يهتم بشؤون حياتهم .

ثانيا : التقدم المادى ضرورة من ضرورات الحياة البشرية ، ولا يكسب الاستغناء عنه .

من منا لا يطلب العلاج لداء ألم به ، من منا لا يحتاج الى صناعة والى زراعة والى توفير غذاء وما ؟ من منا لا يسعى لتحسين ظروف حياته وتوفير الراحة له من مشاق الحياة ؟ فاذا كانت الدعوة الاسلامية تقف موقف الداعم لهذه المتطلبات وتكشف عن منهج الاسلام فى طلبه وأهدافه من وراء ذلك ، فان فى ذلك صلحة للدعوة من حيث اهتمامها بهذه الامور الحيوية فى حياة البشر .

ثالثا : ان التقدم المادى فى مجال التصنيع الحرسى بشكل الدعم القوسى للأمة الاسلامية وبشكل حماية للدعوة وبسبب أمر نشرها واعتناقها . ان الموقف الضعيف باعث على الاستهانة بينما القوة تبعث على الاعجاب ما يدع الشعوب تفكر فى هذه الدعوة ، وذلك بسبب عرضها وقبولها .

رابعا : ان التقدم العلمى بشكل نقطة انطلاق مهمة لاثبات قضايا الدين الاسلامى نفسه فى عصر وصل التقدم العلمى فيه الى أرقى المستويات ، هذا العلم نفسه يثبت بمنطقه السلم ان الدين الاسلامى هو من عند الله ، لأنه دين لا يخشى العلم ، بل ان العلم نفسه يقصر عما جاء فى الدين الاسلامى من حقائق تتعلق بالنفس والكون . وهذا فى صالح الدعوة الاسلامية ما يعنى أن الاسلام دين صادق وليس من عند البشر

انما هو من عند خالق البشر .

انه من خلال منطلق علمي سليم نستطيع اثبات قضايا الدين ونفس الاملوب العلمي القبول لدى قطاعات واسعة من البشر خاصة في هذا العصر الذي يتفق فيه كثير من الناس على أهمية العلم وتدبير قضاياها .

خامسا : الاستعانة بهذا العلم لا يفاجئ المقصود من آيات وردت في القرآن تتعلق بظواهر طبيعية والنفس الانسانية وقوانين الحياة . والعلم الحديث قد أتاح المجال لفهم أوسع لهذه الآيات ، وهذه فائدة لا يسعنا انكارها خاصة اذا كان ذلك عن طريق يقينيات هذا العلم لا ظنيات . ان نسي ذلك تدعيا للايمان بالله سبحانه وتعالى .

سادسا : توصل الانسان عن طريق التقدم المادي الى ابتكار وسائل كثيرة منها وسائل الاعلام ووسائل المواصلات وغيرها . وهذه الوسائل التي وفرها التقدم المادي لا شك أنها سهلت انتشار الدعوة الى نطاق واسع وعلى المستوى العالمي ، ووفرت الامكانات للدعاة لتسهيل عليهم هذا ، وعلى الدعاة استغلال هذه الوسائل بالشكل السليم لتحقيق أهداف الدعوة الخيرية .

ان حاجة الأمة الاسلامية الى التقدم المادي حاجة لا يمكن انكارها ، وما نشهده في هذا الوقت بالذات خير دليل على مدى الحاجة العامة على جميع المستويات .

ان نهوض الأمة الاسلامية لن يتحقق الا في ظل الاسلام عقيدة وشريعة وقيما وأخلاقا الى جانب الأخذ بالعلم والتقدم المادي الذي يدعم كيان هذه الأمة . وهكذا تتكامل الصورة الاسلامية سعيا لتحقيق أهداف الأمة الاسلامية ودعوتها الخيرية .

((مقترحات))

لقد تبين لنا من خلال عرض لوصول هذه الرسالة أهمية العلم ودوره في قيام نهضة حقيقية فعالة للأمة الإسلامية من خلال الأهداف التي رسمها الإسلام لهذه النهضة . ولذا كان من الواجب التوجه نحو العلم والسمي لاجاد الروح العلمية بين أبناء الأمة الإسلامية لتحقيق نهضتها هنا كيانها والدفاع عن عقيدتها وأوطانها .

ونقترح في هذا السبيل خطوات عملية يتطلب تحقيقها لهد * سيرة صحيحة وهادفة :

١- ان المطلوب الاول هو التوجه نحو المناهج الدراسية وادخال تعديلات عليها لتحقيق الاهداف المطلوبة من المطية التعليمية . واقترح في هذا السبيل ما يلي :

أ) ابراز العناية بالعلم وربطه بدعوة الإسلام اليه واهميته في دعم قضايا الدعوة الإسلامية ههنا الاثر العظيم الذي أحدثه الإسلام في الفكر العلمي وذلك لاجاد السند العقيدى والدافع النفسى لهد * سيرة علمية جادة . وهذا الدافع النفسى مهم جدا للانطلاق العلمية فيبناء الأمة الإسلامية لتؤسساتها العلمية .

ب) اعادة النظر في المناهج الإسلامية على مستوى العالم الاسلامى كله بحيث تلائم والنظرة الإسلامية الصحيحة مع ظروف العصر ومتطلباته من قضايا التقدم المادى واهراز اهميته لبناء حضارة سلمية يتكامل فيها النظر الروحى والمادى ، وموقفه من قضايا التنمية الاقتصادية والزراعية والصناعية والصحية ، والتحقق بالقوة العسكرية اللازمة لحماية الدعوة وارهباب الأعداء والوقوف في وجه أطماعهم الاستعمارية.

ج) عرض آيات قرآنية تتعلق بمظاهر الطبيعة وفي مجال كشف أسرار النفس البشرية وسنفيها وذلك لبيان الإعجاز القرآني في النواحي العلمية هههها للابطن وللإستحمانه به في اثبات قضايا الد بينا لاسلامى واعجازاه المتعدد النواحي ، وأن هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى . وهو الد بين الوحيه الذى يثبت أمام التحليل العلى السليم .

د) يصير الطلاب بمحض الطمان التى توجه للاسلام وتنظيم الرد عليها من خلال أسلوب على منطقى منظم ، وذلك حتى يتزود الطالب بقسدره على رد هذه الافراءات وتفنيد ها وحتى لا يفتاجأ بهذه الطمان عند ما يخرج للحياة العملية ويخطط بأصناف البشر .

اننا بحاجة ماسة الى بث الثقة القوية في نفوس الأجيال المقبلة من المسلمين بد بنهم واعتزازهم وتمسكهم به .

اننا بحاجة الى مفاهيم الاسلام العامة . هذه المفاهيم وههههه الهادى التى تتمثل بمقيدة التوحيد وآثارها في الحياة وعلى جميع المستويات . كذلك نظرة الاسلام الى الانسان ودوره في الأرض كخليفة مطالب باعمار الارض ومتوجه بكل حركاته ومكناته الى عاده الله سبحانه وتعالى تلك الوظيفة الاساسية والتي كانت القصد من وجوده في الأرض . كذلك نظرة الاسلام المتكاملة الى الجوهر الانسانى واهتمامه بالجانب الروحى والمادى من هذا الانسان حتى يعيش حياته بحالة من التوازن الدقيق بين طرفى المعادلة التى يتكون منها .

اننا ان استطعنا فرس هذه المقيدة الواضحة في نفوس ابنائنا سهل علينا اعطاء المعلومات التفصيلية الدقيقة عن شؤون الاسلام وتقبلها بعقل منفتح وهنائة تامة .

٢- أما المطلوب الآخر فهو يتمثل في إنشاء مراكز للبحوث العلمية يشتغل بها علماء متخصصون يفتي الفروع يمارسون أعمالهم مع توفير كل الامكانيات اللازمة لهم من أجهزة متقدمة ودعم مادي متواصل وسخا ، اضافة الى السعي للحصول على كل جديد في عالم المعرفة ومستجدات العلوم واجراء التجارب .

ان ربط العطية العلمية بأهداف الدين الاسلامي والدعوة الاسلامية يجعل مسار العلم بالطريق الصحيح بحيث يحقق الخدمة لهذا الدين ولدعوته وحتى لا يفلت من القانون الاخلاقي كما نشاهد في عالم اليوم هذا .

ان الدعوة الاسلامية مهمة رئيسية لهذه الأمة ومن الواجب ازاء ذلك تشيبتها والاهتمام بها شعبيا ورسما وتقدم كل عون للدعاة الى الله حتى يستطيعوا القيام بواجبهم . وهذه مسؤولية تقع على الحكومات الاسلامية وعلى الافراد الذين يدفعهم ايمانهم الى المساهمة في هذا المجال بالقدر الذي يستطيعون . . ونسأل الله أن ييسر للدعوة رجالا يبلغونها بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يكون هداهم هو ايمانها الى كافة الناس وان خالهم عن قناعة تامة في دين الله . والله من وراء القصد .

- ١- القرآن الكريم
 - ٢- السنة المطهرة
 - ٣- القاموس المحيط
 - ٤- لسان العرب
 - ٥- المعجم الوسيط
 - ٦- مرشد الدعوات
 - ٧- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها
 - ٨- معالم الشريعة الإسلامية
 - ٩- في فلسفة الحضارة الإسلامية
 - ١٠- الحضارة
 - ١١- مسيرة المجتمع
 - ١٢- أسس التقدم عند مفكرى الإسلام
 - ١٣- الندوة العالمية للشباب الإسلامي
 - ١٤- ثقافتنا في مواجهة العصر
 - ١٥- النقد الذاتي
 - ١٦- أسرار الحضارة الإسلامية ووسائلها
- للفيروز أهادى - نشر مؤسسة الحلبي
ابن منظور - دار المصرية للتأليف والترجمة
مجموعة مراجعين: د. ابراهيم أنيس
د. محمد الحليم منتصر، د. عطية الصوالحسي
د. محمد خلف الله احمد، مطابع دار المعارف
بمصر، ط ٢٠
- الشيخ محمد نمر الخطيب، دار المعرفة بيروت
ط ١، ١٤٠١هـ
- د. احمد غلوش - دار الكتاب المصري واللبناني
ط ١٣٩٩هـ
- د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين، ط ٢
١٩٧٨م
- د. عفت الشراوى - دار النهضة العربية
بيروت، ط ١٩٧٩م
- د. حسين مؤنس، المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م
- د. عبد الجليل طاهر - المكتبة المصرية -
صيدا، بيروت، ط ١٩٦٦م
- د. فهمي جدعان، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، ط ١٩٧٩م
- المنعقدة بالرياض عام ١٣٩٩هـ
- د. زكي نجيب محمود، دار الشروق، ط ١٩٧٦م
علاء الفاسي - دار الكشاف - بيروت، ط
١٩٦٦م
- عبد الرحمن حسن حنبله الميداني - دار العربية
للطباعة والنشر، ط ١، ١٣٩٠هـ

- ١٧- الاسلام والفكر العلمى
د. محمد المبارك - دار الفكر - بيروت
ط ١ هـ ١٣٩٨ هـ .
- ١٨- المعرفة فى الاسلام بين الاصاله
والمعاصره
احمد عبدالرحيم السايح ، دار الطباعة المحمدية
بالقاهرة ، ط ١ هـ ١٤٠٠ هـ .
- ١٩- مفتاح دار المعصده
ابن قيم الجوزية - مكتبة الرياض الحديثية ،
سنة الطبع غير مذكوره .
- ٢٠- جامع بهمان العلم وفضلته
يوسف بن عبدالبر القرطبي - المكتبة العلمية
بالمدينة المنوره ، ج ٢ هـ سنة الطبع غير
مذكوره .
- ٢١- دعوة الاسلام
السيد سابق - دار الكتاب العربى ، ط ١ هـ ١٩٤٢
- ٢٢- الدلائل القرآنية فى أن العلم
والاعمال النافعة المعريه
والاخلة فى الدين الاسلامى .
- ٢٣- صحيح البخارى
- ٢٤- صحيح مسلم
- ٢٥- مجلة المعريه
- ٢٦- الاسلام والعلم التجريبي
- ٢٧- الاسلام فى عصر العلم
- ٢٨- السداداره
- ٢٩- مجلة كلية العلم الاجتماعيه
- ٣٠- الطريق الى الاسلام
- ٣١- التضامن الاسلامى فى المجال
العلمى .
- ٣٢- التفكير فى نهضة اسلاميه
- ٣٣- جريدة الجزيرة
- ٣٤- سنن الله فى المجتمع
- د. يوسف السويدى - مكتبة الفلاح - ط ١ هـ ١٤٠٠
محمد احمد الخمرارى - مطبعة السعادة ه ط
١٩٧٣ م .
- الكويت - عدد يناير ١٩٨٢ م .
- العدد الرابع - ١٣٩٩ هـ .
- العدد الاول - ١٣٩٧ هـ .
- محمد أسد - دار العلم للملايين - بيروت ه ط ٤
١٩٧٦ م .
- د. عبدالحليم منتصر - بحث مقدم الى مؤتمر
التضامن الاسلامى بمكة المكرمة ه ١٤٠١ هـ .
- عباس محمود العقاد - دار نهضة مصر للطباعة
والنشر ه ط ٦ هـ سنة الطبع غير مذكوره .
- عدد ٣١٧٨ لسنة ١٤٠١ هـ .
- محمد الصادق عرجون - منشورات العصر الحديث
ط ١ هـ ١٩٧١ م .

- ٣٥- من هدى القرآن
 ط ٢ ، ١٩٦٨ م .
 ٣٦- تهاافت الملماتية
 د . عاد الدين خليل - مؤسسة الرسالة
 ط ١٣٩٥ هـ .
 ٣٧- الدين والعلم
 د . احمد محمد سليمان - دار العودة - بيروت
 ط ٢ ، ١٩٧٨ م .
 ٣٨- القرآن والعلم
 عبد الرزاق نوفل - مكتبة وهبه ، ط ١ ، سنة
 الطبع غير مذكورة .
 ٣٩- بين الدين والعلم
 أنور الجندی - المكتب الاسلامي ، دمشق ،
 بيروت ، ط ١٣٩٨ هـ .
 ٤٠- شبهات التفریب فی غزو الفكر
 الاسلامي .
 ٤١- مسند الامام احمد
 فصل (فيما جاء فی تعلم لغة العرب)
 للمنذرى - مطبعة الحلبي - ط ٢ .
 ٤٢- الترغيب والترهيب
 غفيف عبدالفتاح طباره - دار العلم للملايين ،
 ط ١٧ ، عام ١٩٧٨ م .
 ٤٣- روح الدين الاسلامي
 تأليف م . شريف (مترجم) ترجمة احمد شلبي
 د . عبد الحليم منتصر - دار المعارف ، ط ١٩٨٠ م .
 ٤٤- الفكر الاسلامي منابعه وآثاره
 محمد قطب - بدون تاريخ .
 ٤٥- تاريخ العلم و دور العلماء
 العرب في تقدمه .
 ٤٦- التطور والنبات في حياة البشرية
 د . صابر طعيمة - دار الجيل - بيروت ، ط ١٣٩٨ هـ .
 ٤٧- العقيدة والفطرة في الاسلام
 د . صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد -
 بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٦ م .
 ٤٨- الاسلام والعقسل
 ابن تيمية - مكتبة الرياض الحديثة - سنة
 الطبع غير مذكورة .
 ٤٩- الرسالة التدمرية
 د . علي سامي النشار - دار المعارف - القاهرة
 ، ط ١٩٦٥ م .
 ٥٠- مناهج البحث عند مفكرى
 الاسلام .
 ٥١- الرد على المنطقيين
 ابن تيمية - لاهور ، ط ٢ ، ١٣٩٦ هـ .

- ٥٢- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان .
محمد ابراهيم الوزير الصنعاني - الجمعية العلمية
الازهرية المصرية - ١٣٤٩م .
- ٥٣- منهج البحث العلمي عند العرب .
د. محمد جلال موسى - دار الكتاب اللبناني ، ط ١
١٩٧٢م .
- ٥٤- محاضرات ابن الهيثم التذكارية
د. مصطفى نظيف - مطبعة فتح الله الياس بمصر
المحاضرة الاولى ، ١٩٣٩م .
- ٥٥- كتاب الحيموان
للجاحظ - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
ج ٢ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ١٣٥٥هـ .
- ٥٦- نظرات في القرآن
محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة ، ط ٤ ،
١٣٨٣هـ .
- ٥٧- شمس العرب تسطع على الغرب
زيفرد هونكه - المكتب التجاري - بيروت -
ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، ط ٣ ، ١٩٧٩م .
- ٥٨- تجديد الفكر الديني في الاسلام
محمد اقبال - مطبعة لجنة التأليف والترجمة
ترجمة محمود عباس ، ١٩٥٥م .
- ٥٩- حضارة العرب
جوستاف ليهون - ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢
- ٦٠- القضاء والقدر
محمد متولى شمراوى - دار الشروق ، اعداد
وتقديم ، احمد فراج - ط ٢ ، ١٩٧٥م .
- ٦١- الاسلام والكسوف
د. عبد الغنى عبود - دار الفكر ، ط ١٩٧٧م .
- ٦٢- التفسير الكبير
الامام الفخر الرازى - دار الكتب العلمية ، ط ٢
- ٦٣- المال والحكم في الاسلام
عبد القادر عودة - المختار الاسلامى ، ط ٥ ، ١٣٩٧هـ
- ٦٤- التفسير الاسلامى للتاريخ
د. عماد الدين خليل - دار العلم للملايين ، ط ٣
١٩٧٨م .
- ٦٥- الكون والانسان في التصور
الاسلامى .
حامد صادق قنبيى - مكتبة الفلاح - الكويت ، ط ١
١٤٠٠هـ .
- ٦٦- في ظلال القرآن
سيد قطب - دار الشروق ، ط ١٣٩٧هـ
- ٦٧- النظرة الى الانسان والكون
والحياة .
محاضرة للدكتور محمد المبارك بقسم الثقافة الاسلامية
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية عام ١٤٠٠هـ .

- ٦٨- الثروة في ظل الاسلام
٦٩- اقتصاد نسبي
٧٠- مواقف الاسلام
٧١- الايمان والحياة
٧٢- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
٧٣- النظم الاسلامية نفاتها وتطورها
٧٤- الله يتجلى في عصر الملوك
٧٥- تراجم العرب العظمى في الرياضيات والظلك
٧٦- عمقية العرب في العلم والفلسفة
٧٧- الاسلام والفكر الجغرافي العربي
٧٨- المسلمون وعلم الفلك
٧٩- جريدة الرياضيات
٨٠- ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم
٨١- محاضرات في تاريخ الملوك
- البهي الخولي - دار الاعتصام . ط ٣ . ١٣٩٨ هـ
محمد باقر الصدر - دار الكتاب اللبناني
والمصري . ط ٢ . ١٣٩٨ هـ
محمد العبيد بن الخوجه ، دار بوسلامسة
للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس . ط ١٩٧٩ م .
د . يوسف القرضاوي . الدار السعودية للنشر
والتوزيع ، ط ١ . ١٣٨٩ هـ .
أبو الحسن الندوي . دار القلم . الكويت
ط ١٩٩٣ هـ .
د . صبحي الصالح . دار العلم للملايين . ط ٢ هـ
١٣٩٦ هـ .
تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين - مؤسسة
الحلبي . ترجمة الدكتور . الدمرداش عبد المجيد
سرحان . ط ٣ . ١٩٦٨ م .
د محمد طوقان - دار الشرق . ط ٣ . ١٩٦٣ م .
دمر فرخ - بيروت ، ط ٣ . ١٣٨٩ هـ .
د صلاح الدين علي الشامي . منفاة المعارف -
الاسكندرية ، ط ١٩٧٨ م .
محمد محمد الصواف . الدار السعودية للنشر
جدة . ط ١٣٨٥ هـ .
عدد ٤٣١١ لعام ١٣٩٩ هـ . مقال للشيخ
القمراوي .
ابراهيم حسن النصيرات . جمعية عال المطابع
التعاونية - عمان - ط ٢ - ١٤٠١ هـ .
د . فواد سزكين - مطابع جامعة الامام محمد
بن سعود الاسلامية - الرياض - ١٣٩٩ هـ .

- ٨٢- المجلس الاعلى للمعلمين
الاسبوع الثاني ١٩٦٦م من مقال: " الرياضيات
وطلم الاجتماع للدكتور عبدالكريم الهافى .
اشرف الدكتور محمد كامل حسين .
- ٨٣- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة
عند العرب .
- ٨٤- المنتقى من أخبار المصطفى
٨٥- الطب النبوى
- ٨٦- في رحاب الطب النبوى
٨٧- العرب والطب
- ٨٨- الطب الاسلامى
- ٨٩- القيم الحضارية في رسالة
الاسلام .
- ٩٠- المدينة
٩١- قصة الحضارة
- ٩٢- معالم في الطريق
- ٩٣- الحضارة الاسلامية أسسها
وبادئها .
- ٩٤- الانسان والحضارة في العصر
الصناعى .
- ٩٥- مجلة رسالة المعلم
- ٩٦- السلام العالمى والاسلام
٩٧- العرب والحضارة
- ابن تيمية - دار الفكر - ج ٢
ابن قيم الجوزية - دار الحكمة - بيروت - اشرف
عبدالغنى عبدالخالق
د. نجيب الكيلانى ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ١٩٨٠م
احمد شوكت الشطى - منشورات وزارة الثقافة
بدمشق - ط ١٩٧١م .
د. عز الدين فراج - دار الفكر العربى - منسة
الطبع غير مذكورة .
د. محمد فتحى عثمان - الدار السعودية للنشر
ط ١٤٠٢هـ .
جوج باسئند . طبع دمشق . ترجمة عادل العوا .
ول ديوانت - ج ١ . نشأة الحضارة . مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٥م .
سيد قطب - الاتحاد الاسلامى العالمى
للنظمات الطلابية - ط ١٣٩٨هـ .
أبو الأعلى الموددى - دار العربية للطباعة
بيروت - ط ٢ - ١٣٩٠هـ .
د. فواد زكريا - مكتب الشرق الأوسط - ط ٢ -
١٩٥٨م .
لسنة ١٩٦٣م - الثقافة والمتقون - رئيس
التحرير - د. عبدالحليم منتصر .
سيد قطب
د. على حسنى الخربوطلى - مكتبة الانجلو المصرية
ط ١٩٦٦م .

- ٩٨- الاسلام في المعتزك الحضارى
عربها، الدين الأميرى - دار الفتح - بيروت
ط ١ هـ ١٣٨٨ هـ .
- ٩٩- من روائع حضارتنا
د. مصطفى السباعى، المكتبة الاسلامى بدمشق
بيروت، ط ٢ هـ ١٣٩٧ هـ .
- ١٠٠- مذكرات في الحضارة الاسلامية
د. محمد فتحى عثمان - دار المعارف السعودية
الرياض ١٣٩٧ هـ . لطلبة السنة الاولى بالمعهد .
- ١٠١- جوانب من الحضارة الاسلامية
د. عبد الرحمن على الحجي - دار القلم - دمشق
ط ١٩٧٩ م .
- ١٠٢- مآثر العرب على الحضارة الأوروبية
جلال مظهر - ط ٢ ١٩٦٠ م . مكتبة الانجلو المصرية
- ١٠٣- تراث الاسلام
سيرتوماس ارنولد - تعريب جرجيس فتح الله -
دار الطليعة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٢ م .
- ١٠٤- دور العرب في تكوين الفكر
الاوروسى .
د. عبد الرحمن دوى - مكتبة الانجلو المصرية ،
ط ٢ ١٩٦٢ م .
- ١٠٥- فضل علماء المسلمين على الحضارة
الاوروسية .
د. عز الدين فراج - دار الفكر العربى ،
ط ١٩٧٨ م .
- ١٠٦- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب
إيطاليا .
احمد توفيق المدنى - ط ١ أمق . سركسوز،
الجزائر .
- ١٠٧- الفكر الاسلامى الحديث وصلته
بالاستعمار الغربى
د. محمد الهبى - مكتبة وهبه . ط ٢ ١٩٧٥ م .
- ١٠٨- الايمان وأثره في نهضة الشعوب
يوسف المعظم . الدار السعودية للنشر . ط ٤ ،
١٣٩٨ هـ .
- ١٠٩- امكانات جديدة للدعوة
وحيد الدين خان . دار النفايس . ط ١ . ١٣٩٨ هـ .
- ١١٠- نحو بحث اسلامى
وحيد الدين خان . دار النفايس . ط ٦ ١٩٧٨ م .
- ١١١- جريدة الاهرام
عدد يناير . الخميس . ١٩٨٢ م . من مقال
لأحمد بهجت .
- ١١٢- ودخلت الغيل الأزهر
محمد جلال كفاك . الدار العلمية . ط ١ ١٩٧٢ م .

- ١١٣- العقلم السليم والرؤية الحضارية .
د . عاد الدين خليل . دار الحرمين . الدوحة ط ١ ١٤٠٣هـ .
- ١١٤- طريق المسلمين الى الثورة الصناعية .
محمد جلال كحك . دار الارصاد . بيروت - مكتبة الأمل . الكويت . محاضرة أقيمت في ندوة التعريف بالفكر الاسلامي بالجزائر . ١٩٦٩م .
- ١١٥- من المسؤول عن تخلف المسلمين .
د . محمد سعيد رمضان البوطي . مكتبة الغرابسي بدمشق . ط ١٩٧٧م .
- ١١٦- الشريعة الاسلامية وتحديات العصر .
وحيد الدين خان . دار النفايس . ط ١٣٩٨هـ .
- ١١٧- الاسلام يتحدى
وحيد الدين خان . المختار الاسلامي . ط ٧ ١٣٩٧هـ .
- ١١٨- العلم في خدمة الدعوة
محاضرة للشيخ عبدالمجيد الزندان في المعهد العالي للدعوة الاسلامية بتاريخ ١٤٠٢/٧هـ .
- ١١٩- مع الطب في القرآن الكريم
عبدالحميد دياب وأحمد قرقوز . مؤسسة علوم القرآن . ط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م .
- ١٢٠- العلم الطبيعية في القرآن الكريم
يوسف مروه - دار ومكتبة الهلال - بيروت .
- ١٢١- الاقتصاد الاسلامي مدخل ونهاج .
د . عيسى عده . دار الاعتصام . ط ٣ ١٩٧٨م .
- ١٢٢- الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة .
د . محمد المبارك . دار الفكر . ط ٣ ١٩٨٠م .
- ١٢٣- السيرة النبوية
ابن هشام - دار أحياء التراث العربي . بيروت .
- ١٢٤- الحضارة الاسلامية
آدم متز . ترجمة أبو ريده . دار الكتاب العربي . بيروت . ط ٤ ١٣٨٧هـ .
- ١٢٥- كيف السبيل الى الله
خيرالله طلفاح . مؤسسة المطبوعات العربية . ط ٢٤ ج ٢ هـ ١٣٩٦هـ .
- ١٢٦- الندوة المصرية لعام ١٩٨٢م
ندوة الماء والتغذية . تزايد السكان . الدورة الاولى عام ١٩٨٢م .

- ١٢٧- تاريخ النبات عند المسرب
د. احمد عيسى . مطبعة الاعتماد بمصر ط ١
١٩٤٤ م .
- ١٢٨- الزراعة في خدمة السلام
حسنى ناثان ، دار الكرنك - ط ١٩٦٥ م .
- ١٢٩- المسوار
د. صلاح الدين على الشامي . منشورات المعارف
بالاسكندرية ، سنة الطبع غير مذكورة .
- ١٣٠- دراسات في بحر مشاكل تلوث
البيئة .
دكتوراه عايدة بشاره ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، ط ١٩٧٣ م .
- ١٣١- الاشارة الى محاسن التجارة
أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي . مكتبة
الكليات الأزهرية . ط ١٣٩٧ هـ .
- ١٣٢- الحضارة العربية الاسلامية
د. علي حسنى الخريوطي . مكتبة الخانجي
بالقاهرة . ط ١٩٧٥ م .
- ١٣٣- فليس ابلهيس
ابن الخوزي . دار الكتب العلمية .
- ١٣٤- الحد على التجارة والصناعة
والعمل .
أبو بكر احمد بن محمد بن هرون الخلال . مكتبة
الترقي بدمشق . ط ١٩٤٨ م .
- ١٣٥- الثقافة الاسلامية وأثرها في
النهضة الأوروبية .
محمد فائز القصري . مطبعة زيد بن ثابت -
بدمشق . ط ١٩٧٩ م .
- ١٣٦- تاريخ الحضارة الاسلامية
والفكر الاسلامي .
أبو زيد علي . مكتبة وهبة . ط ١٩٦٤ م .
- ١٣٧- تقدم العرب في العلم والصناعات
عبد الله بن العباس الجراري . دار الفكر
العمري . ط ١٩٦١ م .
- ١٣٨- أحاديث في المحاسبة
د. نبيل الطويل . المكتب الاسلامي . ط ٣ هـ .
١٩٧٧ م .
- ١٣٩- ندوة التلوث وآثاره وأخطاره
وطرق الوقاية منه في العالم العربي
تحرير د. جمال حسنى السمره . القاهرة . ١٩٧٣ م .
- ١٤٠- من قضايا الاعلام في القرآن
رضان لاوند - مطابع الهدف . سنة الطبع غير
مذكورة .
- ١٤١- نظم الاتصال الجزء الاول
جيهان رشتي - دار الفكر العمري ه ط ١٩٧٢ م .
الاعلام في الدول النامية .

- ١٤٢- الاعلام الدولى بالراديو والتلفزيون جيهان رشقى - دار الفكر العربى - ط ١٩٧٩م .
- ١٤٣- الصحافة والتكنولوجيا والاتحاد العام للصحفيين العرب . السلسلة الاعلامية - ٥ - ١٩٨١م .
- ١٤٤- الوسائل الصحفية وتحديات المجتمع الاسلامى المعاصر . اجلال خليفة - مكتبة الانجلو المصرية . ط ١٩٨٠م .
- ١٤٥- الاعلام الاسلامى د . ابراهيم امام . مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٨٠م .
- ١٤٦- ظهور الكتاب لوسيان فاخر وهنرى جان مارتان . ترجمة محمد سميح السيد . منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٧م .
- ١٤٧- الاعلام الاسلامى وتطبيقاته العملية د . محى الدين عبد الحليم . مكتبة الخانجسى بصره . ط ١٤٠٠هـ .
- ١٤٨- تطور الفكر العلمى للمسلمين محمد العادق عفيفى . مكتبة الخانجى بالقاهرة ط ١٩٧٧م .
- ١٤٩- نظام البريد فى الدولة الاسلامية د . نظير حسان سعداوى . دار مصر للطباعة ط ١٩٥٣م .
- ١٥٠- أئمة العرب والاسلام فى النهضة الأوربية . تأليف عشرة من بينهم الدكتور عبد الحليم منتصر .

محمد أبو زهره / دار الفكر العربى (د.ت)
محمد الفزالي / دار الكتب الحديثه (د.ت)

١٥١- النظام الاجتماعى فى الاسلام
١٥٢- كيف نفهم الاسلام

فهرس الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>	<u>٢</u>
أ - ط المقدسة	١
١٩ - ١	تعريفات	٢
٢ - ١ - مفهوم الدعوة الاسلامية	
١٩ - ٨ - مفهوم التقدم المادى	
٨٥ - ٢٠	تصبيد النظرة العلمية فى القرآن والسنة	٣
٣٢ - ٢٠ - مفهوم العلم فى الاسلام	
٤٥ - ٣٣ - الاسلام بحث على العلم ويكرم العلماء	
٦٧ - ٤٦ - المنهج التجريبي مستمد من القرآن والسنة	
٧٩ - ٦٨ - مناهج العلماء المسلمين وتأثيرهم بالمنهج الاسلامى	
٨٥ - ٨٠ - شهادات منصفية	
الباب الأول		
٢١٦ - ٨٦	الانسان وعلاقته بالكون المادى كما يصرها الاسلام	٤
الفصل الاول		
١١٣ - ٨٦	مركز الانسان فى الكون المادى	
٩٣ - ٨٦ - الانسان خليفة وسيد	
١٠٣ - ٩٤ - تسخير الكون لمنفعته	
١١٣ - ١٠٤ - العمل وأثره فى البناء الحضارى	

الفصل الثاني

١٦٧-١١٤ الاسلام ودعوة المسلمين الى معرفة العلم النافعة

١٢١-١١٤ حاجتنا الى العلم	-
١٣٤-١٢٢ علم الفلك	-
١٤٧-١٣٥ الرياضيات	-
١٦٤-١٤٨ الطب والصيدلنة	-
١٦٧-١٦٥ المجال واسوع	-

الفصل الثالث

٢١٦-١٦٨ المسلمون والحضارة

١٧٩-١٦٨ مفهوم الحضارة	-
١٩٢-١٨٠ خصائص الحضارة الاسلامية	-
٢١١-١٩٣ أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الاوروبية	-
٢١٦-٢١٢ الغزو الفكري وأبعاده	-

الباب الثاني

٣٨١-٢١٧ بين الدعوة الاسلامية والتقدم المادي

الفصل الاول

٢٥٨-٢١٧ مجالات جديدة للدعوة في عصر التقدم المادي

٢٣٠-٢١٧ الداعية وموقفه من تقرير أهمية التقدم المادي	-
٢٤٤-٢٣١ سبل تحقيق التقدم المادي في ضوء النظرة الاسلامية	-
٢٥٨-٢٤٥ العلم الحديث في خدمة الدعوة الاسلامية	-

الفصل الثاني

٢٥٩ - ٢٣٦	التقدم المادى قوة للدعوة والأمة فى جميع أمر الحياة
٢٥٩ - ٢٧٨	- الاقتصاد نظرة عامة
٢٧٩ - ٢٩٩	- قسوة فى التصنيع
٣٠٠ - ٣١٨	- قوة فى المجال الزراعى وتوفير الغذاء
٣١٩ - ٣٢٧	- قوة فى المجال التجارى
٣٢٨ - ٣٣٦	- قسوة فى الصناعة

الفصل الثالث

٣٢٧ - ٣٨١	وسائل التقدم المادى فى خدمة الدعوة وانتشارها
٣٢٧ - ٣٥٥	- وسائل الاعلام المسموعة والمرئية يدورها فى نشر الدعوة
٣٥٦ - ٣٧٠	- الطباعة وعالم الكتاب والصحافة وأثارها فى انتشار الدعوة
٣٧١ - ٣٨١	- وسائل المواصلات الحديثة وتسهيل عمل الدعاة

الخاتمة

٣٨٢ - ٣٨٩	٦
٣٨٢ - ٣٨٦	- نتائج البحث
٣٨٧ - ٣٨٩	- مقترحات
٣٩٠ - ٣٩٩	٧ المراجع